

ازداد بكاءها أكثر وقالت بصوت مرتجف "ماذا تعتقدن أنهم سيفعلون بنا في الكويكب العاشر؟ هذا الكويكب هو منجم كبير، والساكنون فيه هم عمال السخرة الذين يقضون حياتهم في استخراج ما في المنجم.."

قلت مقطبة "هذا لا يعني شيئاً.. نحن لسنا..."

صاحت الفتاة في وجهي بعصبية "من تعتقدن يرسلون للعمل هناك؟ ليس العمل مجزياً بالتأكيد ولا أعتقد أن أحداً يذهب هناك طواعية.. إنهم يرسلون المحكوم عليهم بالسجن المؤبد.. نحن سجناء، أفهمت؟"



بقلم: خيال

1

أنا

الفصل الأول

[غيبوبة]

من وسط الظلام الدامس.. والسكون الذي لا يقطعه إلا صوت محرك هادر، والذي لبعده يبدو مكتوماً.. أمسكتُ برأسي وأنا أشعر به سينفجر.. كان الصداع يتزايد أكثر فأكثر.. فزدت ضغط يديّ على رأسي وأنا أغمض عيني بقوة وأجز على أسناني أكثر فأكثر..

شعرتُ بلقطات تومض في عقلي حاولت مراراً منعها.. حاولت التفكير في أي شيء آخر.. ركزت انتباهي على الصوت المكتوم الذي يتردد برتابة.. لكن عجزت عن ذلك وأنا أستسلم للومضات رغم أنني أكره الاستسلام تماماً.. لكن يبدو أنني تغيرت، كما تغير كل شيء من حولي وكما تغير عالمي كله.. لكن أي عالم ذلك الذي فقدته؟.. سؤال أنا أجهل الناس بإجابته..

ظلام دامس.. خطوات مذعورة تتسلل هاربة في الظلام.. صوت كلب ينيح بجنون.. عضة مؤلمة وإصابات متفرقة تبعثها ضربة قوية على الرأس.. ظلام تام..

ماء يسكب على الوجه.. النور الساطع لكشافات قوية.. اليدان مقيدتان بقيد حديدي.. صراخ يصمّ الأذن.. صفة مدوية.. وعيد بصراخ عال.. ثم ظلام تام مرة أخرى..

ممشىً طويل عبر ساحة متوسطة الحجم.. حراس متناثرون في المكان.. مبنى مغبر مظلم.. ونظرات وقحة أو غير مبالية.. ثم بوابة ضخمة تغلق بدوي عالٍ من الخلف..

أوراق يتم توقيعها.. الكثير الكثير من الأوراق الموقعة.. وإبهام مصبوغ يبصم على جانبها.. إبرة تخترق الذراع..
والم يسري مع المادة التي تغلغلت في الوريد.. ظلام تام من جديد..

فتحتُ عيناى وأنا أحاول النظر حولي.. السلاسل الحديدية التي تقيد يديّ وقدميّ تتصل بالحائط خلفي لتعطيني مجالاً محدوداً من الحركة.. والغرفة الواسعة التي أجلس فيها مظلمة لا ينيرها شيء.. بعد فترة من الوقت اعتادت عيناى على الظلام وبدأت الموجودات حولي تتضح.. انتبهت في تلك اللحظة أنني لست الوحيدة هنا.. هناك أشباح، أو أجساد سمّها ما سئلت، سوداء متفرقة في المكان.. ثم قطع الصمت المخيم على المكان أنيناً علا قربي للحظات تبعتها شهقة بصوت ناعم تلاها صياح مرتجف "أين أنا؟ ما الذي جرى لي؟"
لم أجد في نفسي اهتماماً بالإجابة.. بل حتى لو حاولت، فما الذي يمكنني قوله؟ أي جواب يحمله عقلي الفارغ تماماً؟ وأي جواب قد يفيد من الومضات التي لا تنقطع عن رأسي؟..
عاد الصوت الذي غدا مذعوراً يصيح "ليجيني أحد.. لم أنا مقيدة هكذا؟ اخرجوننييييييييي"
قاطعها صوت أجش يقول بحدة "لقد أصبنتي بالصمم يا فتاة.. صمناً.."
لكن الصوت الناعم غدا أكثر حدة وهي تصرخ "من أنت؟ هل أنت من أحضرني؟ ما الذي فعلته بي؟ كيف تسمح لنفسك بهذا؟"
لكن صاحب الصوت الأجش أطلق صيحة غيظ طويلة أسكتتها بخوف قبل أن يقول بحدة "من المسؤول عن جمعنا في هذا المكان المغلق؟ صوتها سيصيني بالجنون"
سمعتُ صوتاً أكثر هدوءاً يقول "صوتك أكثر إزعاجاً يا رجل.."
شعرتُ أن صاحب الصوت الأجش سيصرخ من جديد وسددت أذنيّ لكل الإزعاج الدائر في المكان، لكن توقف كل شيء مع النور الذي سطع في الغرفة منيراً كافة أجزاءها.. أغمضت عينيّ بقوة وألم فقد كان النور قوياً..
وتعالى التذمر من حولي بأصوات مختلفة.. فأجبرت نفسي لأفتح عيناً رغم مئات الخناجر التي تضرب حدقتي بسبب قوة النور.. رمشت بعيني قليلاً ونظرت حولي.. كنا في غرفة واحدة على شيء من الاتساع.. لا نوافذ إلا واحدة مغطاة بساتر حديدي، وباب واحد حديدي.. كنا سبعة، الجميع مثلي مقيد اليدين والقدمين بسلاسل حديدية متصلة بالحائط خلفنا.. وانتبهت إلى أننا نرتدي الزي ذاته.. زي كامل بلون ترابي باهت، كالذي يرتديه عمال المصانع والورش الصناعية، ولا يبدو منه أي جزء من أجسادنا سوى الرأس واليدين.. وحذاء غليظ في القدمين بلون أسود..

صاحبة الصوت الناعم ولا بد هي تلك الفتاة الرقيقة ذات الشعر الكستنائي المتموج والبشرة المتوردة البيضاء.. جسدها ضئيل وقصير يعطيها مظهراً طفولياً.. وعيناها العسليةتان متسعتان ذعراً وهي تديرهما في المكان بلا توقف.. ولما رأته تثبتت نظراتها علي وشيء من الارتياح يغزوها.. وظلت تنتظر نحوي وكأنها تنتظر مني تفسيراً لكل ما تجهله.. أم أنها ارتاحت لأنني فتاة مثلها وهذا يعني أنني سأشكل الحماية لها من الرجال حولها؟ بلهاء..

صاحب الصوت الأجهش؟ لا يمكن ألا يكون ذلك الرجل الطويل على شيء من الضخامة وإن لم يكن سمياً.. أسمر اللون قليلاً وأسود الشعر والعينان.. جسده واضح العضلات بغير مبالغة.. يبدو أنه ممن يمارسون رياضة معينة.. يلقي بنظرات حادة على ما حوله والغيط يكاد يأكله وهو يحاول تحرير نفسه واستنفار عضلاته لكسر السلسلة الحديدية.. هل أصفه بالبلاهة؟ لا داعي.. لا بد أنه يدرك ذلك بنفسه والسلسلة الصلبة تقاوم محاولاته.. أما الصوت الهاديء فهو ولاشك مُلكٌ لذلك الرجل الذي يجلس مقابلي، فهو الوحيد المستيقظ من الأربعة الباقين.. طويل نوعاً ما لكن جسده لا يبدو بقوة الرجل ذو الصوت الأجهش.. أعتقد أن لكمة من يدي يمكن أن تسقطه بسهولة.. شعره بني بأطراف شقراء، وبشرته على شيء من الشحوب جعلته يبدو أكثر ضعفاً، وإن لم تغطي الوسامة في وجهه.. وعيناها بنيتان تنتظران بشيء من الاهتمام لما حوله.. والثلاثة الباقين لم يستيقظوا بعد.. وهم شابين لا يتجاوز أحدهما العشرين ورجل غزت الشعيرات البيضاء شعره الأسود..

كسر الصمت المخيم علينا الرجل ذو الصوت الأجهش وهو يقول "حسناً.. ما الذي يجري هنا؟" لم يجاوبه أحدنا بكلمة.. فقال بحدة "هيا.. هل أصابكم الصمم؟ أخبروني ما الذي يحدث فعقلي فارغ تماماً.. قال الرجل ذو الصوت الهاديء "كما عقولنا جميعاً.. ألم تدرى أننا لا نختلف عنك بأي حال؟" قالت الفتاة بصوت مرتجف "من الذي وضعنا هنا؟ ولماذا؟ أريد العودة.."

تساءل الأجهش بصوت ساخر "العودة لأين؟.. لو أمكنك تحديد المكان الذي تريدين العودة إليه فسأضمن إعادتك له.."

نظرت له بحيرة وهي غير مدركة لسخريته، ثم نظرت لي مغممة "لا أذكر لأين.. لا أذكر أي شيء أبداً.."

فقال الأجهش "أليس من الغريب ألا يذكر أحدنا أي شيء؟ ما السبب في ذلك؟ وأين نحن الآن؟ ولم عليهم تقييدنا بهذه الطريقة؟"

أجابه الهاديء "لو كنا نعلم جواباً لكل هذه الأسئلة لما كنا بهذه الحيرة التي نحن عليها الآن.. في الوقت الراهن لنكف عن الارتباك وننتظر ما سيحل بنا.."

التفت الأجهش إليّ قائلاً "وأنت أيتها الحمراء.. لم أنت صامتة؟ هل تعلمين شيئاً مما يدور حولنا؟" قطبت وأنا أتساءل بحدة "حمراء؟ ماذا تعني؟"

قال بابتسامة "نحن فاقدون لذاكرتنا ومعها أسماؤنا.. أنت حمراء الشعر، لذلك هذا اللقب يناسبك عوضاً عن الإسم الذي لا تذكرينه"

قلت بحدة "لا أسمح لك بمناداتي بهذا اللقب.. وأنا مثلكم لا أذكر شيئاً مما حدث.. فلا داعي لاستجابي بهذه الطريقة.."

أدار الأجنس عينيه بعيداً وإن لم تغب سخريته.. في تلك اللحظة استيقظ أحد الشابين بأنين خافت قبل أن يفتح عينيه دفعة واحدة وينظر حوله باستنكار.. وتبعه الشاب الآخر والرجل بعد لحظات معدودة.. وبدأت جولة جديدة من الذعر والأسئلة والاستنكار.. فلففتُ وجهي بعيداً دون أن أعبأ بهم أو بالإجابة عن أسئلتهم.. وإن تولى ذلك الرجل الهادي.. يبدو أنه طيب بما فيه الكفاية ليعيد ما قيل دون ملل.. أما أنا فلم أكن أملك الصبر الكافي.. وكذلك الأجنس الذي نهض فجأة وركل الجدار المعدني خلفه بقوة صائحاً "أنا جائع.. فليطلقني من قيدي هنا.. هل تسمعونني؟"

تأففتُ لكل هذا الإزعاج وهو مستمر بصياحه، لكن قبل أن أسدّ أذني عن صوته وجدته يتهاوى أرضاً بصمت بشكل أدهشنا جميعاً.. ظللنا ننظر إلى جسده الملقى أرضاً دون أن يأتي أحدنا بحركة.. ثم غمغمت الفتاة بذعر "هل... هل مات؟"

لم يجيبها أحدنا ونحن نتبادل النظرات المصعوقة.. ثم قطع حديثنا الصامت صوت الباب الذي فتح فجأة.. تطلعنا إليه بدهشة مذهولة.. فوجدنا رجلاً في أوسط العمر، صارم الملامح، بشعر ابيضّ أغلبه ووجه شاحب وعينان جافتان يدلّف من الباب.. لم نتحرك من موقعنا بشيء من الرهبة لرؤيته.. فيما تقدم هو ليقف وسط الغرفة يتأملنا بنظرات حادة.. ثم قال بصوت هاديء يحمل جفافاً لا يمكن إخطاؤه "ما الأمر؟ لم كل هذا الإزعاج؟" لم يكن يتحدث باللغة العربية، بل كان يستخدم لغة نايبو العالمية التي شاعت على الأرض ويدرسها الكل في سنواتهم الدراسية الأولى، وهي اللغة الرسمية الأولى تقريباً في التخاطب في الدول جميعاً منذ عقدين على الأقل..

تغلّبت الفتاة على ذعرها الدائم وهمست باللغة ذاتها "لقد مات.."

نظر الرجل للجسد الهامد وقال بدون اهتمام "لم يمّت.. بل فقد وعيه.."

تطلعنا إليه بدهشة.. كيف علم بالأمر دون أن يتفحصه؟.. فأضاف وكأنه قرأ أفكارنا "لقد قمنا بإرسال ذبذبة خافتة إليه عبر السوار تفقده وعيه.. كي نتجنب أي مشاكل قد يثيرها في المكان.. وهذا تحذير لكم جميعاً.."

وأشار إلى رسغ يده اليسرى.. كانت يده خالية، لكن عندما نظرنا إلى أيدينا، وجد كل منا يده وقد أحيطت بسوار خفيف لم نكد نشعر به قبلاً.. عليه شاشة صغيرة جداً، تلتصق بلون أبيض خفيف وعليها عدد من الأرقام..

بالإضافة إلى رقم سداسي قد حُفر بجانب الشاشة.. وعدا عن ذلك لم يكن به شيء آخر.. فيما قال الرجل "هذا السوار يمكننا من مراقبتكم والتحكم بكم في كل وقت.."

نظرنا إليه باستنكار.. فقال بابتسامة جامدة "ليس بالمعنى الحرفي.. إنه يمكننا من معرفة موقعكم بالتحديد في أي ساعة من الليل والنهار.. كما أنه وسيلة ناجحة لعقاب من يفكر بإحداث أي شغب، أو حتى محاولة الهرب.. وغيابكم عن الوعي هو أقل ما يمكننا فعله عبر هذا السوار.."

قلت بشيء من الحدة "لماذا؟ ما سبب احتجاجنا هنا؟ وما الذي يدعوكم لوضع مثل هذا السوار على أيدينا؟" نظر لي بعينيه الجافتين قائلاً "لدينا أسبابنا طبعاً، لكن ليس هذا هو الوقت الملائم لشرح كل شيء.. التزموا بالصمت فهذا أفضل لكم حتى نصل لوجهتنا.. وعندها ستعرفون كل شيء دون هذه العصبية"

تساءل الرجل الهاديء بحذر "وما هي وجهتنا هذه؟"

ابتسم الرجل الصارم مجيباً "الكويكب العاشر طبعاً.."

وغازنا بصمت تاركاً كلاً منا يغرق في ذهوله وذعره.. ورغم أننا فاقدي الذاكرة، إلا أن كل ما يخص الكويكب العاشر لم يغيب عن أذهاننا وذكرياتنا.. فتطلعنا لبعضنا البعض والفتاة تقول بذعر "الكويكب العاشر إياه؟" قال الرجل الهاديء بصوت متوتر للمرة الأولى "يبدو كذلك.. إذن نحن لسنا في غرفة في مبنى.. بل في سفينة فضائية.. والله وحده يعلم كم دامت غيبوبتنا.."

ابتلعت ذهولي وأنا أتأمل السوار في يدي.. لم يكن واسعاً ولم يكن ضيقاً.. كان محكماً على يدي لا يمكن نزعها وفي الآن ذاته لم يسبب لي أي ضيق بمادته اللينة لكن الصلابة في آن واحد.. ورغم اختلاف أحجام الموجودين، فإن كلاً منهم حمل سواراً مشابهاً وموافقاً لحجم يده.. فمتى فعلوا كل هذا؟ ولماذا؟.. تكاثرت الأسئلة في ذهني وأنا أعجز عن إيجاد أجوبة..

قطع تفكيري صوت نشيج قريب، فالتفتُ إلى الفتاة القريبة مني والتي وضعت رأسها على ذراعيها المستندتين على ركبتيها وغرقت في بكاء خافت.. فقلت لها بصوت متمل "لماذا البكاء الآن؟ لم يحدث شيء بعد، فادّخري دموعك لما بعد"

ازداد بكاءها أكثر وقالت بصوت مرتجف "ماذا تعتقدون أنهم سيفعلون بنا في الكويكب العاشر؟ هذا الكويكب هو منجم كبير، والساكنون فيه هم عمال السخرة الذين يقضون حياتهم في استخراج ما في المنجم.."

قلت مقطبة "هذا لا يعني شيئاً.. نحن لسنا..."

صاحت الفتاة في وجهي بعصبية "من تعتقدون يرسلون للعمل هناك؟ ليس العمل مجزياً بالتأكيد ولا أعتقد أن أحداً يذهب هناك طواعية.. إنهم يرسلون المحكوم عليهم بالسجن المؤبد.. نحن سجناء، أفهمت؟"

قطبت وأنا محتدة لعصبيتها التي لا تجعل موقفنا أفضل، وأشحت بوجهي عازفة عن الرد.. شاهدت الرجل الهاديء يحاول تهدئتها ما استطاع رغم بكائها المستمر، فيما التزم الثلاثة الآخريين الصمت التام والذهول لا يغادر وجوههم..

تأففت مجدداً وأنا مستاءة من تصرفها.. أكره الضعف بكل أشكاله.. وأكره ضعف المرأة بالذات.. ما الذي

ستسفيده من سكب هذه الدموع؟ كسب قلوب بضع رجال لا يملكون من أمرهم شيئاً؟ لا يبدو أن لدموعها أثر على الذين سجنونا هنا إذ لم يستجد جديد في وضعنا طوال الوقت الذي قضته باكية دون ملل.. وقد كان وقتاً غير قصير..

لكمات تتطاير في الهواء.. يد ملفوفة برباط أبيض.. صرخات متعالية متحمسة.. مراقب يقف قريباً ينتظر اللحظة المناسبة.. لكمة قوية.. جسد يرتطم أرضاً.. والفائز هو....

نقود.. نقود.. نقود.. أوراق توقع.. وجوه مبتسمة ابتسامة غير مريحة.. لكن لا يهم.. نقود.. نقود..

لكمات على الوجه.. أغراض ترمى.. صراخ عصبي.. رجلان مفتولي العضلات.. مقاومة.. ضربة قوية.. كرسي يتحطم.. ثم ظلام تام..

اتصال زائف يحمل اتهاماً كاذباً.. مDAHمة للمنزل البسيط في المنطقة متوسطة الحال.. أكياس وأكياس من المادة المحظورة.. اتهامات وشهود ومحاكمة ظالمة..

أوراق يتم توقيعها.. الكثير الكثير من الأوراق الموقعة.. وإبهام مصبوغ يبصم على جانبها.. إبرة تخترق الذراع.. وألم يسري مع المادة التي تغلغت في الوريد.. ثم ظلام تام..

نهض الرجل ذو الصوت الأجلح أخيراً.. حسناً، قد يكون هذا بسبب الركلة التي وجهتها لذراعه الممتدة قريباً مني، لكن المهم أنه استيقظ وأراحني من أثنائه التي ظل يطلقها على مدار نصف الساعة الماضية..

اعتدل جالساً وهو يحك رأسه بتعجب بعد أن زالت تعابير الألم التي كانت على وجهه في غيبوبته.. ثم التفت إلينا متسائلاً "ما الذي جرى؟"

تطوع الرجل الهاديء كالعادة بتفسير ما جرى له.. بينما تجاهلتُ أنا النظرات المستنكرة التي وجهتها نحوي الفتاة الرقيقة.. يبدو أنني خيبتُ ظنها كثيراً.. لكن منذ متى كنت أهتم بهذا؟..

زفرت وأنا أفكر في وضعنا.. لقد مرت مدة طويلة ونحن في صمتنا المذهول هذا.. ولم يدلّف شخص آخر للغرفة بعد الرجل الصارم طوال الوقت مما جعلني أتساءل إن كانوا ينوون القضاء علينا جوعاً..

توجهت بسؤالي للرجل الهاديء والذي يبدو لي أكثر علماً منا، أو ربما لأنني واثقة أنه سيجيبني دون تأفف.. فسألته "كم من الوقت باعتقادك يلزمنا للوصول إلى الكويكب العاشر؟"

نظر لي بدهشة للحظات لأنني أبديت بعض الاهتمام، ثم قال هازأً كتفيه "هذا يعتمد على الوقت الذي بقيناه فاقدى الوعي.. الرحلة للكويكب العاشر كما أعتقد تستغرق أسبوعاً.. لكنها تعتمد بالأساس على موقعه في مجموعتنا الشمسية.. فهذا الكويكب له مسار بيضاوي حول الشمس ولذلك تختلف مدة الرحلة إليه حسب موقعه من المسار.."

قلت مقطبة "أسبوع؟ وسنبقى طول الأسبوع على هذا الحال؟"

بدا أن حديثنا يزيد ذعر الفتاة، فصمتُ بإشارة من الرجل الهاديء، واستغرقت في أفكاري محاولة تذكر كل ما أعرفه عن الكويكب العاشر.. وللغرابية لم يكن ذهني خالياً تماماً من هذه الناحية..

هذا الكويكب، والذي يتجاوز قطره الثمانمئة كيلومتر، قد تم اكتشافه في أوائل القرن.. له مسار مائل وطويل المدى حول الشمس.. بحيث يقطع هذا المدار في ٣٢٠ سنة، بينما سرعة دورانه حول نفسه ١٩ ساعة مكونة يوماً أقصر من الأرض بخمس ساعات.. وجاذبيته تعادل ثمن جاذبية الأرض..

ومع التطور الفضائي الكبير الذي عمّ أغلب دول الأرض، وقدرتها على إرسال سفنها الفضائية لمسافات شاسعة في الفضاء بسرعات خارقة، كان من الطبيعي أن تنطلق بعض الرحلات الاستكشافية إلى هذا الكويكب مع اقترابه في مداره من الأرض..

ومع الفحص الذي تم عليه بحثاً عن المعادن التي تكوّن مادته، تم اكتشاف المادة الخام التي تسبح تحت قشرته الرقيقة.. تلك المادة، والتي اصطلح على تسميتها (X-210) هي مادة نادرة في مجموعتنا الشمسية، بل ومعدومة على الأرض.. بعد أن اكتشفت بكميات نادرة على المريخ، اتضح أنها تحمل إمكانات هائلة، على الصعيد

الاقتصادي والحربي.. لكن ندرتها لم يجعلها ذات أهمية تذكر.. والآن، مع الكميات الضخمة التي يمكن استخلاصها من هذا الكويكب، رغم كل التكلفة التي ستنتفج لأجل ذلك، فإنها أغرت الجميع بالسعي خلفها واتخاذ أي وسيلة للسيطرة على مناجمها..

لذلك، وبعد أن كادت الدول تتقاتل على هذا الكويكب، ونشب صراع محدود بين عدد من الدول على أرضه بالفعل، تم اعتباره ملكاً للأمم المتحدة.. وتم الاتفاق مع إحدى شركات التعدين الكبرى، وهي مؤسسة (آيريس) الفرنسية، لاستخراج المادة الخام ونقلها من الكويكب إلى إحدى محطات المعالجة المقامة على القمر.. وبعد أن تتم معالجة المادة الخام بطرق معقدة، وإنتاج المادة الصالحة للأغراض الاقتصادية، فإنها توزع بنسب متفاوتة على الدول المساهمة في المشروع وهي تبلغ قرابة الثلاثين دولة، كلٌ حسب نسبة مساهمته، ونسبة معينة منه يتم بيعها على باقي الدول القادرة على شرائه بأسعاره الباهضة الخيالية..

طبعاً لم تكن المعلومات بهذه الدقة في عقلي، لكنها مهمة لتوضيح الصورة الشاملة للكويكب..

قطع تفكيري صوت الرجل الأجنح الذي قال "أنا ما زلت جائعاً.."

نظرت له بغيظ.. تكراره لهذه الملحوظة يزيد جوعنا إن لم يدرك ذلك.. لكن لحسن حظنا سمعنا الباب يفتح، ودخل منه رجلين وزعا علينا علماً بلاستيكية فيها بعض الطعام الذي بالكاد يسدّ الجوع.. لكننا لم نشكّ ونحن ننقض على الطعام.. الرجل الأجنح على الأقل فعل ذلك.. بينما أنا، بعد رؤيتي لهدوء الآخرين في تناولهم لطعامهم، حاولت عدم إظهار جوعي وتناولت طعامي بأهدأ ما أمكنتني.. ثم تركت العلبه جانباً وأنا أتأمل البقية حولي.. بعد الطعام، بدت النفوس أهدأ حالاً مما زاد من تعجبي.. أهدأ ما يفعله الشبح بالإنسان؟ يجعله راضياً عن حاله مهما كان شكلها؟.. يا له من كائن عجيب هذا الإنسان..

بعد عدة ساعات من الجلوس بلا حراك، وجدنا أفعالنا تفتح إلكترونياً بعد أن أذرننا الرجل الصارم بعدم القيام بأي شغب أخرج.. كانت الغرفة التي نجلس فيها صغيرة، لكنها على الأقل تسمح لنا بشيء من الحركة بعد أن تبيست أطرافنا..

نظرت حولي في الغرفة بحثاً عن أي منفذ، لكن لم تكن تحوي أيها، عدا عن حمام جانبي صغير الحجم.. و عدا عن نافذة خلفي عليها ساتر حديدي لا يسمح لنا برؤية شيء.. حاولت تحريك الغطاء الحديدي الذي يغطي النافذة دون فائدة.. كنت أتمنى رؤية ما خلفها.. رغم أن هذا لن يغير شيئاً من واقعنا.. لكني تمنيت أن أتأكد أننا فعلاً في سفينة فضائية.. أننا حقاً متجهون للكويكب العاشر.. فلا شيء مما حولنا يدلّ على ذلك بحال غير كلمات الرجل الصارم.. ومن يكون هو لنثق بقوله ونصدقه؟..

بعد عدة محاولات وجدت يداً ضخمة تمتد لتعيني في ذلك.. لم تفلح محاولتنا في فتح الغطاء، فكففت عن المحاولة وأنا أنظر للرجل الأجنح الذي قال “يبدو أنهم حريصون على عزلنا تماماً..” صمتُ عن التعليق، وأنا أنظر للبقية حولنا، والذي يبدو أنهم اكتفوا بتحريك أقدامهم في خطوات مترددة لتحريك الدماء فيها.. ويبدو أن صمتي هذا استفز الأجنح إذ قال بصوت حمل سخرية “لم أتوقع أن تكوني بهذه الضالة يا حمراء.. تبدين مختلفة وأنت واقفة”

نظرت له باستنكار.. يبدو أنه من النوع الذي يرفع الكلفة بينه وبين الآخرين منذ اللحظة الأولى، وهذا مما لا أطيق، فقلت له بلهجة لاسعة “ضخامتك تجعلك ترى الآخرين ضئيلي الأجساد..” قال دون أن يضيق بهذا التعليق “وهذا يعجبني.. فهو أفضل من القصر أو الضالة..” قطبت وأنا أشعر أنه يسبني، وقبل أن أبتعد عنه سمعته يقول “أحقاً أنت فاقدة للذاكرة تماماً؟ ألا تذكرين أي شيء من حياتك قبل مجيئك إلى هذه السفينة؟”

لم أجد داعياً لإخباره بالومضات التي أراها أحياناً، فقلت “أجل.. أنا لا أذكر أي شيء مما حدث لي قبل أن أستيقظ في هذه الغرفة”

فقال الأجنح بتعجب “ألا تستنكرون ذلك؟ كيف يتأتى لسبع أشخاص فقد ذاكرتهم في وقت واحد؟ أليس لهذا علاقة بقدمنا للكويكب؟”

صمت كعادتي عن التعليق وأنا أفكر بقوله، فأضاف “قد يكون لمن أحضرنا يد في هذا.. في الواقع، عندما كنت غائبة عن الوعي قبل ساعات، رأيت بعض اللقطات غير الواضحة.. يبدو أنها ذكريات تحاول العودة إلي.. لكنها كانت شيئاً ما مبهمه”

نظرت له باهتمام.. إذن لم يكن هذا حالي أنا فقط!.. ويبدو أنه فهم نظراتي إذ قال مقطباً “أشعرتِ أنت بالأمر ذاته؟ لم تخبريني بذلك؟”

قلت بضيق “وهل أنا مجبرة لإدلاء تقرير لك بكل ما أراه أو أشعر به؟”

ظل ينظر لي بغیظ.. أيتوقع أن تخيفني ضخامته؟.. وجدته يرفع قبضته بحق، فرفعت قبضتي أمام وجهي تلقائياً وأنا أقول بحدة “أتنوي ضربتي على هذا؟..”

نظر لي بدهشة للحظات، ثم ضحك بقوة أثارت تعجب البقية قبل أن يقول “سأفكر في هذا..”

وابتعد عني وأنا أعتدل في وقتي مقطبة.. يبدو أنه يستمتع بموقفنا هذا ولا يثير في نفسه أي قلق..

سمعت خلفي الفتاة الرقيقة تقول “يبدو أنكما مستمتعان بما يجري هنا..”

نظرت لها بدهشة وقلت بضيق “من قال ذلك؟ ذاك الأحمق هو من يجد من البال الرائق ما يضحكه..”

تطلعت الفتاة حولها للحظات، ثم تساءلت “أعتقدين أننا حقاً ذاهبون للكويكب العاشر؟”

تساءلت في سري إن كان الكل يعتبرني مستشاراً خاصاً أو حاوية لأسئلتهم واستفساراتهم المعلقة، ثم قلت هازة

كتفي “من يدري.. هذا ما يؤكد ذلك الرجل.. وسيتضح كذبه من صدقه قريباً..”
سمعت خلفي الرجل الهاديء يقول “ما الذي يجعلك تعتقدين أنه يكذب؟”
نظرت له مجيبة “لم أقل ذلك.. لكن ما يحدث لنا لا يصدق.. لماذا نحن ذاهبون رغم إرادتنا للكويكب العاشر؟ هل
نحن سجناء؟ هل ارتكبنا جرماً؟ لماذا لا نذكر أي شيء من ذلك إذا؟”
تقدم الرجل الهاديء من الساتر الحديدي وحاول تحريكه بدوره معلقاً “هذا ما يجب أن نعرفه.. لماذا نحن فاقدون
لذاكرتنا؟ وكيف فقدناها كلنا معاً؟”
علقت قائلة “لاحظ أنك لا تجيب على أي سؤال بل تطرح المزيد من الأسئلة”
ابتسم لتعليقي وهو يقول “أتمنى لو كنت أملك جواباً لتلك الأسئلة.. لكنني سأكتفي بطرحها في الوقت الراهن..
عسى أن تتكشف الأمور قريباً”
رأينا الباب يفتح ويدلف منه حارسان بسلاحيهما يتقدمهما الرجل الصارم الذي أمرنا بالعودة لقيودنا.. ورغم
التذمر الصارخ في العيون، إلا أن أحدنا لم يفه بكلمة أمام الأسلحة والحارسين يقيدان أيدينا وأرجلنا من جديد..
ترى، كم سيطول بنا الوقت على هذا الحال....؟!..

الفصل الثاني

[العاشر]

وقفنا نحن السبعة ننظر لما أمامنا بذهول غير مصدق.. لم تكن سبعة فقط، بل عشرات العشرات من الرجال والنساء ممن وقف معنا في تلك الساحة الواسعة..

خلفنا، ربضت سفينة فضائية على شيء من الضخامة.. يبدو أنه يمكنها حمل المئات في قلبها دون ضغط كبير.. فبخلافنا، ولا يمكنني عدّ العشرات الذين وقفوا حولي، كان هناك أيضاً العشرات من الحراس ممن قدموا معنا في السفينة ذاتها..

كانت عدة أيام قد مرت علينا منذ استيقظنا.. والآن، بعد وصول السفينة الفضائية لهدفها، وجدنا أنفسنا نقف وسط ساحة كبيرة، نتنفس هواء الكويكب دون أجهزة خاصة، وقد كان نوعاً ما منعشاً، ونتأمل المساحات الشاسعة الصخرية المحيطة بنا وفي الأفق غابات خضراء كثيفة..

كان ذهولنا كبيراً مما نراه حولنا بحيث عقد ألسنتنا، لكن عندما وقف الرجل الصارم أمامنا عاد الواقع إلينا.. مهما كان جمال ما نراه.. فنحن لسنا هنا لنستمتع به.. وقد كان ما نراه جميلاً بحق..

قال الرجل الصارم، الذي سمعنا أحد الحراس يناديه بالفائد، وهو يقف أمامنا محاطاً ببضع حراس مسلحين بأحدث الأسلحة "اليوم ستقضونه في برنامج التهيئة الخاص بالمؤسسة.. وبعدها سيتم تقسيمكم لمجموعات وتوزيعكم على المواقع المختلفة في الكويكب حسب حاجتهم لكم.. لكن أتمنى ألا يفكر أحدكم بأي عمل أحمق لأننا لسنا هيئة إصلاحية، ولا يهمنا ما ترغبون به وما يريحكم.. أنتم سجناء، كما ولا بد قد خمتتم، وقضاء ما تبقى من حياتكم على هذا الكويكب هو أفضل حكم قد تحصلون عليه.. كل ما يهم المؤسسة هو أن تحصل على أقصى فائدة منكم.. ومن كان عديم الفائدة فلنا تصرف آخر معه.."

جاوبه الصمت التام والنظرات الحذرة من الجميع، ثم نادى الرجل مساعده وقال "ابدؤوا البرنامج فوراً بلا تأخير.. وأعلمني بالنتيجة بعد الانتهاء.. سأكون في مبنى الإدارة.."

وغادر دون أن يلقي علينا نظرة أخرى.. فيما سمعت الرجل الأجنس يميل على الهاديء متسائلاً "أتعلم تفسيراً لكل ما نراه حولنا؟ لم أعلم من قبل أن الكويكب صالح لحياة البشر"

قال الهاديء بتعجب بدوره "لقد قرأت شيئاً ما من هذا فيما مضى ولم يُمَحَ من ذاكرتي.. لكنني لم أتوقعه بهذه الصورة"

قاطعهما المساعد وهو يقول بصرامة بلغة نايبو بدوره "لا محادثات جانبية.. اتبعوني بصمت"

لم يكذب ينهي كلماته، بعد أن غاب الرجل الصارم، حتى فوجئنا برجل ضخم مليء بالوشوم يركل حارساً قريباً منه

ويركض بأقصى ما يستطيع بغية الخروج من الساحة التي كانت محاطة بسور ولها بوابة وحيدة.. لم يتردد بضع رجال في اللحاق به مستغلين الفرصة النادرة.. وللعجب لم يتحرك أحد من الحراس أو يوجه سلاحاً تجاههم.. فقط وقف المساعد ينظر لهم وهو يتحدث عبر جهاز اتصال.. ولم يمهلهم الوقت للخروج من الساحة والهرب، إذ سرعان ما تهاوت الأجساد وهي ترتجف وأحدهم يطلق صيحة ألم..

وإزاء نظراتنا المندهشة، قال المساعد وهو يشير للحراس الذين اقتربوا من الأجساد التي خمدت أخيراً "لا يحاول أحدكم ارتكاب هذه حماقة مرة أخرى.. لم يفقدوا وعيهم فقط، لكن مرت بأجسادهم شحنة كهربية كافية لإيلاهم بشكل لن ينسوه مرة أخرى.."

وسار أمامنا بصمت، فلم يكن أمامنا خيار في اللحاق به بعدما حدث.. بينما بقي بعض الحراس مع الأجساد الهامدة بانتظار من ينقلها من موقعها.. سرنا عبر الساحة عابرين عدداً من المباني الضخمة حتى دلفنا مبنىً جانبياً متوسط الحجم.. عبارة عن قاعة واسعة تحيطها غرف جانبية..

تجمعنا في القاعة الخالية من أي نوع من الكراسي، فيما بقي الحراس في جوانب القاعة يحرسوننا.. ظلّ بعضنا واقفاً فيما جلس البعض أرساً ونحن جاهلون لما يراد منا.. جلست أنا أرساً مستندة على الحائط خلفي والتزمت الصمت كما فعل الجميع.. فوجدت الفتاة الناعمة تجلس قربي وهي تهمس "ما الذي تظنين سيفعلونه بنا في تلك الغرف؟"

قلت هازة كنتي "لا أعلم ولا أهتم.."

نظرت لي بتعجب.. ثم قطع الأحاديث الجانبية التماع شاشة ظهر عليها المساعد ذاته، بعد أن اختفى من القاعة التي نحن فيها.. وقال بصوت من اعتاد تكرير الكلام كله، وإن حاول إكساب صوته بعض الصرامة "انتبهوا لما سأقوله جيداً.. فلن يتكرر على مسامعكم مرة أخرى، وتجاهله قد يتسبب في ارتكابكم لمخالفات تتوجب عقابكم.. ولن نتورع عن فعل ذلك.."

تبادل الجميع النظرات الصامتة.. حالنا لا يبدو مبشراً أبداً في هذا المكان.. وسمعنا المساعد يضيف "هذه الأساور التي تملكونها تحوي أرقاماً سداسية محفورة.. هي هويتكم هنا، ولن يتم التعامل معكم إلا بها.. والشاشة الصغيرة قربها ستحمل لكم أوامر الإدارة.. إن أضاءت بلون أحمر فهذا يعني استدعائكم من قبل الإدارة.. عندها توجهوا إلى أقرب الحراس إليكم وسيرشدكم إلى أين عليكم التوجه.. وإن أضاءت بلون أخضر فهذا يعني أنكم مطلوبون في المنجم القريب من مسكنكم، عندها عليكم التوجه إليه بغض النظر عن التوقيت الذي تلقيتم فيه الاستدعاء.. وكما قيل لكم من قبل، وكما رأيتم قبل قدومكم إلى هذا المبنى، مخالفة الأوامر، أو إحداث شغب من أي نوع، أو التفكير بالتعرض للعاملين والحراس، أو التفكير في الهرب.. لن يمر أي من هذا مرور الكرام.. ستكون عقوبتكم على قدر ما تستحقونه.. ولعلمكم، هذه الأساور مصنوعة من مادة خاصة.. لا يمكن نزعها، أو قطعها، أو تزويبها.. ولا يمكن إفساد نظامها الإلكتروني بأي طريقة كانت.. ومن يحاول سيرى العقاب الذي

يستحقه.."

نظرت للسوار في يدي وأنا أسمع ضيف "بعد الفحص الذي سيتم عليكم اليوم، سيتم تقسيمكم إلى مجموعات، وستنقل كل مجموعة إلى أحد المناجم المنتشرة في الكويكب.. لا يسمح لكم بالخروج من المسكن الخاص بكم إلا للعمل في المنجم، ولا يسمح بأي حال لأحد بالتجوال في المساحات المحيطة بالمنجم والمسكن.. ولن أكرر قولي بأن أي مخالفة لهذه الأوامر لن تعفيكم من العقاب.. ليس بدءاً بالشحنات الكهربائية التي ستفقدكم الوعي، وليس انتهاء بالعزل في مبنى العزل القريب لمدد متفاوتة حسب المخالفة التي ارتكبتها.."

ثم قال "والآن، من يرى سواره يلتهم باللون الأحمر، عليه التوجه لأقرب غرفة فحص.."

انطفأت الشاشة على الفور بعد أن أتم حديثه، فنظر الجميع لأساورهم، قبل أن يتململ بعضهم ويسير بخطى مترددة إلى الغرف القريبة..

فكرت في كل تلك التعليمات التي ألقيت على مسامعنا.. أي حياة سنحياها هنا؟.. هل حقاً سنمضي ما تبقى من أعمارنا هنا؟.. كم سنة سيكون ذلك.. عشرون؟ ثلاثون؟ ستون لمن لم يتجاوز العشرين منا، وهم كثر حولي؟.. حتى المحكوم عليهم بالسجن المؤبد قد يتم العفو عنهم بعد أن يقضي المسجون زمناً طويلاً متحلياً بحسن السلوك.. فماذا عنا؟ هل سيحظى حسن السلوك منا بحريته ويعود لوطنه؟.. أنا واثقة أنني لم أسمع بأشخاص أطلق سراحهم بعد قدومهم للكويكب..

دام الأمر وقتاً طويلاً جداً.. بالنظر لأعدادنا الكبيرة، ولكون الشخص الواحد يستغرق وقتاً طويلاً نوعاً ما في تلك الغرف، فإنني أشك أن ننتهي من هنا قبل انتهاء النهار.. ولو أنني لم أعلم بالضبط متى سينتهي النهار هنا.. لم نكن نملك ساعات يدوية أو على الحائط، ويوم الكويكب القصير مقارنة بالأرض يجعلها معدومة الفائدة.. عندما حان دوري، وقفت وتوجهت إلى أقرب غرفة خالية، ودلفتها مغلقة الباب خلفي.. وجدت في الغرفة رجلاً يرتدي ثياباً مدنية، وفي جانب المكان أحد الحراس مستعد بسلاحه..

لم أعترض بكلمة والرجل ذو الثياب المدنية يجري علي فحوصات متعددة.. يبدو أنهم يتأكدون من صلاحيتنا للعمل الذي سيوكل إلينا.. لكن أليس المفترض أن يقوموا بذلك قبل استقدامنا هنا؟..

نقلت تساؤلي إلى الرجل، ويبدو أنه قليلاً ما يواجه فضولاً من السجناء.. لذلك فقد قال بعد أن غمرني بنظرات الدهشة "لقد تم فحصكم مسبقاً بالطبع.. هذه الفحوصات تنمة للسابقة، ليتم تقسيمكم لمجموعات متساوية في القدرات على مناجم الكويكب.."

فقلت مستغلة أريحته في الإجابة "ومن ألبسنا هذه الثياب؟ هل كان ذلك على الأرض؟"

قال مقطباً "أنتم فعلتم ذلك بالطبع.. لكنكم نسيتم ذلك.."

فتساءلت بسرعة "كيف يمكن أن نفقد ذكرياتنا جميعاً دفعة واحدة؟"

سمعت الحارس يقول بغلظة "كفي عن الأسئلة ودعيه يتم عمله بلا تأخير.."

أشار له الرجل ليدعني وهو يعلق "لابد أن يعرفوا.. لئلا يظل التساؤل في نفوسهم.."
ثم التفت إلي مجيباً "هذا يحدث عندما يتم إعدادكم للرحلة الطويلة على متن السفينة الفضائية.. بعض الأشخاص لا يتحملون السفر، بالإضافة للمادة التي تحقن في أجسادكم لتهيئتها لجو الكويكب.. ومن الأعراض الجانبية لهذا هي فقدان الذاكرة المؤقت، بالإضافة لأعراض أخرى.. لكن لا تقلقي، هي أعراض مؤقتة وستزول قريباً.."
صمتُ وأنا أتذكر من الومضات تلك الحقنة التي دفعت بمادتهم المؤلمة في الوريد.. لكنني نوعاً ما لم أثق بحديثه كله.. كيف يمكن أن تظهر علينا أعراض ذاتها دون اعتبار لاختلافنا وتباين أجسادنا؟.. هناك كذبة تحاك حولنا، لكن لم أطرح أفكارني تلك وأنا أجدّه يأخذ عينة من دمي ويفرغها في أنبوب يحمل رقمي عليه..
استمر مدة من الزمن في فحوصاته المملة، ثم ختم على سواري بختم صغير يحمل حرفاً ورقمين.. ثم أشار لي للخروج.. فخرجت صامتة وأنا أتأمل السوار.. هل هذا الختم يحدد المجموعة التي انضمت إليها؟ بودي لو يدعونا نرحل بدل انتظار البقية، وهو انتظار سيطول كثيراً جداً..

عندما وصلنا للمسكن، بعد أن أوغل الليل، حسب الأقسام التي تم توزيعنا عليها.. اكتشفتُ أنني في المسكن ذاته مع هؤلاء الثلاثة أيضاً.. يبدو أنني لن أستطيع الفكك من دعر الفتاة المزعج، ولا تعليقات الأجنس التي تغيظني..
حسناً، الثالث مهذب في كل شيء، لكن ربما هدوءه هو الذي يجعل عقلي يغلي أكثر من الآخرين.. فهو لا يشعرني بأنه مهتم بوجودنا في سجن كبير..
كل المناطق التي مررنا بها في تلك المركبة المتوسطة الحجم التي حملتنا من مباني الإدارة كانت تغزوها الأشجار والمساحات العشبية الشاسعة.. فيما كان المسكن يقع في ساحة واسعة وسط غابة مترامية الأطراف، والذي كان عبارة عن غرف أرضية صغيرة الحجم، صبغت كلها بلون أبيض، وقد صُغت دائرياً في المكان محيطة مساحة صغيرة في الوسط عليها بضع كراسٍ معدنية.. تقريباً كان هناك ما يتجاوز السبعين غرفة..
وحول هذا كله غابة على شيء من الكثافة بأشجار متباينة الأشكال..
لم نكن الوحيديين الموجودين هناك، إذ أن المكان كان مليئاً بمختلف الأشكال من الرجال والنساء ممن سكنوا هنا قبلنا، ولا يبدو على أحدهم أي راحة أو رغد.. وجوه متعبة وملابس موحدة كالتالي نرتديها، ويبدو على اليدين التي اسودت أطرافها وتشققت مدى قسوة العمل الذي يمارسونه..
قام المساعد المرافق لنا بتوزيعنا للمساكن التي يبدو أنها كانت مأهولة من قبل لكنها فرغت من ساكنيها، ولا أعتقد أن هذا كان بإطلاق سراحهم.. وجدتُ أن مسكني يقع مقابل الساحة المتوسطة مباشرة، وقريب مني كان ذلك الرجل الأجنس.. ويقع مسكن الفتاة على شيء من المبعدة مني وكذلك الرجل الهادي..

عند دخولي مسكني، اكتشفت أنه من الداخل يبدو أصغر كثيراً مما هو عليه من الخارج.. لا يحوي إلا سريراً صغيراً إن فكرت بالتقلب فيه فستجد نفسك على الأرض.. وكروسي وحيد خشبي لا يبدو أنه يتحمل وزناً ثقيلًا.. وفي جانبه حمام صغير بالكاد يكفي لوقوفي فيه.. طبعاً لن أتحدث عن حالة الغرفة من ناحية صيغها المتقشر ولا أثاتها القديم ولا مرافق الحمام التي تتعفف منها النفس..

فور دخولي، نظرت لوجهي في المرآة المعلقة على الجدار المقارب للسرير.. لم أدرك من قبل أن فاقد الذاكرة لا يقدر على تذكر ملامحه الخاصة.. أم أنني حالة خاصة؟ لذلك، ما إن رأيت تلك المرآة حتى أحسست بحاجة ملحة لرؤية وجهي فيها لعلني أتذكر شيئاً ما مع ملامحي.. لكن عندما نظرت فيها وجدنتني أتأمل ملامح فتاة غريبة لا أعرف عنها شيئاً..

لا أعرف كم أبلغ من العمر، ولم أقدر حتى على تخمينه.. هل أنا في العشرينات أم أنني لم أبلغها بعد؟ لا أبدو أكبر من هذا بأي حال.. شعري قصير حتى الكتفين مقصوص بغير عناية.. أحمر اللون بشكل طبيعي فلا أثر لكونه مصبوغاً.. لذلك كان الرجل الأجش يصرّ على مناداتي بحمراء رغم أنني ما فتئت أبدي ضيقي من ذلك.. فشعري كان نوعاً ما ملفتاً للنظر مقارنة بلامح وجهي الأقل من عادية.. عيناوي عشبيتان تميلان للون البني قليلاً، لكن يجب على من يراني أن يدقق فيهما كثيراً ليرى ذلك اللون..

بشرتي ليست بيضاء تماماً ولا تندرج تحت السمرة.. ويكسو أنفي بعض النمش.. لو طُلب رأيي في هذا الوجه الذي أراه، فأنا أقول إنني لا أحمل أي لمحة يمكن أن توصف بالجمال.. لكن من يهتم؟..

رأيت الفتاة الناعمة تقف عند باب غرفتي بقلق.. ومع نظراتي، بدا أنها فهمت أنني أدعوها للدخول، وهو ما لم أفعله، فأسرعت بالدخول ورمت نفسها على الكرسي الوحيد في الغرفة.. وبعد لحظة صمت وارتجافة واضحة في يديها، قالت دون أن تنظر إليّ "ألسن خائفة؟"

نظرت إليها بتعجب لهذا السؤال، ثم أجبت "لن أصف نفسي بالخوف، لكنني متوجسة لما قد يحدث لنا في هذا الكويكب.."

فغمغمت الفتاة "لكنني خائفة.. خائفة حقاً مما قد يحدث لي.."

نظرت لها بتعجب متزايد، ولاحظت الرجفة تتزايد في جسدها وهي تقول "لقد رمونا في هذه المساكن بمفردنا.. فمن يضمن ألا يتعدى علينا أحد الموجودين هنا؟"

سألته بتعجب متزايد "من تعنين؟ الحراس؟"

قالت وهي تنظر في عيني "ليس هم فقط.. جميعهم.. جميع الرجال الموجودين هنا"

تزايد استغرابي وأنا أسألها "ماذا تقصدين بالضبط؟.. إن لم تشرحي الأمر فلن أفهمك أبداً.."

فركت يديها بقلق، ثم قالت وأنا أرى الدموع تحتشد في عينيها "لقد رأيت بعضاً من ساكني هذه المساكن ينظر لي بنظرات أثارت الرجفة في جسدي.. وقد ألقى أحدهم عليّ عبارات وقحة.. لا أدري.. أنا خائفة.. وهذه المساكن

ليست مؤمنة جيداً.. ماذا أفعل لو حاول أحدهم اقتحام مسكني وأنتم نيام؟”
ظلت متعجبة من أمرها، فهبت واقفة وتشبثت بذراعي قائلة برجاء “هل أستطيع المبيت عندك الليلة؟ أرجوك..
أنا خائفة..”

غمغت في نفسي “ما هذا المأزق الذي أنا فيه؟”
ثم قلت لها هازة كتفي “يمكنك ذلك طبعاً.. لم أشتري هذا المسكن ولن أستفيد من طردك منه..”
عادت تجلس على الكرسي صامتة للحظات، ثم قالت مطرقة “لن أزعجك البتة.. سأنام على هذا الكرسي،
وسأعادر مع أول النهار..”

قلت وأنا أنظر من النافذة للظلام في الخارج “لم أقل إنك تزعجيني.. يمكنك استخدام السرير فليست لي رغبة
بالنوم أبداً..”

ابتسمت لي ابتسامة امتنان.. ثم نهضت بعد تردد لتستلقي على السرير وتندثر بغطائه.. ولم تمض لحظات حتى
غرقت في نوم عميق.. أما أنا فقد حملت الكرسي حتى وضعته مقابل النافذة في الغرفة.. فجلست عليه أتأمل
السماء المظلمة خارجاً.. ثم في وقت محدد، علا صوت نفير من سماعات منثورة بين المساكن معلناً انقطاع
الأنوار، ولم تلبث المساكن كلها أن أظلمت تماماً، ليتعالى منها بعض الأصوات المتذمرة.. فتنهدت وأنا أرى
السماء من بين الأشجار مظلمة لا ينيرها إلا بضع نجوم متفرقة..

كيف يتأتى لي النوم براحة مع كل ما حدث لي منذ استيقظت؟ يخيفني فقدان ذاكرتي أكثر من وجودي في هذا
الكويكب.. من أنا؟ ومن كنت قبل مجيئي إلى هنا؟ هل كنت سجيناً؟ ماذا فعلت لأسجن؟ لا يبدو أنني ارتكبت
جرماً صغيراً فهذا لا يجعلني أستحق حكماً بالسجن المؤبد.. فما الذي فعلته حقاً؟ ولماذا فعلته؟..
يخيفني أنني لا أعلم حقاً من أكون.. هل سأصدم عندما أستعيد ذاكرتي؟ هل أتمنى عودتها حقاً لأتعذب بذكريات
لا أظنها سعيدة مادامت قد تسببت بقدمي إلى الكويكب؟.. أم أن الأفضل لي أن أبقى بلا هوية كي لا أتحسر على
شيء وأنا أعلم أن خروجي، أو حتى فراري، من هذا السجن الكبير هو المستحيل بعينه؟..
يبدو أن حياتي في هذا الكويكب ستطول حتى تصيبي بالملل..

دماء.. دماء.. دماء غزيرة تغمر السجاد الغليظ..

مسدس في اليد وصدمة على الوجه.. الشعر الأبيض غارق في الدماء أيضاً..

وحتى النور القادم من النافذة بدا أحمر اللون بشكل بشع..

الهرب..

هذا هو الحل الوحيد..

لم يكن اليوم التالي بأفضل حالاً من السابق.. استيقظنا على صوت النفير المزعج الذي يصدح في كل مسكن دون تمييز.. نهضت فزعة من نومي فقد قضيت معظم الليل مستيقظة، حتى قررت أخيراً أن أغفو على الكرسي القريب وأتدثر بغطاء خفيف وجدته في المسكن.. لذلك كنت في نوم متعب عندما دوى النفير وأيقظني فجأة.. قضيت بضع دقائق أحاول استعادة هدوئي ودقات قلبي الفزعة عندما رأيت الفتاة التي استيقظت قبلي قد خرجت لتوها من الحمام بشيء من الانتعاش.. فقالت لي مبتسمة “صباح الخير.. أرجو ألا أكون قد أزعجتك باستيلائي على سريرك..”

لم أرد أن أزعجها ببرد مفتح، فصمتُ وأنا أنهض وأتوجه للحمام بدوري لأغسل وجهي علي أنتعش قليلاً.. أغمضت عيني وأنا أحاول تذكر الحلم الذي انقبض له صدري البارحة.. لكن تفاصيله بدت لي مبهمة تماماً.. كل ما أذكره أن فزعي عند استيقاظي لم يكن بسبب النفير المزعج فقط..

بعد لحظات قصيرة خرجنا من الغرفة لنرى وسط الساحة البقية يقفون محيطين بوضع حراس بأسلحتهم.. يبدو أن الحراس لا يتخلون عن الأسلحة في كل الأوقات خوفاً من ثورة السجناء، الذين هم نحن، وقد لاحظت بضع رجال منهم يحرسون المسكن الليلة الماضية من بعيد.. ناهيك عن أجهزة المراقبة التي وجدناها متناثرة على أعمدة قريبة تكشف المسكن والمساحة المحيطة به تماماً..

كان الحراس الواقفون وسط الساحة يناولون السجناء إفطارهم الموضوع في علب متوسطة من صناديق محملة على أحد المركبات الخاصة بالمؤسسة.. لن أتحدث عن نوعية الإفطار، لكنه كان أفضل مما توقعت وإن لم يكن بالكمية الكافية.. وقد بدا الامتعاض على وجه الرجل الأجنس وهو ينظر له، وحاول إقناع الحراس بإعطائه واحداً آخر دون فائدة..

بعد وقت قصير استغرقه إفطارنا، تم اقتيادنا جماعة واحدة، يحيط بنا الحراس، من المسكن وعبر الغابة المحيطة بنا، في مسير دام ربع ساعة.. استغربت أنهم لم ينقلونا بالمركبات، لكن ربما يودون توفير نفقات المركبات التي ستنقل هؤلاء السبعين سجيناً..

كانت الغابة حولنا متباعدة الأشجار.. تحوي العديد العديد من الأشجار.. بعضها معروف ومشابه لما على الأرض.. وبعضها غريب ويبدو مهجناً، بأوراق عريضة وضخمة متباينة الألوان، تتراوح بين اللون البنفسجي والأحمر، كشجيرات الزينة الشائعة على الأرض.. وبعضها أوراقه عادية لكنها خضراء قاتمة أو فاقعة بشكل متنافر..

زاد هذا تعجبي من حال الكويكب الغريب.. لو أنه قد سمح للزوار بالقدوم إليه وتمت تهيئته للسياحة فسيدير عليهم دخلاً مروعاً.. لكن يبدو أن اهتمامهم منصب على المنجم والثروة التي تسيل منه بلا انقطاع.. وبعد فترة من السير سمعت الفتاة قربي تتساءل بهمس "حتى الآن لم يفسر لنا أحد ما يجري في هذا الكويكب.. كيف يمكننا العيش فيه دون الحاجة للخوذات وأجهزة التنفس؟"

قلت متلفتة حولي "لا أعلم عن هذا شيئاً.. ولا أعتقد أن أحد الحراس سيجيبنا بأريحية لو حملنا أسئلتنا إليه..". وجدت أثناء التفاتي الرجل الهاديء ينظر لنا باهتمام، ولما التقت عينانا بادرني بالقول "في الواقع، ما أذكره عن هذا الكويكب، أنه غير صالح لعيش الإنسان.. لذلك، لابد أنه خضع لتغييرات شاملة وجذرية ليصبح بهذا الشكل.."

تساءلت بدهشة "إذاً لماذا لم يتم الاكتفاء ببناء قيب هوائية كالتي على القمر بدل بذل أموال طائلة لتغييره بهذا الشكل؟"

أجابني "أولاً، بناء قيب هوائية لن يبسرّ العمل على الكويكب، فسنظل بحاجة لأردية فضائية ومخزون من اسطوانات الأكسجين، مع المخاطر التي يمكن حدوثها عند نفاذ الأكسجين أو حدوث ثقب بالأردية.. بالإضافة لصعوبة العمل بسبب قلة الجاذبية التي تعادل ثمن جاذبية الأرض..". فتساءلت وأنا أشير لما حولنا بتعجب "وهذا هو الحل؟"

هز رأسه إيجاباً "هذا ما استقر عليه الخبراء.. لقد قرأت فيما سبق تقريراً مفصلاً عن الكويكب، وإن غابت تفاصيله إلا أن معلوماته العامة لم تمسح من عقلي بعد.. لقد أجرى العلماء تجارب طويلة للوصول للطريقة المثلى للتحكم في جاذبية الكويكب.. وأعتقد أنهم يستخدمون جهازاً ضخماً وضع في موقع محسوب بدقة في الكويكب، وعلى عمق مدروس فيه.. ومع الجاذبية، كان وجود الغلاف الجوي لا يعدّ مشكلة إذ إن الكويكب يملك غلافاً جويّاً بالفعل، وإن لم يكن يشابه غلاف الأرض كثيراً..

بقيت مسألة الهواء وتأقلم البشر عليه.. وقد كان التقرير الذي قرأته غامضاً من هذه الناحية.. إذ ذكر أن العلماء وجدوا حلاً جذرياً لهذه المشكلة ولم يذكر ذلك الحل"

فسألته بتفكير "وماذا عن القمر؟ لقد لاحظت البارحة بعد انطفاء الأنوار وجود قمر في السماء والأشجار تغطي معظمه.. فهل كان الكويكب يملك قمرأ؟"

قال نافياً "لا يمكن ذلك.. ما عرفته أن هذا مجرد قمر صناعي يستخدم للمراقبة والاتصالات، وقد تم تزويده

بأسطح عاكسة لنور الشمس كي تعمل كبديل للقمر.. فليل الكويكب حالك السواد، ووجود شيء من النور يبدد العتمة أفضل لمن يعيشون على سطحه”

قلت بتعجب تام “هل دفعوا تلك الأموال الطائلة لأجل هذا الكويكب؟”

قال متلفتاً حوله “بل لأجل ما يحتويه في باطنه، وهو لا يقدر بثمن..”

نظرت حولي قليلاً وأنا أتفكر في حديثه.. يا لهذا الكويكب الغريب.. تم إخضاعه بسطوة الإنسان المغرور دائماً.. فهل سيرضى بذلك؟ ألن يغضب؟ ألن يثور؟.. ترعيني فكرة مثل هذه..

بعد كل ذلك السير، تبدى أمامنا المنجم الذي سنعمل فيه منذ الآن فصاعداً.. تباعدت أشجار الغابة وبدت خلفها مساحة شاسعة من المسطحات الصخرية ذات اللون البني المحمر، كأغلب صخور الكويكب، تنتثر في التشكيلات الضخمة والهوّات العميقة.. وعلى مبعده منا، وسط تلك المساحة، رأينا المنجم الذي كان عبارة عن حفرة عميقة وضخمة، تنحدر كمدرجات لعمق الكويكب.. ومنه وإليه الكثير من الخطوط التي تشبه سكة القطارات القديمة، ومهمتها نقل حاويات ضخمة مصفحة بعد أن تعبأ بالمادة الخام، وتنقلها إلى المستودعات المخصصة لتخزين تلك المادة تمهيداً لنقلها إلى المصانع المسؤولة عن تهيئتها للاستعمال الاقتصادي على القمر..

بدا المنجم ضخماً ومهيباً.. وهو أول منجم أراه، أو أذكر رؤيته، على الطبيعة.. ولم يساعد تشدد الحراسة حوله على التقليل من هيئته.. يبدو أنهم محتاطون كثيراً في الحفاظ على المناجم.. ورغم أن الكويكب لا يسكنه إلا التابعون للمؤسسة من إداريين وحراس وسجناء، لكنهم فوق ذلك احتاطوا بتشديد الحراسة على المنجم وإحاطته بسور مكهرب، رغم ضخامة تكلفة ذلك مع مساحة المنجم التي تشغل حيزاً واسعاً جداً من المنطقة..

عند وصولنا إلى بوابة المنجم القريبة منا، قاموا بتفتيشنا جيداً والتأكد من هوياتنا وتمرير السوار على يد كل منا قرب جهاز صغير، يبدو أن مهمته تسجيل دخول صاحب السوار في ذاكرته.. تساءلت في نفسي إن كان ذلك سيتكرر معنا كل يوم، مما يجعل الأمر مملاً..

سمعت الرجل الأجنس يقول في تلك اللحظة “هل سنمر بهذا كل يوم؟ يا للسخافة”

ابتسمت في سري لتعليقه الذي جاء في لحظة تفكيري به.. لكن لم أعلق بكلمة، كما لم يفعل أحد حولنا، ونحن نتجاوز الحراس عند البوابة وندلف الساحة المحيطة بالمنجم.. تفرق جمعنا بعد أن ابتعد القدماء منا إلى أعمالهم التي تعودوا عليها ولا يبدو أنهم يبدلون أبدأ.. بينما وقفنا نحن الجدد في جانب المكان وظللنا ننظر حولنا للوجوه التي لم يبد عليها أي راحة وسرور.. يبدو أن هذا سيكون حالنا قريباً جداً، ولم يكن هذا مشجعاً أبداً..

وجدنا الحراس يقومون بتقسيمنا إلى مجموعات أصغر، ويبدو أن هذا قد تم مسبقاً بالنظر إلى قدراتنا الجسدية.. ولذلك وجدت أنني، مع اثنين آخرين، قد انفصلنا عن البقية، وقادنا أحد الحراس إلى قلب المنجم..

رؤية المنجم من بعد لم تكن أكثر إبهاراً من رؤيته من قلبه.. بحجمه الكبير والطريق اللولبي النازل للأسفل حتى

يصل لقاعه الذي يقل عن السطح بـ ٣٠٠ متر على الأقل.. نزلنا باستخدام رافعة عبارة عن قطعة مسطحة من الحديد، وباستخدام إحدى الرافعات عليها، فإنها تنزل بشكل تدريجي ومائل حتى تصل القاع المسطح والواسع للمنجم، حيث تربض الحاويات الضخمة والتي تنتظر تعبئتها بالمادة الخام.. إذ يبدو أن حجمها لا يسمح بإدخالها إلى قلب المنجم، والاكتفاء باستخدام عربات أصغر تسير على سكك خاصة بها وتدلّف من بوابات المنجم المختلفة المؤدية تحت الأرض في أنفاق طويلة..

بعد وصولنا للأسفل، جَعَلْنَا الحارس نحمل بعض المعدات اليدوية، ثم طلب منا دفع إحدى العربات الثقيلة نوعاً على السكة باتجاه المدخل الذي كتب جواره على لوح صغير رقمه المكون من حرف انجليزي ورقمين.. شيئاً فشيئاً تقدمنا في النفق الذي بدأ يظلم شيئاً ما ولا ينييره إلا أنوار متفرقة على طوله.. بدأ النفق طويلاً طويلاً جعلني أتساءل عن المدى الذي يشغله تحت الأرض، مع بقية الأنفاق التي يبدو أنها تشكل شبكة كبيرة غير ظاهرة للعيان في الأعلى.. فبعد بعض السير تقاطع نفقنا مع آخر، ورأيت في ذلك النفق رجلين يدفعان عربة أخرى محملة بأحجار سوداء كبيرة، تعكس بعض النور مما يجعلها تلمع قليلاً، ولا تشبه الفحم الأرضي أبداً.. بعد بعض الوقت، وقف بنا الحارس في بقعة أوسع قليلاً، وأشار لجهة منها حيث تتداخل الصخور العادية مع الأحجار السوداء وهو يخبرنا بكلمات مختصرة عن طبيعة عملنا وما يجب أن نفعله، أو لا نفعله.. باختصار، كان عمل الشابين معي هو استخراج الأحجار السوداء من بين الصخور، والحرص على عدم تقنينتها وإبقائها كأكبر حجم ممكن.. بينما عملي هو في التقاطها، وتخليصها مما علق بها من بواقي الصخور، وتعبئة العربة بها.. ومتى ما تمت تعبئتها أقود العربة عائدة للخارج وأسلمها لمن يستخرج ما بها وينقله للحاويات الضخمة، فيما أعود بالعربة الفارغة لموقعي الأول..

بصمت، بدأنا عملنا بشيء من التردد والحارس يقف قريباً يراقبنا، ولا ينسى زجرنا إن بدا منا أي خطأ أو تهاون في العمل..

كان الجو حاراً نوعاً ما، جافاً ويثير التعب بسرعة.. لكن لا يحق لنا الشكوى بالطبع ونحن نهمك في عملنا محاولين عدم التفكير في طول الساعات التي سنقضها في هذا العمل المتعب.. ورغم أنني تساءلت عن حال الفتاة الرقيقة في هذا العمل، وهل ستقدر على الصمود حتى آخر النهار أم لا؟.. شعرت بضيق في أنفاسي وأنا بطبيعتي أكره البقاء في مكان يخلو من التيارات الهوائية ولو على شكل نسيمات خفيفة.. أكره الأماكن التي يظل الهواء فيها معلقاً كثيفاً تكاد تلمسه بيديك.. لكن من أين لي بهذه الرفاهية في هذا المكان وهذه الظروف؟..

الفصل الثالث

[أسماء]

مضى نهارنا الأول في العمل طويلاً ومملاً حقاً، لا تقطعه أي فترات للراحة، بخلاف التي بالكاد حصلنا عليها لتناول الغداء الهزيل الذي زدونا به.. وللأسف وقتها لم يسمحوا لنا بالخروج من المنجم، بل تناولنا الطعام كل في موقعه، وعدنا بعدها للعمل دون أي راحة.. لذلك عندما سمعنا النفير المزعج الذي دلّ على انتهاء العمل، كما أوضح لنا الحارس، تنهدنا براحة وقمنا بدفع العربية شبه المليئة بالأحجار خارجاً ونحن غارقون في التعب والعرق والغبار.. بأيدي مسودة من غبار الأحجار ومتقطعة من العمل، وبأقدام متورمة لطول الوقوف ومتقرحة حتى لا أشك أنها أغرقت الحذاء بالدماء..

وعند خروجنا، ونحن نرى ما أمامنا بشيء من العسر بعد الظلام الذي كان يغمر أغلب المواقع في الأنفاق، لم نجد أن حال الآخرين بأفضل منا.. بل إن أحد الرجال كان يلف يده بخرقة بيضاء تلطخت ببعض الدماء، ربما جرح أثناء عمله، لكن لم يبد على أحد الرغبة بمعالجته.. أوقفنا العربات في موقعها، وساعدنا في تحميل محتوياتها في الحاويات التي فور امتلائها انطلقت في طريقها عبر السكة للمستودعات القريبة من الإدارة، وعلى كل حاوية حارسين بسلاحيهما، مما جعلني أتساءل عن الخطر الذي يهدد الحاويات في مكان كهذا.. وأخيراً، سُمح لنا بالعودة للمساكن، فخرجنا من البوابة بعد أن تم تفتيشنا بعناية مرة أخرى.. وطبعاً تدمر الرجل الأجنس من هذا، وإن استسلم لهم حتى انتهوا.. وفور خروجنا رأيت الفتاة الناعمة تقترب مني وتهمس “هل أنت بخير؟”

ابتسمت بجانب فمي معلقة “يجب أن أسألك أنت هذا السؤال.. تبدين بحالة مزرية”

كانت بالفعل بحالة يرثى لها من التعب والإنهاك.. فلم يبد أن الحراس قد ترفقوا بها في العمل رغم ضعفها الجسدي.. لم تعلق على سؤالي، فسرنا بصمت وتناقل مع الآخرين في طريقنا عبر المساحة التي تفصلنا عن الغابة، مع النور الذي غرق وسط الظلمة التي بدأت تخيم على الكويكب.. لكن كان طريقنا مضاءاً بأنوار متفرقة والتي بدا أنها تصل حتى المساكن..

بعد أن اجتزنا تلك المساحة المنبسطة، ودفنا الغابة يتبعنا عدد من الحراس، انتبهت لنظرات ثلقت من حين لآخر حولنا.. كان أصحابها، وهم بعض الرجال الجدد الذين أتوا معنا في السفينة الفضائية، قد خففوا مشيهم وهم يتبادلون النظرات الحادة والتي بدا أنها تقول الكثير.. ترى أي حماقة يخططون لها؟!.. لم أكد أنهى تساؤلي حتى فوجئنا برجلين منهم ينقضان على حارسين قريبيين، فيلكرمانهما بقوة كادت تسقطهم، قبل أن يستغلا الارتباك الذي جمّد الجميع وهما يهربان مع رفاقهم متخفين بين أشجار الغابة.. كانوا خمسة رجال، وقد رأيت شاباً آخر ليس

منهم يسارع لاستغلال الفرصة والهرب بدوره وسط تصايح بقية الحراس..

تحامل الحارسان بعد الهجوم المباغت، فيما قام ثالث بالاتصال بالإدارة، وقام الحارسان الباقيان بالصياح في وجوهنا يأمراننا بالعودة للمسكن بصمت..

كان القدماء منا قد عادوا للمسكن دون تأخير، فيما بقي من بقي منا وهم بين مندهش لهذه الجرأة التي أقدم عليها أولئك الرجال، وبين متحسر على عدم استغلاله لتلك الفرصة التي قد تصبح نادرة فيما بعد.. لكن لم نتم أفكارنا عندما سمعنا تصايحاً من بعيد يحمل آلاماً لا توصف، فتجمدنا في مواقعنا نتبادل النظرات المندهشة.. كيف يمكن للمسؤولين في الإدارة تحديد الهاربين بدقة ومعرفة مواقعهم ومن ثم معاقبتهم؟ هل يحدث كل هذا بواسطة السوار في أيدينا؟..

زجرنا أحد الحراس قائلاً "هيا.. عودوا لمساكنكم دون إبطاء.. أولئك الحمقى قد نالوا جزاءهم على تجرؤهم عصيان الأوامر.."

عدت، تتبعني الفتاة وتكاد تتشبث بثيابي، إلى المسكن وأنا أزر بضيقة.. تلك المحاولات الفاشلة تزيد من يأسني وتشعرنني بضيقة عالمي الجديد الذي لا أملك منه فراراً.. رغم صمتي، واستسلامي الظاهر، إلا أنني في داخلي لم أقتنع بعد أنني سأعيش لسنوات هذه الحياة البائسة.. لست أقل من أولئك الرجال الذين حاولوا جهدهم التحرر من هذا الطوق، وإن كانت محاولاتهم فجأة نوعاً ما لا سبيل لنجاحها بأي حال..

لكنني أتأمل كل ما يجري بصبر وهدوء.. وفي يوم، لست أدري متى لكنه قادم لا محالة، سأمزق هذا الطوق وأستعيد حريتي بالتأكيد.. الصبر.. فقط قليل من الصبر وكثير من التخطيط..

عندما وصلنا إلى المسكن، فوجئنا بمن سبقونا وقوفاً وسط الساحة يحيط بهم جمع من الحراس.. وفور وصولنا أشار لنا أحد الحراس لننضم إليهم بصمت.. فأطعناه دون اعتراض والدهشة تغمرنا.. تتابع قدوم من بقي من السجناء، حتى تجمعنا، قرابة السبعين، في الساحة، بخلاف من حاولوا الهرب وسقطوا في أيدي الحراس.. بعد اجتماعنا، تقدم المساعد ليقف أمامنا غاضباً مقطب الجبين، وقال بحدة "ما حدث اليوم لن يمر مرور الكرام.. لقد أنذرتناكم مراراً عن التصرف بحماقة.. وقد تجاهلتم كل هذا بغباء فاحش"

قال الرجل الأجش من خلفي "لم تكن نحن لو لاحظت هذا.."

دست قدمه بشيء من الحقن.. إنه يسعى لتوريطنا أكثر مما نحن فيه بالفعل.. سمعته يزمجر بغضب خلفي، فيما قال المساعد بحدة أشد "خطأ رجل من هذا المكان هو خطؤكم جميعاً.. والعقاب سينالكم لكي تفكروا آلاف المرات قبل الاندفاع بحمق.. وعقابكم، سيكون بوقوفكم لبقية الليل هنا دون حراك.. ومن يحاول الاعتراض أو التحرك من موقعه فالحراس سيتأكدون أنه سينال جزاءه أمام الجميع.."

صاح أحد الرجال السمر بغضب "ما الذي يجبرنا على إطاعة أمر مجحف كهذا؟ لقد قضينا النهار بطوله في عمل متعب، ولن تسمحوا لنا بالراحة بعدها؟"

التذمرات تتزايد من حولي وإن ظلت خافتة بعيدة عن سمع الحراس.. لو طال الوقت أكثر من ذلك، فنحن الاثنان سنسقط أرضاً رغم كل التحذيرات..

رأيت أحد الحراس يتلقى اتصالاً من الإدارة، فتعلقت به الأعين بأمل عارم.. وبعد حديث قصير، التفت إلينا قائلاً: “يمكنكم العودة لمساكنكم.. وليكن هذا درساً لكم”

تعالت التنهدات من حولي والكل يتفرق بسرعة عائدين لمساكنهم محاولين استغلال ما بقي من الليل القصير في الراحة.. فالتفتُ للفتاة المستندة على ذراعي وقلت “هيا.. سنعود لمسكني.. هل تستطيعين السير؟”

وجدتها تسير خطوتين قبل أن تتعثر وقد تبيست قدماها لطول الوقوف.. وقبل أن أمسكها وجدت أن الرجل الأجنش الذي كان قريباً قد أمسك ذراعها قبل أن تسقط، وقال لها “هيا.. سأساعدك على السير”

نظرت له بذعر غير مفهوم، ثم تمت بكلمات لم أفهمها أنا ولا هو كما يبدو.. لكني قدّرت أنها لا ترغب بمساعدته، أو أنها تخافه كما بدا في عينيها، فعدت أسندها بذراعي وأنا أقول له “شكراً لك.. سأتولى أمرها بنفسي”

فقال بابتسامة جانبية “إذن.. أراك صباحاً.. يا حمراء”

مططت شفتي بضيق ظاهر تجاهله هو وابتعد عنا عائداً إلى مسكنه.. لست أدري ما يغري بمضايقتي واستفزازي بهذه الطريقة.. يجب أن أضع حداً له قبل أن يتمادى أكثر من ذلك..

ساعدت الفتاة للعودة للمسكن الذي لم يكن بعيداً، فاستلقت على السرير على الفور وهي تعض شفثها بألم واضح.. تركتها لأغتسل وأبدل ثيابي، ولم نكن نملك إلا ثلاث قطع من نفس الرداء، وبالكاد استطعت إخراج قدمي من

الحذاء الثقيل.. وجدتها منقرحة شيئاً ما من طول الوقوف والعمل المجهد.. لكن لم أكن أملك ما أستطيع أن أعالجها به، فتأففت وأنا أعود للغرفة لأجد الفتاة قد غرقت في نوم عميق على السرير.. عندها قمت بخلع حذاءي

محاذرة أن أؤذي قدميها، وغطيتها بغطائها، غطائي سابقاً، وحملت الغطاء الآخر لأفرشه على الأرض في المساحة الباقية من الغرفة.. كانت الأرضية قاسية، لكنني لم أجد حلاً آخر وهي أكثر راحة من ذلك الكرسي

البائس، فاستلقيت على الغطاء متدثرة بما بقي منه بصعوبة.. ولم أملك ترف التأفف من وضعي وأنا أغرق بدوري في نوم عميق بدون مقدمات..

ضخم.. ضخم جداً.. الرأس مرفوع بالكاد والعينان متسعتان.. تقابلها ابتسامة وقحة وكلمات لزجة.. الخوف..
الذعر غير المتعل..

لقطات أقرب لفيلم هندي.. اختطاف.. مكان ناء.. وحدة شرسة.. صراخ يصم الأذن.. محاولات حقيرة.. دفاع مستميت.. ثم الضربة القاتلة.. تناثرت الدماء بعدها تلتخ الملابس والأرضية..

الزنزانة الحقيرة.. الخوف من المجهول.. ثم محاكمة صورية.. وإدانة ثابتة..

أوراق يتم توقيعها.. الكثير الكثير من الأوراق الموقعة.. وإبهام مصبوغ يصم على جانبها.. إبرة تخترق الذراع.. وألم يسري مع المادة التي تغلغت في الوريد.. ثم ظلام تام..

في اليوم التالي، نهضنا بأجساد مضعضة ومزاج متعكر ونحن بالكاد نستطيع رفع رؤوسنا على أكتافنا.. خاصة من كان البارحة هو يومه الأول في المنجم، فهذا معناه أن التعب كان مضاعفاً لعدم تعودنا عليه.. أنا متأكدة أن أولئك الرجال الذين فكروا بالهرب لو عادوا للمساكن سيقوم الآخرون بتقطيعهم إرباً وتعليقهم على الأعمدة التي تحوي أجهزة المراقبة المحيطة بالمساكن..

انطلقنا في اتجاه المنجم بعد الإفطار القليل الذي لم نتعود عليه بعد.. وازداد تذمر الرجل الأجدس اليوم من كميته، إذ يبدو أنه لم يكفه البارحة حتى وقت الغداء، والذي لم يكن بأفضل حالاً من الإفطار.. وللمرة الثانية زجره الحارس بحدة دون أن يجيب طلبه.. فغمغمت وأنا أمر به بسخرية “لو أنك كففت عن التذمر لما احتاج جسدك لكمية طعام تزيد على الآخرين..”

وابتعدت قبل أن أتلقى تعليقا مستفزاً أكثر من الذي ألقيته، فوجدت الفتاة تتبطني بتلقائية ونحن نتجه مع الآخرين باتجاه المنجم يحيط بنا الحراس كالعادة.. فقلت لها متعجبة “هل تعتبريني كالأب الروحي مثلاً؟” ظلت تنظر لي بدهشة وغير فهم، ثم قالت وقد استوعبت ما قلته “أنا أطمئن للبقاء قربك أكثر من البقية.. وطبعاً أكثر من الرجال حولنا، وهم كثر..”

فسألتهما وتعجبي يزداد "يبدو ذعرك غير طبيعي بالمرة.. أنت ضعيفة حقاً، لكن هذا لا يبرر الذعر غير المفهوم الذي تحمليته تجاه الرجال جميعهم، حتى من كان يحمل نوايا طيبة تجاهك.." قالت مطرقة "هذا شيء لا أملكه.. أنا أخشاهم جميعاً.. ولا يساعدي فقدان ذاكرتي ولا المكان الذي نحن فيه في تهدئة نفسي قليلاً.."

فقلت هازة كتفي "أنت مدركة أنني لن أفيدك في شيء.. أليس كذلك؟ مهما كنت سأبقى فتاة لا حول لها ولا قوة.." ابتسمت ابتسامة صغيرة معلقة "لا أظن ذلك البتة.."

ابتسمت بدوري باستغراب، هل تتوقع مني أن أعمل كحارس شخصي لها؟ لكنني لم ألمها على فكرتها هذه، فمقارنة بها، وبسيري جوارها، أبدو بالفعل كحارس شخصي لها.. ولا أستغرب اعتمادها عليّ فهي تراني بالقوة الكافية لأدافع عنها، مقابل نعومتها هي الزائدة عن الحد..

سمعنا هديرًا على شيء من المبعدة، فتوقفنا جميعاً ونظرنا خلفنا لنرى السفينة الفضائية التي أتينا بها تهدر وهي ترتفع في السماء بشيء من السرعة مخلفة خلفها خيطاً رقيقاً من الدخان.. رغماً عني، شعرت بمرارة وأنا أرى السفينة تغادر.. وكأن خيطاً كان يصلني بالأرض وقد انقطع فجأة..

لكن الحراس لم يمهلونا وهم يستعجلوننا بتهديد.. فتنهدت ونحن نكمل طريقنا باتجاه المنجم.. ولاحظت أثناء ذلك كآبة تخيم على الفتاة.. فسألتهما "ما الأمر؟ هل أنت متعبة؟"

هزت رأسها نفيًا، ثم قالت بحيرة "رأيت أحلاماً مفزعة الليلة الماضية.. لدرجة أنني أشعر بارتجافة في أعماقي حتى الآن.. لكنني لا أذكر أيًا منها"

لم أعلق وأنا أفكر في حالها.. قد يكون هذا الحلم يحمل شيئاً من ماضيها الذي نستنه.. كما يحدث معي أحياناً.. ثم سمعتها تضيف بصوت مرتجف "كل ما أذكره هو الدماء.. كان هناك الكثير منها.. على يدي، وعلى ملابسي، لكنني لم أكن جريحة بأي شكل.. وهذا ما يفزعني"

قلت محاولة تهدئتها "لا داعي لكل هذا الفرع.. ستعود لك ذاكرتك بالتدريج وستعرفين كل شيء.. وقد تكون هذه مجرد أحلام نابغة من خوفك الشديد مما حولك.."

لم يبد عليها أنها أصبحت أهدأ حالاً، وقطع حديثنا اقتربنا من البوابة الخاصة بالمنجم، فصمتنا ونحن نجتازها بعد التفطيش الدقيق، لينطلق كل منا إلى عمله بصمت..

عندما عدت لمسكني تلك الليلة، وجدت الفتاة قد استولت على سريري كالعادة وغرقت في نوم عميق.. يبدو أنها قد أعلنت هذا المسكن لها.. فهل أتركه لها وأغادر؟ أعتقد أنني سأكون أكثر راحة لو احتلت مسكنها ونمت على

السريير للمرة الأولى منذ قدومنا..

تهدت وانشغلت بالاغتسال، ثم استلقيت كالعادة على الأرض القاسية والتي لا يخفف من قسوتها ذلك الغطاء تحتي.. ظللت أنظر للسقف المنخفض العاري من أي شيء، حتى من صبغ يغطيه.. وحتى بعد انقطاع الأضواء ظللت أحرق فيه وأفكاري تدور كالعادة.. غداً هو يومنا الرابع في الكويكب، والثالث في العمل.. وحياتنا تدور في دوامة واحدة من العمل والنوم.. لا نكاد نتبادل أي أحاديث جانبية عن أي شيء، فما الذي سنتحدث عنه؟ حياتنا التي لم نعرفها قبل استيقاظنا في السفينة الفضائية؟ أسماؤنا.. أحلامنا.. ماضينا الذي غيَّبه النسيان؟ أم حاضرننا المتشابه المكرر الذي لا يختلف بين شخص وآخر منا، رجلاً كان أم امرأة؟..

يبدو أن أفكاري أصبحت تميل للسوداوية، ونحن لازلنا في اليوم الثالث هنا.. فما الذي سأفعله بعد أسبوع، شهر، سنة، أو سنوات كثيرة من التكرار الممل؟.. هل سأطبق حياة كهذه؟.. لا.. قطعاً لا..

مرة أخرى أوقن أن استسلامي لوضعي هذا مستحيل.. لا بد أن أسعى للفرار، للبحث عن سبيل للعودة للأرض، مهما تطلب مني ذلك من تضحيات.. ورغم أن المحاولات اليائسة التي رأيتها منذ قدومي لا تشجيني كثيراً، إلا أن هذا لن يثنيني أو يكسر إرادتي.. لكنني لن أكون مستعجلة أبداً.. سأخطط للأمر بهدوء..

نظرت للسوار في يدي.. كل الأمور تبدأ من هذا السوار.. يبدو التخلص منه مستحيلاً، لكنه هو العقبة الوحيدة أمامي.. إن نجحت في نزعه، فقد أسقطت نصف العبء عني..

نظرت للفتاة النائمة بسلام على السريير، ثم استدت وأغمضت عيني محاولة الحصول على راحة استعداداً لليوم الشاق غداً.. قطعاً لن أخبرها بشيء مما اعتزمته.. لست أنوي توريطها معي، أو أي شخص آخر.. ولست أنوي زيادة القيد الذي يقيدني لهذا المكان..

مضى علينا يومان ونحن في هذه الدوامة المزعجة.. لم تغدُ حياتنا أكثر سلاسة، ولم يصبح العمل أسهل وأكثر راحة.. لم نتألف مع بعضنا البعض ونحن مرغمون على البقاء معاً رغم اختلافنا..

الوحيدة التي تقربت مني هي الفتاة الرقيقة، التي أشعر أنها تلوذ بي ممن حولها.. فهي تستعين بي أكثر من استعانتني بها.. ولا أنسى الرجل الأجل الذي ما فتىء يستقزني ويخوض معي جدالات عقيمة.. لا أعلم هدفه من هذا، لكنني أفضل الإبقاء على حدود بيني وبين الآخرين.. لا أحب رفع الكلفة دون سبب، وقطعاً لا أحب أن يرفعها غيري دون إذن مني..

تلك الليلة، بعد يومين متعبين، خرجت من مسكني وجلست على صخرة قريبة منه وأنا أتأمل الجمع من حولي.. كان أغلب السكان يخلدون لمساكنهم ويغرقون في النوم فوراً بعد العمل الطويل الشاق.. لكنني لم أحبذ فعل هذا..

بعد يوم شاق ومؤلم ومرهق، من حقي أن أحظى ببعض الوقت لنفسي أتأمل الطبيعة من حولي رغم أنني أشعر بذراعيّ متشنجتان من الألم..

أستمع حقاً بلحظات الصمت هذه.. حيث لست مجبرة على الحديث مع أحد ومجاملته بردود عقيمة.. أتمنى أن أخلو بنفسني بعيداً عن الآخرين، لكن الحراس الذين يحيطون بالمسكن لن يسمحوا لي بالابتعاد فقد جربت هذا من قبل.. وقوبلت برفض قاطع مع تهديد بالإحالة لمبنى الإدارة وما يتبع ذلك من عقوبة أجهلها.. لذلك اكتفيت بالجلوس قرب مسكني وتجاهل من يمرّ بي ويتجاهلني بدوره.. لكن يبدو أنه مكتوب على جيبني أنني أشعر بالوحدة، إذ سرعان ما رأيت الفتاة تخرج من مسكني، الذي أصبح مسكنها بالمناسبة، وتجلس قربي وهي تمنحني ابتسامة متعبة وكأنها تخبرني بتضحيتها بوقت راحتها لكي أنعم بصحبتها.. يبدو أنني سأضطر للإفصاح عن مكنون عقلي كي يفهمني الآخرون إذ غالباً ما تُفهم نظراتي خطأ..

لم يطل الوقت حتى وجدت الآخرين، الأجنس والهاديء، يقتربان منا عارضين صحبتهما لنا.. يا إلهي.. يبدو أن الخلوة التي كنت أطمح لها طوال النهار قد تبخرت تماماً..

التزمت الصمت التام وأنا أركز بصري على يديّ علّ أحداً يفهم عدم رغيتي بالحديث.. بينما انشغلوا هم بيضع أحاديث عادية عن المكان والعمل الذي قاسيناه.. بدا همّ الرجلين منصباً على الفتاة التي يبدو أنهما مقتنعان بعدم قدرتها على القيام بأي عمل مجهد.. كانا يسألانها بتفصيل عما فعلته في يومها وهي تجيبهما بارتباك.. وبعد فترة قصيرة سمعت الهاديء يسألني "وأنت؟ هل كان يومك متعباً؟"

نظرت إليه لوهلة غير مدركة إن كان يوجه سؤاله لي أم لا، وقبل أن أجيب سمعت الأجنس يقول "حمراء تبدو قوية الجسد.. لن يتعبك العمل في المنجم أبداً.. أليس كذلك؟"

نظرت له بغيظ.. أكره التصنيفات التي يطلقها الناس عليّ بعد رؤية مظهري.. فقلت بلهجة لاسعة "لست أنتظر اهتماماً منك كي تخفف عني ثقلي.."

قطب الأجنس بحنق فيما قال الهاديء قبل أن ننفجر في بعضنا البعض كالعادة "حسناً.. نحن نريد الاطمئنان عليكما فقط.. بصراحة العمل في المنجم مرهق ومؤلم كثيراً، ولا يبدو أنهم يترفقون بالنساء أبداً بل جلّ همهم إنهاء العمل المقرر لكل يوم في الوقت المحدد.."

صمتُ عن التعليق من جديد والفتاة تقول لي "لا داعي للغضب فكلنا يجب أن نساعد بعضنا البعض في هذا المكان"

قلت لنفسي "أنت المستفيدة الأولى من هذا هنا فستحصلين على مساعدة الكل دون مقابل" ثم سمعت الرجل الأجنس يقول "أقترح أن نطلق على أنفسنا أسماء نختارها.. هذا أفضل من الألقاب وأسهل في الحديث بالنسبة لنا.. أليس كذلك؟"

قلت دون أن أرفع رأسي "هذا سهل.. سأسميك أجنس.. فأنت أجنس الصوت ويمكن تمييزه من على مبعده"

قال بحق "ماذا؟ هذا ليس اسماً.."
فقلت بتحدٍ "وحمراء ليس اسماً أيضاً.."
حك خده بأصابعه مغمغماً "لكنه يليق بك كثيراً.."
قطبت وأنا أهم بلسعه بلساني من جديد، لكن الرجل الهاديء قاطعني "فكرة جيدة.. ليختر كل منا اسماً يرى أنه الأقرب إليه.. قد يتضح فيما بعد أنها أسماؤنا الحقيقية واخترناها بدون وعي.."
صمتنا مفكرين بعمق، لكن كانت الفتاة أسرنا وهي تقول "سأختار بسمه.. لست أدري لم، لكنه يرن في ذهني منذ مدة.."
ونظرت لي بتردد مغمغمة "أليق بي؟"
لو كانت هذه الفتاة تعتقد أنني سأتحمس وأخبرها أن الاسم يمثلها تماماً فهي واهمة.. اكتفيت بهزة رأس وأنا أفكر من جديد في اسم لي.. فيما قال الرجل الهاديء "أعتقد أنني سأختار اسم أمجد.. هو الوحيد الذي لمع في ذهني.."
نظرت للرجل الأجدش فوجدته لازال يحك رأسه بحيرة.. يبدو أنني لست الوحيدة التي تجد الأمر صعباً.. ثم قال "عمر؟.. أدهم؟..... سامر؟ أعتقد أن اسم وسيم لا يليق بي.. أليس كذلك؟"
تساءلت وأنا أكتم ضحكتي "ألا تستقر على اسم واحد؟"
قال بحيرة "لا أدري.. الأمر ليس بالوضوح الذي توقعته.. ما رأيكم؟"
قلت بسرعة "أدهم يناسبك تماماً.. فكل ما فيك أسود اللون.."
نظر لي بغيظ ثم قال "حقاً؟.. وماذا عنك؟"
أطرقت للحظات قبل أن أغمغم "لا أدري.. لا يرن اسم في ذهني أبداً.. لا أذكر أي اسم بتاتاً.."
قال أمجد متلطفاً "اختاري أي اسم يعجبك.. الأمر ليس بهذه الصعوبة"
قلت هازة رأسي بحيرة "لا أعرف أي اسم يمكن أن أختاره.. عقلي فارغ تماماً من هذه الناحية.."
فقال الأجدش / الذي يبدو أنه استقر على اسم أدهم / ساخراً "إذاً ستظلين حمراء.."
اعترضت بسمه قائله "ولم لا نختار لها اسماً جميلاً؟ ما رأيك؟ نجلاء اسم يليق بك كثيراً"
نظرت لها باستنكار.. اسم كنجلاء بنظري يليق بفتاة ناعمة كحيله الطرف.. لا فتاة مثلي هي أقرب لصبي..
هزرت رأسي رافضة، لكنها هتفت "إنه يناسبك تماماً.."
وقال أمجد "إن لم تختاري اسماً آخر فاقبلي بهذا الاسم ولو مؤقتاً.."
قال أدهم "أنا مصرّ على اسم حمراء.."
حدجته بنظرة حادة، ثم اعتدلت في جلستي وقلت "حسناً.. سأقبل به.."
فنهض أمجد قائلاً "هذا جيد.. لنخذ للنوم فغداً يومنا سيكون شاقاً"
تبعته بسمه بالابتعاد فيما ظللت أتبادل النظرات الحادة مع أدهم.. وقبل أن يفتح فمه قلت له بصرامة "لو ناديتني

بحمراء مرة أخرى سأقتلك"
ونهضت مغادرة دون أن أعبأ بالضحكة العالية التي أطلقها خلفي..

الفصل الرابع

[غرفة العزل]

بعد عدة أيام، وبينما أنا أسير باتجاه المنجم مع البقية، منشغلة بتفكيري كالعادة، تردد صوت خلفي ينادي
"نجلاء.. نجلاء.."

لم أنتبه للأمر كثيراً وأنا أنظر للسوار في يدي، محاولة التفكير في طريقة للتخلص منه، عندما سمعت أدهم يقول
بصوت عالٍ "حمر الاء.."

التفتُ على الفور لأجده مع أمجد خلفي، فقال أدهم مبتسماً "أخبرتكَ أنها لن تستجيب إلا لهذا الاسم.."
قطبت بشيء من الحنق، لتعليقه ولأنه أصاب فيه، فيما قال أمجد وهو يقترب مني "لقد ناديتك عدة مرات.. لكنك
لم تستجيب لي.."

غمغمت بأي عذر وإن بدا غير مفهوم.. فقال أمجد وهو يسير جوارِي "أتذكرين حديثنا عن محاولات الهرب
السابقة؟"

هزرت رأسي إيجاباً، كنت قد سألتُه إن كان قد سمع من السجناء القدامى عن حادثة نجح صاحبها في الهرب من
هذا السجن الكبير.. فقال لي "لقد أخبرني أحد الرجال ممن يعملون قربي في المنجم عن حادثة حصلت منذ سنة
تقريباً.. يبدو أن الرجل الذي نجح بالهرب كان ذا ذكاء أعلى من الآخرين.. لقد انسلّ من بين الحراسة المشددة
دون أن ينتبه له أحد الحراس قبل مرور ليلة كاملة.. فقط عندما أدركوا أن موقعه في المنجم شاغر قاموا بالتبليغ
عنه.. ويبدو أنهم استغرقوا وقتاً في تحديد موقعه، ولم يتمكنوا من الإمساك به رغم ذلك.. ما سمعه الرجل عن
ذلك الهارب أنه نجح في اختراق الحراسة حول الإدارة بعد يومين من الاختباء.. وتسلل لإحدى السفن الفضائية
التي يتم إعدادها للرحيل.. لكن أمره كشف قبل وصوله للأرض، ولا يعلم أحد ما فعلوه به بعد ذلك.. إنما علمَ

الرجل الذي سألتُه بخبره من أحد الحراس بعد أن ألحّ بالسؤال عنه"

تساءلت بتعجب "لكن كيف لم يستطيعوا القبض عليه باستخدام السوار؟"

أجاب أمجد "لا أحد يعلم، لكن يبدو أنه اكتشف طريقة لتعطيله.."

فغمغمت باهتمام "إذن هذا السوار ليس منيعاً كما يدّعون.. جيد جداً.."

تساءل أدهم "ما الذي تطمحون إليه من قصة كهذه؟ هل تنوين الهرب؟"

قلت بابتسامة "أكون حمقاء لو فكرت بذلك قبل أن أجد حلاً لهذا السوار.. أليس كذلك؟"

قال أدهم "هذا ليس جواباً بالنفي لو لاحظت ذلك.."

ابتسمت دون أن أجيب، فقال أمجد "لو دار هذا بخلدك فاصرفي النظر عنه تماماً.. إنهم لا يتهاونون بمن يحاول

الهرب أبداً.."
قلت وابتسامتي تتسع "لا تقلق.."
فغمغم أدهم "وهذا ليس نفيًا أيضاً.."
لم أعلق أو يفعل أمجد ونحن نصل للمنجم مع البقية..

مضى علينا أسبوع وأنا أحاول إيجاد طريقة للتخلص من هذا السوار.. لن أتقدم بحال إن لم أعثر على هذه الطريقة، خاصة بعد أن علمت أن هناك من نجح في هذا قبلي.. انشغلت بالتفكير وأنا أتناول إفطاري، عندما سمعت بسمه تهتف وهي تقف فجأة "حمراء.. لنسرع بالذهاب.. لقد ابتعد الآخرون كثيراً عنا" حدجتها بنظرة حادة وأنا أتخلى عن طعامي وأقف متسائلة "حمراء؟" اكتسى وجهها بشيء من الحمرة وهي تغمغم "أسفة.. لقد خرج الاسم من لساني عفويًا.. يبدو أن إصرار أدهم على مناداتك به قد أثر بي أيضاً.."
فصمتُ دون تعليق وأنا أسير معها تجاه المنجم.. يبدو أنني قد بدأت أتقبله أنا الأخرى.. وهو أنسب لي من اسم نجلاء قطعاً.. والدليل على ذلك أنني أستجيب بسرعة لمن يناديني به، بينما أستغرق بضع ثوانٍ لأستوعب الأمر عندما ينادوني باسم نجلاء.. حتى أمجد لم يعد يناديني به بعد أن يؤس من استجابتي له بشكل طبيعي.. رأينا في تلك اللحظة أمجد يقف مع ثلاث رجال في منتصف الطريق إلى المنجم، اثنان منهما ضخما الجسد والوشوم تكسو جسدهما، والثالث طويل وإن كان بغير ضخامة.. همست بسمه معلقة "لا يبدو أنهم ينون به خيراً.."

كانت وجوه الثلاثة مكفهرة غاضبة، بينما أمجد هاديء كعادته يحدثهما بكل برود.. ومع غياب الحراس، بعد مضي عدة أيام وتعودنا على الطريق، فإن الموقف لم يكن مطمئناً.. وقفت مانعة بسمه من التقدم وأنا أنظر لهم مقطبة، هؤلاء الثلاثة معروفون بشرهم والكل يتجنبهم ويتفادى الدخول معهم حتى في أحاديث عادية.. فما الذي ورط أمجد معهم؟..

بعد قليل، رأيت الضخم يدفع بقبضته أمجد في كتفه حتى كاد يسقطه.. لا يبدو أن أمجد ندُّ لهم بأي حال، فقلت لبسمه "أذهبي ونادي أقرب حارس منا.."

عادت أدرأجها على الفور تبحث عن حارس، فيما قلت أنا بصوت عالٍ "أحد الحراس قادم إلى هنا.."
التفتوا ينظرون إليّ، فأضفت "لقد ناديناها بالفعل.."
ظلوا ينظرون لي بتكذيب، وقبل أن ينبس أحدهم بحرف سمعتُ صوت أدهم من خلفي يقول "ما الذي تفعلونه

هنا؟”

نظروا لأدهم الذي اقترب وخلفه بسمة، ثم تراجع الرجال الثلاثة مبتعدين وأحدهم يتمتم بكلمات لأمجد لم تصل لسمعنا.. ثم ابتعدوا متجهين إلى المنجم بصمت.. يبدو أنهم نوعاً ما يخشون أدهم بعد حادثة جرت له في المنجم مع أحد السجناء ولم يسلم منها السجن بعد أن أذاقه لكمة كادت تكسر فكه.. ولولا غفلة الحراس عن الحادثة لقضى أدهم ليلته تلك في العزل.. اقتربنا من أمجد وأدهم يتساءل “ما الذي أراده أولئك الأوغاد؟” قال أمجد “لا شيء.. حصل بيننا جدال في المنجم منذ أيام بسبب العمل.. وهم حائقون لأن الأمر وصل للحراس وقد يلقون عقاباً على ذلك”

فعلق أدهم “كان عليك تجنبهم بأي طريقة.. مثل أولئك الرجال غدارون بطبعهم، ولا تعلم متى سيقروون الانتقام منك”

لم ينبس أمجد بكلمة وهو يكمل طريقه تجاه المنجم.. فسرنا بدورنا معه وبسمة التي جاءت خلف أدهم تغمغم “الحياة هنا ليس آمنة أبداً.. الكثير ممن حولنا هم مجرمون سابقون، لذلك لا نستطيع أن نأمن على أنفسنا معهم أبداً”

قال أدهم “لا تنسى أنك أيضاً مجرمة سابقة.. وإلا ما كنت هنا..”

علقتُ قائلة “هذا ما يقولونه هم.. لكن لا شيء يؤكد ذلك..”

نظر لي أمجد بتعجب معلقاً “أتظنين أنهم كاذبون؟”

قلت مقطبة “هذا ما أكاد أجزم به.. لكني لا أملك الدليل على ذلك.. يغيظني حقاً أننا فاقدون لذاكرتنا تماماً.. لقد

قالوا إنها ستعود لنا تدريجياً، لكن هذا لم يحدث عدا عن ومضات متفرقة لا نفهم منها شيئاً”

قال أمجد “إذن لا شيء يدعم فكرتك هذه.. فلا تجعلي الأمر يتضخم في عقلك ويشغل تفكيرك..”

غمغمت وأنا مستمرة في سيرتي “على الأقل، هذا أفضل من التفكير في هذه الحياة البائسة التي نحياها..”

لم يعلق أحد على قولي ونحن نصل للمنجم ونتفرق كالعادة..

علا الصراخ في الغرفة جاذباً انتباه الموظفين في الخارج..

صراخ عصبي وأثاث يتحطم..

زجاج النافذة تهشم بطاولة صغيرة ارتطمت به..

“أنت خدعتني.. الويل لك..”

رجلان مفتولي العضلات يهرعان للغرفة..

“أيها الوغد.. ستندم على هذا..”

عراك محدود.. وغضب بلا حدود..

“لماذا تفعل هذا بي؟”

لكن السؤال لم يجد جواباً والضربة القوية تسلبه الوعي بشكل تام..

في اليوم التالي، وفيما نحن نتناول إفطارنا، رأيت أدهم يتذمر، للمرة المليون، من قلة طعامه.. وللمرة المليون أيضاً تجاهله الحراس تماماً.. نظرت للطعام الذي بالكاد يسدّ الجوع، فلم أستطع لومه على تدمره.. لا بد أنه، بحجمه هذا، بحاجة لضعف الطعام الذي نتناوله.. ولا بد أنه، بسبب الحجم أيضاً، يقوم بضعف الأعمال الشاقة التي تقوم بها.. للمرة الأولى أتعاطف معه، ورغم كل ما يغطيني فيه، لكنني نهضت من موقعي دون تفكير، واقتربت منه حيث جلس متطرفاً عن البقية.. فدفعت بطعامي الذي لم أمسسه تجاهه وأنا أقول "خذ هذا.. ولو أنني أعلم أنه لن يسد جوعك أبداً"

نظر لي بدهشة، فأسرعت أضيف "ولا تحلم أن أكرر هذا الفعل مرة أخرى.."

علق قائلاً "لا يجب أن تتخلي عن فطورك وأمامك عمل شاق في المنجم.. ماذا لو أصابك دوار لقلة التغذية؟" ابتسمت مجيبة "لا تقلق.. لن يحدث ذلك.."

فقال بامتنان "شكراً لك.."

وانقض على الفطور لينهيه في ثوان.. أما أنا، فقد اتجهت من فوري للمنجم مع من أنهى فطوره.. وهناك، انشغلت بعلمي المعتاد بصمت.. حدثت عدة تغييرات في المنجم وتم تغيير موقع عدد كبير من السجناء، لكن لحسن حظي لم يحدث هذا لي، فأنا مرتاحة للهدوء، إن كنت أستطيع تسميته بذلك، الذي يعمّ البقعة التي أعمل فيها.. هناك القليل من العاملين فيها غيري، وجميعهم ملتزمون بالصمت أثناء العمل ولا يهونون الثرثرة.. لكن بدا أن هذا سيتبخّر سريعاً.. إذ تناهى إلى مسامعي حديث ثلاث رجال وأنا أعمل.. ورغم أنني حاولت تجاهل وجودهم، وأنا أحمل بعض الأحجار سوداء اللون إلى العربة القريبة مني، إلا أن كل حرف ينطقون به كان يصل لسمعي واضحاً وهم جاهلون لوجودي خلف جدار يحجبني عن أنظارهم..

سمعت أحدهم يقول "ذلك الوغد الذي يتذاكى علي.. من يظن نفسه؟"

وأضاف وهو يلکم راحة يده بقبضة يده الأخرى "لقد تدخل في عملي.. ويظن نفسه أكثر ذكاء مني.. لقد تسبب في توبيخي من قبل الحارس وحرمانني من غدائي.. وتم تهديدي بإدخالي في غرفة العزل أسبوعاً بسبب ما أتلفته.."

علق الثاني "إنه ضعيف الجسد.. لكمة مني ستسقطه بكل سهولة.."

ابتسمت في سري.. إنه التعبير ذاته الذي استخدمته لوصف أمجد.. وسمعت الثالث يقول "لابد أن نعلمه احترام القدامي في المكان.. نحن هنا قبله، وهذا يمنحنا ميزة سيندم إن تغاضاها.."
تأفتت قليلاً وأنا أفكر بتفاهة أولئك الرجال بعقولهم القاسية.. يبدو أن من يتحدثون عنه سيواجه أوقاتاً عصيبة معهم.. لكن هذا ليس من شأني ولا أعلم عن يتحدثون..

تساءل الأول "وماذا عن الرجل الذي معه؟ ذلك الضخم الذي يبدو غير هيّن بالمرّة.. يبدو أنه ممن كانوا يمارسون إحدى الرياضات الجسدية.. لكمته ليست هينة أبداً.."

قال الثالث بثقة "ذلك الذي يدعونه أدهم؟.. لا أعتقد أنه سيدخل في كل مرة.. ثم إنه يعمل في موقع بعيد عنا، ولن يستطيع القدوم لنجدة رفيقه في الوقت المناسب.."

اتسعت عيناى وأنا أستوعب عن يتحدثون، ثم شحذت أذناى وأنا أنتبه لأحاديثهم أكثر، وألقيت عليهم نظرة من خلف الجدار لأجدهم هم الثلاثة الذين رأيناهم مع أمجد من قبل.. وسمعت الثاني يضيف "ماذا تنوي أن تفعل؟ لا أنصحك بالتعرض له في موقع العمل فالحراس متشددون من هذه الناحية.. أما إن حدث شيء في المسكن فلن يتدخلوا أو يشغلوا أنفسهم به.."

قطبت حانقة.. عليّ إبلاغ أمجد وأدهم بما سمعته.. لا يمكن أن أصمت وأدعم المنتقمون من شخص لا ذنب له في خطأ ارتكبه هم..

سمعت أحد الرجال يقول "اسمعوا.. لديّ خطة.. يمكننا أن نورطه في مشاكل مع الحراس أقل ما سيحصل عليه بعدها هو العقاب والعزل.. ما رأيكم؟"

كان ما سمعته أكثر مما أطيق، فخرجت من موقعي متقدمة تجاههم والغیظ يشتد بي.. لست أدري بماذا أهدف مما أفعله، لكنني لم أسأل نفسي وأنا متأكدة من وجود الحراس قريبين مما سيردع الرجال من التعرض لي.. اقتربت منهم مسافة معقولة وقلت بصوت عالٍ "أنتم.. ما هذا الذي تتفوهون به؟"

نظروا إليّ وقد علت المفاجأة وجوههم.. ثم قال صاحب الوشوم "ابتعدي يا هذه ولا تتدخلی.. وإن تفوهت بكلمة فعقابي سيكون قاسياً على فتاة مثلك"

درت بنظري حولنا لأتأكد من وجود بعض الحراس قريباً منا، ثم قلت للرجل ذو الوشوم "اسمع.. أنا لن أصمت لما قد تفعله بأمجد.. إياك أن تقترب منه أو تؤذيه.. وإلا أبلغت الحراس بكل شيء"

أطلق الرجال ضحكات هازئة قبل أن يقول الثاني "أعتقد أن ذلك الرجل سيكون فخوراً بوقوف فتاة مثلك في صفه.. فهو غير قادر حتى على الدفاع عن نفسه"

قلت بحدة "لا شأن لك بهذا.. فقط احذر من التعرض لأي من رفاقي.."

اقترب ذو الوشوم مني وهو يقول بسخرية "اذهبي والعبي بعيداً يا فتاة.. ولا تتدخلی في حديث الرجال"

مرة أخرى يعاملونني بحقارة وكأنني ضعيفة.. أكره أن تلتصق تلك الصفة بي.. أكرهها بجنون.. ورغم أن ما

نويت فعله لم يكن في صالحى البتة، إلا أنني لم أرتدع.. فرميت قدمي بأقوى ما أملك وركلته في ساقه ركلة مؤلمة.. فصاح الرجل متألماً، وقبل أن أبتعد عنه أمسك بي ولكمني على وجهي بقوة ألقنتي للوراء حتى ارتطمت بجدار المنجم بعنف.. شعرت بدوار في رأسي وألم شديد في وجهي وكأن فكي قد تفتت قطعاً صغيرة.. وحرقة تنتشر في ظهري بسبب الارتطام حتى لم أقوَ على الوقوف..

وقبل أن أتحرك كان الرجل قد وصل إليّ ورفعني ممسكاً بمجمع ملابسي، ثم قال وهو يمسك وجهي بأصابعه مثيراً ألماً جمّة فيه "هل لديك اعتراض آخر يا فتاة؟"

فوجيء بضربة قوية من ركبتي تصيب كرشه المتمدد وأنا أصيح "لا تعاملني كفتاة ضعيفة أبداً.."

أطلقتني غصباً عنه وهو يمسك بطنه متألماً، لكن سارع الثاني ضخم الجثة بإمساك ذراعي ولوئها خلف ظهري.. في نفس اللحظة التي اقترب فيها حارسان منا وأحدهما يصيح "أطلقها.. أطلقها حالاً.."

ظل الرجل ينظر للحارس وبدا أنه لا ينوي تنفيذ الأمر، بينما صاح الرجل ذو الوشوم وهو يجذب شعري بشدة "كيف تجرؤين؟.."

كنت صيحة ألم بصعوبة، فيما ارتفعت أسلحة الحارسين في وجوهنا وأحدهما يصيح "توقف حالاً.."

كان جمع من السجناء قد تجمع خلف الحارسين بدهشة مما يجري، فيما اقترب مزيد من الحراس منا، فأطلقتني صاحب الوشوم وهو يتراجع مغمماً بغیظ "سترين أيتها الحقيرة.."

لكن غضبي لم يهدأ، وفور أن أطلق الضخم الآخر ذراعي حتى التفتُ إليه مجدداً وركلت ساقه بأقوى ما أستطيع.. وقبل أن ينقض عليّ الرجلان كان أحد الحراس قد كبّل ذراعيّ وهو يجرنى بعيداً وأنا أصرخ بغضب "أنت هو الوغد الحقيرة.. لا تفكر بالاقتراب منا أو أذية أحد منا أبداً.."

حصّلت معمة صغيرة بعد هذا.. إذ حاول الرجل الضخم النيل مني ونال ضربة بمؤخرة سلاح أحد الحراس.. وانقض الرجلان الآخران على الحراس أيضاً في قتال صغير نلتُ منه عدة ضربات كادت تكسر ضلوعي وتسببت في نزف بعض الدم من أنفي وفمي..

وأخيراً، تكالب الحراس القريبون على أولئك الرجال، وحصل كل منهم على ضربة قوية بالسلاح أسقطته فاقد الوعي، بينما لم يحدث هذا لي وقد كان الحارس ممسكاً بي وأنا أتأمل ما جرى بشيء من الدهشة.. إذ نادراً ما يتحرك الحراس ويلتحموا مع أحد السجناء في قتال يدوي، بل غالباً ما يتم الأمر باتصال قصير إلى الإدارة تتبعها شحنة صغيرة تصيب السجناء ليفقدوا وعيهم.. فلماذا لم يحدث هذا الآن؟ أنا لم أر أحد الحراس يجري أي اتصال بالإدارة حتى الآن، وهو كما قلت شيء نادر الحدوث، إذ أنهم ملتزمون بتقرير كل شيء مهما كان صغيراً للإدارة فور حدوثه.. فهل لموقعنا هنا علاقة بذلك؟.. بدأت الفكرة تختمر في عقلي والحراس يقومون بتقييدي مع أولئك الرجال، وقد قال أحد الحراس الذي وقف ملوحاً بسلاحه في وجهي "سيكون حظك حسناً لو أنك حصلت على عزل إجباري فقط ولم يتعد الأمر ذلك"

سألته مقطبة “وما الذي يتعدى ذلك؟”

لم يجبني وهو يقودني عبر المنجم نحو الخارج وبقية الحراس يأمرون السجناء بالتفرق والعودة لأعمالهم.. لمحت وجه بسمة المذعور بينهم وهي تغطي فيها بيدها بصدمة.. وجوارها وقف أمجد ينظر لوجهي بدهشة.. فأشحت بوجهي وأنا أمسح الدماء بكمي.. كان شكلي تعيساً، ولم يكن هذا مما يسعدني..

فور خروجنا من المنجم شعرت بالنور القوي بعد الظلمة يسبب دوارة في رأسي، ربما هذا راجع للضربة التي تلقيتها على وجهي، أو لفظوري الذي لم أتناوله.. ولحسن حظي أجلسني الحارس في موقع منعزل عن العمل وابتعد مطمئناً لوجود عدد من الحراس متفرقين في الساحة المحيطة بانتظار قدوم مركبة من الإدارة لنقلنا.. فيما أسندت رأسي إلى ذراعيّ المستندتين إلى ركبتي وحاولت تمالك نفسي.. ما هذه الحماقة التي ارتكبتها؟ أي غباء سيطر عليّ في تلك اللحظة؟.. يبدو أنني أدهش نفسي في كل مرة أتصرف فيها بدون تفكير.. سمعت همساً قربي، فرفعت رأسي لأجد أمجد قد اقترب وركع قربي بوجه قلق وتساءل بصوت خافت “ما الذي جرى يا حمراء؟ هل تعرض لك أولئك الرجال؟”

أشحت بوجهي بعيداً وأنا لا أرغب في أن يرى ما أصابني من كدمات وقلت “سيعاقبك الحراس.. يحسن بك أن تبعد..”

قال مقطباً “أخبريني بما جرى.. لماذا تشاجرت مع أولئك الرجال؟ الكل يهابهم هنا.. فما الذي دفعك...” قلت بعصبية “لأنهم كانوا ينون أذيتك.. كانوا يخططون لإلحاق الأذى بك ولم أستطع الصمت على ما أسمع.. أردت تحذيرهم من التعرض لأي أحد منا، لكنهم لم يتوانوا عن ضربي رغم وجود الحراس قرييين منا” ظل أمجد يستمع لي بدهشة مصدومة، ثم قال بحدة “لماذا فعلت ذلك؟ لم لم تبلغيني بمخططهم وتتجنبي الدخول في مشاكل معهم؟ أنظري لما فعلته بوجهك.. والآن سيعاقبونك على إحدائك للشغب..” قلت بضيق “هذا لا يهم الآن.. ما جرى قد جرى.. ولست نادمة على ذلك..”

ظل أمجد ينظر لي بنظرات متعجبة، ثم سمع أحد الحراس يصيح به ليبتعد ويعود لموقعه، فزفر بحدة وابتعد صامتاً، فيما عدت لإراحة رأسي على ذراعيّ في انتظار المركبة التي ستقلنا لمباني الإدارة.. ولا أعلم ما الذي سينتظرنه هناك.. هل سيكتفون بعزلي مؤقتاً؟ أم أنني سأنال عقاباً ما؟.. لا يهم.. لم يعد ذلك مهماً حقاً.. فتلك المعلومة، على صغرها، ثمينة جداً بحيث تعوض كل ما جرى وسيجري..

جلسنا نحن الأربعة مقيدي اليدين والقدمين في إحدى غرف المبنى الإداري.. كان الثلاثة قد استيقظوا فجأة بعد وصولنا هنا وإتمام تقييدهم، مما جعلني أشعر أن هذا تم بفعل الإدارة، وإن كنت أجهل الطريقة.. ظلت صامته

وأنا مشيخة بوجهي عنهم وهم يتبادلون عبارات غاضبة محاولين التخلص من قيودهم، ثم سمعت ذو الوشوم يصيح في غضب “تعتقدين أن هذا العقاب سيردنا عن التعرض لك أنت وذلك الأحق؟ فور أن أخرج من هنا، احرصي على وداع أصدقائك قبل أن أصل إليك..”

صمتُ ولم أرغب بمجادلته، خاصة في الموقع الذي نحن فيه.. ولم يطل حديثه حتى وجدنا أحد الحراس يدلف فيحرر قدمي من قيودها ويجرني معه خارج الغرفة، فتساءلت “إلى أين ستأخذني؟” قال باقتضاب “إلى غرفة العزل..”

صمتُ مرة أخرى وأنا أستسلم له حامدة الله في سري أن الأمر لن يتجاوز هذا.. وإن لم أجرؤ على سؤاله كم يوماً سيدوم عزلي، أو عن الآخرين الذين بقوا في الغرفة.. ولم يكن هذا اهتماماً مني بمصيرهم، ولكن لمعرفة إن كان عليّ القلق منهم بعد خروجي..

خرج بي الحارس من المبنى الذي كنا فيه واتجه إلى مبنى آخر يقع في نهاية الساحة المحيطة بمباني الإدارة.. كان المبنى الآخر مكوناً من طابقين بخلاف الأرضي.. بالكاد أستطيع رؤية نوافذ فيه، لذلك بدا أكثر كآبة من بقية المباني.. فغمزني شيء من القلق وأنا أتساءل عما سيحدث لي هناك..

فور أن دلفنا المبنى الذي كان مغلقاً بقفل الكتروني، حتى سلمني الحارس لأحد العاملين فيه، والذي مرر سوارى على جهاز في يده قام بتسجيل رقمي فيه.. ثم قادني عبر ممرات المبنى الذي يحوي أبواباً حديدية عديدة مصمتة ومغلقة بأقفال إلكترونية..

غمزني شيء من الذعر وأنا أسمع صراخاً في بعض تلك الغرف.. صراخاً حانقاً وشتائم وطرقات عنيفة على الأبواب.. ثم وجدت الحارس يدفع بي عبر أحد الأبواب إلى غرفة صغيرة والتي تعتبر بنصف حجم مسكني.. ولا تحوي إلا فراشاً وضع على الأرض.. وما إن أغلق الباب خلفي حتى عمّ الظلام التام رغم أننا في منتصف النهار عدا عن بصيص ضئيل جداً من فتحة صغيرة في الباب..

تحسست طريقي حتى جلست على الفراش، وأسندت ظهري للحائط خلفي والأصوات المزعجة تصل لسعني بوضوح.. مما كان يوترني أكثر وأنا أحاول الحصول على بعض الراحة..

لم أجرؤ على سؤال أحد الحراس عن الوقت الذي سأقضيه هنا، لكن إن طال الأمر فأظنني سأصاب بالجنون حتماً..

“ما الذي تفعليه في منطقة محظورة على الموظفين كهذه؟”

أجفنتُ والملف في يدي يكاد يسقط أرضاً، ثم قلت بتوتر بدا بوضوح في صوتي “لا شيء.. لقد طلب مني الرئيس

إحضار ملف معين.. وأنا هنا لهذا السبب”

قال الرجل الذي اقترب مني وعيناه تحملان شكاً كبيراً “يمكن للرئيس أن يطلب الملف من موظفي الإرشيف..

لكن ما حاجته لإرسال شخص غير مخول بدخول غرفة الملفات؟”

ثم أضاف وهو يميل تجاهي “ثم إنك أصبحت تترددين على هذه الغرفة بشكل كبير هذه الأيام..”

أسرعت أخرج التصريح الذي أملكه بدخول هذه الغرفة التي هي عبارة عن مخزن كبير يحوي الآلاف من الملفات عبر أرفف طويلة وكثيرة.. لكنه قال بسرعة قبل أن يرى التصريح “لست بحاجة لتأمل تصريح مثل

هذا.. يمكنك ببعض المعارف الحصول على عشرة مثله”

قطبت وأنا أرسم الحدة على وجهي “ماذا تعني؟ أقول إنه مزور؟”

قال رافعاً حاجباً “افهمي ما تريدينه يا أستاذة.. لكن.. سأترك للأيام أن تكشف ما يجري في ذهك..”

أنهى قوله لكن لم يبدُ عليه أنه ينوي الرحيل وهو يراقبني، فأغلقت الملف بقوة وأعدته لموقعه، ثم غادرت بخطوات أظهرتها غاضبة وإن كانت تحمل توتراً وقلقاً شديدين.. أهذه تخمينات من عنده أم أن أمري كان أوضح مما أبغي؟ هل سيبلغ رؤساءه بأمري؟ هل سيفضحني ويكشف مساعي؟.. تياً..

لم أدرك تلك الليلة التي قضيتها في العزل أن بسمه بقيت في مسكني ترتجف خوفاً.. لم أدرك أن أحد الأوغاد الذي كان يتربص بها وقد أدرك بقاءها وحيدة قد تبعها بعد أن أوغل الليل ونام الجميع.. ولم أدرك أنه اقتحم المسكن وحاول إيذاءها مصيباً إياها بذعر شديد.. فصرخت برعب وصرخت حتى كادت حبالها الصوتية تنقطع.. وحاولت أن تدافع عن نفسها دون فائدة تذكر..

ونظراً لقرب مسكنه من مسكني، فقد كان أدهم أول من انتبه للصرخات.. فهبّ من فوره واقتحم مسكني ليجد الرجل فيه بجوار بسمه المذعورة.. لن أخبركم عندها عن غضب أدهم وثورته لأنني لم أرها.. لكن يمكن بالنظر إلى ما تحطم من أثاث مسكني أن أقول إنها كانت عارمة.. ناهيك طبعاً عن الرجل الذي أصيب بعدد من الكسور والجروح وقد لطخت دماؤه أرضيتي وفراشي..

لم يتدخل الحراس في الأمر إذ هم عادة لا يحركون إصبعاً لأي شيء يحدث في المساكن مادام لن يضرّ العمل في المنجم.. لم يتدخلوا إلا عندما استدعاهم أمجد ليوقفوا أدهم قبل أن يقتل الرجل.. حيث لم يستطع هو، ولا غيره ممن تجمع عند المدخل من السجناء، من ردهه وإيقاف ثورته..

بعد أن نُقل الرجل بعيداً، وانفض الجمع متذمرين للإزعاج الذي قطع راحتهم القصيرة، اقترب أمجد من بسمه التي قبعت في زاوية المسكن والذعر لا يغادرها.. وما إن حاول الاطمئنان عليها حتى تشبثت به وهي تبكي بكاء

مرأ.. بكت وبكت متجنبه النظر إلى أدهم الذي وقف وسط المسكن، والدماء لا تزال دافئة على يديه، حائراً مما عليه فعله.. عليه أن يحمد الله أنهم اعتبروه مدافعاً وليس مهاجماً، وإلا بات ليلته تلك في العزل معي.. بصمت، غادر أدهم المسكن فيما قال أمجد لبسمة “يكفيك بكاء.. الحمد لله أن كل شيء مضى على خير..” قالت بسمة من بين دموعها المتدفقة “لكنني كنت مذعورة.. كنت دائماً أتوقع أمراً كهذا.. الحقير استغل غياب حمراء دون أن يردعه شيء..”

ربت أمجد على كتفها معلقاً “لم يحدث لك شيء.. وما فعله أدهم سيظل ملاحقاً لك أبداً.. صدقيني لن يجروا أحدهم على النظر إليك بعد الآن خوفاً منه..”

غطت وجهها بيديها قائلة بصوت مرتجف “لكنه أخافني كثيراً.. كان شرساً.. لم يهتم كثيراً بمنظر الدماء ولا بصوت العظام وهي تتكسر..”

ونظرت إلى أمجد مضيئة بعينين مذعورتين “لقد كان مجنوناً..”

انتبهت في تلك اللحظة إلى أدهم الذي كان يقف وسط المسكن.. كان يحمل غطاءً نظيفاً بدل ذلك الذي تلطخ بالدم، ويبدو أنه أحضره لها من مسكنها الذي لا تستخدمه عادة.. ورغم الصدمة التي بدت على وجهه، لكنه لم يتفوه بكلمة وهو يضع ما يحمله على السرير ويغادر بصمت من جديد..

خفت بسمة وجهها وهي تفرك كفيها بارتجاف، فربت أمجد على كتفها قائلاً “يجب أن تشكركه غداً على إنقاذك.. أنا سأكون قريباً فلا تخافي من شيء وعودي للنوم”

صمتت دون تعليق، فغادر المسكن بصمت بدوره ليسود المكان هدوء قاتل..

قضت بسمة ليلتها تلك تنقلب دون أن تستطيع النوم أو التغلب على الرجفة في جسدها.. وقرب الفجر، غادرت المسكن بحثاً عن أمجد كما يبدو، لكن من رآته كان أدهم الذي جلس على الأرض قريباً من باب مسكني بصمت تام، ويبدو أن قلقه عليها أبقاه قرب المسكن لحمايتها.. أجفلت بسمة قليلاً وهي تتراجع خطوة متسائلة بهمس ضعيف “أين أمجد؟”

قال أدهم بهدوء “عاد إلى مسكنه منذ مدة..”

تراجعت بسمة خطوة أخرى وهي مترددة فيما يجب أن تفعله، فأطرق أدهم قائلاً “إن كان وجودي يسيء لك فساغادر على الفور”

تغلبت بسمة على خوفها وهي تقول له بصوت خافت “لا.. ابق قليلاً..”

نظر إليها بحيرة، فرآها تجلس على شيء من المبعدة منه وهي تدفن وجهها في ركبتيها متجنبه النظر إليه، ثم غمغت بهمس “شكراً لك.. لن أنسى ما فعلته لي البارحة أبداً..”

أطرق أدهم بدوره للحظات قبل أن يقول “أسف لأنني أفزعتك.. لم أتمالك نفسي وأنا أرى ما يفعله ذاك الحقير.. لم أدرك ما أفعله حقاً إلا عندما استوقفني الحراس وانتزعوه من يدي..”

نظرت له بسمة متغلبة على مشاعرها وقالت “أنت عنيف جداً..”

لم يرفع أدهم رأسه مغمماً “آسف..”

ظلت تنظر له بنظرات متباينة المشاعر، ثم وقفت وعادت لمسكني بسرعة تاركة أدهم بحيرته من تصرفاتها العجيبة..

حسناً.. أنا لم أدرك أي شيء من ذلك لأنني كنت في غرفة العزل، لكن أمجد أخبرني بالحادثة كلها، مثيراً تعجبي مما حدث.. بينما التزمت بسمة إزاءها الصمت التام على غير العادة..

الفصل الخامس

[تجارب صغيرة]

عندما خرجت من العزل في صباح اليوم التالي، حمدت الله أن الأمر لم يطل أكثر من ليلة واحدة.. وقفت أرمش بعينيّ في نور الشمس المبهر بعد الظلام شبه التام الذي عشت فيه.. ثم أسرعت في ركوب المركبة التي ستقلني مع عدد من السجناء بعد أن انتهرني الحارس المكلف بإعادتنا للمسكن الذي كان على شيء من المبعدة.. طبعاً لم أجد أحداً في استقبالي في المسكن فقد كان الجميع قد انطلقوا إلى المنجم.. عدت إلى مسكني لأرى الفوضى العارمة والدماء التي لطخت الأغطية والأرضية.. فشعرت بقلق عارم وأنا أرى هذا قبل أن أعرف تفاصيل ما حدث هنا..

طبقاً للأوامر، كان عليّ أن أتوجه للمنجم من فوري دون إبطاء.. فلم أتأخر كثيراً فور أن اغتسلت واستبدلت ملابسي بأخرى نظيفة.. ثم عزمت التوجه إلى المنجم القريب.. ولم أكد أخرج من مسكني حتى رأيت أمجد يقف عند الباب.. ولما رأني ابتسم بارتياح قائلاً "مرحباً بعودتك.. لقد لاحظت الباب موارباً فشككت بوجود أحد فيه.. هل أنت بخير؟"

تساءلت مقطبة "أشرح لي ما حدث في مسكني الليلة الماضية.. إنه في حالة مزرية.."
قال أمجد ملوحاً بحقيبة أدوات في يده قائلاً "انتظريني لثوان ريثما أحضر ما طلب مني من أدوات.."
فعلت ما طلبه مني مضطرة وأنا أود معرفة تفاصيل ما حدث.. وبعد لحظات قصيرة عاد أمجد إلى فسار باتجاه المنجم وأنا أتبعه، وسمعتة يقول "أسف لأن مسكنك يبدو بهذا الحال.. كان علينا أن نعتني به قبل عودتك.."
تساءلت مقطبة "ليس هذا ما أريد معرفته.. ما الذي حدث الليلة الماضية بهذا الشكل؟ هل بسمة بخير؟ دماء من التي لطخت الغرفة؟"

أوجز لي أمجد ما حدث بسرعة وسط دهشتي المتزايدة، ثم قال "من حسن الحظ أن الحراس لم يتخذوا ضد أدهم أي إجراء.. لكن أتمنى أن يغير طباعه الحادة هذه.. لن يتسامحوا معه كثيراً في المرة القادمة.."
صمتُ وأنا في دهشة من أمري.. ثم تساءلت "وهل بسمة بخير؟ لا بد أنها بكّت كثيراً.."
قال أمجد مبتسماً "طبعاً فعلتُ ذلك رغم أنني حاولت تهدئتها.. لقد بدت كطفلة مذعورة وزادها عنف أدهم ذعراً.."

شعرت بقلق عليها وأنا أتخيل ذعرها، ثم قلت "أتمنى ألا يحدث ذلك لها من جديد.. ليست بحاجة لما يزيد ذعرها الدائم.."

قال وهو ينظر لوجهي مبتسماً "للمرة الأولى أراك قلقة عليها.. دائماً ما تظهرين أنك ممن لا يهتم بالآخرين

كثيراً..”

قلت هازة كتفيّ “كلّ قادر على الاهتمام بنفسه.. ولن يفيدني القلق عليهم في شيء..”
أطلق أمجد ضحكة عالية للمرة الأولى منذ عرفته جعلتني أنظر له بتعجب يشوبه ضيق.. هل قلت ما يضحك؟..
حولت أفكاري لسؤال هجومي، فقال وابتسامة واسعة ترتسم على شفتيه “من قال إنك لا تهتمين بالآخرين؟ يكفي
ما فعلته في المنجم البارحة..”

قلت مقطبة “ليس هذا ما تظنه.. لقد غاظني أولئك الرجال وشعرت أنني يجب أن أتدخل.. لو كان أدهم مثلاً في
مكاني لفعل الشيء ذاته..”

ارتفع حاجبا أمجد وهو يعلق “لكنه يبدو لي كاهتمام واضح منك.. من يصدق أن تتصدى فتاة لثلاثة رجال
يفوقونها حجماً؟.. هذا ليس له إلا معنى واحد.. أنك تهتمين”

زفرت بضيق وأنا أعلم أنه لا يريد الاستماع إلا لأفكاره الخاصة.. ولن يستمع لكلمة أقولها، لذلك التزمت الصمت
التام.. فوجدته يقف في طريقي مثبتاً بصره على وجهي، عندها قلت بضيق “ما الأمر؟”

ظل يتأمل وجهي.. الكدمة على خدي وقد ازرققت، وجرح بسيط أصاب جانب فمي.. ثم ابتسم بلطف غريب وهو
يقول “شكراً لك على ما فعلته.. وأنا أسف لأنك اضطررت لقضاء ليلتك في العزل وحيدة.. لو كنت أستطيع أن
أبقى فيه عوضاً عنك لفعلت.. لكن لم يستجب أي من الحراس لي عندما طلبت رؤية قائدهم”

ابتسمت بشيء من السخرية مجيبة “ليكن في علمك أن ليلتي البارحة كانت مريحة جداً.. حظيت بالنوم على
سرير مريح بدل النوم على الأرض كما أفعل كل ليلة، واستمتعت بهدوء افتقدته منذ استيقظت فاقدة لذكرياتي في
السفينة الفضائية..”

اتسعت ابتسامته أكثر وهو يقول “ليس هذا ما قيل لي.. لقد سألت بعض السجناء ممن قضوا ليلة في العزل من
قبل، وقد أكدوا لي أن المكان هناك كالجحيم..”

قطبت دون أن أعلق، فأضاف “رغبتك هذه بعدم إقلاقنا هي أيضاً اهتمام منك.. أنت عكس ما تدعين تماماً..”
قلت بجفاء “إذن مرحى لك لاستنتاجك أمراً كهذا.. الآن هل يمكنني العودة لعملي؟ لست بحاجة لمزيد من
العقاب..”

وسرت في طريقي نحو المنجم بخطوات سريعة، فسمعت من خلفي يقول “أنت فتاة غريبة حقاً..”

لم أعلق بكلمة على قوله.. فليظن ما يحلو له فهذا لا يهمني في شيء..

كنا قد وصلنا إلى المنجم.. فدلنا من البوابة الرئيسية بعد أن ففتشنا الحراس كالعادة، وتركت أمجد لأذهب لموقعي
المعتاد..

انشغلت بعملي أغلب النهار وإن بقيت أراقب الحراس طوال الوقت.. وبالفعل، لم أجد أحداً منهم يحاول الاتصال
بالإدارة أبداً، أو حتى يتلقى أي اتصال منها.. والآن، عليّ أن أقوم بتجربة صغيرة لأتأكد من هذه المعلومة..

تركت عملي بعد أن انتصف النهار، وقبل أن يحين موعد الغداء، وتوجهت إلى أقرب الحراس مني والذي نظر لي مقطباً.. فقلت له بهمس وأنا أحاول رسم الأهمية على وجهي “اسمع.. لدي شيء مهم أريد قوله للإدارة.. هل أستطيع التحدث إلى أحد المسؤولين هناك؟”

قال الحارس بصرامة “أخبريني ما هو وأنا سأبلغهم لو كان الأمر مهماً..”

قلت راجية “لا أستطيع.. أريد التحدث إليهم بنفسي.. لن يكلفك الأمر إلا اتصالاً صغيراً..”

قال هازأً رأسه “لا يمكن.. أخبريني ما هو أولاً..”

فقلت بعصبية “ما أريد قوله مهم جداً.. وإن تسببت في تأخير إيصاله للإدارة فلا تلمني بعدها على العواقب..”

وغادرت عائدة لموقعي بعد أن رأيته على شيء من التردد.. وكما توقعت، ناداني لأتبعه واتخذ طريقه خارجاً من النفق وأنا معه.. ومع كل خطوة نخطوها، كنت أتأكد من المعلومة التي في ذهني، لكنني قلت لأتأكد أكثر “لماذا لا تتصل بهم هنا؟ قد يثير خروجنا من النفق دون داع تساؤل الجميع..”

قال مقطباً “هذا ليس شأنك.. اتبعيني بصمت”

فصمت وأنا أحاول كتم ابتسامتي من الظهور على شفتي، ولما خرجنا ووصلنا لقاع المنجم المفتوح، توقف

الحارس وهو يجري اتصالاً سريعاً بالإدارة.. وبعد حديث قصير قال لي “قولي ما تريدينه الآن فهم يسمعونك..” تلفت حولي محاولة رسم الأهمية على ما سأقوله، ثم قلت بشيء من الهمس “أولئك الرجال الذين تعاركت معهم سابقاً.. إنهم في العزل الآن.. لكنهم قد توعدوني بالقتل فور خروجهم.. وأنا قلقة من هذا..”

بدا من وجه الحارس وملامحه تنقبض بشدة أنه تعرض لصياح من رؤسائه، فقال لي بخشونة وهو يدفعني “عودي لموقعك وكفي عن هذا الهراء.. لا يهمننا ما تخشينه وما لا تخشينه.. لو كررت ما فعلته مرة أخرى فسأعاقبك على الفور..”

وأنهى الاتصال وهو يغمغم بحنق “تبا..”

استدرت عائدة لموقعي غير عابئة بعصبيته، والابتسامه هذه المرة ترتسم على شفتي بوضوح تام..

بعد انقضاء النهار، وخروجنا من المنجم، رأيت بسمة تندفع تجاهي وتعانقني.. فربتُ على كتفها وأنا متضايقه من النظرات التي ألقاها الآخرون علينا، وقلت لها “ما بك يا فتاة؟ هل أنت بخير؟”

نظرت لي بعينين دامعتين وقالت “ما الذي فعلوه بك؟ هل أدوك؟ هل عاقبك؟”

قلت مبتسمة وأنا أدفعها لتسير قبل أن يزرنا أحد الحراس كالعادة “لا.. اكتفوا بعزلي لليلة واحدة فقط.. ولم يكن الأمر سيئاً حقاً.. وماذا عنك؟”

خففت بصرها وارتجافة تبدو على شفيتها، فقلت لها بخفوت “أخبرني أمجد بما حدث البارحة.. هل أنت بخير؟”

أطرقت أكثر مغممة “لا أريد التحدث عن ذلك..”

لم أعلق على ذلك.. يبدو أنها عاشت رعباً شديداً البارحة، وهي التي لا تفتأ تتحدث عن كل شيء وفي كل وقت.. لكن صمتها هذا معناه أنها كانت تجربة مفزعة بالنسبة لها ولا تريد تذكرها.. قاطعت تفكيري وهي تقول مبتسمة “الحسنة الوحيدة لكل ما حدث هو أنني لم أعد أخشى أمجد.. إنه شاب هاديء ولطيف حقاً.. وقد ساعدني كثيراً”

تساءلت باستغراب “وأدهم؟ ما فهمته أن أدهم هو من تخلص من ذلك الرجل وليس أمجد..”

قالت خافضة بصرها “لازلت أخشاه.. بعد ما فعله، تزايد خوفي منه بشكل كبير..”

صمت عن التعليق، هذه الفتاة لا تتعامل بالمنطق بأي حال.. الأفضل تركها لتدرك خطأها بمفردها..

عند وصولنا للمسكن، رأيت أدهم يقترب مني قائلاً بابتسامة “مرحى لك يا حمراء.. كيف كانت ليلتك في العزل؟.. أتمنى أنك لم تفتقدينا حقاً..”

رأيت بسمة تخفض بصرها وتسرع لمسكننا بصمت وسط نظر اتنا المندهشة، لكن أدهم لم يعلق على هذا.. فأجيبته

بتعجب “ليلتي لم تكن حافلة كليلتك أنت.. ما الذي فعلته في مسكني؟ كأن مذبحه أقيمت فيه”

ضحك أدهم معلقاً “لابد أن الأمر صدمك.. لكن ذلك الحقيير كان يستحق ما هو أكثر.. ولو عاد للمسكن وحاول

أن يؤذيها من جديد، فسأقتله هذه المرة..”

ابتسمت معلقة “تبدو كالأخ الأكبر.. لكنك أفرغت الفتاة المسكينة بدلاً من إراحتها..”

هز كتفيه بحيرة معلقاً “لست أدري ما أصابها.. إنها تعاملني وكأنني أنا من هاجمها لا ذلك الوغد”

فقلت “لا تقلق.. ستنسى ذلك ولن تذكر إلا أنك أنقذتها ذلك اليوم.. فقط حاول ألا تخيفها منذ الآن”

وتركته عائدة لمسكني لأجد بسمة جالسة على السرير تفرك يديها بقلق، ولما دلفت نظرت لي بتردد، ثم قالت “ما

الذي أخبرك به؟”

قلت مستغربة “لقد أبدى حيرته من فزعك منه.. لماذا تعاملينه بهذه الطريقة؟”

خففت بصرها مجيبة “أخبرتكم أنني فزعت من وحشيتته في معاملة ذلك الرجل.. لقد أخافني كثيراً.. لكنني

شكرته.. ألا يكفي هذا؟”

قلت وأنا أجلس جوارها “تذكري أنه ما فعل هذا إلا لإنقاذك.. أكنت تفضلين ألا يتدخل؟”

رفعت وجهها بعينين متسعيتين وهي تهتف “لا.. لم أقصد ذلك أبداً.. لكني..”

عادت تخفض بصرها مضيفة بحيرة “لا أعلم لماذا.. رؤيته تخيفني دائماً.. ربما هذا بسبب ضخامته، أو بسبب

صوته الخشن.. لا أدري.. إنه يذكرني بشيء أود نسيانه، لكنني حقاً لا أذكر ما هو..”

قطبت مفكرة فيما تقوله.. هل هذا راجع لذكرياتنا التي فقدتها؟.. لا يمكنني التأكد من ذلك أبداً.. فربتُ على كتفها قائلة "عامليه كما تفعلين مع البقية.. وصدقيني، هو شخص طيب حقاً" غمغمت بعد شيء من التردد "إنه يتبسّط معك كثيراً.. أكثر من البقية..". دهشت لتعليقها هذا، فقلت "لا أعتقد ذلك.. إنه يهوى استقزاي وإغضابي..". نظرت لي معلقة "ربما كان يحمل اهتماماً خاصاً تجاهك..". اتسعت عيناى بدهشة، ثم قطبت قائلة "مستحيل.. لا أعتقد ذلك أبداً..". قالت بتردد "أنت الوحيدة التي كان يناديك بلقب أطلقه عليك بنفسه.. ولم يفعل هذا مع أي أحد آخر..". هزرت رأسي بقوة وقلت وأنا أنهض لأقطع النقاش "أنت تتوهمين..". وذهبت لأغتسل وأبدل ملابسى وأغسل القديمة منها كما أفعل كل ليلة، محاولة إزالة ما ألقته بسمه في عقلي.. لا يمكن أن يحمل أدهم تجاهي أي إعجاب.. وليس هذا ما أسعى إليه في هذه اللحظة بتاتاً..

قررت، لتجربتي الثانية، أن تكون أكثر جرأة ووضوحاً.. قد أواجه بعض العواقب الوخيمة، لكنني في هذه المرحلة مستعدة لفعل أي شيء لأصل للنتيجة المرجوة، خاصة أنني لست متأكدة بعد من المعلومة التي في ذهني.. ماذا لو كان كل ذلك راجعاً لوجودنا في هذه الأنفاق العميقة تحت الأرض؟ قد يسبب موقعنا عزل الموجات التي يستخدمها الحراس بدون تدخل أي عامل آخر.. لذلك، وبعد انتهاء عملنا، خرجنا من المنجم جميعاً بصمت تام وأنا عازمة على القيام بتجربتي مهما كانت عواقبها، خاصة أن تنفيذها في المساكن لا معنى له إذ لن يحاول الحراس التدخل أبداً.. نظرت لسواري الذي غدا أسود اللون من أثر الأحجار السوداء بعد أن فركته بها بقوة وحرصت على ألا أترك أي بقعة يبدو من خلالها لونه الأصلي، وساعدني أن غبار الأحجار يلتصق بالأشياء ولا يتطاير بسهولة، كما فركت جزءاً من ذراعي لأموه الأمر.. ثم سرت مع البقية باتجاه البوابة وأنا أتلفت حولي بحثاً عن هدفي.. فرأيتها، إحدى النسوة التي اشتهرت بعصبيتها في المساكن، والتي ستسهل عليّ الوصول للنتيجة المرجوة..

قبل أن نصل للبوابة، ارتطمت بالمرأة بشكل عفوي، وإن كان بقوة حتى كادت تسقط جانباً.. تمتمت بكلمات غير مفهومة وهي تنظر لي بحنق، لكنها لم تثر كما توقعت إنما غمغمت بغیظ "تباً لك..". عندها قلت بحنق "ماذا قلت؟"

نظرت لي مقطبة بصمت، فاقتربت منها وأنا أقول بغضب "هل سببتني؟" قالت بحدة "لم أفعل.."

فدفعتها بقوة بيديّ وأنا أصيح "بل فعلت.. سمعت هذا بأذني.."
 أشاحت بوجهها وهي تعض شفتها بغضب.. يبدو أنها تحاول تفاديّ قدر ما تستطيع خوفاً من الحراس، لكنني لم أنتو إنهاء كل شيء بهذه السرعة، فعدت أدفعها بقوة أكبر حتى سقطت أرضاً على ظهرها، وأسرت أجلس فوقها وأقبض على عنقها بقوة وأنا أقول بغضب شديد "هل تتجراين عليّ؟.. ليس أنا.. سأقطع لسانك هذا.."
 لم أحاول إيذاءها لكنني حاولت أن أبدو كأنني أفعل، وهي حاولت مقاومتني بكل ما تستطيع وأظفرها الخشنة تخدش ذراعيّ ووجهي بقوة محاولة التخلص مني.. نظرت بطرف عينيّ حولي للحراس فوجدت أحدهم يجري الاتصال الذي كنت أنتظره، ولم يحاول أحدهم التدخل كالعادة.. بينما تباعد بقية السجناء من حولنا وهم يكتفون بالفرجة..

مرت لحظات طويلة دون أن يحدث شيء.. لم يحدث شيء.. حقاً لم يحدث أي شيء.. كدت أصرخ بهذا فرحة، لكنني تلقيت لكمة على وجهي من المرأة جعلتني أترجع للوراء قليلاً، ثم عدت بسرعة وصفعتها على وجهها.. رأيت أدهم يتقدم منا وهو يقول بغضب "حمراء.. كفي عن هذا.."
 لكنني، ولكي لا يفسد أدهم كل ما سعيت لأجله، اشتبكت مع المرأة في معركة محدودة.. ولم أتوقف حتى شعرت بضربة قوية على رأسي أفقدتني الوعي على الفور..

بعد مدة طويلة لا أعلم كم دامت، فتحت عينيّ فجأة لأرى الظلام الدامس يحيط بي.. جلست بسرعة محدودة، وتلمست القيد الذي يقيد يديّ، والفراش الرث تحتي، وأنا أسمع الصراخ المزعج المألوف يتردد حولي.. عندها، ضحكت بقوة.. ضحكت وضحكت.. مجنونة؟ فلتقولوا عني ما تريدون.. لكنني سعيدة جداً.. سعيدة لحد الجنون..

دام عزلي يوماً كاملاً خضعت خلاله لاستجواب من أحد المساعدين محاولاً معرفة سبب تعطل سواربي عن العمل وإن كنت أعرف شيئاً عن خاصية الأحجار تلك.. وطبعاً تظاهرت بالبراءة وادعيت أنني لا أعلم عمّ يتحدث.. وفي النهاية يؤسوا من استخلاص الحقيقة مني وأطلقوني.. فتزامن خروجي مع مغيب الشمس في اليوم التالي.. وعندما وصلت للمساكن، كان السجناء عائدين للتو من عملهم المضني في المنجم..
 رأيت المرأة التي تشاجرت معها البارحة قادمة مع البقية، فغممني ارتياح أنها لم تُعزل مثلي، لكنها عند رؤيتي اقتربت مني بغضب وهي تصيح "أيتها الحقيرة.. كيف تجرأت على ما فعلته البارحة؟.. سألقنك درساً لن تنسيه على هذا.."

تحفرت في وفتي وأنا مدركة أنها لن تترفق بي في غياب الحراس، لكنها وقفت فجأة وهي تنظر خلفي عندما

تعالى صوت أدهم الأجنس وهو يقول بحدة "لو لمستها بسوء فلن أغفر لك هذا.."

ألقت المرأة شتيمة بذينة وهي تغادر حانقة، فيما وجدت أدهم يديرني تجاهه بحدة وهو يقول بغضب "ما الذي جرى لك يا حمراء؟ هل أصبحت تهوين العراك؟ هذه هي ثاني مرة يتم أخذك فيها للعزل.."

قلت مقطبة "وما الذي يهم في هذا؟.."

أجاب بحنق "أنا رجل ولم أذهب إلى العزل حتى لمرة واحدة.. فما الذي يدعو فتاة مثلك للاشتباك في عراك مع البقية بهذه الكثرة؟.. ما الذي تهدفينه من كل ذلك؟"

قلت هازة كتفي "هذا شأني وحدي.. لا داعي لكل هذا الغضب فليس هناك أي معنى لكوني فتاة أم رجلاً في هذا المكان.."

فقال بشدة "لو حاولت التورط مجدداً مع أي أحد، فأنا من سيقوم بضربك عندها.."

قلت بحدة وغضب "لا تعاملني كطفلة صغيرة.. وأنت لست مسؤولاً عني بأي حال.."

وغادرت لمسكني بسرعة لأقطع أي طريق للجدال.. وهناك، وجدت بسمه تنتظري والقلق يلوح على وجهها.. وفور أن رأته ابترتني "حمراء.. هل أنت بخير؟ لماذا فعلت ذلك؟"

زفرت بشيء من الضيق.. ألن يكفوا عن طرح هذا السؤال؟.. ثم قلت بحزم "هل تعرض أحدكم لك بسوء الليلة الماضية؟"

دهشت لسؤالي، ثم هزت رأسها نفيًا قائلة "لم يفعل أحد ذلك منذ تلك الليلة.."

فقلت "إذن، هل أستطيع تبادل المسكن معك؟ سأخذ مسكنك الذي لا تستخدمينه، ويمكنك أنت البقاء هنا.. فمسكن أدهم قريب منك، وسيهب لنجدتك في حال تعرض لك أحد بسوء.."

اتسعت عينا بسمه وهي تتساءل بصوت مرتجف "لماذا؟ هل بدأت تضيقين بي؟"

كدت أضحك بصوت عالٍ لقولها الخالي من أي مراعاة.. ألا ترى في نومي كل ليلة على الأرض أية مضايقة لي؟ لكنني أجبت بصوت حيادي "لا.. لكنني أود الاختلاء بنفسني قليلاً.. لا أود حرمانك من السرير، لكنني مللت من النوم على الأرض كذلك"

ثم لملمت متاعي القليل الذي لا يتعدى الملابس التي أملكها، وقلت قبل أن أغادر "لا تخافي.. ستكونين بخير.. تصبحين على خير"

تمتمت بكلمات غير مفهومة وهي تطرق بوجه حزين.. لكنني لم أعلق وأنا أغادر باتجاه مسكنها الذي يقع في الجهة المقابلة.. وهناك، ألقيت جسدي على السرير للمرة الأولى منذ قدمي.. وشعرت بشيء من الراحة.. رغم أن السرير قاسٍ قليلاً، إلا أنه أفضل من الأرض بالتأكيد..

سمعت طرقات على الباب، فتأففت لقطعهم راحتني، ألن يمر هذا اليوم أبداً؟.. نهضت بعسر لأفتح الباب.. وهناك، رأيت أمجد يقف بانتظاري.. فسألته مقطبة "كيف علمت أنني هنا؟"

أجابني "رأيتك تحملين أغراضك قادمة إلى هنا.."
فسألته "إذاً.. ما الذي تريده مني؟"
أجابني بسؤال "ما الذي كنت تطمحين بتحقيقه بما فعلته البارحة؟ لقد لاحظت أنك كنت تخوضين العراك مع تلك
المرأة عامدة.. وكأنك كنت تسعين للعودة للعزل"
زفرت وأنا أعود لأجلس على السرير معلقة "أنت أيضاً؟.. ألن ننتهي من هذه المحاضرات أبداً؟"
قال عاقداً حاجبيه "لأننا نهتم بك.. أم أنك لا تدركين ذلك بعد؟"
قلت بابتسامة صغيرة "شكراً لكم على ذلك.. لكن لا تقلقوا.. كل شيء يسير كما أتوقعه تماماً"
سألني بدهشة "ماذا تعنين؟"
قلت له ملوحة بيدي "لا يهم هذا الآن.. هل هناك شيء آخر تود التحدث عنه؟"
نظر لي للحظات مقطباً، ثم غمغم "بودي لو تفصحين عما يدور في عقلك هذا.."
قلت بهدوء "ما يدور في عقلي يخصني وحدي.. لكن لا تقلق، قد أشركم فيه قريباً.."
دام الصمت بيننا لوقت قصير، ثم غادر بعد أن عجز عن إقناعي بالتصريح بما أنتويه.. عندها استلقيت على
سريري زافرة، ونظرت للسوار في يدي وابتسامة عريضة ترسم على شفتي.. الآن، بقيت خطوة أخيرة،
وسأغادر هذا الموقع نهائياً.. لكن قبل ذلك، يجب أن أتأكد من خطتي للهرب، وما الذي سأفعله بعدها، وهو ليس
بالشيء الهين أبداً..

رنين مزعج دام طويلاً.. مكالمة قصيرة.. صوت مرتجف مذعور.. وتوسلات انقطعت مع انقطاع الاتصال
بشكل مفاجيء..

بحث مستميت.. بحث في كل مكان.. في أرجاء المدينة وفي أقاصي البلاد.. ثم الشكوك.. الشكوك التي تغمر
العقل وتلغي أي تعقل..

مقابلة مع المدير.. اتهامات تتطاير.. صراخ محتد.. تدخل من رجل أمن ضخم وطرد من المكان مع وعيد بسوء الخاتمة..

مداهمة.. واتهام.. دفاع مستميت لكن غير مجدي.. محاكمة سريعة بتهمة دون أدلة.. ثم الحكم الفاصل..

أوراق يتم توقيعها.. الكثير الكثير من الأوراق الموقعة.. وإبهام مصبوغ يبصم على جانبها.. إبرة تخترق الذراع.. وألم يسري مع المادة التي تغلغت في الوريد.. ثم ظلام تام..

الفصل السادس

[المحاولة الأولى]

في اليوم التالي، ومنذ نهوضنا وحتى وصولنا للمنجم، أبقيت عيناى مفتوحتان لكل تفصييلة ولو صغيرة قد أكون غفلت عنها سابقاً.. بحثت عن منفذ أستطيع الهرب من خلاله، أو ثغرة أستطيع الانسلال منها دون لفت الانتباه.. وعندها قد يستغرق الحراس وقتاً لإدراك هروبي، ثم إدراك أن السوار في يدي لا يعمل كما يجب.. عندها ولا بد سيرسلون فرقة للبحث عني، لذلك يجب أن أكون قد ابتعدت بما فيه الكفاية قبل تلك اللحظة..

لاحظت، أثناء سيرى، أن بسمة تسير برفقة أمجد وتتبادل الحديث معه ببساطة.. يبدو أنها قد اطمأنت له أكثر من اللازم في هذه الفترة القصيرة.. ولماذا يجب أن أهتم؟ على الأقل، لن أخشى عليها بعد غيابي، رغم أنني لا يجب أن أهتم بهذا مع ما سأواجهه من الآن فصاعداً..

طوال اليوم، شحذت حواسي في محاولة للوصول للوسيلة المثلى للهرب، لكنني لم أفجح في ذلك.. ومع ذلك، بدأت استعدادي لخطتي هذا اليوم.. في فترة الغداء، لم أتناول إلا جزءاً يسيراً من طعامي وتركت الباقي جانباً.. وعند المغيب، أثناء خروجنا من بوابة المنجم، سألتني أحد الحراس وهو يجذب علبة الطعام من يدي “ما هذا؟” قلت مقطبة “عدائي.. لم أتمكن من إتمامه كله فادخرته للعشاء..”

فقام بفتح العلبة وتفتيشها جيداً وأنا أقول بعصية “لا تلوث طعامي بيدك..”

لكنه لم يعبأ بي وهو يحول الطعام إلى خليط متجانس لا يُعرف ما يحتويه حقاً، ثم أعاده لي بغير اهتمام وهو ينتقل لتفتيش غيري.. تظاهرت بالغيظ وأنا أتمتم غاضبة وأحمل العلبة بيدي عائدة للمساكن.. فاقتربت مني بسمة مغممة “لا تغضبي.. لو كنت جائعة سأعطيك جزءاً من عشائي إن كان سيكفيك..” قلت لها بابتسامة “لا داعي لذلك.. لا تقلقي لأمرى..”

في اليوم التالي كررت الأمر ذاته، وكرر الحارس تصرفه ذاته أيضاً.. وفي كل مرة كنت أتظاهر بالغضب والحدة من تصرفه، وأنصرف محنقة بطعامي المعجون عجباً..

استمر حالي هذا أسبوعاً كاملاً.. أقضيه في العمل في المنجم بصمت، الخروج والتذمر عند البوابة أثناء تفتيشي وتفتيش علبة طعامي، وقضاء بعض الوقت مع الثلاثة الذين أصبحوا دائماً يجتمعون في ذات الزاوية المنعزلة من الساحة يتحدثون في أمور شتى.. فأجلس قربهم وأنا صامتة وعقلي يهدر كالعادة في عالمه الخاص.. عالم خالٍ من الروتين..

وبعد أسبوع، أو ستة أيام بالتحديد، حانت اللحظة التي انتظرتها طويلاً.. مررت قرب البوابة والحارس يقوم بتفتيشي كالعادة مع الجميع، لكنه تجاهل علبة طعامي وهو يشير لي لأغادر.. كدت أقفز فرحاً، لكنني عوضاً عن

ذلك مددت العلبة تجاهه وأنا أقول بلهجة متذمرة "ألن تفتش طعامي كالعادة؟"
 قطب وهو يزجرني لأبتعد.. فغادرت على الفور وأنا أكتم ابتسامة من الظهور على شفتي.. ومع ذلك لم أستسلم
 لهذا النجاح الصغير.. بل كررت فعلي يومين آخرين حتى تأكدت أن الحارس لا يعبأ بطعامي وما يحتويه..
 وطبعاً لا أنسى التعليقات التي طالتني من أدهم وهو يرى طعامي الذي لا ألمسه بعد أن تطاله يد التفتيش وهو
 يتذمر قائلاً "مادمت لا ترغبين بغدائك، لم لا تحتفظين به لي عوضاً عن رميه في كل مرة؟"
 قلت له "ألا تكف عن الجشع أبداً؟ أعتقد أن الطعام الذي يقدم لك يكفيك، وهذا مفيد لتفقد القليل من وزنك هذا"
 قال بحدة "أنا لست سميناً.. هذه عضلات.. ألا تفهمين؟ لا يمكن تخفيف العضلات بتقليل الطعام.."
 فقلت "كف عن التذمر.. هذا خطأ الحارس الذي يفسد الطعام في كل مرة.. ولو لم يفتشه، لأعطيتك إياه بكل
 سرور.."

لذلك، يمكنكم تخيل سعادة أدهم وهو يتناول طعامي الذي لم يمسه الحارس في هذين اليومين.. حقاً هذا الرجل
 جشع جداً..

وأخيراً، في اليوم الذي خطت له، خرجت من المنجم مع المغيب وقلبي تزداد طرقاته مع كل خطوة أخطوها
 نحو البوابة.. حاولت أن أرسم الحنق على وجهي ككل مرة، وأن أكفّ يدي عن الارتجافة التي كادت تفضحني..
 فغطيت ارتباكي بتذمري الواضح وهو يقوم بتفتيشي، ثم أشار لي بالرحيل كالعادة مؤخراً.. رغم خشيتي من أن
 ينفضح أمري، لكني، وفي لحظة مجنونة، مددت علبة الطعام تجاهه وأنا أقول بصوت متذمر "ألن تفتشها أيضاً
 كالعادة؟"

نظر الحارس للعلبة للحظات كاد قلبي يقف فيها.. ستكون كارثة لو قرر الحارس أن يفتشها هذا اليوم، لكنه
 سرعان ما زجرني كالعادة لأسرع الخطى بعيداً وأنا أكتم أنفاسي قبل أن تفضحني تنهيدة ارتياح.. سرت ساهمة
 وأنا أحمل العلبة بيد ترتجف للانفعال الذي مررت به، وكدت أقفز في مكاني عندما سمعت من ينادي اسمي..
 التفت خلفي باضطراب لأرى أمجد يراقبني بدهشة وهو يتساءل "هل أنت على ما يرام؟ وجهك محمرٌ للغاية.."
 خفضت وجهي وأنا أتمتع بعذر غير مفهوم، واستندت أكمل طريقي نحو المساكن.. فقال وهو يسير قربي "هل
 حدث لك شيء اليوم؟ هل أصبت بالمرض؟"

سارعت أنفي الأمر وأنا أحاول تمالك نفسي، ثم قلت بابتسامة حاولت رسمها على شفتي "لا تحمل همي.. أنا
 بخير.. فقط متعبة أكثر من العادة اليوم.."

وعندما وصلت للمساكن، سارعت لمسكني متجاهلة أدهم الذي ناداني، فقلت له دون أن ألتفت "اعذرني اليوم، لا
 أستطيع منحك طعامي هذه المرة.."

وأغلقت باب مسكني خلفي وجلست على السرير أحاول تمالك أنفاسي المتلاحقة.. ثم بيد مرتجفة، فتحت العلبة،
 وأزحت الطعام الذي لم ألمسه ظهراً، لأخرج الأحجار السوداء الصغيرة من تحته.. كانت صغيرة الحجم جداً

بحيث لا تبدو من تحت الطعام، فسارعت لحملها وتنظيفها من بقايا الطعام، ثم خبأتها تحت سريري جيداً بعد أن لفتتها في أحد ملابسي.. وجلست على السرير مجدداً أتهد مفكرة في الإنجاز الصغير الذي حققته..

في المساء، عزمت أخيراً على أن أشرك البقية في الأمر.. فسرت حتى وقفت أمام أمجد وأدهم وبسمة حيث جلسوا منعزلين عن الآخرين، وقد استغربتُ بقاء بسمة مع أدهم في موقع واحد.. لكن يبدو أن أمجد يزيل خوفها نوعاً ما فلا ترى غضاضة من مشاركتها الحديث حتى لو لم أكن موجودة..

فور وصولي ابتدرني أدهم قائلاً "ظننتك قد نمت.. هل غيرت رأيك؟"

تلفتُ حولنا أبحث عن أي متنصت قريب منا، فيما أضاف هو بسخرية "شكراً على الطعام.. كان لذيذاً بحق.."

فقلت معلقة "لا تقلق.. سأمنحك فطوري كتعويض"

ثم جلست جوار بسمة وأنا أميل تجاههم هامسة "أنا سأهرب.."

تطلعوا لي بعدم استيعاب تحول لصدمة خلال لحظات، قيل أن يقول أدهم ضاحكاً "استسلمي يا فتاة.. ألم تري ما حدث للأغبياء الذين فكروا بذلك؟"

قلت له مقطبة "هل أنت راض عن حياتك هذه؟ هل ستقضي ما بقي من عمرك كعامل سخرة بلا أجر ولا حقوق؟"

تساءل أمجد "وما ستفعلينه هو البديل الأفضل؟"

قلت بحزم "بالنسبة لي، أجل.. أن أهرب مع ما في ذلك من مخاطر خير لي من أن أعيش في دوامة مملة كهذه.."

فعلق أمجد "هذا غياب منك.. كل ما ستواجهينه هو بضع شحنات كهربية ثم العزل لأيام طويلة قبل العودة لهذه الدوامة من جديد.."

فقلت "لم آت لاستشارتكم في خطتي، بل لأسألكم.. هل يود أحدكم المجيء معي؟"

فقال أمجد "ليست لي النية في الهرب.."

علق أدهم ماطاً شفثيه "أكره تلك الشحنات الكهربية.."

أما بسمة فقالت برجاء "أرجوك.. لا تفعلي هذا يا حمراء.."

وقفت قائلة "إن.. شكراً لكم على كل شيء.."

وابتعدت عنهم بسرعة قبل أن يحاول أحدهم الاعتراض.. لم ألق للهرب في تلك اللحظة، بل انتظرت فباللحظة المناسبة لم تأت بعد..

قمت بدورة واسعة حول المساكن أراقب كل شيء حولي، وإن حاولت أن أبدو كمن يتمشى لئلا أثير شك الحراس المتناثرين حوله.. وبعد أن انتهيت، عدت وأنا مشغولة الفكر بما عليّ فعله، وقد كان أغلب السجناء قد أورا لمساكنهم استعداداً ليوم شاق جديد.. ولكن ما إن اقتربت من مسكني حتى رأيت أمجد يجلس قربه، ولما رأني وقف وهو يقول "ظننتك قد هربت حقاً.."

سألته بدهشة "ما الذي تريده في هذا الوقت المتأخر؟"
قال مقطباً "أحقاً أنت عازمة على الهرب؟ اصرفي النظر عن ذلك.. فهذا سيضرك أكثر مما سيفيدك.."
قلت بصرامة "هذا شأن خاص بي.. رجاء لا تتدخل في أموري ولا يحق لك ذلك.."
قال بشيء من الضيق "لم لا يحق لي ذلك؟ أنا قلق عليك.. فما رأيته، ستواجهين مصيراً أسوأ من بقاءك في هذه
الدوامة المملة كما تقولين.. لو كان الهرب مجدياً لكنتُ أول من قام به.."
علقت قائلة "ليس ذنبي أنكم مستسلمون لمصيركم هذا.. ولن يجبرني استسلامكم على فعل المثل.."
فقال بحدة "ما الذي ستفعلينه بعد الهرب، هذا إن سلمنا بقدرتك على الهرب دون أن يفقدوك الوعي كما يفعلون
عادة.. ما الذي تنتوين فعله في هذا الكويكب المقفر؟ إلى أين ستهربين؟ وكيف ستعودين للأرض؟ لا تقولي لي
إنك تنوين التسلل للسفينة الفضائية.. الهرب من المساكن شيء واقترح المبانى الإدارية شيء آخر.."
قلت "لست مجبرة على قول شيء مادمت غير راغب بالهرب معي.."
واستدرت لأدلف مسكني، لكنه أمسك ذراعي يستوقفني قائلاً "حمراء.. أرجوك أعيدي النظر فيما تنتوين فعله..
لا أريد رؤيتك تتضررين بهذا الفعل وأنا واثق أن هذا ما سيحدث"
قلت وأنا أجدب ذراعي "لماذا؟ ما شأنكم أنتم إن رحلت أم بقيت؟.. لا يجمعنا إلا بضع أيام قضيناها معاً دون
تفاعل حقيقي.. فلماذا تعترضون بهذه الطريقة؟"
أجاب "أخبرتكَ أننا نهتم بك.. فما الغريب في هذا؟ أليس إيوؤك لبسمة في مسكنك اهتمام منك تجاهها؟ أليس
تنازلك عن فطورك لأدهم اهتمام منك تجاهه؟ أليس في دفاعك عني رغم العقاب اهتمام منك تجاهي؟ فلماذا
تستغربين أن نبادل ذلك الاهتمام؟"
قلت بحزم "لم أطلب منكم رداً على ذلك.. ثم إن الاهتمام لا يعني أن تقيدوني وتطمسوا إرادتي.. أنا عازمة على
ما سأفعله.. ولم أسألكم أو أخبركم إلا لأتجنب لومكم في حال كان هذا ما ترغبون به.. لذلك، أرجو ألا تجعلوني
أندم على مصارحتي لكم بذلك"
واستدرت محاولة دخول مسكني من جديد، لكنه أدارني مرة أخرى وأمسك كتفي قائلاً بشيء من الحدة "لماذا
أنت عنيدة هكذا؟ أتظنين أننا سنكون أسعد حالاً برؤيتك تفشلين وتنالين العقاب على هذا؟"
قلت له بحزم وأنا أدفع يديه عني "رجاء.. لا ترفع الكلفة بيننا بهذه الطريقة.. فأنا أكره ذلك.. وحديثنا منتهٍ منذ
مدة"
وغادرت تاركة إياه بدهشة من تصرفي.. أخبرتك، أكره من يرفع الكلفة بيننا دون إذن مني..

كانت الأنوار قد أطفئت منذ مدة طويلة، عدة ساعات على الأقل، عندما نهضت من سريري وحملت عدتي القليلة.. كنت قد تأكدت من فرك سواري بطبقة غليظة من غبار الأحجار السوداء ما أمكنني قبل انقطاع الأنوار، وكل ما عليّ فعله، مع صعوبته، هو الحفاظ عليه بهذا الشكل.. ولففت ما بقي من الأحجار في خرقة في جيبتي لوقت الحاجة، وفي الجيب الآخر وضعت مصباحاً صغيراً استطعت تهريبه من مستودع المساكن.. حيث في جانب المساكن هناك مستودع صغير يحوي بعض العدة لمواجهة الطواريء.. ولأن أمجد يستطيع أن يدلف المستودع لجلب ما يلزم كما رأيت من قبل، فقد تحايلت عليه للحصول على مصباح صغير، وذلك قبل أن أفصح له عن نيتي للهرب..

لم أكن أملك إلا علبة عشائي وعبوة ماء واحدة.. تلك مؤونة هزيلة، لكن لم أستطع الاحتفاظ بأكثر من هذا.. لذلك، وبهذه العدة القليلة وبعزيمة كبيرة، خرجت من مسكني وأنا أتأمل ما حولي خوفاً من الأعين المتلصصة.. كان من النادر أن نجد من يظل مستيقظاً بعد نهار شاق من العمل، لذلك اطمأنتت أن أحداً لن يكشفني، لو أحسنت التخفي عن الحراس..

سرت بخطوات خافتة بين المساكن، حتى وصلت لآخر مسكن حيث لا يفصلني عن الغابة خلفه إلا بقعة صغيرة يقف فيها حارس غير منتبه وجهاز مراقبة على عمود عالٍ.. كان أقرب الحراس متشاغلاً بسيجارة نفت دخانها بهدوء لا أستطيع لومه عليه.. الليل طويل والهدوء قاتل والعمل ممل ولا شك..

ربضت في موقعي خلف آخر مسكن، وأخرجت من جيبتي مقلاعاً بدائياً صنعته بنفسني باستخدام فرع شجرة يحمل تقويساً مناسباً، وربطت عليه حبلأ مطاطياً انتزعته من إحدى المعدات بغفلة عن الآخرين.. والآن فقد وضعت حجراً صغيراً وأمسكته بالحبل المطاطي وأنا أوجهه نحو شجرة بعيدة قليلاً عن الحارس.. أطلقت الحجر الأول ليصيب فرع شجرة على شيء من المبعدة من الحارس.. فالتفت بحذر ينظر لموقع الصوت بتعجب.. ثم التفت لأقرب الحراس منه متسائلاً "أكنت أنت مصدر هذا الصوت؟"

قال الحارس الآخر بحيرة "لست أنا قطعاً.."

تناهى لسمعهم صوت آخر يبعد القليل عن الموقع الأول، فاندفع الحارس إليه مغمماً "قد يكون أحد السجناء يحاول الهرب.."

لم يبد أن تلك الملاحظة قد أعجبت الحارس الثاني وإن ظل صامتاً رافعاً سلاحه بتأهب.. ولما تكرر الصوت في جهتين أخريتين غالب ترده وسار بخطوات حذرة نحو الغابة المتشابكة الأشجار، فدفع سلاحه يزيح به بعض الأفرع وهو يراقب ما حوله بحذر..

عندما رأيت الحارس الثاني يتوغل قليلاً في الغابة شددت عزمي، فنظرت لأقرب الحراس الباقين مني، والذي كان على مبعدة وقد أولاني ظهره يعبث بلعبة الكترونية في يده، فخفضت رأسي وبدأت التسلل بحذر وسرعة نحو الغابة وأنا أتأكد أن نور أقرب المصابيح التي تكشف بقعة واسعة من المساكن لا تسقط عليّ.. لقد اخترت

هذه البقعة بالذات بسبب قصور المصابيح عن تغطيتها بشكل كامل، وتباعد الحراس الذين يراقبونها، خاصة وقد لاحظت أنهم يتقاعسون عن إحضار تلك المناظير الضخمة التي أخبرني أمجد أنها للرؤية الليلية تحسباً لأي طاريء..

كنت قد وصلت للغابة مجتازة الأمتار القليلة التي تفصلها عن المساكن بعد دهر، فاندفعت بين شجيراتنا بسرعة وقاومت لئلا أصدر أصواتاً أجذب بها مزيداً من الانتباه..

قد تظنون خطتي ساذجة حمقاء.. لكن لأنها ساذجة بالذات فقد أيقنت أنها ستجح بكل تأكيد.. أولاً لأن الحراس لن يتوقعوا أن يحاول شخص ما الهرب بخطة هزيلة متواضعة، وثانياً لأن آخر محاولة هرب قد مضى عليها وقت طويل والحراس قد أيقنوا أن السجناء عازفون عن تكرار مثل تلك المحاولات.. لذلك فهم متراخون في عملهم ولا يشددون المراقبة على المساكن، أضف لهذا أن السوار يغنيهم عن القلق ويوفر عليهم كثيراً من الجهد..

أما بالنسبة لأجهزة المراقبة، فلا بد أنها قد رصدتني ونقلت صوري للإدارة في اللحظة ذاتها، لكن بم يهم ذلك؟ كل ما سيفعلونه هو محاولة رصد سوارى لإطلاق تلك الشحنة الكهربية التي ستسقطني فاقدة للوعي، وستمر لحظات طويلة قبل أن يكتشفوا اختفاء الإشارة الصادرة من سوارى من أجهزة الرصد لديهم.. المهم الآن أن أهرب قبل أن يكتشف الحراس أن سوارى لا يعمل كما يجب وأنهم مضطرون للحاق بي وإمساكي بأ.....

كتمت شهقتي وأنا أقف فجأة مع مرأى الجسد الأسود الذي ظهر أمامي ساداً الطريق، ثم أضيء مصباح في وجهي وأنا أسمع صوت الحارس وهو يهتف بي "اللعنة.. ما الذي تفعلينه هنا؟"

كان سلاحه موجهاً نحوي وقد رفعه باستعداد، لكنني اندفعت نحوه فجأة وأمسكت السلاح بيدي ودفعته للوراء بأقصى ما أستطيع.. فضرب وجه الحارس بقوة، ولم يكن ذلك إلا لأنه فوجيء بفعلي الذي لم يتوقعه البتة.. في الواقع أنا نفسي لم أتوقعه، ولست أدري من أين لي بالشجاعة لفعل كهذا..

استغرق الحارس ثوانٍ لاسترداد توازنه استغللتها في الهرب قبل أن يمسك بي وتغلغلت بين الأشجار الكثيفة مغيرة طريقي بين فترة وأخرى.. سمعت صياحه الغاضب خلفي.. لا بد أنه سيستدعي رفاقه خلال دقائق ويمتليء المكان بالعشرات منهم..

تسارعت خطواتي أكثر متحولة لركض سريع وأنا أكاد لا ألمس الأرض لشدة توتري الممزوج بلهفة.. أنا طليقة.. أخيراً غدوت طليقة.. صحيح أن هذا كان أقل وأيسر متاعبي، إلا أن الشعور بالحرية كان أجمل من أن أنشغل بالتفكير في ما ينتظرنى في الساعات والأيام القادمة..

لم أجرؤ على إضاءة المصباح في هذا الوقت خوفاً من أن يُرى في المساكن أو المنجم القريب، وطبعاً لئلا يراه أحد الحراس الذين ولاشك توغلوا في الغابة بحثاً عني، وسرت اعتماداً على ضوء القمر محاولة عدم التعثر والسقوط في هاوية أو حفرة.. استمرت أشق الغابة التي لا أعلم مداها، وقد عزمت على انتظار النهار في أي مخبأ أجده حتى طلوع النهار..

بعد مدة طويلة، وجدت الأشجار تنشق عن صخور على شيء من الضخامة، مكونة جبلاً صغيراً يحوي بعض المخابيء المظلمة في ثناياه.. درت حوله للحظات أتأمل المخابيء بحذر، ثم اخترت واحداً بعيداً عن الأعين، وأضأت مصباحي أتفحصه بدقة.. كان ذلك للتأكد فقط من خلوه من أي هوام، رغم أنني لم أسمع، أو أرَ منذ مجيئي أي كائن حي بخلاف البشر.. لا حيوانات، أو طيور، أو حتى حشرات مهما كان نوعها.. ومع ذلك الحذر لن يضرّ..

بعدها حشرت نفسي حشراً في ذلك المكان الضيق وانطويت فيه مستغلة الصخرة المائلة فوقه والتي ستمنع أي عين من رؤيتي، وزفرت وأنا أنتظر مطلع الشمس..

كنت شبه واثقة أنهم سيبحثون عني في الغابة ولن يدور بخلدهم أنني قد أتجه للمباني الإدارية بثقة رغم خطورة ذلك.. كان أملي الوحيد هو في النجاح بالتسلل لإحدى سفن الفضاء التي لا تتقطع رحلاتها بين يوم وآخر من ملاحظتي لها.. والمفترض، كما أتوقع، أن تنطلق رحلة غداً.. لذلك عليّ اليوم النجاح في التسلل للساحة التي تحوي مهبط السفن الفضائية، ومنها للسفينة والبحث عن موقع مناسب لاختبائي..

لم أستسلم للنوم، رغم تعبتي الشديد، لأن الحماس الذي أشعر به قد جعلني متوترة وأطار النوم من عيني.. كما أنني يجب أن أنطلق مع خيوط النور الأولى، قبل أن يغدو البحث عني مع مطلع الشمس أكثر سهولة..

مرت مدة طويلة وأنا جالسة في صمت شديد.. لن تعرفوا معنى الصمت حتى تكونوا في موقعي.. حيث لا أشعر بأي كائن حيّ قربي.. لا صرير حشرات، ولا رفيف أجنحة، ولا حتى حفيف أشجار مع غياب أي نسيم يحركها.. كان السكون شديداً جداً، ومع نور القمر الذي يصبغ كل شيء بلون فضي شاحب، بدا كأنني أرمق لوحة فنية متقنة، ولا يبدو أنني أجلس وسط هذه الطبيعة بأي حال..

لذلك، تنهدت براحة عندما رأيت النور يزداد شيئاً فشيئاً عند الأفق، ونهضت بعسر من جلستي وأنا أحمل عدتي القليلة.. في البدء، ارتقيت الجبل الصغير الذي يرتفع عن مستوى الغابة قليلاً، ونظرت حولي.. كانت الغابة تشكل بحراً من اللون الأخضر حولي مع قليل من الصخور الضخمة المتفرقة.. وخلف هذا البحر يبدو مسطح من الصخور الجرداء حيث في جانب منها يقع المنجم الذي كنت أعمل فيه..

نزلت من موقعي بعد أن تأكدت من المسار الذي يجب أن أتبعه، وحثثت السير في الغابة وأنا حذرة من مقابلة أي حارس فالمواجهة لن تكون في صالحني البتة.. الطريق أمامي طويل جداً.. وخاصة بعد أن أجتاز الغابة وأشرع بالسير في المساحات الصخرية التي تفصلها عن المباني الإدارية.. عليّ الحذر الشديد عندها لأنني سأكون مكشوفة تماماً..

تأملت المكان حولي، كنت الآن أفق خلف شجيرة صغيرة تخبني عن الأنظار، أراقب السور الذي كان عبارة عن أسلاك حديدية تحيط بالمباني الإدارية.. وفي جانب من الساحة الكبيرة المحيطة بالمباني يقع مهبط السفن الذي لا يستقبل إلا سفينة واحدة كل مرة.. وهناك تربض سفينة مشابهة للتي قدمنا فيها وحولها مجموعة من الحاويات الضخمة تحوي الأحجار السوداء.. لا بد أنهم سينهمكون اليوم في تحميل هذه الحاويات في السفينة تمهيداً لإقلاعها غداً.. ومن مراقبتي للسفن في إقلاعها فإن برنامجها لا يتأخر يوماً واحداً أبداً.. لذلك فإما أن أنجح في التسلل إليها الليلة أو أفضل في ذلك للأبد، فلا أعتقد أنني سأقدر على التخفي عن الحراس ليومين آخرين حتى تقلع سفينة أخرى دون أن يقبضوا عليّ..

جرعت القليل من الماء الذي أحمله، ونظرت لما تبقى في العبوة من ماء قليل بعد أن استهلكت معظمه في طريقي إلى هنا.. ثم تقدمت بحذر بعد أن تأكدت من عدم وجود أجهزة مراقبة قريبة.. كانت مسافة قصيرة تفصلني عن السور الحديدي، والذي رغم ما يبدو عليه من سهولة ارتقائه، إلا أنني لست مطمئنة تماماً أن الحياة يمكن أن تكون بهذا الجمال والبساطة..

سمعت صوتاً عالياً قبل أن أصل للسور، فنظرت عبر السور بتوجس لأجد ثلاث عربات تخرج من بابها الرئيسي تحمل عدداً من الحراس، ويبدو من اتجاهها أنها قد تمرّ قريباً مما يعني أنهم سيلمحوني.. توجست وأنا أتراجع منخفضة للأرض لأعود للشجيرة وأختبئ خلفها مستغلة لون ملابسني الذي لا يختلف كثيراً عن الصخور تحتي.. عندما سمعت صوتاً عالياً من جهة أخرى، وعندما التفت رأيت مركبة أخرى تخرج من الغابة عائدة للمباني الإدارية.. شهقت وأنا أرى المركبة في مواجهتي تماماً وقد يرونني في أي لحظة.. عندها ركضت عائدة للشجيرة التي قد تفلح في تغطيتي وارتميت خلفها قبل أن تقترب المركبة أو يراني الحراس فيها.. وربضت في مكاني وأنا أستم بحنق بعد أن تسبب سقوطي في تحطم العبوة البلاستيكية وانسكاب ما تحويه من ماء لتغرق ملابسني..

لمحت بعد برهة ما جعل الذعر يغمرني وأنا أرى السوار الذي أزالته المياه جزءاً كبيراً من الطبقة السوداء التي تغطيه وظهر لونه الأبيض أسفلها.. تماكنت نفسي بسرعة ومددت يدي لجيبي لأستخرج الأحجار السوداء منه، والتي أحضرتها احتياطاً لمثل هذه الحالة.. بحثت في جيبي الخالي من أي شيء، وبحثت في الجيب الآخر بيد ترتجف.. لقد فقدت الأحجار.. فقدتها دون أن أنتبه، والآن أنا في ورطة شديدة..

قمت بذعر شديد بمسح السوار لتوزيع الطبقة السوداء التي تعلوه عليها تغطي الأجزاء المكشوفة.. لكنها لم تكن كافية.. انساب العرق على صدغي وأنا أشعر بالهلع يتنامى في صدري.. إلى أين يمكنني الهرب؟ أين يمكنني الاختباء عن أعينهم التي أشعر بها معلقة فوق رأسي..

رأيت الشاشة في السوار والتي كانت مطفاة قبل قليل تومض فجأة حتى كدت أقفز من شدة ذعري، وظللت أنظر لها وأنا لا أعلم ما أستطيع فعله.. حتى شعرت فجأة بشحنة كهربائية عالية تسري في جسدي بدءاً من ذراعي

وترتجف لها عضلاتي التي فقدت السيطرة عليها.. دام الأمر لحظات معدودة لكنها كانت مؤلمة وأنا أتنجج غير قادرة حتى على إصدار صوت خافت، ثم انقطع كل شيء فجأة وهوى جسدي أرضاً لأفقد الوعي دفعة واحدة..

الفصل السابع

[الدوامة من جديد]

رفعت رأسي بالكاد وأنا أسمع الباب يصفق بقوة خلفي.. لقد استيقظت فجأة لأجد نفسي في مبنى الإدارة.. وهناك، دام عذابي ساعتين تقريباً لم يعاملي أحد فيهما كفتاة.. تلقيت الركلات واللكمات وأصنافاً أخرى من العذاب على أمل أن أتكلم.. أن أخبرهم بالكيفية التي تغلبت فيها على السوار.. لكني لم أستسلم لهم ولا أنوي ذلك، ما دامت هذه هي الطريقة الوحيدة، فلا أنوي أن أخسرها الآن، خاصة أن أثر الأحجار قد زال منه ولم يبق ما يكتشفون به سري..

رأيت أحد الإداريين وهو الذي استجوبني سابقاً بمساعدة الحراس يجلس على الكرسي المقابل لي تفصلنا طاولة فقط وهو يحدجني بنظرات حاتقة.. ثم سألتني السؤال الذي لا يمل من تكراره بلغة نايبو "الأفضل لك إخباري بما فعلته بالسوار أثناء هروبك.. لقد نفذ صبر المسؤولين وهم يتوعدونك بعقاب قاس.. هذه هي فرصتك الوحيدة.."

قلت متضجرة "لقد أخبرتكم.. غمرت السوار في الماء لفترة طويلة.. أي جهاز يفسد إذا تعرض للماء، أليس كذلك؟"

ضرب الطاولة بيده صائحاً "إلا هذا.. كيف تريدون إقناعي أن جهازاً مضاداً للماء قد تعطل بعد تبليبه؟ هذا هراء"

قلت مقطبة "ربما كان على وشك التعطل عندما غمرته بالماء.. فسرّع هذا بتعطيله"

قال بحدة "كذب.. الجهاز عندما ارتديته كان جديداً تماماً.. ومعه ضمان لمدة تسعين سنة.. أخبريني الحقيقة الآن.."

أشحت بوجهي مغممة "مادمتم تكذبوني، فلا أملك أي شيء أخبركم به.."

صرخ عندها بغضب شديد "اسمعي أيتها البلهاء.. أنا أحاول مساعدتك والتخفيف من العقاب الذي قد تنالينه.. لكنك..."

قاطعته صوت طرق على الباب، فسمح لصاحبه بالدخول وهو يتأفف.. فدفق رجل آخر يرتدي لباساً عادياً ونظر لي بغير اهتمام، فتجاهلته وأنا أطرق بتعب شديد، فيما تجاهلني هو الآخر قائلاً "وصلت الدفعة الجديدة من الدواء.. يجب أن يتم توزيعه على..."

أشار له الرجل الأول ليصمت بإشارة خفية فيما لم أرفع رأسي تجاههما وأنا أفكر.. إنه لم يتحدث بلغة نايبو.. بل بلغة أخرى.. بالفرنسية بالأحرى، ويبدو أنني أجيدها فقد فهمت كل كلمة نطق بها.. وإن كنت سابقاً أجهل إجادتي لها..

سمعت الرجل الأول يحدثني قائلاً "أخرجني وأغلق الباب خلفك.."

لقد حدثني بالفرنسية، رغم أنه لم يستخدمها معي سابقاً.. فتجاهلته لسبب ما.. شعرت أنه يختبرني، ولم أدرك غرضه من هذا لكنني قررت خوض هذه اللعبة الصغيرة قدر ما أستطيع.. علني أخرج بشيء مفيد من حديثهما.. قال لي بشيء من الحدة "أخبرتكم أن تخرجي الآن.."

تجاهلته من جديد وأنا أتثاءب.. فصرخ فجأة "ألا تسمعين؟"

جفلت قليلاً لصرخته، فالتفتُ إليه بعينين متسعيتين، ثم قلت بتردد بلغة نايبو "هل.. هل تحدثني؟"

قال بالفرنسية "أجل.. أحدثك أنت أيتها البلهاء.."

نظرت للآخر راسمة أقصى علامات الغباء على وجهي مرردة "م.. ماذا؟"

قال الآخر بالفرنسية "يكفي هذا.. إنها لا تفقه أي شيء مما نقول"

ظل الأول يحدثني بنظراته وكأنه يحاول قراءة أفكارني، فخفضت بصري بحيرة واضحة، لأسمعه يقول بالفرنسية "لا نريد أن يصل خبر أي من هذا للسجناء.. إنهم مستميتون بالهرب قبل أن يعلموا أي شيء مما يحدث"

شعرت أن أذني استطالت وهي تنصت لكل كلمة، فيما تظاهرتُ بالتشاغل بأصابع يديّ الدامية والتي تجمد الدم على أظفارها..

فقال الآخر "عموماً.. الحمولة وصلت.. ولم يبق إلا وقت قصير قبل أن تبدأ الأعراض بالظهور عليهم.. يجب أن يحصلوا على الجرعة في الوقت المناسب، فالإدارة لا تريد أن تخسر أحد السجناء الآن.."

قال الأول "ليس الآن، هناك ما هو أهم لنقوم به.."

غلبني فضول لمعرفة أهمية هذا الدواء وطبيعته، وعن أي أعراض يتحدثان، لكنني تظاهرت بالنعاس وأنا أتثاءب من جديد.. وفي الواقع لم يكن كله تظاهراً فأنا بالكاد أرفع رأسي لشدة تعبتي..

سمعت الآخر يعترض "ولماذا هذا التأخير؟ لقد قال ماك إن أوان الجرعة قد حان.. يجب توزيع الدواء على المساكن المعينة مسبقاً.."

فقال الأول "ماك بنفسه قد أعطاني الأوامر بإنهاء ما لديّ قبل توزيع الدواء.. ولا تهتم، فالسجناء يمكن تعويضهم في أي وقت.."

كدت أستم بصوت عالٍ لشدة غيظي.. بينما قال الثاني "وماذا عن نظام الحماية ضد الحرائق؟ لقد علمت أنه تعطل في مساكن المنجم (ج).."

أجاب الأول "هذا غير مهم الآن.. لا نملك ميزانية كافية لإصلاحه ولن يحدث هذا في الزمن القريب.. تركيزنا الأكبر على إصلاح المنجم الثاني.."

فعلق الآخر "أنت مدرك أن حريقاً صغيراً قد يلتهم المساكن كلها ويفقدنا الكثير من الأيدي العاملة.."

قال الأول "ومن يهتم؟ لا أحد يسأل عن مصير هؤلاء أبداً.." حاولت بلع غضبي المتنامي، وهكذا يعاملون السجناء؟ هذه معاملة بعيدة عن الإنسانية.. حتى لو كنا نحمل حكماً بالإعدام، فهذا لا يعني أن نعامل كحيوانات لا حقوق لها.. سمعت الثاني يقول وهو يشير لي بحركة من رأسه "وماذا عنها؟ أَلن تعطيهها جرعة من عقار (O12)؟" مط الأول شفثيه مجيباً "لقد نفذ من مخازننا.. علينا انتظار أسبوع أو أكثر قبل وصول الدفعة الجديدة.." فقال الثاني قبل أن يغادر "على الأقل باستخدامه تضمنون ألا تفكر في الهرب مرة أخرى" شعرت أنهما يتحدثان لغة غريبة لا أفقه منها كلمة رغم أنني أفهم كل ما قالاه.. عن أي عقار يتحدثان؟ بودي لو أعرف.. سمعت الأول يقول لي بلغة نايبو "والآن.. هل تريدني مساعدتي لتخفيف عقابك، أم أنك مصرة على ما تقولينه؟" قلبت كفي في حيرة وأنا أجيب "هل تريد مني الكذب واختلاق الأعذار؟ لقد أخبرتك بكل شيء" حدجني بنظرات حانقة، ثم وقف قائلاً بحدة "عموماً، سيطول بقاؤك عندنا.. ولن نكف عن استجوابك حتى تبوح بما تخفيه.. فلا تلومي أحداً إلا نفسك عندها.." وخرج ينادي أحد الحراس لاصطحابي، فتنهدت وأنا أفكر في ما قد أواجهه على أيديهم أكثر مما فعلت.. متى سيكفون عن تعذيبني يا ترى؟.. لو سنحت لي الفرصة الآن للهرب، لهربت بكل تأكيد..

ارتسمت ابتسامة منمقة على فمي وأنا أتناول كأس العصير البارد الذي قدم لي، وحاولت الاسترخاء في جلستي وأنا أنظر للرجل الذي جلس أمام مكتبه الفخم يبحث بين أوراقه العديدة المكومة.. احتسيت قليلاً من العصير اللذيذ عندما سمعته يقول فجأة "أنت فتاة مجتهدة جداً.. ونحن فخورون بوجود شخص يمثل كفاءتك معنا.. لقد أشاد بك الكثيرون ممن جاءوا لزيارتنا، ولهذا، فقد قررت أنك تستحقين ما هو أكثر مما تحصلين عليه" شعرت بجفاف حلقى للمفاجأة، ولكل الإطراء الذي لم أتوقعه، فغمغمت بصوت متحشرج "وأنا لي الفخر بالعمل معك سيدي.." لم أستطع إكمال جملة لجفاف حلقى، فشربت جرعة كبيرة من العصير وأنا أرى الرجل ينهمك في البحث من جديد..

تأملت المكتب من حولي.. كان المكان أفخم من توقعاتي.. شعرت بالكروسي الوثير تحتي يكاد بينلغني، وبالجو البارد في الغرفة يثير دواراً في رأسي.. بدأت أشعر بانتباهي يتضاءل.. هل أنا متعبة لهذه الدرجة؟ كان عليّ أن

أحظى بقليل من الراحة قبل قدمي إلى هنا..
اعتدت في جلستي لأبعد الشعور بالنعاس مني.. لكن بدأت الموجودات حولي تتغير وتتشكل بأشكال عديدة مع
الزغلة التي أصابت بصري.. هل أنا حقاً متعبة؟..
مددت يدي أحاول وضع الكأس على الطاولة أمامي.. لكنه سقط أرضاً على السجادة الوثيرة..
تمتت بعبارة اعتذار، لكن بم تفوهت؟ لا أعلم.. كل ما أعلمه أن رأسي ثقيل جداً..
يزن أطناناً لا تحصى.. والنور الخفيف في الغرفة يصيبني بصداع شديد..
أريد فقط أن أسترخي.. أريد فقط أن أغلق عيني لثوان.. ثواني معدودة فقط..

شعرت بعمى مؤقت وأنا أواجه السماء المنيرة، رغم أن الليل قد اقترب والنور كان شحيحاً، لكنه بالتأكيد أقوى
من الظلام الذي بقيت فيه أسبوعاً كاملاً في العزل.. انحنيت بألم وأنا أشعر بسكاكين حارقة تطعن حدقتي
والدموع تملؤهما بحثاً عن حل لهذه الحرقه، لكن الحارس لم يمهلي وهو يجذبني من ذراعي ليقودني للمركبة
التي ستنقلني للمساكن كالعادة..
لم أكن متأكدة إن كانوا سيعيدونني لمسكني السابق أم أنهم سينقلونني لمسكن جديد في منطقة جديدة.. إذ نادراً ما
يعود إلينا أحد ممن حاول الهرب سابقاً..
طوال الطريق، كنت بالكاد أعتاد النور الشحيح وأستعيد القدرة على الرؤية شيئاً فشيئاً.. لم أكن أظن الأمر فادحاً
لهذه الدرجة حتى جربته.. أظن أنني لو مكثت في هذه الظلمة شهراً فسأصاب بالعمى التام بالتأكيد.. وبعد أن
أصبحت بحال أفضل، تمكنت من تعرف الطريق المؤدي لمسكني السابق..
ترى، ماذا ستكون ردة فعل الآخرين على عودتي؟ هل سيشتمون؟ هل سيضحكون على محاولتي الفاشلة؟ هل
سيغضبون لأنني تجاهلت نصائحهم؟..
لكني لست نادمة أبداً.. لقد استفدت من هذه التجربة ولاشك، ولن تكون الأخيرة قطعاً.. فقط أريد أن أخطط للأمر
أكثر، وأريد بعض الهدوء التام.. فالإزعاج في غرف العزل رهيب ويثير الجنون..
عندما وصلنا للمساكن، كان المكان خالياً من السجناء الذين لم يعودوا من المنجم بعد، مما أراحني.. فتوجهت
بخطى متعثرة تجاه مسكني وأنا أشعر بصداع شديد.. أتمنى أن يتركوني في حالي هذه الليلة فقط.. وغداً، سأواجه
كل ما يرمونه في وجهي من شماته وتأييب بصدر رحب.. فقط ليتركوني الليلة أرتاح..
ارتيمت على وجهي على السرير دون أن أحاول خلع حذائي، أو حتى إغلاق الباب خلفي.. ودفعت نفسي دفعاً
للنوم محاولة التغلب على الصداع الشديد الذي يغزو عقلي بلا رحمة.. لكنني لم أهنأ بهذا لفترة طويلة، إذ

استيقظت فجأة بعد مدة من الوقت على شهقة خافتة، تبعها صوت أقدام تبتعد عني بسرعة.. وبعسر، فتحت عيني وأنا أتذمر في سرّي لهذا الإزعاج.. كانت غرفتي خالية وغارقة في الظلام، لكن سرعان ما رأيت ثلاث أشباح متفاوتة الأحجام تقترب مني وهي تتهامس..

عندها تحاملت على نفسي لأجلس وأنا أمسك رأسي بيديّ مغممة "ماذا الآن؟"

اقترب مني أقصر الأشباح قائلاً بهمس "حمراء؟.. متى عدت؟ هل أنت بخير؟"

استغرقت ثوان في محاولة استيعاب الصوت والأسئلة، فيما سمعت الشبح الأضخم يقول "تياً.. ما الذي فعلوه بك؟.."

قال الشبح طويل القامة "لا يبدو أنها في أفضل حال.. لندعها تترج هذه الليلة.."

لم أستطع إجابة أحد على سؤاله، فعدت ألقى جسدي على السرير، بينما قال الشبح قصير القامة "سأبقى معها الليلة.. أريد الاطمئنان أنها بخير"

خفتت الأصوات وأنا أغرق في نوم متعب من جديد.. فلنترك كل هذا للصباح.. ولا يبدو أنه عنا ببعيد..

عندما استيقظت صباح اليوم التالي، مع النفير المعتاد، نهضت بشيء من العسر وأنا أحمد الله على اختفاء الصداق المزعج من رأسي.. تلفتُ حولي لأجد بسملة نائمة على الكرسي قربي، فلم أملك ابتسامة من أن ترتسم على شفتي.. فهي المرة الأولى التي أراها تتنازل عن سريرها وترضى بهذا النوم المتعب لأجلي، ولا أكتمكم أن هذا نوعاً ما أسعدني.. فهذا يدلني على أن اهتمامها بي حقيقي..

دفعت نفسي دفعاً للنهوض من سريرتي، وذهبت لأغسل وجهي المتعب قليلاً.. ثم عدت للغرفة لأجد بسملة جالسة على الكرسي، تنظر حولها بصمت وقلق.. ولما رأنتني هبت واقفة وسألنتني "أنت بخير؟"

هزرت رأسي إيجاباً وأنا أبتسم ابتسامة صغيرة، فوجدتها كالعادة تهبّ نحوي وتعانقني وهي تبكي.. لا داعي لأن أكرر أن الفتاة رقيقة جداً وانفعالية، فقد غدا هذا معتاداً جداً.. ربتُ على كتفها وأنا أقول "لا داعي لكل هذا الانفعال.. أنا بخير وعدت لكم دون تأخير.."

قالت بسملة بصوت مرتجف "بخير؟ أيمن وصف حالتك بهذه الكلمة؟"

اتسعت ابتسامتي وأنا أعلق "هذا لا يهم الآن.. لنذهب قبل أن نتأخر.."

خرجت من المسكن وهي تتبعني، فكدت أصطدم بمن يقف قرب الباب.. وقفت ورفعت رأسي لأجد أدهم قرب

الباب ينظر لي مقطباً، فقلت بابتسامة "لا داعي لأن تقول أنك حذرتني من هذا.. أدرك ذلك جيداً.."

قال أدهم "لم أكن أنوي قول ذلك.. لكن.. ما الذي فعلوه بك؟ متى أمسكوا بك؟ لم نعلم بأي شيء حدث لك منذ

غادرتنا فجأة..”

أجبتة “سأخبركم بكل شيء فيما بعد.. أنا بحاجة لأسترد شيئاً من نشاطي قبل الذهاب للعمل.. الفطور لن يدوم للأبد”

وقف أدهم في طريقي مقطباً وهو يتساءل “أخبريني.. ما الذي فعلوه بك؟ تبدين في حالة مزرية..”
ابتسمت صامتة للحظات.. لا ألومه على تعليقه هذا.. بكدمات مختلفة على الوجه، وآثار جراح متفاوتة على خدي وجانب فمي، وبأصابع دامية.. لا يمكن ألا أبدو مزرية.. وما أخفته ثيابي من كدمات كان أكبر..
قلت هازة كتفي “كما ترى.. استجوبوني بعنف ليعرفوا الطريقة التي استخدمتها لتعطيل عمل السوار.. وساءهم أنني لم أدل بمعلومات صحيحة أبداً..”

فدمدم أدهم “الأوغاد.. معاملتهم تسوء يوماً بعد يوم..”

غمغمت وأنا أبتعد “معاملتهم كانت سيئة منذ البداية.. لكنكم تتغاضون عن ذلك..”
ذهبت لأتناول فطوري بسرعة قبل أن أغادر للمنجم مع البقية.. أثناء العزل، كان الطعام الذي يقدم لي نصف ما أكله هنا.. مما يعني بقائي جائعة طوال الوقت، وهو شعور غير مريح على الإطلاق..

وجدت أمجد يقترب فيجلس قريباً مني وهو يتساءل بقلق ظاهر “هل أنت بخير يا حمراء؟.. تبدين.....”

قاطعته قائلة “أبدو بحالة مزرية.. أعلم ذلك.. لقد سمعت هذه الكلمة بما فيه الكفاية هذا اليوم”

فقال “ما الذي فعلوه بك؟ هل استجوبوك؟ متى استطاعوا الإمساك بك وكيف؟”

قلت متنهدة “ألا تستطيعون الانتظار قليلاً؟ سأخبركم بكل شيء الليلة.. الآن أنا منهكة ولا قدرة لي على الحديث لفترة طويلة”

مد يده يلمس كدمة زرقاء على خدي قائلاً “كيف تطيبين منا الانتظار والقلق يغمرنا لما آل إليه حالك؟.. لقد

خشيتُ من عودتك لنا، ومما قد يفعله عند الإمساك بك..”

كانت لمستته، على خفتها، تثير ألاماً في موضع الكدمة التي سببها أحد الحراس عندما لكمني بكل قوته دون أن

يحاول الترفق بي.. فابتعدت عن ملمس يده وأنا أغمغم “أخبرتكم ألا ترفع الكلفة بهذه الطريقة.. هذا يزعجني”

نظر لعيني صامتاً، ثم قال “لازلت تحاولين إقصاء نفسك عن الآخرين والادعاء أنك لا تهتمين.. لكن لا يمكنك

إجبارنا على عدم الاهتمام بك في المقابل..”

قلت وأنا أنهض “هذا شأنكم..”

وسارعت للابتعاد نحو المنجم بصمت، فوجدت بسمة تقترب مني وهي تسألني “هل أنت قادرة على العمل اليوم؟

لم لا تطيبين البقاء في المسكن والراحة ليومين على الأقل؟”

قلت ضاحكة “أنت متفائلة.. لقد أبلغوني أن عليّ العودة للعمل اليوم مهما كان الأمر.. وسيقومون بالتأكد من

ذلك.. إنه نوع من العقاب كذلك”

صمتت بسمة والضيق يبدو على وجهها القلق.. فقلت بابتسامة "لا تقلقي.. سأكون بخير.. أنا أفضل حالا بكثير من السابق"

وفي تلك الليلة، بعد يوم شاق وطويل، رويت لهم كل ما حدث لي منذ آخر لحظة انفصلت عنهم فيها.. في موقعنا المنعزل المعتاد في الساحة، جلست وقربي بسمة وأدهم وأمجد يستمعون لي باهتمام وأنا أستغرق في حديث طويل.. لم أخبرهم بكيفية تغليبي على السوار، إذ رغبت بالاحتفاظ بها لنفسي في حال احتجت لها مرة أخرى، لكني رويت لهم كل ما عدا ذلك..

بدا الانفعال على وجه بسمة وعيناها المتسعتان، فيما قال أدهم بحدة "ماذا لم تستمعي لنصائحنا قبل أن تغادري؟ فعُلك ذاك كان أحماً وعواقبه وخيمة.. فلماذا هذا الإصرار العنيد؟" قلت له "لقد تصرفت بمفردي وأنا أتحمّل عواقب ما فعلته.. فلا داعي لهذا التأنيب.." علق أمجد "هل أنت سعيدة بما أنجزته؟"

ابتسمت قائلة "شياء ما.. لقد اكتسبت بعض الخبرة، وحصلت على معلومات ما كنت لأحصل عليها هنا.. ولو أنني كنت أتمنى لو كللت تجربتي بالنجاح.. لكن هذا مستحيل منذ المرة الأولى، خاصة مع ضعف المعلومات التي أملكها عن المباني الإدارية والسفن الفضائية.." سألتني بسمة بقلق "هل تنوين تكرار تلك التجربة؟" أجبتها "ليس في الوقت الحالي.."

لم تكن إجابتي نافية تماماً، لكن بدا أنها ارتاحت لهذا الجواب وهي تسترخي في جلستها بعد تحفزها، فيما قال أمجد "وما هي المعلومات التي حصلت عليها؟ أظن ذلك يمكن مقارنته بحياتك التي خاطرت بها؟" هزرت كتفي دون أن أجيب.. أنا مقتنعة بأهمية ما أفعل، وهم مقتنعون بسخفه.. فلا فائدة من الجدل في ذلك.. قال أدهم وهو يقف فجأة "مهما كان الأمر.. لا تعاودي مثل هذه الحماقة مرة أخرى.. لا يسرنا رؤيتك بهذه الحالة"

ثم قال "سأعود لمسكني.. يكاد جفناي يسقطان من التعب.." وابتعد عنا متثائباً.. فوجدت بسمة تقف فجأة بدورها وهي تقول "سأذهب للنوم أيضاً.. حمداً لله على سلامتكم يا حمراء.."

لم تدع لي الفرصة لإجابتها وهي تتبع أدهم بخطوات حثيثة.. فتساءلت بدهشة بعد أن ابتعدا "هل زال خوف بسمة من أدهم؟"

ابتسم أمجد معلقاً "نوعاً ما.. هي مطمئن أن أحداً لن يؤذيها مادام موجوداً.. وقد أفادها وجود مسكنه قرب مسكنها.. إنها تخشى حتى من قطع المسافة التي تفصلنا عن مسكنها وحيدة.." صمتت متعجبة من حالها.. لقد كانت قبل رحيلي تنتفض رعباً فقط من سماع صوته، والآن تطارده كظله بحثاً

عن الحماية!.. تلك الفتاة تتمتع بقدر من الأنانية تخفيه تحت نعومتها ورقتها الزائدة.. لكن لا يمكنني كرهها مع طيبة قلبها الواضحة.. حقاً إنها كائن معقد غريب..

راقبتها وهي تسرع لمسكنها وتغلق الباب عليها وأنا أفرك يدي اليسرى التي تحمل كدمة كبيرة تخفيها ملابسي.. عندما وجدت أمجد يجذب يدي فجأة رافعاً كمي قليلاً لتظهر الكدمة من تحته.. فنظر لي مقطباً “أهذه أيضاً من فعلهم؟”

قلت وأنا أعيد كمي ليغطي الكدمة “وماذا ظننت؟ أظننتهم سيتوسلون لي لأخبرهم عن طريقة هربي منهم؟” قال أمجد بضيق “لماذا لم تخبريهم بما يرغبون به منذ البداية؟ ما الداعي لتحمل تعذيبهم هذا دون سبب؟” قلت وأنا أعتدل في جلستي “لأنني أنوي تكرار ذلك مرة أخرى..”

نظر لي أمجد بغير تصديق، ثم قال بحدة “أنت عنيدة.. ألا يكفي كل ما حدث لك حتى الآن؟” قلت بتصميم “بل كل هذا يدفعني لمزيد من المحاولات بجدية أكبر.. لست أدري لم الاستسلام لحياتكم هذه.. هل تنتظرون أن يعفوا عنكم ويطلقوا سراحكم بعد مدة من الزمن؟ هذا مستحيل” قال أمجد “وما المستحيل في ذلك؟”

قلت بابتسامة “ليس هذا ما يرددونه هم..” نظر لي أمجد بدهشة، فأخبرته بكل ما جرى لي أثناء استجوابي في الإدارة.. ثم أتممت حديثي قائلة “لهذا السبب ليس من مصلحتنا البقاء هنا أكثر من هذا.. إنهم لا يهتمون بحياتنا قيد شعرة، ولا نعلم ما الذي قد يفعلونه بنا أكثر من هذا.. بل لا نعلم ما فعلوه بنا حتى الآن..”

قال أمجد “مهما يكن الأمر.. لا يمكننا أن نتصرف قبل أن نعرف ما حدث لنا وما يمكن أن يحدث.. التصرف بعشوائية لن يكون في صالحنا أبداً”

قلت ضاحكة “وكيف ستحصل على معلومات كهذه؟ استيقظ يا رجل.. إن لم تمسك زمام أمورك بنفسك فلن تتقدم خطوة واحدة أبداً”

ظل أمجد يجادلني مدة طويلة حول هذه النقطة، حتى بعد انقطاع الأنوار والظلام يحفنا إلا من نور القمر الشحيح.. وبعد أن مللت الجدل، وقفت قائلة “يبدو أن الموضوع لن ينتهي الآن.. أتمنى حقاً أن تهربوا معي، لكن لا أريد لكم العذاب الذي قد ألاقيه أثناء ذلك.. لذلك فالأمر راجع لكم”

نهض أمجد بدوره قائلاً “أحقاً تتمنين هربنا معك؟”

نظرت له بتعجب معلقة “وما المانع؟”

فقال بابتسامة “ظننتك لا تهتمين بما يحدث لنا”

قلت هازة كنتي “لم أقل إنني لا أهتم بكم البتة.. ثم إنني لمست اهتماماً صادقاً منكم تجاهي، فلن أكون الوحيدة التي لا تهتم بمن حولها”

استدرت لأبتعد عنه نحو مسكني عندما سمعته يقول بخفوت “لازلت تثيرين تعجبني وإعجابي في كل مرة يا حمراء”

صدمني ما سمعته قليلاً، لكنني نظرت له مقطبة وأنا أقول “ما الذي يثير تعجبك مني؟”
قال مبتسماً “لأنك مختلفة عن بقية الفتيات.. ألا يكفي هذا؟”

ظللت صامتة وهو ينظر لعيني وكأنه يستحني لأقرأ الجواب في عينيه.. من قال إنني أجيد قراءة دخيلة الآخرين؟.. فقلت ببرود “لا تعاملني كفتاة الآن..”

وعدت لمسكني دون أن ألتفت إليه من جديد.. وهناك استلقيت على سريري بعد تعب النهار الذي طال، خاصة بعد المدة التي قضيتها في العزل.. ورغمما عني فكرت بحديثي مع أمجد.. ما الذي عناه بجملته تلك؟ بل ما الذي يمكن أن يعنيه؟.. لا شيء.. لا يجب أن أحمل كلماته أكثر من طاقتها.. واهتمامه بي لن يزيد على اهتمامه ببسمة وأدهم بأي حال.. هو اهتمام فرضته الظروف والعزلة التي نعيشها، وقد يزول مع زوال هذه الأسباب..

بعد يومين، حدث ما جعل عقلي يدور كدوامة قوية.. كنت عائدة للمساكن بعد يوم عمل متعب، وقد تأخرت كما صارت العادة في اليومين الأخيرين بعد عودتي من العزل، بالعمل لوقت إضافي في تعبئة الحاويات والمساعدة في بعض الصيانة التي يقومون بها.. وذلك كنوع من العقاب الإضافي الذي قرره علي.. ولما كنت عائدة أجرّ أقدامي حتى وصلت للمساكن وسط ظلام الغابة، رأيت مركبة من الإدارة تقف لينزل منها ثلاث رجال مع أحد الحراس.. لم أعبأ بهم وأنا أرى الحارس يحدثهم لفترة بسيطة، واتجهت لمسكني بصمت.. عندها وجدت الحارس يناديني قبل أن أبتعد، فزفرت بحدة وأنا أشعر أن يومي لن ينتهي على خير..
توجهت إلى المركبة، ولم أكد أقرب حتى توترت وأنا أرى الرجل ذو الوشوم بين الثلاثة الواقفين قرب المركبة.. كان هو ورفاقه قد اختفوا تماماً من المساكن ومن المنجم منذ تلك الحادثة، واعتقدنا جميعاً أنهم نُقلوا للعمل في منجم آخر تجنباً للمتاعب التي قد يثيرونها هنا..

لكنهم عادوا.. لا أعلم أين كانوا طوال تلك المدة، لكنهم عادوا.. ونظراتهم لم تكن مريحة على الإطلاق..
أبلغني الحارس بكلمات قليلة أن مركبة ستأتي بعد قليل محملة ببعض المعدات، وأن عليّ انتظارها هنا.. ثم ركب مركبته وغادر المساكن تاركاً إياي أنظر للرجال الثلاثة الذين كانوا يتهامسون بخفوت.. وأخيراً تقدم الرجل ذو الوشوم مني بخطوات متمهلة.. يبدو أن الليلة لن تمر بسلام أبداً..
تحفزت في وقتي وأنا أرفع يديّ أمام وجهي تحسباً لأي حركة مباغته منه.. كنت أكره أن أدير ظهري وأهرب حتى لو كان ذلك باستطاعتي.. لذلك فضلت الوقوف ومواجهة الأمر حتى ينتهي بدل الهرب..

ظل الرجل ذو الوشوم ينظر لي مقطباً للحظات طالت، ثم سمعته يقول لي بعصبية "ما الذي تريدينه مني يا فتاة؟
ابتعدي عن طريقي"

نظرت له بدهشة.. أهذا كل شيء؟..

اقترب رفيقاه من خلفه فسأله أحدهما بتعجب "ما الأمر؟.."

قال ذو الوشوم بحق مشيراً إليّ "تلك الفتاة تعترض طريقي دون سبب.. والأدهى أنها لا تتقوه بكلمة.."
ظلمت أنظر لهم بغباء، فيما تقدم الرجل الضخم مني بشكل جعلني أتوتر أكثر وأمنع نفسي بالكاد من إغماض
عيني فزعاً.. لكنه اكتفى بدفعي من طريقه وهو يقول لرفيقيه "لنذهب.. نحن متعبون كثيراً.. وغداً سيكون يوماً
شاقاً.."

مر بي الآخران بصمت دون أن يلقياً عليّ نظرة أخرى وهم متجهون لمساكنهم.. فهتفت قبل أن يبتعدوا "أهذه
خدعة منكم؟ هل تنوون الانتقام في غفلة مني؟"

التفت إليّ ذو الوشوم مقطباً وقال "ما الذي تهذين به؟ هل تريدين تذوق لكمي أيتها الحمقاء؟ من أرسلك
لاستفزازنا؟"

قال رفيقه الأضعف جسداً "لا عليك من هذه الفتاة البائسة.. لنذهب.."

تزايد ذهولي أكثر وأنا أراهم يبتعدون عني.. بدا لي أنني أدركت ما حدث، لكنني صدمت بهذا ولم أستطع ابتلاعه
بسهولة..

اتجهت من فوري إلى مسكن أمجد.. وبعد طرقات حادة على بابيه فتح الباب ونظر لي بدهشة معلقاً "ما الأمر؟
تبددين فزعة"

دلفت مسكنه دون استئذان وواربت الباب خلفي وأنا أقول له بصوت خافت "حدث أمر مهم.. وكان من اللازم أن
أبلغك به.."

نظر للخارج من الباب الموارب معلقاً "هل هناك من يتبعك؟"

قلت مقطبة "أولئك الرجال الثلاثة، الرجل ذو الوشوم ورفيقاه.. لقد خرجوا من العزل أخيراً"

اتسعت عينا أمجد بدهشة وعلق "بعد كل هذه المدة؟ غريب جداً.. هل تعرضوا لك بسوء؟"

قلت بعصبية "لا لم يفعلوا.. وهذا ما صدمني"

ابتسم معلقاً "أل هذه الدرجة أصبح العراك يستهويك؟ تذكرني أنك لست صبيياً بل فتاة.."

قلت بحدة وهجوم "لم أسألك عن كون.. أولئك الرجال.. لقد فقدوا ذاكرتهم جميعاً.. إنهم لم يتعرفوا عليّ ولا
يذكرون شيئاً من الحادثة في المنجم والتي أدت لعزلهم"

بدت الصدمة على وجه أمجد وهو يقول "هذا مستحيل.. لا يمكن أن يحدث ذلك بهذا التزامن"

قلت بعصبية "بالفعل.. وهذا ما أثار ذعري.."

قطب أمجد قائلاً "ما الذي ترمين إليه؟"

جلست على الكرسي في غرفته وأنا أقول "هناك ما حدث لهم في العزل.. لقد قاموا بعمل شيء لهم أفقدهم
ذاكرتهم"

قال أمجد باستغراب "كيف يمكنهم فعل ذلك؟ بل لماذا يفعلونه أصلاً؟"

قلت مفكرة "أولئك الرجال قد أثاروا الكثير من الشغب في المنجم.. ربما أراد المسؤولون في المؤسسة أن
يتخلصوا من شغبهم هذا بطريقة جذرية.. كما ولا بد فعلوا معنا عند قدومنا.."

جلس أمجد على سريره مفكراً بدوره، فأضفت محاولة إقناعه "أنت بنفسك استغربت فقداننا لذكرياتنا جميعاً قبل
استقدامنا إلى الكويكب.. أليس كذلك؟ لا بد أنهم فعلوا بنا ذات ما فعلوه بالرجال الثلاثة، لضمان سير العمل في
الكويكب دون مشاكل.. الأدهى أنهم يذكرون مواقع مساكنهم وعملهم هنا.. أي أن فقدان الذاكرة جزئي فقط.."
قال أمجد مفكراً "هذا أمر خطير للغاية.. فهو يثبت أن أمراً غامضاً يدور حول هذه المؤسسة بالفعل.. ليس من
الطبيعي في أي سجن إفقاد السجناء ذكرياتهم.. والأهم من ذلك..."

نظرت له مستفسرة، فأكمل "ماداموا قادرين على إفقادنا ذاكرتنا بطريقة ما، فلا بد أنهم قادرون على إعادتها لنا
أيضاً.."

اتسعت عيناى وأنا أقول بلهفة "أحق ما تقول؟ أنت متأكد؟"

ابتسم لتحمسي الزائد وقال "كيف يمكنني التأكد من ذلك وأنا استنتجته للتو؟ لنأمل فقط أن هذا صحيح.. متأكد أن
الكثير من الأسرار ستتكشف مع استعادتنا لذكرياتنا.. ولن تكون بهيجة على الإطلاق"
صمت مفكرة في الأمر، ثم وقفت وأنا أقول "يجب أن نفكر في طريقة للحصول على المعلومات.. الحراس
صامتون كالموتى فلا فائدة من سؤالهم.."

قال أمجد "لنفكر بالأمر بروية.. ولنبحث عن الطريقة المناسبة"

هزرت رأسي موافقة، ثم خرجت من مسكنه بصمت وأنا أغرق بأفكاري.. هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ إن
استعدت ذاكرتي، فما الذي سأكتشفه فيها؟ هل سأصدم بمعرفة أنني مجرمة أقضي عقوبتي على هذا الكويكب؟ هل
سأصدم بمعرفة من كنته قبل أن أستيقظ؟ لا أدري.. ولكن مهما كان الأمر، فأنا أريد استعادة ذكرياتي.. ليس من
حقهم سلبنا إياها.. وليس من حقهم استعبادنا بهذه الطريقة..

علا الصوت المدعور عبر الأسلاك قائلاً "أنا متأكد أن هذا صحيح.. لدي كل الأدلة التي تثبت ذلك.. وهذه الأدلة
تكفي لإسقاط المؤسسة كلها"

قال الآخر بصوت متوتر “إذن لم لا تفعل ذلك الآن لتنتهي المسألة؟”
جاء الصوت أكثر توتراً “مستحيل.. يمكنهم تنفيذ الأدلة بسهولة.. فالدليل الأهم لازال مفقوداً.. كما أنهم يعرفونني ولديهم جميع المعلومات المطلوبة عني.. وهذا ما يخيفني..”
قال الآخر بقلق “أخبرتكَ أن تنتظر قليلاً.. تلك الفتاة سوف...”
جاوبه الصوت بعصبية “أخبرتكَ ألا تلجأ لهذا الأسلوب.. لستُ راضٍ عنه أبداً..”
فقال الآخر مقطباً “لماذا؟ هذه هي وسيلتنا الوحيدة..”
قال الصوت “لا تفعل.. سأحاول بطريقي الخاصة أن أحصل على ما أريد.. حتى ذلك الوقت لن أخاطبك مجدداً
لأنني لا أريد توريطك أكثر.. لا تقلق عليّ وابقَ بعيداً حتى.....”
علت شوشرة على الاتصال والصوت يصل متقطعاً لثوان قبل أن يصمت تماماً.. فنظر الآخر للجهاز بحنق وقلقه
يشد أكثر فأكثر.. كيف يريد منه الابتعاد.. هذا مستحيل..

تلك الليلة، استيقظت على رائحة قوية.. فنهضت من سريري بسرعة وخرجت من المسكن متوجسة.. كان المكان قد بدأ يتغطى بدخان كثيف قادم من ناحية المساكن الجنوبية، فبدأت أسعل لكثافته وأنا أركض بذاك الاتجاه.. خشيت أن يكون الحريق قد نبع من أحد المساكن وهذا قد يتسبب في موت ساكنها، احتراقاً أو خنقاً أيها أسرع.. لكنني وجدت الحريق قد اندلع في غرفة جانبية تستخدم كمستودع لبعض الأدوات الضرورية.. كنت أول من وصل هناك، فوقفت مكاني بحيرة مما عليّ فعله مع غياب أدوات إطفاء الحريق في المكان.. ثم بدأ الآخرون يتوافدون قربي وأغلبهم يسعل بقوة.. سمعت أحدهم يتساءل “وماذا عن نظام إطفاء الحرائق؟ لم لم يعمل حتى الآن؟”

لم أستغرب هذا الأمر ولم أبحث جواباً له.. لا بد أنه معطل وأنهم لم يكلفوا أنفسهم إصلاحه، لكن لحسن الحظ فإن أقرب مسكن من تلك الغرفة بعيد عن مرمى النيران ولا خطر من انتقالها إليه.. سمعنا في تلك اللحظة أحد الحراس المكلف بحراسة المساكن وقد اقترب منا ركضاً صائحاً “ابتعدوا.. هذا مكان خطر..”
وقفنا للحظات ننظر له بعدم فهم، عندما دوى انفجار قوي خلفنا أسقط مجموعة كبيرة منا جانباً.. كان الانفجار الذي حدث في المستودع قوياً لكنه لم يتسبب بأي إصابات خطيرة بين السجناء.. نهضت من الأرض بعد أن أسقطني الانفجار بقوة ونظرت لذرعي التي ألمتني وبقع من الدماء تبلل الملابس فوقها، وعدة سجحات تغطي يديّ وفكي وأنا أشعر بألم في جانب رأسي.. لمست الموقع فوجدت كدمة صغيرة عليه، لكن لحسن الحظ لم أجد دماء على يدي بعد أن لمستها..

نظرنا للمستودع الذي تحطم تماماً والنار تأكل ما تبقى منه.. وسمعت الحارس وهو يقترب قائلاً بضيق "كانت هذه بعض الأجهزة وقد انفجرت.. من المسؤول عن هذا؟"

كانت الأمسية الحافلة قد انتهت بالنسبة لي، فتركت الموقع وعدت لمسكني بغية تنظيف ما أصابني من الانفجار ومحاولة العودة للنوم.. لن أكون ذات فائدة هناك والحارس ولا بد قد أبلغ الإدارة بالأمر..

قبل أن أصل لمسكني، وجدت من يصيح بي "أنت.. قفي مكانك"

نظرت خلفي بتعجب لأرى أحد الحراس يقترب مني ووجهه لا يبشر بخير، فسألته "ما الأمر؟ أتريدون مني مساعدة في إطفاء الحريق؟"

قال الحارس بسخرية "شكراً.. يكفي ما فعلته هذه الليلة، ولا نريد إسهامات مدمرة أخرى منك"

غلبتني الدهشة لسخريته، فتساءلت "ماذا تعني؟"

قال وهو يقبض ذراعي "أعني أنك مطلوبة للتحقيق بتهمة التسبب بحرق غرفة المستودع.. فاتبعيني بصمت"

قلت باعتراض "أنت تهذي.. أنا استيقظت من نومي لأجد الحريق مشتعلًا بالفعل.."

فقال بصرامة "حاولي إثبات هذا أمام لجنة التحقيق إن استطعت"

جذبت ذراعي بقوة وأنا أصيح بغضب "لا يحق لك اتهامي دون دليل.."

فصرخ في وجهي "أطيعي الأمر دون ماطلة.."

قبل أن أتفوه بكلمة، وجدت أمجد يجذبني للخلف ويقف أمامي قائلاً "لا داعي للغضب بهذه الطريقة منها.. لا ذنب لها في أي شيء مما حدث"

نظرت له بدهشة وقد فوجئت بتدخله، ما الذي سيجنيه من هذا التصرف؟.. لم يعجبني تدخله ولم أحب الشعور بأن هناك من يحاول حمايتي، بأنني ضعيفة أحتاج لرعاية..

سمعت الحارس يقول بحدة "تنحّ عن طريقي يا هذا.. لا تتدخل فيما لا يعنك"

قال أمجد محاولاً تهدئة الأمور "استدع قائد الحراس.. هو من سيحقق في الأمر.."

فوجئت بالضربة التي أصابت وجه أمجد بمؤخرة السلاح والحارس يصيح "قلت لك تنحّ عن طريقي"

أسقطت الضربة أمجد أرضاً، فصحت في الحارس "لماذا ضربته ولا دخل له فيما حدث؟"

تقدم الحارس وجذبني من ذراعي قائلاً "أطيعي الأمر ولا تضطريني لمزيد من العنف معك"

لم أستجب له وأنا أقول محاولة جذب ذراعي من قبضته "لا دخل لي في كل هذا.. لم لا تبحث عن المسؤول عن هذا وتتركني في حال سيبي؟"

وجدت أمجد يجذب ذراعي ويدفع الحارس بعيداً شيئاً ما قائلاً بحدة "لا يحق لك اتهامها دون أدلة.. ولا أخذها دون أمر.. فهل تملك أمراً باصطحابها للتحقيق؟"

قال الحارس بغضب "أنتحداني يا هذا؟.."

لم يفه أمجد بكلمة وإن لم يتحرك من موقعه خطوة وهو يحميني بجسده مانعاً الحارس من اقتيادي مرة أخرى نحو المركبة.. فتقدم الحارس منه خطوة بتهديد، لكن أمجد لم يتراجع وهو يبادل الحارس نظرات التحدي، عندما ارتفع صوت صارم يقول “ما الذي يجري هنا؟”

التفتنا لنرى قائد الحراس الذي نزل من مركبته وتقدم منا موجهاً سؤاله للحارس “فسّر لي ما يجري أيها الحارس”

اعتدل الحارس في وقفته قائلاً “لقد كنت أهمّ بأخذ هذه السجينة للإدارة للتحقيق في أمر الحريق الذي طال المستودع، لكنها امتنعت عن ذلك، وقام هذا السجين بالتصدي لي ومنعي من اصطحابها”
قال أمجد بسرعة “إنه لا يملك دليلاً على ارتكابها تلك الجريمة، ولا حتى أمراً بالتحقيق معها.. إنه...”
قاطعته قائد الحراس قائلاً “لم أطلب رأيك يا هذا.. فالزم مكانك..”
ونظر للحارس قائلاً “من أصدر لك الأمر باصطحابها؟”

قال الحارس بشيء من التوتر “لم يصدر لي أحد مثل هذا الأمر، لكن أحد عيوننا أكد رؤيتها عند المستودع وقت اشتعاله قبل أي شخص آخر.. وكنت أريد أخذها للتحقيق لا أكثر”
فكرت في قوله بحق.. لديهم عيون لمراقبتنا؟ ما هي هوية تلك العين؟ أهو أحد السجناء؟ لا أظنّ أحداً آخر يصلح لهذه المهمة دون أن يتم كشفه..

قال قائد الحراس “لا يحق لك أخذها دون أمر من قائدك المباشر.. اتركها الآن، وسنستدعها للتحقيق إن وجدنا دليلاً على اشتراكها في الحادث.. أهم شيء هو إطفاء الحريق قبل أن يمتد ضرره”
وابتعد مضيقاً “أحضر لي ذلك الذي شهد الحادث فيما بعد.. ثم تفحص أجهزة المراقبة وسيظهر المجرم فيها ولاشك..”

نظر الحارس لأمجد بحق، ثم قام فجأة بدفع مؤخرة سلاحه بقوة في بطن أمجد الذي تلقى الضربة بصمت وهو ينثني ويركع من الألم.. فيما غادر الحارس وهو يبصق مستحقراً غير عابيء به..

زفرت لأفرغ غضبي من تصرف الحارس غير المنطقي، وركعت قرب أمجد أسأله “هل ألمك كثير؟”
رفع أمجد رأسه ونظر لي بعينين قلقتين قائلاً “هل أنت بخير؟ هل ألم ذراعك؟ يا إلهي، ما الذي حدث لوجهك؟”
نظرت له بشيء من عدم التصديق، ثم هتفت بحدة “ما الذي تهدف له حقاً؟ لماذا تدخلت في أمر لا يخصك ورضيتَ بتلقي الضربات مدافعاً عني في شيء لن تجني أي خير من ورائه؟”

قال مغالباً ألامه “لماذا تعتقدين أنه لا يخصني؟ أي أمر يخصك هو أمر يهمني بشدة.. ولم أستطع الصمت وأنا أراه يسوقك رغباً عنك..”

بهتت وأنا أسمعه فلم أملك تعليقاً، بينما أضاف “كنت أود لكمه على وجهه، لكنني خشيت أن أتعرض للمساءلة وأن أجرك معي في ذلك.. تغلب عليّ خوفي عليك فكتمت اعتراض بصعوبة”

قلت مقطبة رغماً عني “لماذا تفعل ذلك؟ ألا تخشى عقابهم؟”

أجاب بابتسامة وبصوت خافت “لأنني أهتم بك.. وأخشى عليك أكثر من أي شخص آخر هنا..”

شعرت بارتجافة غريبة في أعماقي كرهتها، فوجدت نفسي أندفع واقفة وأنا أقول بحيادية “لا تفعل هذا مرة أخرى.. أنا أكره هذا”

وأسرعت لمسكني تاركة إياه يقف متألماً ويشيعني بنظراته، فأغلقت الباب خلفي وظللت أدور في المسكن الصغير.. أقنعت نفسي مراراً وتكراراً ألا أحمل كلماته أكثر من طاقتها.. لكني رغماً عني وجدت دقات غريبة في صدري.. وكأن قلبي الصغير يعترض على ما أحاول إقناعه به.. أيها الأحمق، ماذا ترتجي من كلمات قد لا تعني لصاحبها أكثر من الحروف التي كونت كلماتها؟.. أيها الأحمق، ماذا ترتجي من فتاة كالتي تسكن في جوفها ولا يمكنك رؤية نظرات الآخرين لها؟.. حقاً أنت أحمق، وإلا ما رفرفت لكلمات زهيدة مثل هذه.. قاطعني صوت دقات على الباب قفز لها قلبي.. أياكون أمجد قد لحق بي؟ لا أدري لماذا شعرت أنني لا أريد مواجهته في هذه اللحظة..

اقتربت من الباب بعد تردد وفتحته، لأرى بسمة خلفه تنتظر لي قلقة، فابتدرتني “ما الذي حدث لك يا حمراء؟ سمعت أن أحد الحراس حاول أخذك قسراً للتحقيق..”

قلت وأنا أكتم تنهيدة راحة “لا تقلقي.. لم يحدث لي شيء.. لقد وصل قائد الحراس في اللحظة المناسبة ومنعه من هذا..”

قالت بسمة براحة وهي تجلس “خشيت أن يتسبب هذا بعقابك لرفضك الأوامر.. لكن الآن اطمأنتت عليك..” ثم قالت رافعة حاجبيها “لكن ما بالك متوترة بهذا الشكل؟ وجهك شديد الحمرة.. هل كنت خائفة مما قد يحدث لك؟”

خففت وجهي وأنا أجلس على السرير مغممة “ليس تماماً..”

ظلت بسمة تنتظر لي بتعجب، فقلت لها “يحسن أن تعودى لدارك وتتنالى قسطاً من الراحة.. يكاد النور يشق السماء، وأمامنا يوم عمل شاق كالعادة”

نهضت بسمة بابتسامة مجيبة “أجل.. وأنت تبدين منهكة كثيراً.. تصبحين على خير”

وغادرتني مغلقة الباب خلفها، فاستلقيت على سريري متجاهلة الألم في موضع إصاباتي وأنا أنتهد مزيجة أمجد من عقلي للتفكير في أمور أهم.. كهوية ذلك العين الذي وشى بي زوراً.. ومصيري إذا استدعيت للتحقيق غداً.. لكن رغم كل ذلك، كان أمجد يعود لتفكيري بقوة وبمنتهى السخافة.. أئن يكف عن إزعاجي حتى في خلوتي؟..

الفصل الثامن [انفعالات مبهمة]

لحسن الحظ لم يتم استدعائي للتحقيق في اليوم التالي، معنى هذا أنهم أدركوا كذب ما قيل عني.. حاولت إنهاء فطوري بسرعة ذلك الصباح والتوجه للمنجم قبل خروج أمجد... شعرت بضيق شديد لفكرة مواجهته، ولم أدر سبب ذلك.. لو كان حديثه قد ضايقتني فكلمات قليلة مني ستصده للأبد وتمنعه من التفوه بحماقات كالتى سمعتها منه الليلة الماضية.. فلماذا أخشاه الآن؟ ليس من عادتي خشية أحد، لكني تمنيت حقاً في هذا الصباح أن أتجنب رؤيته والحديث معه..

لكن تلك كانت أمنية عزيزة التحقق.. إذ فور نهوضي بعد إنهاء فطوري وجدته يقف أمامي مبتسماً ابتساماً مريبة، وقال بلطف "صباح الخير"

توجست من ذلك اللطف الغريب، فدممت بإجابة مبهمة وأنا أحاول منع نفسي من الإشاحة بوجهي لئلا أسيء له، خاصة مع رؤية العلامة التي تركها سلاح الحارس على وجهه، والتي كنتُ سبباً فيها.. حاولت التوجه للمنجم بصمت، لكنه أمسك ذراعي بشكل كدت أقفز له وهو يسألني بقلق "هل أنت بخير؟ لقد تعرضت لعدة إصابات بسبب الانفجار البارحة.. فهل أنت أفضل الآن؟"

قلت بسرعة وأنا أحاول جذب ذراعي "أجل.. بخير.. لا تقلق"

لم يفلتني وهو ينظر لي وابتساماً ترتسم على جانب فمه، وسألني "ما بك؟ تبدين مرتبكة.."

قلت بسرعة "لقد تأخرت عن العمل.. وأخشى أن يعاقبوني على ذلك.."

رفع حاجبيه متسائلاً "حقاً؟"

أدرت وجهي بعيداً وأنا أقول "ألا ترى الجميع قد كادوا يرحلون باتجاه المنجم؟ لست بحاجة لسمعة سيئة فسمعتي قد تحطمت تماماً لدى الإدارة"

عندها أفلتني بصمت، فاستدرت وابتعدت عنه بخطوات سريعة.. مجنونة أنا لأنفعل بهذا الشكل المبهم لحديث

عاديّ يدور بيننا.. أصبحت لا أطيق النظر في عينيه، ولست أدري السبب..

وهذا أكثر ما يثير تعجبي في نفسي..

مرّ نهاري عادياً، لكنني شعرت بحنق شديد من نفسي.. لماذا عاملت أمجد بهذه الطريقة؟ ولماذا انفعلت لأسباب

واهية؟ كرهت هذا، وكرهت ما قد يظنه بي.. لكل ذلك قررت أن أستعيد هدوئي وأعامله كالبقية دون انفعال.. ولذلك أيضاً لم أشأ الهروب تلك الليلة رغم أنني كنت أودّ ذلك من كل قلبي، لكنني أجبرت نفسي على الجلوس معهم في زاويتنا المعتادة وإن انشغلت بالحديث على الأغلب مع بسملة التي كانت تشتكي من ظروف عملها الصعبة، وهي غير قادرة على الاعتراض على أي شيء رغم ضيقها..

بعد فترة من الوقت، تركنا أدهم ليعود لمسكنه، وتبعته بسملة بخطوات حثيثة كالعادة وإن ظلت خلفه بعدة خطوات لا تتجاوزهن.. عندها توترت رغماً عني وهممت بالنهوض بدوري، عندما سمعت أمجد يناديني بصوت خافت.. تلقائياً رفعت بصري ونظرت له ربما للمرة الأولى تلك الليلة، وندمت على ذلك على الفور.. ففور أن التقت عينانا شعرت بتوتر شديد وتوجس حتى كدت أقفز واقفة وأهرب لمسكني، وهو ما لم أعرف سببه.. كانت عيناه قد اكتستا بلطفهما الذي لا يظهر إلا عندما أكون معه وحدنا، وسألني بصوته الهاديء "ما الأمر يا حمراء؟

ألاحظ أنك تتجنبين النظر إليّ اليوم.. هل أنت غاضبة من شيء فعلته؟"

أسرعت أدير بصري رغماً عني مجيبة "لم أتعمد هذا أبداً"

قال بلوم "ها أنت تفعلينها مجدداً.. هل تكرهين رؤيتي لهذه الدرجة؟"

قلت مقطبة وأنا أذفع نفسي للنظر إليه "من قال ذلك؟ لا تفسر الأمور على هواك.."

ظل ينظر لي محاولاً فهمي، لكن هذا عسير.. أنا أعجز عن فهم نفسي، ولم أعد أبذل جهداً للمحاولة البتة.. سمعته يقول "أحقاً لست غاضبة؟ أنت لم تؤكدي لي ذلك حتى الآن"

وجدتني أسأله بهجوم "ما الذي تريده مني بالضبط؟ لماذا أصبحت معاملتك لي مختلفة عن قبل؟"

أجابني بابتسامة "أخبرتكَ بالسبب.. لأنني...."

قاطعته بشيء من الحدة "عذر غير مقبول.. ماذا تعني باهتمامك بي؟ أخبرتك من قبل ألا تعاملني كفتاة الآن.. فأنا أكره هذا.."

قال مقطباً "وكيف تريدني مني معاملتك؟ أنت فتاة مهما حاولت تجاهل ذلك.. إن كنت ستكرهيني لأنني أحاول الدفاع عنك ومساعدتك في بعض الأوقات فافعلي ما يحلو لك.. لكن لا تطليبي مني أن أبعد عنك وأتجاهلك.."

نهضت واقفة بشيء من العصبية لم أملكها قائلة "يبدو ألا فائدة من الحديث معك.."

واستدرت راغبة بالعودة لمسكني.. لا فائدة من حرق أعصابي معه في جدال عقيم.. فوجدته يقبض يدي قائلاً بسرعة "لا تذهبي الآن.. ابقِ قليلاً.."

نظرت له بعصبية، فقال متردداً "أريد أن أعرف أكثر عن استجوابهم لك.. ما الذي سمعته بالضبط في غرفة المسؤول ذاك؟"

ترددت قليلاً، ثم عدت لأجلس لأنني لم أرغب بأن أبوء كمن يريد الفرار، واستجبت لأسئلته شارحة بالضبط ما دار من حوار في تلك الغرفة.. وبعد فترة، لاحظت أن أمجد لم يكن يستمع لي حقاً.. كان ينظر لي بصمت في

أحيان كثيرة، وفي الأخرى يسرح فيما لا أعلمه..
وبعد أن انتهيت، صمتُ بانتظار تعليقه، لكنه لم يفه بكلمة وهو سارح بفكره، فسألته بريية "لماذا سألتني عما حدث هناك وأنت غير مهتم به حقاً؟ ما هدفك من هذا؟"
ابتسم معلقاً "أنا مهتم بالفعل بما حدث هناك.. لكنني أردت أن استبقيك قليلاً.. لم أرد أن ترحلي وأنت غاضبة.."
ظللت أنظر له بدهشة وعدم فهم.. ما هدفه من هذا كله؟ ما هدفه من تلك الكلمات التي تصيبني في الصميم، وتقلب كياني تماماً؟ والأقسى أنني لا أعرف إن كان صادقاً فيها أم لا..
لم أعرف بم أرد عليه، فنهضت وغادرت بسرعة وأنا صامته متجاهلة نداءه تماماً.. وفي مسكني، جافاني النوم وأنا أزر مفكرة في حالي العجيب معه.. لماذا لم أصدقه بقوة لئيتعد عني؟ لست بحاجة لمثل هذه الانفعالات.. ليس هنا وليس الآن.. ربما لو كنت على الأرض لسعدت كثيراً بهذا ولتقبلته بحبور، أما هنا، فأشعر أنه يثقل كاهلي ويصرفني عن مهمتي الكبرى.. والأدهى أن قلبي لا يطاوعني في شيء مما أريده..
تباً لك يا قلبي الصغير الأحمق..

مر يومان منذ تلك الليلة، حاولت فيهما أن أنسى تلك المحادثة دون أن أفلح في ذلك.. وفي ليلة، أنهيت عشائي وجلست أمام مسكني مطرقة أفكر في حالي مع أمجد.. لست أدري لم أصبح وجوده يزعجني.. ولم أصبحت أضيّق وأهرب من أي لطف بيديه.. إنه لطيف مع الجميع، صحيح أنه كان يعاملني كذلك منذ البداية، لكن بدأت نظرات تتبدى في عينيه توترني وتجعلني أتحاشاه ولست أدري لماذا..
هل أكرهه؟ لا أعتقد ذلك.. إذاً لماذا أتهرب من كلماته ولطفه؟ حقاً أصبحت أتعجب من نفسي يوماً بعد يوم.. لاحظت، من موقعي المتطرف، بسمة قادمة من عملها والضيّق يعلو وجهها.. كانت قد تأخرت مع بعض السجناء كما يفعلون عادة للمساعدة بأي أعمال إضافية، وكانت تنظر ليدها بآلم..
مرت في سيرها نحو مسكنها بأمجد الذي جلس في زاويتنا ينتظرنا، فرأيته يبادرها الحديث ويبدو أنه يسألها عما بها.. ثم بعد نظرة ليدها التي بدت لي تحمل جرحاً غير عميق، طلب منها أن تجلس وتنتظره وأسرع مبتعداً..
وقفتُ واقتربت من بسمة متسائلة "ما الأمر؟ هل أنت بخير؟"
قالت وهي تمد يدها تجاهي "لقد جرحتني إحدى الآلات وأنا أقوم بتشغيلها كما طلب مني الحارس.. وهي تؤلمني كثيراً"
ثم دمدمت وهي تضغط على جرحها بيدها الأخرى "إنه لم يعرض عليّ أي مساعدة بل انتهرني وطرمني من الموقع"

رأيت أمجد يعود في تلك اللحظة حاملاً بعض العدة البدائية لعلاجها، والتي لا تتعدى عبوة ماء وبعض الأربطة التي يبدو أنه مزقها من ملابسه.. فجلس قربها وتناول يدها ليقوم بتنظيف الجرح ومن ثم ربطه حتى يتوقف الدم.. رغماً عني تعلقت عيناها بهما وأنا بدهشة من صمت بسمة وهي التي عادة تقفز مذعورة عند اقتراب أي رجل منها.. لكنها الآن بدت هادئة مستسلمة لأمجد الذي يعالج جرحها بكل عناية.. ظللت أنظر لهما وأنا أشعر بشيء من عدم الراحة يتملكني.. لم؟.. لست أدري..

حانت مني التفاتة عندما لمحت شخصاً يقف على مبعده، فرأيت أدهم يقف في جانب آخر وينظر إليهما بصمت.. رأيت نظرة مبهمه ترتسم في عيني.. ولما رأني أطرق برأسه وابتعد بهدوء دون أن ينتبه الاثنان إليه.. لا شعورياً تبعت أدهم حيث سار تاركة الاثنان ينعمان بوقتتهما معاً.. رغم جدالاتنا الدائمة شعرت بشيء في ملامح أدهم دفعني لأتبعه.. فرأيت جالساً على صخرة تطلّ على الغابة المحيطة بالمساكن وهو ساهم الفكر.. ولما سمع خطواتي التفت إليّ بدهشة للحظات قبل أن يعود لجلسته السابقة.. فسألته بعد صمت قصير "ما بك؟ تبدو مصدوماً.."

صمت فاركأ كفيه للحظات قبل أن يغمغم بتردد "أتظنين.. أن بسمة تحمل اهتماماً تجاه أمجد؟" نظرت له بشيء من العجب، ثم تساءلت "أيهمك هذا؟"

ظل صامتاً وحركاته تزداد عصبية، فكانت تلك أوضح إجابة تلقيتها منه.. فتنهدت وأنا أجلس على صخرة قريبة مجيبة "لست أدري حقاً.. لكن ما الذي يمنع؟.. إنهما يناسبان بعضهما البعض.."

نظر لي بدهشة وصدمة، فقلت مبتسمة "إنها تحمل خوفاً عميقاً منك.. لذلك لا أظنها تحمل أي اهتمام تجاهك.. فلم لا تصرف النظر عنها؟"

بانث المرارة في عيني، قبل أن يقول "وهل أملك شيئاً من ضخامتي وصوتي الخشن هذا؟" اتسعت ابتسامتي وأنا أجيب "لم يقل أحد أن هذا ذنبك.. لكن هكذا هي الحياة.. ونحن لا نملك لها تغييراً.."

عاد يتنهد وهو يطرق بصمت.. ربتُ على كتفه وأنا أتعاطف معه للمرة الأولى.. وقلت له "لا تقلق.. حتى لو كنت شرس المظهر ومخيفاً، ستجد يوماً الفتاة التي تكتشف قلبك الطيب وتحبك مهما كان شكلك.."

غمغم "أنت تحلمين.."

ملت تجاهه مغممة "من يدري.. ربما تجد أن الفتاة الناعمة الجميلة إياها قد يخفق قلبها لرجل مثلك، لو أولاها اهتماماً أكثر وتغلب على ما يخيفها فيه"

نظر لي بدهشة وهو غارق في التفكير، عندما تعالي صوت من خلفنا يقول "ما الذي تفعلانه؟" نظرت خلفي لأجد أمجد يقف قريباً منا.. وقد وجه لنا نظرات حادة جهلتُ معناها، فابتسمت مجيبة "مجرد نصائح.."

اقترب أمجد وجلس قريباً معلقاً "لم أعرف أن أدهم بحاجة للنصيحة.."

اتسعت ابتسامتي وأنا أجيب “هناك الكثير مما لا تعرفه في هذا المكان..”

أحاطتني نظرات أمجد مجهولة المعاني مرة أخرى.. فيما اعتدل أدهم معلقاً “شكراً لك يا حمراء.. أنا لن أنسى لك ذلك”

وابتعد عنا وقد بدا عليه شيء من الانسراح أزلت الكأبة السابقة.. فيم ظل أمجد جالساً دون حراك.. ولما التفت إليه وجدته يحدثني بنظراته الصامتة، عندها قطبت قائلة “ما الأمر؟ إن كنت تريد قول شيء فلا تصمت وتوترني بنظراتك هذه”

ابتسم معلقاً “نظراتي توترك؟”

قلت متحدية “أجل.. لأنني أجهل معناها.. فما الذي تريد قوله حقاً؟”

مد يده وأزال ورقة شجر كانت عالقة في شعري، فيما شعرت أنه يتلمس خصلاته لوهلة قصيرة، قبل أن يرمي الورقة بعيداً قائلاً “لماذا أنت عدائية هكذا دائماً؟”

كذبت ما شعرت به للحظات وأنا أجيب “وما المفترض أن أفعله مع أناس أجهلهم في بيئة أجهلها وفي ظروف معادية؟ لا تتوقع مني أن أكون كبسمة اللطيفة الرقيقة دائماً”

قطب معلقاً “لماذا تستهزئين بالفتاة دائماً؟ ما الذي يسبب ضعفك منها؟”

كدت أقول إنها معاملته غير العادلة لها.. لكن لم أكن أريد أن أبدو بهذه الغيرة.. لا يمكن أن أغار من فتاة مثلها أبداً، فقلت هازة كتفي “لست أضيق منها.. لكني أجد تصرفاتها غير منطقية أبداً ومفتعلة..”

ابتسم قائلاً “هي لم تحاول افتعال تصرفاتها بل هي على طبيعتها.. لكني أشعر أنك تفتعلين عدائيتك هذه وعنفك.. أنت لست هكذا حقاً لكنك لا تريدين الظهور بمظهر الضعيفة”

قلت مشيخة “احتفظ بالتفسيرات لنفسك.. ولا تشغل نفسك بي كثيراً”

قطع حديثنا صوت صراخ قادم من الساحة وسط المساكن.. فهبنا واقفين واندفعنا إلى هناك بسرعة معاً.. وفي

وسط الساحة، في قلب جمع من الرجال والنساء الذين وقفوا يتفرجون على ما يجري، كان أدهم يقبض أحد

الرجال من مجمع ثيابه ويرفعه عن الأرض.. بدا وجهه مخيفاً في غضبته وهو يهمس للرجل المذعور بشيء لم

نسمعه.. وقبل أن نصل إليه كان قد لكم الرجل لكمة قوية أطاحت به عدة أمتار للوراء.. وقفت وأمجد مذهولين لما

يجري.. فرغم غضب أدهم السريع إلا أنه كان يتجنب ضرب أحد بعد تلك المرة، وكأنه قد ندم على ما ارتكبه من قبل..

حانت من أدهم التفاتة فرأى بسمة واقفة مرتجفة وهي تغطي فمها بيديها.. نظرت إليه بنظرات مرتاعة، ثم

انطلقت تجري لمسكنها لا تلوي على شيء..

وإزاء نظرات أدهم المحبطة شعرت أنني فهمت ما يجري، فيم اقترب أمجد من الرجل يحدثه ويطمئن عليه.. أما

أدهم فقد حوّل بصره إليّ في نظرة تحمل لوماً عميقاً.. عندها أطلقت ضحكة صغيرة أثارَت تعجب من حولي قبل

أن أقترب من أدهم وأجذبه من ذراعه بعيداً عن الحشد..

رأيت أمجد يقف مقطباً والنظرات ذاتها التي لا أفهمها ترتسم في عينيه، لكنني قررت تجاهل ما لا أفهمه وأنا أهمس لأدهم “يا لك من طفل.. ما الذي ظننت نفسك فاعله؟”

قال لائماً بحنق “لقد فعلت ما قلته لي بالضبط.. لكنها الآن تكرهني ولا شك”

ضحكت مرة أخرى وأنا أقول “وهل الاهتمام هو برمي اللكمات في كل اتجاه؟ تعال معي.. أمامك طريق طويل لتدرك كيف تكسب ثقة فتاة، ناهيك عن اهتمامها.. لكن لا أريد أفعالاً درامية لو سمحت.. يكفي كل ما نمرّ به”

قال أدهم بغیظ “لقد كان الأحق يزعجها بحديثه اللزج وتفاهاته البغيضة.. بدا أنها متضايقه منه جداً.. ولم يرتدع عندما طلبتُ منه تركها وشأنها”

قلت له “لكماتك تلك أظهرت لها كم أنت بدائي وغير متحضر..”

بعد فترة طويلة قضيتها مع أدهم وأنا أحاول إفهامه ما الذي يجب أن يفعله، أو بالأصح ما الذي يجب ألا يفعله من وجهة نظري لئلا يزيد زعر الفتاة منه، تركني أخيراً بعد أن أصابه الملل وعاد لمسكنه، فيما فضّلت أنا البقاء مكاني أتأمل القمر الصناعي المنير فوقي.. حاولت أن أستمتع بمنظره في السماء السوداء.. لكنه بدا صناعياً جافاً خالياً من أي تعبير.. تنهدت وأنا أشعر بضيق شديد عندما سمعت من يخطو خلفي قبل أن يصلني صوت أمجد قائلاً “أصبحت هناك الكثير من الاجتماعات السرية تدور في المسكن.. ما الذي يجري هنا؟”

نظرت إليه ولم أتمكن من معرفة ما يدور بخلده فقد كانت ملامحه عادية هادئة.. فقلت له مقطبه “بل أنت أخبرني ما الذي يجري هنا.. أكاد أراك أمامي كلما التفتُّ اليوم.. هل هناك ما يثير الشك في تصرفاتي لتراقبني بهذا الشكل؟”

ابتسم أمجد معلقاً “لي أسبابي الخاصة.. لكن ما الذي يدور حقاً بينك وبين أدهم؟”

قلت مشيحة بوجهي “لي أسبابي الخاصة أيضاً..”

جلس أمجد قريباً وقال بصوت خافت “غير لطيفة أبدأ..”

نظرت له مقطبة، فتجاهلني تماماً وهو يتطلع للقمر بصمت.. فصمتُ بدوري وأنا أعود لأدهم بأفكاري.. كنت أريد حقاً أن أساعده.. لست أدري لماذا.. وكأنه يعكس كل الصفات التي أبغضها في نفسي.. وكأن تقبل بسمه له هو تقبل لي بكل ما أحمله من نواقص.. ثم إن أدهم شخص طيب حقاً، وبسمه محظوظة حقاً إن أولها اهتمامه..

حانت مني التفاتة نحو أمجد لأجده صامتاً يتأملني.. شعرت أنه في تلك اللحظات قد قرأ أفكاري كلها مما جعل الدماء تصعد لرأسي وأنا أقطب كالعادة قبل أن أقول له “ما الأمر؟ هل هناك ما يلفت الانتباه في وجهي؟”

ابتسم ابتسامه بدت لي مريبة قبل أن يجيب “بالفعل..”

وصمت عازفاً عن إكمال إجابته مما أحقني.. إنه يعبث بي.. يستمتع بنطح عصبيتي بهدوء ليرى من الأكثر ثباتاً.. فأشحت بوجهي من جديد زافرة بحنق واضح كي أبين له ضيقي منه.. لكنني وجدته ينحني فجأة تجاهي

ويلمس خصلة من شعري من الخلف قبل أن يتراجع مغمماً “كانت تلك حشرة علققت في خصلات شعرك”
قلت بريية وحدة “حقاً؟ أنا لم أرَ حشرة منذ وطئت قدماي أرض الكويكب..”
لم يجب إنما ابتسم ابتسامة مريية أخرى.. فنهضت بعصبية وغادرت المكان عائدة لغرفتي.. غداً يوم شاق كالعادة
وأنا بحاجة للراحة.. لن تفيدني في شيء هذه الانفعالات المبهمة مع ذلك الرجل..

جلس مقطباً ينظر ليديه الملفوفتين برباط أبيض.. العرق يسيل على صدغيه وهو يزفر بقوة بعد المجهود الشاق
الذي قام به قبل قليل.. ولا تزال صيحات التشجيع تصمّ أذنيه رغم بعد الغرفة التي يجلس فيها عن القاعة
الواسعة..
رفع بصره ينظر للرجلين بالبدلات الراقية الغالية الثمن، ويحيط بهما ثلاث رجال مفتولي العضلات يرمقونه
بنظرات باردة فيها تحذير شديد اللهجة.. ثم سمع أحد الرجلين يقول بابتسامة “إذن؟ ماذا قررت؟ لا أريد أن أسمع
أخباراً تعكر مزاجي رجاء..”
فقال ببرود “أنت تعني أن أوافق على ما تقوله دون قيد أو شرط؟”
فتح الرجل ذراعيه قائلاً “ألا يكفي ما سنمنحك إياه؟ ستحصل على ما لا تحلم به.. المجد والشهرة.. المال والكثير
الكثير من المال.. فقط عليك أن تكون مطيعاً”
اعتدل في جلسته وقال بجفاء “أنت تريد مني المشاركة في مسابقات غير شرعية.. ألا تعلم ما سيحدث لي لو
كشفت اشتراكي بها؟ سألغى من اتحاد الملاكمة وسأمنع من المشاركة في أي مباراة مستقبلاً..”
قال الرجل بابتسامة “وماذا في ذلك؟”
فقال بحدة “أتظنني لا أعلم ما يدور في مثل تلك المسابقات؟ غسيل أموال، رهانات غير شرعية، وأشياء أخرى
أءنف من ذكرها.. أتريدني أن أنحدر لهذا المستوى دون سبب مقنع؟ أنا أحقق نجاحات جيدة في المباريات
الرسمية ولا أريد التخلي عن كل هذا الآن”
قال الرجل وابتسامته تتسع “يبدو أنك أنت من لا يفهم.. أنسيت المبالغ الطائلة التي اقترضتها منا؟ أنت لم تسدد
ربع القيمة حتى الآن.. إما أن تستجيب لمطالبنا أو نطالبك بتسديد المبلغ الآن.. والحل الأخير هو دخول السجن
وعندها ستفقد كل ما جنيته هنا..”
قال بغيظ “أيها الوغد.. أنت وعدتني أنك....”
قاطعته الرجل ببرود “وعدتك وأنا لم أنس وعدي لك.. أنت غير مجبر على الدفع الآن، كل ما عليك فعله هو
إطاعتنا..”

ثم مال تجاهه بابتسامة قائلاً "صدقني.. لن تتدم على ذلك أبداً.."

مرت عدة أيام حاولت فيها تجنب أمجد ما استطعت، وإن لم أستطع منه فكأ.. والذي يحقني أكثر أنه غير لحوح أو يتصرف بقلة تهذيب.. بل هو هاديء ومهذب في كل شيء بحيث يصعب عليّ الإساءة له بأي كلمة.. طبعاً لم أنسَ أنني أخطط للهرب من جديد.. هذا شيء لا ينسى في هذا المكان.. لكن كيف أستطيع إحكام خطتي الجديدة ووجه أمجد يبرز أمام عينيّ كلما انشغلت بالتفكير.. كيف أستطيع التركيز وابتسامته الهادئة تغافلي وتضعف تركيزي على الفور.. بل كيف أتقدم في خطتي وعيناه تشغلاني عن ذلك؟.. ذلك الذي يحدث لي له اسم محدد.. له صفة محددة.. لكني أتجاهلها وأصّب جام غضبي على عقلي الذي تشتت تركيزه لأسباب ضعيفة..

حاولت قبل خلودي للنوم، وقبل انقطاع الأضواء، أن أحكم خطة جديدة لهروبي بعزم هذه المرة.. وكدت أشد شعري غيظاً وأنا أجد عقلي عاجزاً عن التفكير، رغم أنني لم أجمع بالبقية هذه الليلة وفضلت الانعزال وحيدة حيث جلست أمام مسكني.. لذلك لكم أن تتخيّلوا مدى الإزعاج الذي سببته لي رؤية أمجد حيث ركع على مقربة يتأملني بصمت، فقلت مغلفة ضيقي ببرود "ما الذي تريده الآن مني؟"

قال ونظراته تحمل تعجباً شديداً "سمعتك تهذين وأنت جالسة بمفردك فأنتيت أستطلع الأمر.. من هذا الذي تشتمينه لأنه يسبب لك الإزعاج؟ أخبريني بهويته وسأخلصك منه تماماً" كتمت ضحكتي وأنا أقول بسخرية "شكراً.. لن تستطيع ذلك البتة"

يبدو أنه فهم ابتسامتي الساخرة على وجه خاطيء، إذ سرعان ما ارتسمت ابتسامته على شفتيه، وقال وعيناه تكتسيان بلطفهما الذي بتّ لا أعرف كيف أتصرف إزاءه "هكذا تبدين أفضل.. لقد أصبحت متجهمة الوجه كلما رأيتني مؤخراً، ولا أرى ابتسامتك هذه إلا نادراً.. في الواقع لقد افتقدت رؤيتها حقاً" صعدت الدماء لرأسي، ولا بد أنها أضحت واضحة في خديّ بشدة، فأشحت بوجهي وأنا صامتة عازفة عن التعليق.. كيف أعلق على كلمات مثل هذه وأنا لا أعرف مدى صحتها؟..

سمعت أمجد يضحك قائلاً "لست أدري احمرار خديك هذا لشدة خجلك أم لشدة غضبك مني.. وإن كنت أتمنى أن تكون الأولى فالتالية عواقبها وخيمة"

نظرت له بجدية وقلت دون أن أبدي انفعالاً في صوتي "اسمع.. أنا لست مستعدة لألعابك اللفظية هذه.. أنا مشغولة بأشياء أهم من محاولة سبر أغوار جملك المبهمة" ابتسم معلقاً "لا داعي للحيرة.. اسأليني وأنا سأفسر كل ما استغلق عليك ببساطة"

زفرت بضيق، فوقف قائلاً "لا داعي لإظهار كل هذا الضيق من وجودي.. سأذهب الآن، وأتمنى أن تتضمني إلينا ولا تنعزلي بمفردك هنا"

لم أجبه بكلمة، فغادر متجهاً إلى موقعه المعتاد، فيما بقيت في مكاني أزفر بضيق من جديد.. أخبرته أنني بغنى عن هذه الألعاب، فلم لا يتركني بمفردي ويعتقني من هذه الحيرة التي تلفني؟..

بعد يوم، جلست مع بسمة في أبعد بقعة يمكننا الجلوس فيها من المسكن وأنا أتأمل الغابة القريبة.. وقربي بسمة صامته لصمتي وهي تتأملني بين فينة وأخرى، ثم كسرت الصمت كعادتها في إفساد اللحظات الهادئة وهي تسألني "حمراء.. ما حقيقة تلك الومضات التي تؤلمك بين وقت وآخر؟ لا يشتكي أي منا من شيء مماثل.. فما السبب برأيك؟"

كنت قد أخبرتها عن تلك الومضات قبل فترة، فقلت مفكرة "لا أعلم.. إنها ذكريات تغمرني فجأة دون سابق إنذار.. تشبه الومضات التي تنير العتمة فجأة، وتسبب لي الكثير من الألم المزعج" وضعت بسمة يدها على كتفي مشفقة وهي تقول "لا بد أنها تزعجك كثيراً.. بودي لو عثرنا على طريقة لإراحتك من هذا العذاب.."

قلت بابتسامة محدودة "أنا بخير حال وهذه الومضات لا تهمني.. ثم إن أدهم أخبرني أنه قد مر بشيء مماثل من قبل.. لست وحدي في ذلك بالتأكيد.."

ظلت قربي صامته، فتنهدت وأنا أنظر لما حولي.. رغم كل ما يغیظني في هذه الفتاة، ورغم إزعاجها الدائم لي.. إلا أنها فتاة طيبة جداً.. طيبة لدرجة أبدو أنا معها وغدة بلا قلب.. رغم أنني لم أتلف معها منذ عرفتھا، إلا أنها لم تكررني لذلك أو تبعد عني.. فهل يحق لي معاملتها بجفاء كما أفعل عادة؟..

قطع أفكاري صوت مركبة اقتربت من المساكن حتى توقفت في الساحة التي تتوسطها.. كان اليوم هو أول إجازة حظينا بها منذ قدومنا بسبب تعطل خط الحاويات الذي ينقلها للمستودعات تمهيداً لنقلها للأرض، مما أجبرهم على إيقاف العمل في هذا المنجم والانشغال بصيانتته..

لذلك كان قدوم المركبة بالنسبة لنا فألاً سيئاً وإعلاناً بانتهاء راحتنا النادرة خاصة أن النهار لم ينتصف بعد.. لم أتحرك من موقعي وأنا أرى عدداً من الحراس ينزلون منها محيطين بأحد المساعدين الذي قال بصوت عالٍ "من ستتم مناداته عليه بالتوجه فوراً إلى المنجم، والبقية ليبقوا هنا حتى إشعار آخر.."

سمعت بسمة قربي تهمس برجاء "أتمنى ألا نكون نحن.."

نظرنا جميعاً للسوار في أيدينا بتوجس، فمنا من ابتسم براحة لأن شاشته لم تنزل بيضاء اللون، بينما تدمر البعض

الآخر وهو يرى اللون الأخضر يرتسم عليها بوضوح.. فقال المساعد "هيا انطلقوا في وجهنكم دون إبطاء.. أي تأخير سيحسب عليكم"

تأملت سواري ذو الشاشة الخضراء بشيء من الإحباط، ها هي فرصة نادرة للجلوس بهدوء دون عمل قد سُلِّبت مني دون سبب.. وسمعت بسملة قربي تقول بخيبة أمل "أوه لا.. لقد نادوني أنا أيضاً.."
ونظرت إلى سواري معلقة "على الأقل نحن معاً.."

لم يكن هذا مهماً في رأيي، ففي المنجم الكل ينشغل بعمله بشكل تام بحيث لا تغدو هناك أية أهمية للصحة.. نهضنا من فورنا لنتجه للمنجم، والتفتت بسملة خلفها للحظات قبل أن تقول مقطبة "أمجد وأدهم ليسا قادمين.. كيف ينادوننا نحن الفتيات ويتركون الرجال ينعمون بالراحة؟ هذا ليس عدلاً.."
قلت دون أن ألتفت "أنت تعلمين أن هذا النداء يتم بشكل عشوائي دون الاهتمام بكونك أنثى أم لا.."
قالت متذمرة "أعلم ذلك.. لكن هذا ليس عدلاً أيضاً.. أدهم ينظر لنا ضاحكاً بشماته.."
فقلت مبتسمة "لا تدعي هذا يزعجك.. سيأتي دوره يوماً ما.."

سرنا مع البقية الذين لا يتجاوزون العشرين بين رجل وامرأة، وأنا أحاول التفكير في سبب استدعائنا للمنجم وهو خاضع للصيانة.. لكن يبدو أنهم بحاجة لعمال السخرة لأداء بعض الأعمال اليدوية التي لا يقدر عليها المهندسون المختصون بتسيير عمل المناجم..

أثناء سيرنا القصير، سمعت جدالاً حاداً بين رجلين خلفي سرعان ما تطور لنجدهما يتدافعان بعنف.. هربت بسملة من طريقهما بينما تلقيت أنا لكمة على رأسي جعلتني أصيح فيهما "هلا كفتما عن هذا؟ سأشكوكما للحراس.."
شعرت بنبض قوي في رأسي من أثر الضربة جعلني أفق، فيما تجاوزني الرجلان وهما يتبعان البقية وأحدهما يشتم الآخر بما لا أسمعه.. بدت الأصوات حولي مبهمه، بينما شعرت ببسملة تلمس كتفي وهي تقول ما لم أستوعبه أيضاً.. تحولت النبضات القوية إلى ومضات مؤلمة وأكثر وضوحاً من السابق.. شعرت باختلال توازني وأنا أحاول استعادة انتباهي.. لكن تهاوى وعيي أكثر فأكثر ولم أشعر بساقيّ تحتي وأنا أفقد وعيي..

كان الجسد ملقىً أرضاً أمامي.. الدماء الدافئة تبلل الشعر الأبيض والسجادة الغليظة تحته مفسدة لونها العاجي الجميل..

وحتى نور القمر المتسلل من النافذة بدا مصطبغاً بحمرة مخيفة وهو يسقط على المكتب الفخم والكراسي الباذخة في الغرفة الواسعة..

شعرت برجفة في أطرافني.. وبزغلة في عيني من الرعب.. متى؟ وكيف؟

نهضت واقفة من الكرسي الوثير الذي غاص جسدي فيه، وشعرت بشيء بارد في قبضتي.. ظللت أهدق بعدم استيعاب في المسدس الرابض في يدي، ثم بذع رميته أرضاً.. وبعد أن فهمت تقريباً ما جرى، عدت إلى المسدس وأخذت أمسحه بطرف ثوبي بعصبية، ثم رميته مجدداً ووقفت أنظر لما حولي وأنا أرتجف..

يجب أن أهرب.. يجب أن أهرب الآن ولا أعود إلى هذا المكان مرة أخرى..

بدأت الشرفة خلف المكتب هي الحل الوحيد، فأسرعت إليها وفتحتها متأملة الحديقة الساكنة المظلمة.. ثم خرجت مغلقة الشرفة خلفي وأنا أشعر بنبض قوي في رأسي ولده الخوف المذعور..

ما أفعله بلا جدوى حتماً.. هناك عشرات الأدلة خلفي والتي ستدلّ علي بسهولة..

لقد خدعوني.. تباً لهم.. خدعوني ببساطة تامة..

كنت قد فقدت وعيي فلم أشعر بشيء من حولي وجسدي يسقط أرضاً.. لم أر بسمة التي ظلت تناديني مرتاعة قبل أن تنطلق بحثاً عن أدهم أو أمجد.. ولم أرها وهي تعود وخلفها أمجد وتشرح له بصوت مرتجف ما حدث لي.. ولم أر نظرات أمجد القلقة وهو يتفحصني بسرعة قبل أن يقول لها “لا يبدو عليها أي مرض ولا تشكو من إصابات واضحة.. يجب أن نقلها إلى المسكن بسرعة”

لم أر بسمة وهي تغادر بسرعة بحثاً عن أدهم تاركة إياي وحيدة مع أمجد.. ولم أر نظرة أمجد وهو يتأملني بقلق واضح ويلمس خدي بظاهر يده هامساً “ما الذي جرى لك يا فتاة؟ لقد أثرت ذعري..”

وقطعاً لم أره وهو يحملني بخفة بذراعيه ويعود بي إلى المسكن دون أن ينتظر أدهم.. الكاذب.. ألم يدع قبل قليل عدم قدرته على حملي وحده؟.. أم هل فعل؟..

استيقظت بعدها بنصف ساعة لأجدني على سرير في غرفتي، وبقربي بسمة التي امتلأت عيناها بالدموع وهي تنظر إلي.. وأدهم الذي وقف قريباً متملماً بقلق ظاهر.. أمجد لم يكن في الغرفة ولم أهتم بالسؤال عنه.. نهضت جالسة فهبت بسمة توقفني هاتفة “لا تتحركي.. أنت لازلت متعبة”

قلت وأنا أعتدل في سرير في “أنا من يمكنه أن يقرر شيئاً كهذا..”

فقال أدهم “لم فقدت وعيك اليوم؟ ما الذي حدث لك؟”

صمت دون أن أجيب وأنا أتذكر تلك الومضات المؤلمة.. لكني أرجأت التفكير بها وأنا أقول هازة كتفي “لا أدري.. سوء تغذية ربما؟.. شعرت بدوار بسيط بعد الضربة التي أصابتنني ولم أدرك سوء حالتي حتى فقدت وعيي فجأة”

لم يعترض أحدهما على عذري الهزيل وبسمة تقول “يجب أن تهتمي بصحتك أكثر.. سأحضر لك الليلة الكثير من الطعام ولن أَرْضَى بأن تتركي منه شيئاً”

ابتسمت ابتسامة بدت ممتنة لعينيها فيما هي ابتسامة تعجب لمدى تصديقها لكذبي.. لم أشهد طيبة كهذه من قبل وهذا شيء يثير العجب والسخرية بالفعل..

سمعت أدهم يقول “انتبهي لنفسك يا حمراء.. لن يسامحك إن تهاونت في العمل مرة أخرى” قلت وأنا أحاول الخروج من سريري “كم بقيت فاقدة للوعي؟ يجب أن نذهب للمنجم يا بسمة قبل أن نلقى عقاباً على تأخرنا”

قالت بسمة وهي تقف بسرعة “لا تقلقي.. لقد شرحت للمساعد ما حدث لك.. وهو قد سمح لك بالراحة بعد أن تطوع أدهم لأخذ مكانك في العمل..”

ثم قالت لأدهم “لنذهب.. الآن قد اطمأنتُ عليها، ويجب أن نسرع عائدين للعمل..” قلت لأدهم قبل أن يغادر “شكراً لك يا أدهم.. أنا مدينة لك بذلك”

لوح بيده دون أن يجيب وهو يتبع بسمة خارجين من المسكن وبسمة تتمنى لي أن أنعم بالراحة.. لكن أتى لي هذا وأنا أتذكر ما ومض في ذهني هذا اليوم؟ الآن، بعد رحيلهما، أستطيع أن أترك تلك الذكرى تتسلل إليّ شيئاً فشيئاً وأنا أقطب وأفكر محاولة تمالك نفسي لئلا أصاب بالذعر..

استعدت تلك اللقطات محاولة تذكر أي شيء قد يدل على ما حدث.. لكن لم أتذكر أي لحظة مما سبق اللحظة التي فتحت عينيّ فيها لأجد الجسد الهامد أمامي.. هل أنا من قتله؟ هل أنا حقاً من أطلق النار؟.. لكن من هو؟ ولماذا فعلت ذلك حقاً؟.. كل ما أذكره هو حديثه لي، وبعدها فتحت عينايا لأجد المنظر البشع أمامي.. فما الذي حدث حقاً؟..

أمسكت رأسي أحاول منع الصداع الذي بدأ يعود لي.. وتنفست بعمق محاولة تمالك نفسي.. هل أنا قاتلة؟ ألهذا تم استقدامي إلى الكويكب لأقضي فترة عقوبتي فيه؟.. لا يوجد سبب آخر..

قاطعني صوت أمجد الذي قال بنبرة قلقة “هل استيقظت من غيبوبتك؟ لقد أقلقنتني كثيراً..”

نظرت لأجده واقفاً قرب الباب، فقلت بدهشة “ما الذي جاء بك الآن؟ أنت حتى لم تطرق الباب..!”

قال وهو يقترب من سريري “ظننتك لازلت في غيبوبتك.. وأن بسمة في المسكن معك..”

قلت مقطبة “لقد عادت لعملها قبل قليل.. يحسن أن تذهب أنت أيضاً فلا معنى لوجودك هنا”

لكنه جلس على حافة السرير متسائلاً “هل أنت أحسن حالاً؟ ما الذي سبب لك تلك الغيبوبة؟”

قلت هازة كنتي “سوء تغذية.. لا شيء مهم”

قطب وهو يتأمل ملامحي مفكراً.. فلم أعلق وأنا صامتة أتساءل إن كان سيصدق ذلك كالأخرين.. لكنه قال “هل

تمزحين؟ أنت قوية الجسد ومهما ساءت تغذيتك في الآونة الأخيرة فلن يسبب هذا إغماؤك.. ما السبب حقاً؟”

قطبت بدوري قائلة بغیظ “لا شأن لك .. اتركني وارحل رجاءً..”

لانت ملامحه قليلاً وهو يقول بصوت خافت “ما الذي حلّ بك يا حمراء؟ أصبحت تعامليني بجفاء شديد.. ما

الذي بدر مني ليسيء لك بهذا الشكل؟”

قلت بحدة “لا شيء.. فقط يغیظني تدخلك الزائد عن الحد في كل الأمور.. يجب أن تدرك متى كان المرء بحاجة

للاختلاء بنفسه قليلاً..”

ظل ينظر لعينيّ بغير تصديق، فقلت من جديد “لا أحب من يتدخل في أموري طوال الوقت.. فكفّ عن إزعاجي”

بدا أنه سيعترض على هذا، لكن عوضاً عن ذلك فقد نهض وخطا خطوتين للخارج قبل أن يتوقف فجأة للحظات..

ثم وجدته يعود إليّ بخطوة واسعة ويمد يده فيلمس خصلات شعري الخلفية بخفة.. ثم ابتسم وقال “تلك كانت

حشرة..”

قلت بغیظ “أتمزح معي؟ اخرج الآن”

علت وجهه ابتساماً وهو يغادر بصمت.. فيما رفعت يدي وعبثت بخصلات شعري الخلفية.. ربما كان ذلك بحثاً

عن أي حشرة قد تكون فيه حقاً.. أو لأزيل ملمس أصابعه منها لعل حنقي يزول معها..

الفصل التاسع

[قرار]

“أين هو؟...”

علا الصراخ في المكان الواسع والذي كان عبارة عن قاعة عالية السقف تصطف بها الكثير من الكراسي وتعلوها الكشافات الساطعة.. وفي مقدمتها طاولة فخمة بأزهار عطرة وشعار المؤسسة الضخم مطبوع على لوحة خلف الجالسين على الطاولة.. أسكت الصراخ الحضور وصاحبه يصيح مجدداً “أين خالد؟ كيف تخلصتم منه؟”

تراكض رجال الأمن في المكان يقبضون عليه فيما ارتفعت أجهزة التصوير تصور المشهد والاهتمام يعلو وجوه الحضور.. لكنه قاوم وهو يصرخ بصوت أعلى “كيف تخلصتم منه؟ هل قتلتموه؟ هل أخذتموه سجيناً عندكم؟ أين هو؟”

تبادل الرجال الجالسين على الطاولة الفخمة النظرات، ثم قال أكبرهم سناً وأوسطهم مجلساً “إن كنت تتحدث عن خالد إبراهيم الذي كان متعاوناً مع المؤسسة في السابق فنحن لم نفعل له شيئاً.. لقد أمسكت به إدارة الأمن القومي بتهمة لا يصرح لي بذكرها، وقد تمت محاكمته بشكل غير علني حفاظاً على اسمه.. لكنك الآن بصياحك هذا قد ورطت اسمه أكثر مما كنا نبغي..”

عاد يصيح وقد صدم بهذا الخبر “كذب.. كل هذا كذب وافتراء عليه.. أنتم تريدون إسكاته لكن بطريقة مشروعة.. ماذا فعلتم به؟”

قال الرجل بهدوء “لقد تم الإغفاء عنه مقابل أن يخدم في الكويكب العاشر.. هو سعيد الحظ لأنه لم يعدم.. و...” صرخ بحرقة “كاذب.. هذا كذب.. أنتم جبناء.. لم تقدرُوا على مواجهته مواجهة شرعية فتخلصتم منه...” أخذ رجال الأمن يجذبونه بعيداً وهو يصيح ويقاومهم “أنتم جبناء.. أطلقوه.. إنه بريء.. بريء..”

في الصباح التالي، انتبهنا لاختفاء أمجد وقت الإفطار، ورغم أنني بتّ أضيق بوجوده ولطفه الذي يغيظني، إلا أنني لم أمنع نفسي من القلق لتأخره.. فسألتُ أدهم “هل ذهب أمجد لأداء بعض الأعمال؟” قال أدهم بحيرة “لا علم لي.. من الغريب أن يتأخر عن إفطاره..” فقالت بسمه “ربما كان متعباً.. ألا يجب أن نطمئن عليه؟”

نهض أدهم متجهاً لمسكن أمجد وأنا أتبعه لسبب لا أدريه.. وهناك طرق أدهم الباب عدة مرات دون أن يحصل على جواب، فنظر لي بتعجب.. عندها أشرت له ليدخل الغرفة.. ففتح الباب الذي لا يحمل أي أقفال كباقي المساكن ودخل.. ثم سمعته يقول “ما بالك يا أمجد؟.. هل حدث لك مكروه؟”
تبعته دون دعوة لأرى أمجد جالساً في فراشه، مطرقاً، ويسند وجهه بيديه.. لم يرفع رأسه مع دخولنا ولم يكذب على سؤال أدهم إلا بعد برهة.. إذ سمعناه يهمهم “لا شيء.. أنا متعب فقط..”
فقال أدهم “ألن تذهب للعمل؟ سيفوتك الفطور”

قال أمجد زافراً “لا أريد أي طعام.. سأخرج خلال دقائق..”
ظل أدهم ينظر له متعجباً، ثم قال “هل تريد أن أستأذن لك للبقاء هنا؟ ولو أنني أشك بقبولهم ذلك..”
هز أمجد رأسه نفيًا، فغادر أدهم قائلاً “إذن لا تتأخر.. سنرحل قريباً”
ظللت واقفة مكاني وأنا أنظر لأمجد.. لقد لاحظت أنه لم يرفع رأسه منذ دخولنا ولم ينظر لنا البتة.. فسألته بعد رحيل أدهم “هل أنت بخير؟”

زفر قليلاً وهو يشيح بوجهه للحظة، ثم غمغم “أنا بخير.. لا تقلقي..”
للمرة الثانية يتجنب النظر إلينا.. وهذا ما يثير تعجبي أكثر.. هل يحاول مداراة شيء عنا؟.. لم أجد ما أقوله أكثر من ذلك، فخرجت بدوري حيث رأيت بسمه تقترب متسائلة “هل هو بخير؟”
قلت لها “لا أدري.. يقول إنه متعب، لكن لا نعلم ما به حقاً..”

بعد فترة قصيرة، خرج أمجد من مسكنه وتبعنا ونحن متجهون للمنجم دون أن يتناول أي شيء من فطوره.. كان يبدو أكثر شحوباً من العادة، وشيء من الكآبة تظلل وجهه وإن لم ينتبه لها أدهم وبسمه وهما يحدثانه كالعادة..
لكني لاحظت أنه، وللمرة الثالثة، يتجنب النظر إلى أيهما وهو يرد عليهما بكلمات مقتضبة وبهمهمة غير مفهومة..

ليس من عادتي الإلحاح بسؤال أحد عما يخفيه، لذلك حاولت تجاهل الأمر وأنا أفترق عنهم عند وصولنا للمنجم واجتيازنا البوابة..

وفي المساء، ازدادت دهشتنا ونحن نرى أمجد يتوجه لمسكنه فور وصوله ولا يخرج منه طوال تلك الليلة.. فبقيت، مع أدهم وبسمه، نتساءل عن سبب تغيره طوال جلستنا تلك.. ووجدت أدهم يسألني “ألم تتسببي في إزعاجه بلسانك الطويل؟”

قلت له بحدة “أمجد ليس مثلك.. أنت من يدفعني لمضايقتك بتعليقاتي.. لكن لا يمكن أن أفعل ذلك مع أمجد فهو مهذب دائماً”

قال أدهم بحنق “أتقولين أنني غير مهذب؟”

قلت بحنق بدوري “أجل.. ألم تلاحظ ذلك من قبل؟”

اندفعت بسمه تقول لتسكت جدالاتنا الدائمة “هل يشكو من مرض؟ أم أن هناك من ضايقه؟ يجب أن تسأل عنه يا أدهم حتى تعرف ما به.. لا تتركه صامتاً هكذا..”

فنهض أدهم قائلاً “سأحاول.. لكنه من النوع الصموت الذي لا يبوح بما يدور في عقله”

وغازنا لنبقى صامتين معاً، ثم تساءلت بسمه “أتظنين أن مكروهاً أصابه؟”

قلت بحيره “لست أدري.. ربما هناك ما يشغل تفكيره وضايقه..”

عدنا لنصمت وأنا أنظر لمسكن أمجد.. كان القلق يغمري، فتصرفاته غريبة.. وإصراره على عدم مواجهتنا

بعينيه مريب.. وكأنه يخفي ما يخشى أن تفضحه عيناه.. فما هو؟.. أهو خاص بالعمل؟ أهو خاص بنا؟ لا أدري..

ويقلقني هذا أكثر..

عاد أدهم بعد نصف ساعة قابلاً كفيه وقال “عنيده جداً هذا الرجل.. لقد أخبرني ألا أقلق وأنه متعب فقط.. لكن ليس

هذا ما بدا في وجهه.. هناك ما يخفيه عنا، ولم أفصح في دفعه للبوخ به”

فقلت بسمه “لنتركه قليلاً.. قد يخبرنا بعد أن يهدأ..”

وسرعان ما ذهبنا كل لمسكنه قبل أن تنقطع الأضواء.. فنهضت بدوري وسرت لمسكني وأنا أفكر في حال أمجد..

عندها، دون تفكير، اتجهت لمسكنه وطرقت بابه للحظات.. لم أجد رداً منه، لكنني كنت متأكده أنه لم ينام في هذه

الفترة الوجيزة بعد خروج أدهم من عنده.. فقلت بصوت عالٍ “إن لم تجبني فسأدخل دون استئذان..”

لم أجد جواباً لثوان كانت بالنسبة لي كافية لأفتح الباب، لكن قبل أن أتهور بذلك سمعته يقول “ماذا تريدان؟”

كان هذا إيذاناً لي لأدخل، ففعلت لأجده جالساً على سريريه، حيث ألقى عليّ نظرة سريعة قبل أن يدير عينيه بعيداً

ويقول “ما الأمر؟”

بدا الضيق واضحاً في صوته، بالإضافة إلى أنه كان يتجنب النظر إليّ.. أنا أكره الإلحاح على من لا يرغب

بالحديث، لكن شيئاً ما في حال أمجد أقلقني وجعلني لا أصبر على سؤاله..

قلت له “ما بالك تنعزل عنا؟ أجرى ما يضايقك هنا؟ هل تعدى عليك أحد ما؟”

قال هزأ رأسه “لم يحدث شيء من هذا.. لا تقلقي..”

فقلت بشيء من الحدة لم أملكها “إذن ما بك؟ لماذا تتجنبنا؟ لماذا تبعد ناظريك عنا بهذه الطريقة المريبة؟”

زفر وهو يشيح صامتاً، فقلت “لن أتركك حتى تخبرني ما بك.. فلا تتركني أقف هكذا طويلاً”

قال بضيق “لا داعي لهذا الإلحاح.. هذا شيء يخصني وأود لو تركتموني وشأني قليلاً..”

فقلت وقد غلبني قلقي “لماذا؟ هل سنتركنا نفكر في أمرك هكذا؟ أخبرنا عما جرى لك فقد نستطيع معاونتك بأي

شكل كان..”

قال مطرقاً “لا يمكنكم ذلك.. أريد فقط أن أبقى بمفردي لوقت قصير.. غداً سأخبركم بكل شيء..”

قلت بتشكك “غداً ستخبرنا عن كل شيء حقاً؟”

هز رأسه إيجاباً قائلاً “أجل.. غداً بالتأكيد.. اتركيني بمفردي رجاء..”
 لم أستطع إلا أن آخذ وعده وأصمت عن السؤال.. فغادرت بصمت، دون أن ألحظ النظرة التي شيعني بها.. أو
 أسمعها وهو يلقي رأسه على يديه مغمماً بضيق شديد “رباه.. لم فعلت هذا؟.. تياً لكل شيء”

في صباح اليوم التالي، ظهر أمجد متأخراً أيضاً ولم يتناول فطوره.. وانطلقنا في طريقنا للمنجم وهو ملتزم
 بالصمت التام.. فلم يزعجه أننا بكلمة تاركه يغرق في أفكاره الخاصة، وإن لم أستطع أن أبعده عن تفكيري
 طوال الوقت.. أيمكن أن يكون هذا بسبب بسمه؟ لقد لاحظت أنه يبدي اهتماماً تجاهها.. فهل صدته بطريقة
 أزعجته؟ ملت تجاه بسمه ونحن نسير بعيداً عن أمجد وسألته “هل قلت لأمجد ما أزعجه؟”
 نظرت لي بدهشة وقالت “أنا؟ ولماذا افترضت أنني أنا السبب؟”

أجبت “افترضت أنك بذعرك من الرجال عادة قد قلت لأمجد ما يجرحه.. ربما لهذا هو صامت ومنعزل بكآبة”
 هزت رأسها نفياً مجيبة “أنا لا يمكن أن أزعج أمجد، فهو مهذب وطيب جداً.. ثم إنني لم أراه بالأمس منذ افترقنا
 بعد فقدانك للوعي وذهبت مع أدهم للعمل في المنجم”
 صمت وأنا بحيرة من أمري.. إذا ما الذي أزعجه بهذه الطريقة؟.. لقد وعد أن يخبرنا بذلك اليوم، لذلك سأنتظر
 حتى المساء.. والويل له لو لم يفصح عما به..

في المساء، وبينما كنت متجهة نحو الزاوية التي اعتدنا الجلوس عندها كل ليلة، وجدت أمجد يجلس أمام مسكنه
 مطرقاً بصمت.. فاستدرت تجاهه واقتربت منه ملاحظة أنه لم ينظر تجاهي أو يرفع رأسه، فقلت له “ألن تذهب
 حيث البقية؟”

أدار وجهه جانباً وغمغم “لا رغبة لي في ذلك اليوم”
 قطبت متساءلة “أنسيت وعدك بأنك ستخبرنا بكل شيء اليوم؟ يكاد اليوم ينقضي، ويجب أن تقي بوعدك الآن”
 زفر قليلاً وهو صامت، وقبل أن أتفوه بكلمة أخرى قال وهو يطرق من جديد “لقد استعدت ذاكرتي.. وما استعدته
 لم يكن سعيداً على الإطلاق..”

رفعت حاجبي مغممة “هذا فقط؟ ظننت أن مكروهاً قد أصابك..”
 قال بضيق لم أخطئه “ما تذكرته كان أسوأ من أي شيء قد يحدث لي هنا.. يضيق صدري كلما تذكرت ما حدث
 سابقاً ولا أعلم كيف سأتجاوزة..”

سألته بشيء من الفضول وأنا أجلس قريباً بدوري “لماذا؟ أهو بسبب الجريمة التي ارتكبتها سابقاً؟”
 قال هزاً رأسه “لم ارتكب أي جريمة.. لقد تم توريطي بجريمة عمداً وحُكم عليّ بالسجن المؤبد.. لكنني بريء

من ذلك..”

قلت بدهشة “أنت متأكد من ذلك؟ لماذا؟”

قال متنهداً “لذلك سبب طويل..”

فقلت بحيرة “إذن ما الذي تذكرته وسبب لك كل ذلك الضيق؟”

قال هازأ رأسه “أفضل عدم الإفصاح عن ذلك..”

لم أَلح عليه بالسؤال، فصمتُ بدوري وأنا أنظر لبسمة وأدهم حيث جلسا في موقعهما البعيد عنا ينتظران قدومنا..

ولما عدت بنظري تجاه أمجد وجدته يحدجني بنظرات مبهمة المعاني، لكن سرعان ما حوّل بصره عني وهو

يزفر بضيق.. فقلت له “أهناك ما يزعجك في وجودي؟”

غمغم بعد لحظة صمت “لا.. لم أقصد ذلك أبداً”

فقلت وأنا أقف “إن رغبت بالانضمام إلينا فلا تتردد.. قد يزيل مزاح أدهم الدائم مزاجك المكتئب هذا”

لم يجبني أو يرفع بصره إليّ كما أضحيت العادة.. فتركته واتجهت إلى زاويتنا الدائمة، حيث استقبلني أدهم وبسمة

بالأسئلة، فأجبتهما “لم يخبرني تماماً ما به.. لكنه لمّح للموضوع فقط.. فلنتركه يهدأ قليلاً، فقد يجد في نفسه رغبة

بإخبارنا بالأمر بمفرده..”

ظللنا نتحدث لفترة قصيرة حتى رأينا أمجد يقترب منا بهدوءه الدائم.. لم يحاول أيّنا سؤاله عن أي أمر.. لكنه

ابتدرا قائلاً قبل أن يجلس “يا رفاق.. لقد قررت أمراً..”

علق أدهم “هذا جيد.. ذلك أفضل من الجلوس بكآبة كما كنت تفعل..”

بدت الجدية على وجه أمجد وهو يجلس صامتاً وكأنه يزن كلماته، ثم ألقى قنبلته “قررت أن أهرب من هذا

المكان..”

نظرنا له بصدمة وعدم استيعاب لثوان طالت.. هذا آخر ما قد نسمعه من أمجد.. ولقد تمالك أدهم نفسه بالكاد وقال

باستغراب “تهرب؟ أنت؟”

هز أمجد رأسه إيجاباً، فقلت بدوري “لكنك كنت معارضاً لذلك منذ طرحتُ الفكرة عليكم.. وحتى بعد عودتي لم

تتوانَ عن تأنيبي على ذلك”

قال زافراً “حدث تغيير كبير في نظرتي للأمور..”

ظللنا ننظر له بتعجب واستفهام، فقال “لقد استعدت ذاكرتي.. واكتشفت أشياء صدمتني.. والأهم فيها، أن أمامي

هدفاً يجب أن أسعى إليه.. ولا يجب أن أبقى هنا لفترة طويلة..”

تساءل أدهم بتعجب “ما هو ذلك الهدف؟”

أجاب أمجد “لقد كنت أبحث عن عمّ لي في السابق، اختفى فجأة دون أن نجد له أثراً.. كان من المتعاونين مع

المؤسسة، وقد صرّح لي ببعض شكوكه حولها.. ولما بحثت عنه علمت أنه قد تم استقدامه للكويكب وهو بريء..

لذلك، وبعد تفتيشي في خبايا المؤسسة، تم تليفق تهمة لي وحوكمت بسببها.. والآن، بعد أن استعدت ذاكرتي، يجب أن أبحث عن عمي.. إنه ليس هنا في هذه المساكن، لذلك أنوي البحث عنه في المساكن الأخرى..”

قلت مبتسمة “هذا جيد.. تطور ملحوظ ولا شك..”

قال أدهم بغير تصديق “هل تشجعينه على هذا؟”

قلت بسرعة “بالتأكيد.. فهذا أفضل من الجلوس في هذه الدوامة.. ثم إنه يملك هدفاً مهماً عليه تحقيقه”

تساءلت بسمة “لكن الهروب مستحيل.. لقد جربته حمراء من قبل.. وجربه كثير قبلها.. ولم يفلح أحد قط بالهرب كما تتمنى”

قال أمجد “هروب شخص واحد ليس كهروب اثنان..”

ونظر لي للمرة الأولى منذ مدة مضيئاً “إن كنت لازلت مزمعة على الهرب، فتعاوننا معاً له أثر أفضل بالتأكيد من هرب أحدنا منفرداً”

قلت بتصميم “عازمة على الهرب أكثر من أي وقت مضى..”

نظرت وإياه إلى أدهم وبسمة، فغمغم أدهم “لست واثقاً.. في هذا مخاطرة كبيرة، وأنا لم أفكر في الأمر قط”

بينما ظلت بسمة صامته وهي تنتظر رأي الجميع، فقلت لأدهم “فكر في الأمر ملياً.. معاً سنكون أفضل حظاً بإذن الله..”

أطرق أدهم والحيرة تظله، بينما التفت أمجد إليّ قائلاً “عليك إخباري بكيفية تغلبك على السوار.. علينا التخطيط جيداً قبل أن نقدم على الخطوة الأولى، لئلا نكرر الفشل مرة أخرى..”

أجبت “سأخبرك.. لكن ليس هنا في هذا المكان المفتوح.. أنسيت أن الكثير من العيون حولنا؟ من وشى بي سابقاً أثناء الحريق لن يفوته حديث مثل هذا”

تساءل مقطباً “أتظنين أنه قد يفهم العربية؟”

قلت “لا بد أن نضع كل الاحتمالات في أذهاننا..”

نهض أدهم في تلك اللحظة قائلاً “سأفكر في الأمر ملياً.. لكني لا أعذكم بشيء.. أتمنى فقط ألا تنهورا وتدرسا الأمر جيداً..”

وغادرنا عائداً لمسكنه، وللعجب لم تتبعه بسمة على الفور، بل ظلت تنظر لي ولأمجد بصمت وتردد للحظات، قبل أن تقفز واقفة متممة بكلمات غير مفهومة، وتنطلق عائدة لمسكنها بدورها..

رغم أنني أصبحت لا أحب البقاء وحيدة مع أمجد، لكني هذا اليوم كنت متلهفة للتحدث معه ولم أرغب بالذهاب لمسكني بسرعة كالعادة.. كنت أريد بدء التخطيط للهروب.. أريد معرفة ما يجول بذهنه من تلك الناحية، فما عدت أطيق البقاء في حياتي الرتيبة هذه أكثر من هذا..

لكن أمجد قاطع حماسي هذا وهو يقف قائلاً “ما يزال الموضوع مبهماً بالنسبة لي.. إذ نحن في عملنا هذا لا

نعرف أي شيء عن الخارج ولا نعرف كيف نضمن نجاح هروبنا.. سأفكر في هذا الموضوع ملياً وسأجتمع بك مع البقية في مسكني غداً مساءً..”

لم أستطع الاعتراض، وفور ابتعاده نهضت بدوري واتجهت لمسكن بسمه.. كنت أدرك أنها قبل رحيلها كانت تود قول شيء، لكن قلقها وترددها منعها من ذلك.. وكما توقعت، سمعت صوت بكائها من خلف الباب، فطرفت الباب طرقة خفيفة، ثم دلفت دون أن أنتظر إجابتها..

نظرت لي بدهشة من بين دموعها، ثم خفضت بصرها وهي تمسح دموعها الصامتة.. فجلست قربها على السرير وأنا أسألها “علام البكاء؟ أهو بسبب قرار أمجد الهرب من هنا؟”

نظرت لي بعينين دامعتين وقالت برجاء “حمراء.. لا تذهبي أنت أيضاً.. أرجوك”

نظرت لها بدهشة، ثم تساءلت “لماذا؟ أنت تعلمين منذ مدة أنني لن أبقى هنا.. فما الذي استجد؟”

قالت مطرقة “ظننتك قد عزفت عن هذا الأمر بعد محاولتك الأولى.. لكن إن رحلت أنت وأمجد.. سأظل هنا وحيدة.. ماذا إن قرر أدهم الرحيل أيضاً؟”

وتشبثت بي باكية وهي تقول “سأموت من الفزع إن بقيت هنا بدونكم.. لا أدري ما قد يحصل لي.. أنا خائفة” تنهدت وأنا أعلق “لا ألوّمك على هذا.. لكن هل فكرت في المجيء معنا؟ رغم كل المخاطر، إلا أنك ستكونين بمأمن معنا أكثر من بقائك هنا وحيدة”

قالت بفزع “وماذا إن قبضوا علينا؟ ماذا لو قاموا بتعذيبي؟ هذا شيء لا أطيق التفكير به..”

صمت وأنا أفكر في الأمر.. تلك معضلة حقيقية.. فكلا الحلين عسير عليهما، ولا ألومها على هذا.. الهرب يتطلب عزيمة كبيرة وتحمل لا أظن فتاة برقتها تستطيعه.. لكن لا أشك أنها ستقدر على البقاء وحيدة هنا، خاصة مع غياب أدهم الذي كان يظللها بحمايته..

ضغظت على يديها وقلت وأنا أنظر في عينيها بحزم “اسمعيني.. نحن سنستغرق أياماً طويلة حتى نشرع في الهرب فعلياً.. في تلك الفترة، فكري ملياً في التصرف الأنسب بالنسبة لك.. هل تريدين البقاء هنا وتولي أمورك بمفردك والركون للراحة التي يوفرها لك السجن؟ أم تريدين الهرب معنا مع ما فيه من مخاطر شتى؟ وأنا أضمن لك أنني والبقية سنحميك ما استطعنا..”

ثم نهضت مضيفة “القرار قرارك.. ولن يجبرك أحد على شيء..”

ظلت بسمه صامتة، فمسحت على شعرها الناعم وقلت بلطف لم أعهده في نفسي “ثقي بنفسك وبقرارك.. ولا تجعلي خوفك يشعرك بالعجز.. يمكنك أن تكوني قوية لو تغلبت على ذعرك هذا”

ثم تمنيت لها ليلة سعيدة وغادرت المسكن عائدة لمسكني.. اليوم، شعرت بانسراح في صدري بعد ضيق تملكني لأيام طويلة.. منذ الآن يمكننا أن نمضي قدماً في مخطط هروبنا، وكما قال أمجد، هروب اثنان خير من هروب واحد..

في الليلة التالية، اجتمعت بأجد في مسكنه فور انتهاء العمل.. جلست بلهفة على الكرسي بانتظار أن نبدأ، بينما وقف هو قرب الباب المفتوح يتأمل خارجه للحظات، قبل أن يلتفت نحوي قائلاً "يبدو أن أدهم وبسمة لم يستقرا على رأي بعد.. لا يبدو أنهما قادمان إلينا ولم يجلسا خارجاً بعد.."

قلت "أنا واثقة أن أدهم سينضم إلينا.. رغم أنه لم يفكر بالأمر مسبقاً، إلا أنه ليس من النوع الذي قد يستكين لما نحن فيه"

غمغم أجد وهو يجلس على سريره "أنت شديدة الثقة برأيك هذا.. لكنني متشكك بالأمر.. لن يهرب أدهم إن لم يملك سبباً قوياً يدفعه لذلك.. وكذلك بسمة"

ابتسمت معلقة "سنرى ذلك.."

نظر لوجهي صامتاً للحظات، ثم تساءل "تبددين سعيدة اليوم.. لم أرك تبتسمين منذ مدة طويلة"

قلت هازة كنتي "أنا سعيدة لأننا سنمضي قدماً في خطط هربنا.."

خفض بصره وهو يزفر بضيق كما جرت العادة مؤخراً، حتى بتّ شبه واثقة أنه يكره وجودي بشدة لكنه مجبر على تقبله.. فتجاهلت هذه الأفكار وأنا أسأله "إذاً.. أتملك خطة حتى الآن أم لم تفعل بعد؟"

رفع بصره قائلاً "ليس قبل أن تخبريني ما حدث معك بالضبط.. ما حصلت عليه من معلومات تعتبر نادرة في هذا المكان.. لذلك يهمني ألا تغفلي أي تفصيل ولو كان تافهاً"

بدأت أتحدث ذاكرة جميع ما حدث منذ البداية.. منذ انتهت لأمر السوار في المنجم، وأجريت تجاربي الصغيرة للتأكد من هذه المعلومة، حتى لحظة القبض عليّ واستجوابي في الإدارة.. لم أنس أن أذكر كيفية تهريبي لتلك الأحجار، وخطتي البسيطة للهروب من المساكن، والخطأ الذي ارتكبته وأدى للقبض عليّ بسرعة..

استغرقت وقتاً طويلاً جداً في الحديث وأجد منصت باهتمام شديد، ويسألني بين فترة وأخرى عن بعض

التفاصيل التي أراد الاستيثاق منها.. ولم يقطع حديثنا إلا انقطاع الأضواء ليعمّ الظلام المكان.. فنهضت بعد أن أنهيت كل ما في جعبتي وقلت "الآن وقد عرفت كل ما أعرف، علينا بذل جهودنا معاً للخروج بخطة أكثر فاعلية

من خطتي.. ولا تنس أن علينا التفكير فيما سنفعله بعد هروبنا.. كيف سنوفر الطعام اللازم خلال تلك المدة، وكيف سنبحث عن عمك المفقود، وبعدها كيف سنهرب من هذا الكويكب.."

تساءل بشيء من الدهشة "هل ستعطينيني في البحث عن عمي؟"

قلت بحزم "طبعاً.. لن أختبيء وأنتظر حتى تعود.. سنهرب معاً ونعمل معاً على إنجاح هروبنا"

صمت أجد قليلاً وإن لم أتمكن من رؤية تعابير وجهه، ثم قال "أشكر لك ذلك.. وأتمنى حقاً أن نتمكن من

مغادرة هذا الكويكب بسلام”

لم أعلق على ذلك، بل تمنيت له ليلة سعيدة وغادرت مسكنه لأعود لمسكني وأنال قسطاً من الراحة.. لكن هيهات
أن يرتاح عقلي مع كل اللهفة والحماس الذي يغزوه..

الفصل العاشر

[عينان]

في صباح اليوم التالي، حملت فطوري وجلست قرب أدهم الذي كان يتناول فطوره بشيء من عدم الشهية استغربته.. فقلت وأنا أتناول فطوري بدوري “هل يستغرق منك اتخاذ قرار كل هذا الوقت؟ مرّ يومان وأنت صامت تماماً..”

قال دون أن ينظر لي “لست متأكداً بعد.. هذا قرار لا يمكن التراجع عنه متى ما تمّ.. وماذا عن بسمه؟ كيف نتخلي عنها جميعاً ونتركها؟”

ابتسمت معلقة “لو كان قلقك بسبب بسمه فلا تحمل همّاً.. ستذهب معنا، هي فقط تريد دفعة قوية لتستقر على رأي.. وانضمامك لنا هي الدفعة التي نريدها..”

نظر لي بعدم فهم، ففسرت قائلة “وجودك يطمئنها أنها تستطيع البقاء حتى بعد رحيلي وأمجد، لأنك تمثل لها الحماية الكافية من الآخرين.. أما إن قررت الرحيل، فهي حتماً ستلحق بنا ولن تبقى وحيدة هنا.. وهذا ما أراه أنا أنسب لها أيضاً..”

غمغم أدهم وهو يكمل فطوره “سأفكر بالأمر.. فهذا قرار كبير بالنسبة لي..”
أنهيت فطوري بسرعة وقلت وأنا أقف “سننتظرك.. فنحن لن ننفذ خطتنا قبل دراسة وافية ستستغرق وقتاً..”
بدا لي أدهم غارقاً في حيرته، وظننت أنه سيستغرق أياماً للاقتناع بالفكرة والانضمام إلينا.. لذلك كانت دهشتي كبيرة عندما انضمّ إلينا تلك الليلة في مسكن أمجد وقال فور دخوله “لقد قررت.. سأرحل معكم..”
ابتسمت أنا وأمجد بارتياح، بينما بانّت صدمة كبيرة على وجه بسمه التي انضمت إلينا تلك الليلة.. ثم أطرقت بقلق ظاهر وتردد كبير.. فتوجه لها أمجد بالحديث قائلاً “وماذا عنك يا بسمه؟ ألم تستقري على رأي بعد؟”
قالت بصوت منخفض “أنا خائفة.. الهرب بالنسبة لي مستحيل.. وعواقبه أفدح من أن أستطيع تحملها..”
فقلت لها “خذي وقتك للاستقرار على رأي.. لكن ليكن اختيارك ما لن تندمي عليه في المستقبل..”
صمتت عن التعليق وهي تخفض رأسها، فانصرفنا عنها للحديث عما يفترض بنا فعله في هذه المرحلة..

عندما تقدمت منا بسمه، حيث جلسنا في زاويتنا المعتادة، بخطوات ملؤها العزيمة بعد يوم، علت الدهشة وجهي الرجلين بقرارها الذي أعلنته بالهرب معنا.. بينما علت ابتسامة شفّتي وأنا أقول “مرحى.. لم تخيبي توقعاتي

البتة..”

علق أمجد بعدي “أرجو ألا تتردد في قرارك هذا يا بسمة.. وكلنا سنكون معك..”
لم يظهر على وجهها أي تردد فيما علت صوتها رجفة خفيفة وهي تقول “أنا خرقاء، مترددة، وأكاد أقفز ذعراً من ظلي.. فهل تعدونني أنكم لن تتركوني أسقط في أيديهم؟ أنهم لن يعذبوني ولن يسجنوني من جديد؟”
ضحكت على الصفات التي أطلقتها على نفسها بينما قال أمجد “قطعاً لن نفعل ذلك..”
أضاف أدهم “ما دمنا على قيد الحياة..”

ضربته على كتفه ليصمت عن هذا التشاؤم ولا يثير فزعها أكثر من ذلك.. فصمتَ بينما تقدمت بسمة وجلست قربي دون أن تعلق على ما قيل.. فسألته “ما الذي شدَّ عزيمتك بهذه الصورة في هذا اليوم؟”
قالت مطرقة “طوال اليومين الماضيين، كنت أتخيل كل الأماكن التي أقضي فيها وقتي كيف ستكون بدونكم.. بدت الحياة بائسة بالنسبة لي ولم أطق البقاء وحيدة..”

ثم نظرت لي مغممة “أدرك أنه عذر تافه للهرب.. لكنني مقتنعة به ولن أبقَ دقيقة واحدة بعدكم هنا”
ابتسمت وربت على كتفها معلقة “ليس تافهاً أبداً..”

سمعت أدهم يقول “إذن.. أخبرينا يا حمراء بكل ما تعرفيه من تجربتك السابقة.. يجب ألا نكرر الأخطاء ذاتها مرة أخرى”

فقلت بسرعة “لقد أخبرت أمجد بكل شيء.. وهو قد استخلص من حديثي ما سيفيدنا في هربنا..”
قال أدهم بحزم “أريد أن أسمعته بنفسه من جديد..”

قلت بحنق “لماذا تصرّ على إعادتنا لنقطة البدء من جديد؟”

فقال أمجد “لا أرى مانعاً من إعادة الحديث.. فقد نجد فيه نقاطاً جديدة تفيدنا..”

زفرت بشيء من الضيق، ثم تجاوزت الأمر وأنا أقول بجدية “سأخبركم بما أعرفه للمرة الأخيرة فانتبهوا لي.. علينا التخطيط بحذر لهذه المهمة.. لا أريد أن نفشل هذه المرة أيضاً في...”

وجدت أدهم يلكزني بخفة في ذراعي، لكن يبدو أنه لا يقدر قوته بشكل صحيح إذ جاءت الضربة مؤلمة، وأنا متأكدة أنها ستخلف كدمة بعد يوم.. نظرت له مقطبة وأنا أقول بحدة “ما بك؟”

أشار بعينه بصمت لما أمامه، فالتفتُ أنظر لما يراه بدهشة.. عندما اصطدمت عينايا بعينان سوداوان حادثان تراقبنا عن بعد.. ولما رأنا صاحب العينان ننظر له كلنا بصمت، تحرك من موقعه قرب أحد المساكن التي لا تبعد عنا كثيراً ليقترّب منا وشبح ابتسامة ترسم على شفثيه..

كان رجلاً متوسط العمر، لا يبدو أكبر من أدهم، وهو أكبرنا، بكثير.. عاديّ في كل شيء.. في ملامحه وفي طوله وفي سمرته وكل شيء آخر.. الشيء الوحيد الملفت فيه هو عيناها السوداوان الحادثان جداً.. ولم تكونا تبعثان في نفسي الراحة لسبب لا أدركه..

لما وصل قربنا قال بصوت عادي غير ملفت ككل شيء فيه، إنما بلغة عربية واضحة "مرحباً.. لطالما راقبت اجتماعاتكم الليلية وودت الانضمام إليكم.. فهل تسمحون لي بذلك الليلة واحدة فقط؟"

خففت بسمه رأسها على الفور والتوتر يغزوها، بينما صمتُ أنا وأدهم ووجهينا يحملان عدم ترحيب واضح..

أما أمجد فقد قال بأريحية "طبعاً يمكنك ذلك.. ويسعدنا التعرف على أي عربي في المسكن.."

قال الرجل وهو يجلس بين أمجد وأدهم "هم قلة هنا.. والآخرون عدائون نوعاً ما.. لذلك أقضي أيامي وحيداً دون صحبة.. وهذا ممل جداً.."

استغرق أمجد في حوار عادي مع الرجل بينما تبادلنا نحن الثلاثة النظرات الصامتة.. قرأت في عيني أدهم ما وافق ملاحظاتي بشدة، ثم عدت ببصري للرجل الذي كان يلقي علينا نظرات حادة بين فينة وأخرى وكأنه يقرأ أفكارنا بدقة.. لكنني تجنبت الدخول في أي حوار معه وظللت صامتة طوال فترة جلوسه وهي قد طالت حقاً..

وبعد وقت طويل وثقيل، استأذنتنا وغادر بحجة التعب والرغبة في النوم مبكراً.. وما إن غادر حتى زفرت مغممة "يا إلهي.. وجوده ثقيل جداً.. كأنه كان يجثم على أنفاسي"

قال أمجد مقطباً "لماذا تصفيه بهذا الشكل؟ إنه رجل طيب ويرغب ببعض الصحبة فقط"

علق أدهم قائلاً "ربما نظراته المحدقة التي تشعر معها بأنه يحصي أنفاسك هي ما تجعله ثقيلاً.. وهذا ليس تحاملاً من حمراء فأنا أشاركها الرأي.."

بدا في عيني بسمه موافقة شديدة لما قيل، بينما قال أمجد بعدم تصديق "ما بالكم متحاملون على الرجل وأنتم لم تعرفوه إلا لمدة قصيرة جداً؟ ثم إن ثقل الدم ليست جريمة لو كنتم مدركون ذلك.."

قلت هازة كنتي "ستبين الأيام لنا أمره دون استعجال"

أضاف أدهم "أرجو فقط أن تتحفظوا في الحديث عن الهرب في وجوده حتى لو كان على مبعده منا.. شعرت به منصتاً لكل كلمة قلناها عندما كان يراقبنا من بعد.. ولا يمكن أن نثق به بسرعة دون اختبار خصوصاً في أمر حساس كهذا.."

واقفناه جميعاً على ما قال، وسرعان ما تفرقنا وكل منا يعود لمسكنه.. فقد استهلك ذلك الرجل الذي لا نعرف له اسماً كل الوقت الذي نملكه كل ليلة مع عدم قدرتنا على السهر، والعمل في المنجم ينتظرنا مع بداية كل نهار..

عدت من المنجم بخطىً مثقلة لمسكني بعد عودة الآخرين بساعة على الأقل وقد شعرت بعظامي مضغضعة ومفاصلي مفككة.. لقد لاحظت منذ فترة أنهم كانوا يضاعفون عملي وكأنه نوع جديد من العقاب على تجرؤي مخالفة الأوامر والهرب..

كنت الآن أملك أسوأ مزاج ممكن ولم أرغب بمجاملة أي شخص مع التعب الذي أشعر به.. وقطعاً لم أكن أتمنى رؤية تلك العينان اللتان تنتظرانني بحدة لا يمكن إخطاؤها.. حاولت تجاوز ذلك الرجل الذي وقف في طريقي بصمت وأنا أدعو الله أن يتجاهلني كما أتجاهل وجوده.. لكنه سرعان ما حدثني فور اقترابي منه قائلاً "مرحباً.. يبدو أنهم يزيدون جرعة الأعمال الشاقة بالنسبة لك كما لاحظت في المنجم.. أهذا بسبب محاولتك السابقة للهرب؟"

زفرت بضيق شديد، ثم التفت إليه قائلة بسخرية "أجل.. هل أدركت ذلك بمفردك؟" ارتسمت ابتسامة مبهمة على شفثيه.. وكأنه يسخر من سخرיתי التي تعمدت أن تكون واضحة.. ثم قال دون أن يعباً بسخرיתי أو بالرد عليها "تبددين غير مرحبة لوجودي البتة..". قلت ببرود "ظننت هذا واضحاً على وجهي.. كيف فاتتك قراءته البارحة؟" قال مستفهماً "لماذا؟ هل تكرهيني لسبب ما؟"

قلت ملوحة بيدي وأنا أكمل طريقي لأنه الحوار الذي لم يعجبني البتة "قطعاً لا.. اسمح لي بالرحيل فأنا متعبة تماماً"

سمعتة يقول من خلفي "ألن تجتمعي مع رفاقك الليلة؟ ظننتكم لا تتكاسلون عن ذلك كل ليلة وأنتم تخططون لهربكم من المساكن" تجمدت واقفة وأنا أبهت لما سمعتة.. والتفتُ إليه مضيقاً عيني وأنا أنظر لابتسامته الجانبية.. ثم قلت "ماذا تقصد بهذا؟"

قال وابتسامته تنتسع "لقد سمعتكم تتحدثون عن ذلك بوضوح منذ ليالٍ.. فلا داعي للمداراة" قلت له مقطبة "وماذا تريد منا إذا؟ أنا متأكدة أن تقربك منا الآن بعد أن تجاهلتنا طوال الأسابيع الماضية هو لسبب مهم"

قال الرجل بثقة "طبعاً..". ومال تجاهي قائلاً بعينين تلتمعان "أن أهرب معكم، لا جدال في ذلك.."

الصدمة التي ارتسمت على وجوه البقية عندما كرر الرجل مطلبه أمامهم لم تكن أقل من التي علت وجهي عندما سمعت ذلك للمرة الأولى في بداية تلك الليلة.. ثم قال أدهم بسخرية "أنت مجنون.. من تكون لتفرض علينا انضمامك لنا؟"

ضحك الرجل ناثراً عدم الراحة بيننا بشكل ملفت، وقال بعدها بهدوء "أستغرب أن يوجد شخص بهذا الغباء في

هذا العصر.."

صاح أدهم بحنق "ماذا قلت؟"

أكمل الرجل بسخرية غير عابية بغضب أدهم "أظننتم حقاً أنني سأقبل اعتذاركم بكل أسف وأدعو لكم بالتوفيق ثم أغادر بظهر محني حزناً؟ لو كنتم أكثر ذكاء لحرصتم على إخفاء خططكم تلك بشكل أفضل"

قال أمجد مقطباً "ماذا تعني؟"

أجاب الرجل "إما أن تشركوني في خطتكم دون خداع أو اذهب من فوري لإبلاغ قائد الحرس بما تنتوونه.. وأعتقد أن بهرب هذه الفتاة...."

وأشار إليّ برأسه مكملاً "فإن الإدارة ستتعامل مع أي محاولة أخرى بعنف.. خاصة إن كانت الفتاة مع المجموعة التي تنوي الهرب.. فهم ليسوا بحاجة لتدمير سمعتهم لدى الإدارة الرئيسية أكثر من هذا.."

قال أدهم رافعاً قبضته "الحل الوحيد هو ضربة قوية تخرسك للأبد.. ما رأيك؟"

نظر الرجل بهدوء لقبضة أدهم الصلبة، ثم قال بثقة "لن تجرؤ...."

لم يكذ يتم كلمته حتى ارتطمت قبضة أدهم بفكه بقوة شديدة ألقته أمثراً للوراء وسط شهقة بسمة ونحن ننظر للجسد الملقى بصدمة مما جرى، بينما هتف أمجد وهو يقف "تباً لك يا أدهم.. لم فعلت ذلك؟"

كانت ابتسامة سخرية ترتسم على وجه أدهم دون أن يتحرك من موقعه.. يبدو أن تلك الضربة كانت من أشد الأعمال إمتاعاً بالنسبة لهذا الرجل العنيف.. أما أمجد فقد اتجه من فوره للرجل الذي اعتدل جالساً يتأوه وهو يمسح خيطاً من الدماء سال من فمه.. فبصق الدماء جانباً قبل أن ينظر لأدهم بحقد وغضب شديدين.. ثم وقف بينما أمجد يطمئن عليه ويعتذر منه بتكرار.. لكن الرجل دفعه جانباً وتقدم من أدهم وهو يقول "إن ظننت أنك أخفتني واستطعت إسكاتي فأنت واهم.. مثل هذه الضربات لا تهمني، وأنت لا يمكنك أن تؤذيني فهذه ليست طباعك ولن تسلم من العقاب إن حاولت.."

لم يعقب أدهم بكلمة بينما التفت الرجل إلى أمجد قائلاً "غداً مساءً في مثل هذا الوقت، إن لم تصلني موافقتكم على انضمامي لكم فستجدونني متجهاً إلى الإدارة بكل ما أحمله من معلومات.. وهي ليست قليلة لو ظننتم ذلك.."

ثم التفت إلى أدهم مجدداً مضيفاً "ولن أقبل دعوتكم تلك إلا إن كانت مصحوبة باعتذار شديد من هذا الرجل العنيف.."

لم يعلق أحدهما بكلمة بينما استدار الرجل مبتعداً عنا وهو يمسح فكه بيده.. عندها قال أمجد بلهجة جافة "رائع جداً يا أدهم.. عمل مثمر حقاً.."

وغادر بدوره مما أظهر لي غضبه الشديد مما جرى، فقالت لأدهم الذي لم يظهر اهتماماً "هل أنت سعيد؟"

قال أدهم وابتسامة تعلق شفثيه "على الأقل شفثيت غليلي منه.. ألم يكن يستحق ذلك؟"

ضحكت بقوة وتعجبي يزداد من هذا الرجل، فقالت بسمة بضيق "لم تضحكين؟ هل أعجبك شيء مما دار الليلة؟"

قلت بابتسامة "لا تنكري أن تلك الضربة قد أزلت شيئاً من الضيق الذي اعتمر نفوسنا بوجود ذلك الرجل..
خاصة مع الثقة المغرورة التي أباها الليلة.."
نظرت لنا بسمة بتعجب مدهول، ثم ابتعدت عنا بدورها عائدة لمسكنها.. فبقيت مع أدهم نتبادل النظرات بصمت،
ثم اعتدلت قائلة بابتسامة صغيرة "ألن تكف عن إفزاز الفتاة كل مرة؟ بكل ذلك العنف والشراسة وكل الانفعالية
التي تظهرها بدون مناسبة.."
لوح أدهم بيده معلقاً "كان عليها التعود على ذلك بعد كل هذا الوقت الذي قضيناه معاً.."
ثم أضاف "لا تنكري أنك كنت تودين رمي تلك اللكمة بنفسك على ذلك البغيض.."
قلت ضاحكة "لو فعلت لقتلني أمجد.. لطالما تدمر من لجوئي للعنف وعدم أخذي بالاعتبار كوني فتاة.."
علق أدهم وهو يقف "ليس المهم أن تعتبري نفسك فتاة أم لا.. المهم أن تفعلي ما تريدينه وتقتنعي بما تفعلينه.. كل
ما عدا ذلك فهراء.."
غمغمت "من الغريب أن تصدر هذه الحكم من شخص مثلك.."
قال قبل أن يبتعد "وماذا كنت تظنينني؟ لست أحمقاً بالتأكيد.."
بقيت وحيدة وقد انطفأت الأنوار وعم الظلام المكان حولي مع غياب كل السجناء في مساكنهم.. وظللت أفكر في
جملة أدهم التي وصفت ما أعتقته من أفكار رغم اعتراض البقية عليها دائماً.. وبين أفكار المنسابة بهدوء،
شعرت بومضة جديدة تطرق ذهني بقوة.. رغم الآلام التي تنتابني لدى قدوم تلك الومضات، إلا أنني كنت أترقبها
بكل لهفة بانتظار أن تكشف شيئاً ما من حياتي.. كنت أشعر بها كمقدمة لعودة ذاكرتي لي.. وهذا كان يسعدني
وبشدة..

عبثت بخصلات شعري الطويل الناعم بلونه الذي أحبه بعدم صبر قبل أن أزيحها لتتسدل على ظهري وأنا أزر فر
واضرب قدمي بالأرض في قلق وتوتر..
ثم نظرت للفتاة التي تجلس أمامي والتي تقاربنى في العمر، وسألتها بشيء من الضيق "قولي ما تريدينه
وأوجزي.. إنني في عجلة من أمري"
نظرت الفتاة لي بتعجب قائلة "ما بك؟ إنك نافذة الصبر رغم أنك لم تجلسي معي إلا منذ لحظات.. ما الذي يجعلك
بعجلة هكذا؟"
قلت بسرعة "لديّ موعد مع خطيبي.. سيكون هنا بعد قليل، ولا أريده أن ينتظر"
عقدت الفتاة حاجبها قائلة "وما يضيره لو انتظر قليلاً؟"

قلت بحدة "أنت مجنونة؟ سيتسبب هذا في ضيقه مني.. وأنا لا يمكن أن أسعى لما يضايقه"
ازداد تعجب الفتاة مني وهي تقول "ما بك يا فتاة.. لم تتصرفين هكذا إزاءه؟"
هزرت كتفيّ مجيبة "من الطبيعي أن أفعل كل ما يحبه وأحرص عليه.."
نظرت لي الفتاة بنظرة مطولة قبل أن تقول "لقد تغيرت كثيراً في الآونة الأخيرة.. تغيرت بشكل غير معقول..
فما الذي جرى لك؟"
قلت بتبرم "لا يهمني ما تقولونه.. المهم أنه يحبني ويحب ما يراني عليه.."
قالت مقطبة "لو كان يحبك لما طلب منك التغيير.. انظري لنفسك.. وكأنك ترتدين لباساً تنكرياً يظهر كفتاة
أخرى.. لماذا تنقادين له بهذا الشكل؟ ما الذي ستجنيه من كل هذا؟"
قلت بحدة "أنتم تغارون مني لأن خطيبي وسيم ورائع في كل شيء.."
ضحكت الفتاة معلقة "حقاً؟ وهل هذا ما يهم في الرجل؟ أنت لم تهتمي بصفاته بل اهتمت بشكله.. لا عجب أن
تلهثي خلفه محاولة إرضاءه"
قلت بعصبية وقد ساءني حديثها "رجاءً لا ترمي تعليقاتك الجارحة هنا.. لا أريد له أن يصل ويسمع تفاهاتك
هذه.."
سمعت صوتاً خلفي يقول "أسمع ماذا؟"
فاستدرت بكل لهفة الدنيا وأنا أرسم أروع ابتسامة على شفتيّ قائلة "مرحباً بك حبيبي.. لقد كنت أنتظر ك...."

فتحت عينيّ متأملة الظلام الدامس والسكون من حولي.. ثم بصمت وتثاقل نهضت متجهة لمسكني وقد تضاعف
ما أحس به من آلام في جسدي.. لكنني تساءلت بدهشة عن معنى أو أهمية مثل تلك الذكريات التي تراءت لي..
هل كانت جملة أدهم التي رسخت في عقلي هي ما دفع مثل تلك الذكرى للسطح؟ لقد بدا أنني كنت أتبنى عكس
تلك الفكرة تماماً.. إذ يبدو أنني كنت أندفع لإرضاء ذلك الرجل مهما كان ذلك مغايراً لشخصيتي كما فهمت من
حديث الفتاة.. لقد كانت تصرفاتي في منتهى الحماسة والغباء كما أرى، لكنني كنت مقتنعة بها تماماً وأرفض من
يحاول نصحي..

لم أر وجهه أبداً، وهذا ما تعجبت له.. مع كل ذلك الهوس الذي كنت أشعر به تجاهه من المفترض ألا أنسى
وجهه أبداً.. لكنني لم أره ولا أذكر اسمه حتى.. ألماذا سبب ما؟..

تلمست خصلات شعري وأنا مستلقية على سريري متذكرة طوله في تلك الذكرى.. الآن هو قصير جداً ويبدو
بغير عناية بأطراف مقصوصة بإهمال.. هل أنا من قام بقصه أم حصل هذا لدى دخولي السجن؟.. حاولت التذكر

قليلاً، عندما لمع في ذهني ذلك المنظر في الغرفة المظلمة.. لقد كنت وقتها قصيرة الشعر.. معنى ذلك أنني قمت بقصه قبل دخولي السجن.. فما السبب؟..
تهددت وأنا اتقلب في سريري.. لا أهمية لمنظري قبل فقدانني ذاكرتي ولا يجب أن أشغل تفكيري بهذه الأفكار الغريبة في مثل هذا الوقت الحاسم..

عندما التقيت أمجد في اليوم التالي، بدا أنه لا يزال عكر المزاج بعد أحداث البارحة، وقد سألني فور اقترابي منه "ما رأيك يا حمراء؟ هل نشركه في مخططاتنا أم نجازف بوصول أخبارنا للإدارة وما قد يتبعها من عقاب وتشديد أمني؟ لقد أنهكت عقلي وأنا أفكر وكلا الحلين كما أرى عسير.."
وقبل أن أجيبه سارع ليقول "ولا أريد أي تحيزات غير عقلانية"
قلقت مبتسمة "لا أستطيع أن أكون حيادية البتة.. ذلك الرجل وغد منذ البداية ولا يعبأ بنا.. فبم سنستفيد من قدمه كما تعتقد؟ بل أنا أرى أنه قد يلجأ للتخلي عنا أو خيانتنا لدى أقل خطر.. فهل أنت مستعد لمثل هذه المخاطرة؟"
غمغم أمجد "لكن.. ما الحل الذي نستطيع اتخاذه لتجنب وشايته؟"
تلفتُ حولي أتأكد من عدم وجود الرجل قربنا فقد غدا بالنسبة لنا كالجاسوس الخفي قد نجده في أي وقت وأي مكان، ثم قلت بصوت خفيض "فلنتظاهر بالموافقة على انضمامه.. ولنقم بمخططاتنا كالعادة دون أن نزوده بالوقت الحقيقي لهروبنا.. كما يجب أن نحذر من إخباره بطريقة تغلبنا على السوار أو أي معلومة مهمة أخرى.."
بدا التفكير على وجه أمجد وهو يزن الأمور في عقله، فأضفت "لنجعله يعتقد أنه معنا في كل خطوة.. حتى يفاجأ باختفائنا كالبقية.. عندها لن تضرنا وشايته أبداً.."
قال أمجد "هذا ما يجب أن نفعله.. أخبرني بسمة بذلك وأنا سأتولى أمر ذلك العنيف.."
ابتسمت وأنا أرى غضبه النادر منصباً على أدهم، وقلت "لا تنسى الاعتذار.."
نظر لابتسامتي وعلق بضيق "تبددين مستمتعة بما يجري.."
قلت هازة كنتفي "أتشوق لرؤية ما سيفعله أدهم للاعتذار من ذلك الرجل.. ستكون تلك لحظة أسطورية.."
زفر أمجد وهو يصمت تماماً.. أشفق عليه حقاً فأمامه أوقات عصيبة ليقنع أدهم بالتنازل والاعتذار..
تلك الليلة، وبعد ملاحظة طويلة، تركنا أدهم حيث اجتمعنا كالعادة واتجه للرجل الذي كان جالساً أمام مسكنه يتظاهر بتجاهلنا تماماً.. وعندما سقط ظل أدهم الضخم عليه، رفع بصره بهدوء ونظر إليه وابتسامة سخرية ترتسم على شفتيه.. من موقعي هذا بدا أدهم يكاد يحرقه بنظراته الحادة والتي طالت، ثم قال بجفاف ملحوظ "لقد وافقنا على انضمامك لنا.. لكن لو كنت تنتظر اعتذاراً مني فستجد لكمة أخرى ترتطم بوجهك.. فهذه هي طريقتي

الوحيدة للاعتذار.."

ضحكت ملء فمي لقوله بينما دمدم أمجد بحقن "ليس هذا ما اتفقنا عليه.. هذا الأحمق.."

قلت بابتسامة "متى تياس يا أمجد؟.."

زفر أمجد محتدأً، ورأينا أدهم يعود لنا دون انتظار رد من الرجل الذي حدق في ظهر أدهم بغیظ شديد.. لكن يبدو أنه استسلم ويئس من حصوله على اعتذار مناسب إذ نهض بصمت وتقدم منا ليجلس جانباً.. فسأله أمجد "نحن لم نتعرف بشكل لائق من قبل.. أنا أمجد.."

وأخذ يعرفه على أسمائنا واحداً تلو الآخر، ثم توجه إليه بالسؤال "وأنت.. ما اسمك؟"

فرك الرجل رقبته مغمغماً "لم أفكر قط باتخاذ اسم لي فلا أملك من يمكن أن يناديني به.. لكن.."

صمت للحظات قليلة، ثم نظر إلينا قائلاً "نادوني صقر.. اسم موح.. أليس كذلك؟"

وانفجر ضاحكاً بطريقة جعلت ملامح وجهي تنقبض باستياء.. أعني باسمه الغريب هذا أنه سيظل يراقبنا بعينه الحادة كالصقر؟.. هذا الرجل يقطر بغضاً، وهو يدرك ذلك تماماً ويستمتع به.. سمعت أدهم يقول "يا إلهي.. يبدو أن الكوابيس سترادوني الليلة لكل هذا الضجيج المزعج.."

فقال صقر بسخرية "حقاً؟ يسعدني أنك لن تهناً بنومك الليلة.."

بدا أن الإثنان على وشك قضم رقاب بعض، مما دفع أمجد ليقول بصوت أعلى من المعتاد "هل نترك كل هذا

جانباً ونبدأ في المهم؟ لا نملك الكثير من الوقت قبل أن يحين موعد نومنا.. وقد أضعنا ما يكفي منه.."

التفت صقر إليه قائلاً باهتمام "ما هي الخطة التي وضعتها للهروب؟ أنا أقدم منكم على هذا الكويكب وقد رأيت الكثير من المحاولات الفاشلة.. لذلك يمكنني معرفة الخطة الناجحة من الفاشلة على الفور.."

ابتدأ أمجد يشرح له خطتنا التي لم تكتمل بعد، ولاحظنا أنه قد غيّر الكثير من تفاصيلها أمام صقر حتى بدت بعيدة كل البعد عن خطتنا الأصلية.. وكلما سأله صقر عن الكيفية التي ينوي بها التخلص من الأساور، كان أمجد يراوغ بالإجابة مردداً "لندع هذا لوقته.. هناك طريقة حتماً.."

نحن الثلاثة لم نتدخل في الحوار.. وبعد برهة نهض أدهم فجأة قائلاً "أراكم غداً.. الليلة مملة جداً تكاد تصيبني بالاكنتاب ولا أعلم لماذا.."

وغادرنا وأنا أكتم ضحكتي.. يصرّ أدهم على إشعار صقر أنه غير مرحب به بأسوأ الطرق الممكنة.. ولا ألومه على ذلك.. بينما التفت صقر إلى أمجد قائلاً بضيق "ألا تستطيع استبعاد هذا العنيف من خطتك للهروب هذه؟ إنه يستحق البقاء هنا وقضاء حياته في هذا الجحيم.."

قال أمجد بدون انفعال "لو كنت تكره وجوده يمكنك أنت أن تنسحب، أما أدهم فهو أول من سيهرب منا.."

كان رفض أمجد صريحاً بشكل زاد الضيق على وجه صقر وسرعان ما غادرت أنا وبسمة تاركين أمجد بمفرده يجيب أسئلة صقر اللوححة.. إنني أرثى لحال أمجد في اليومين اللذين مضيا..

الفصل الحادي عشر

[صقر]

عندما خرج أمجد من مسكنه وجدني أقف قرب الباب أسدّ الطريق، وبصمت دلفت مسكنه فترجع هو خطوات قائلاً بتعجب "ما الأمر؟ كنت لتوي قادماً إليكم.."

قلت وأنا أنظر من نافذته "ألا ترى أن الموضوع قد طال أكثر من اللازم؟ مرت عدة ليالٍ نقضيها مع ذلك الصقر في حديث فارغ.. متى سنمضي في مخططاتنا؟"

قال مبرراً "ألا ترى أنه متشبه بنا كثيراً؟ لا يغادر إلا آخرنا ويصل أولنا.. فما الذي يمكننا فعله في هذه الحالة؟"

فقلت بضيق "بهذه الحالة سنتأخر كثيراً ولن نتقدم أبداً"

فكر أمجد قليلاً وأنا أنتظر إجابته، ثم قال "سأبدأ تنفيذ جزء من الخطة الخاص بتهريب الأحجار ولا أحتاج مساعدة أحد في هذا.. وبعدها سنتحايل على الرجل ونحاول المضي في الباقي.."

قلت بدهشة "وكيف تنوي فعل ذلك؟"

قال بابتسامة "دعي الأمر لي.."

قلت بحدة "لكن كيف ستفعل ذلك؟ أخبرني.."

سمعنا الصوت البغيض خلفنا يقول "يفعل ماذا؟"

التفت خلفي لأجد صقر يقف قرب الباب يتأملنا بنظرات تحمل اتهاماً كبيراً، وأضاف "ما هو ذلك الشيء الذي لا يحتمل الانتظار حتى نجتمع لتحدثنا فيه بكل سرية؟"

فقلت وقد وصل بي الحنق لأقصى حد "ألا يكفي فرض نفسك علينا بهذه الطريقة؟ هل يجب أن تتدخل في كل حواراتنا حتى الخاصة منها؟"

ودفعته من طريقي وأنا أبتعد بخطوات غاضبة نحو مسكني.. لم أنو أن أبقى معهم الليلة وأنا متضايقاً أشد ما يكون من كتمان أمجد لخطته الخاصة.. ما الذي يضره لو أفصح عن خطته واستمع لرأينا بها؟.. بالإضافة لوجود ذاك البغيض الذي يسبب لنا كل هذا التأخير.. لقد مللت المكان.. مللت الوجوه التي أراها كل يوم.. ومللت المعاملة التعيسة التي أتلقاها كل لحظة..

انقطعت عن اللقاءات عدة ليالٍ، وبدا أن أمجد في شغل شاغل بحيث لم يهتم بسؤالي عن السبب.. ويبدو أن أدهم

أيضاً قد اعتاد على النوم مبكراً متجاهلاً لقاءاتنا المعتادة تاركاً أمجد وحيداً مع صقر وبسمة، والتي بعد يومين فضلت الابتعاد بدورها.. وبدأت تزورني في مسكني لتقضي بعض الوقت في أحاديث معتادة قبل عودتها لمسكنها.. لذلك كانت دهشتي شديدة عندما سمعت طرقاً خافتاً على الباب بعد انقطاع الأنوار بمدة طويلة.. تجاهلته وأنا أتساءل في سري عن هوية الطارق، فيما عاد الطرق مرة أخرى بنفس الخفوت والهدوء.. ولأن المساكن لا تحمل أي أفعال، فلا معنى للتوجس ممن يكلف نفسه طرق الباب بهدوء وتهذيب.. اقتربت من الباب وفتحته قليلاً لأرى أمجد يتلفت حوله بقلق.. ولما رأني قال هامساً "آسف لإزعاجك في هذه الساعة.. أيمكنني الدخول؟"

لم أجد سبباً يمنعني من ذلك، فلا معنى للخوف من الأفاويل أو سوء الظن في هذا السجن الكبير.. دلف أمجد وهو ينظر خلفه بقلق أشد ثم أغلق الباب خلفه وهو يقول بصوت خافت "أعلم أنه ليس من اللائق قدومي في هذا الوقت وبهذه الصورة، لكنه الوقت الوحيد الذي أتخلص فيه من ذلك اللزج دون أن أثير رييته" قلت بابتسامة وأنا أجلس على سريري "هل اقتنعت أخيراً أنه بغيبض بكل الأشكال الممكنة؟" اقترب مني أمجد بدون تعليق ومد يده في جيبه ليستخرج خرقة بأسوأ حال ممكن، ووضعها في يدي بصمت.. فتحت الخرقة بدهشة لأصدم بمرأى الأحجار السوداء المتفاوتة الأحجام وبعدد كبير.. نظرت له بدهشة وتساءلت "كيف استطعت فعل ذلك؟"

قال بتوتر "ليس هذا هو المهم.. هل تعتقد أن هذا العدد يكفينا نحن الأربعة؟ أمن المفترض أن أحضر المزيد؟" قلت وأنا أقلب الأحجار "المفترض أن نحصل على ما يزيد عن حاجتنا.. لنستخدمها عند الطوارئ إذا ما زالت الطبقة التي استخدمناها وقت الهروب.. لكن كيف؟"

نظر أمجد من النافذة ليتأكد من عدم اقتراب أي شخص يمكن أن يتنصت على حديثنا، ثم تناول الخرقة مني وضماها بحرص شديد ليضعها في جيبه، قبل أن يجلس على الكرسي وكأنه استنفذ طاقته وقال زافراً "خطتي كانت مشابهة لما فعلته أنت في السابق.. استغللت حاجتهم لي لحمل المعدات من المنجم إلى المستودع في المساكن وبالعكس، فكنت أقوم بتهريب حجر صغير في كل مرة خاصة أنهم عادة لا يقومون بتفتيش علبة الأدوات بل يكتفون بتفتيشي.. وفي كل مرة أزيد عدد الأحجار حتى حصلت على هذه الكمية.."

قلت بابتسامة "رائع.. يلزمك القليل بعد حتى تنتهي من هذه النقطة.. لكن....." صمتت وأنا أزم شفتيّ مفكرة للحظات، ثم قلت "في محاولتي السابقة، فشلت في تعطيل السوار بسبب تافه عندما انسكب الماء على يدي وأزال تلك الطبقة.. ربما علينا أن نحاول استخدام الأحجار بطريقة أخرى" سألتني "هل تملكين فكرة محددة؟"

أجبت "أعطني حجراً متوسط الحجم وسأحاول بطريقتي الخاصة.. وغداً سأخبرك النتيجة" غمغم "حسناً.. أتمنى أن تكون الطريقة ناجحة.."

واستخرج الخرقة من جيبه وتناول حجراً أكبر من البقية.. ثم اقترب مني فمدت يدي لأتناوله.. عندها وجدته يضع يده المضمومة في راحة يدي دون أن يتخلى عن الحجر وهو ينظر لي بصمت.. فرفعت بصري إليه بتعجب لأرى نظراته متماوجة المشاعر بوضوح رغم أنني لم أفهم منها شيئاً، ثم قال بخفوت "لا تعزلي عنا طويلاً وتبقي بمفردك هنا.. أعلم أنك تبغضين ذلك الشخص، لكننا نضيق باختفائك أيضاً.."

خفضت بصري ودقات قلبي تتسارع لسبب مجهول.. لم أستطع النظر في عينيه تلك اللحظة، فاكتفيت بأن غمغمت "سأحاول.."

بدا أن الجواب أعجبه إذ قال بصوت بدا مبتسماً "رائع.."

وترك الحجر في يدي قبل أن يغمغم "تصبحين على خير.."

وغادر بهدوء كما جاء.. بينما بقيت أنظر للحجر الرابض في يدي التي تعرقت لشدة حرجي وللدماء التي اندفعت بقوة في عروقي.. فتنهدت لأزيل ارتباكي وهمست "يا لي من حمقاء.."

كنت بالفعل أتعجب من حماقتي وأنا أنفعل بهذه الصورة لأسباب تافهة.. والأفضل لي في هذه الأوقات أن أركز تفكيري على الهدف الأكبر أمامي.. أو أن هذا ما أحاول إقناع نفسي به منذ فترة دون نجاح يذكر..

في اليوم التالي، كنت أتقدم من مجلسنا المعتاد تتبعني بسمة التي دهشت من قراري الانضمام لأمجد وصقر.. فرأيت ابتسامة ارتياح ترتسم على شفتي أمجد، بينما علت السخرية وجه صقر وهو يعلق لدى رؤيتنا "مرحى.. أخيراً قررتما عدم تجاهلنا وتشريفنا بحضوركما الكريم؟"

قلت بجفاء "كنت سأحضر كل ليلة لولا وجودك هنا.."

قاطعنا أمجد لنكف عن التعليقات الجارحة "كنت للتو أتحدث مع صقر عن الطريقة التي يمكننا بها أن نغافل الحراس.. ما رأيك يا حمراء؟ أتملكين حلاً مناسباً؟"

قلت متطلعة في عيني أمجد "لقد وجدت حلاً بالفعل للمعضلة التي حدثتني عنها.. لكني أخشى ألا تناسب الكل"

بدا الاهتمام في عيني أمجد وقد فهم تلميحي، بينما قال صقر بريية "أي معضلة تعنين؟"

نظرت له قائلة بابتسامة "كيفية مغافلة الحراس عند الهرب.. ما بالك يا رجل هل فقدت ذاكرتك من جديد؟"

ظل صقر ينظر لي بريية، بينما أضفت وأنا أنظر لأمجد من جديد "الحل هو....."

وقمت بتأليف خطة من وحي اللحظة لأقنع صقر بما قلته.. كانت خطة هزيلة وقد صرح لي صقر بذلك دون مداراة.. فكففت عن إجهاد نفسي وتركت لهما الحوار يديرانه بينهما دون تدخل مني أو من بسمة..

بعد ساعات طويلة، كان أمجد قد زارني في مسكني من جديد خلصة وهو يغمغم "ألا تخشين مما سيقوله الآخرون

لو رأوني أتسلل لمسكنك كل ليلة؟"

قلت هازة كتفي "لو كنت أنت تخشى الأقاويل فالأفضل أن تغادر فوراً"

صمت أمجد دون تعليق.. فتناولت من تحت سريري علبة عشائي الفارغة والتي نظفتها لأستخدمها كحاوية،

وفيها رأى أمجد عجينة سوداء صغيرة الحجم.. قربت العلبة من أمجد في إشارة صامتة، فلمس العجينة بيده

ليجدها شبه قاسية وإن لم تتحجر تماماً.. ولدى نظرات التساؤل منه قلت مفسرة "طحنت الحجر الأسود باستخدام

حجر عادي، ولم يكن ذلك صعباً فالأحجار السوداء هشة نوعاً ما.. وعجنت غباره بقليل من الماء لأحصل على

عجينة لينة.. فاستخدمتها لتغطية الحجر ذاته بها وتركتها حتى حصلت على هذه النتيجة.."

وقمت بتفتيت العجينة بشيء من القوة لأخرج الحجر الصلب من جوفها وأنا أضيف "أترى؟ إنها تغطيه بشكل

ممتاز دون أن نواجه خطر زوالها بسرعة.. المشكلة الوحيدة هي أنها تحتاج لساعتين على الأقل حتى تجف..

وهو وقت طويل جداً في خطتنا"

غمغم أمجد "سنجد حلاً لذلك.. لكنها خطة عبقرية.."

ووقف بصمت ينظر لي وأنا أنتظر أن يكمل حديثه، لكنه سرعان ما أدار رأسه وغادر قائلاً "سأتركك لترتاحي

قليلاً.. تصبحين على خير"

علت شفتي ابتسامة تعجب من تصرفاته، ثم أغلقت الباب خلفه وارتميت على سريري أنشد بعض الراحة.. ها قد

أنهينا خطوة في مخططنا.. وبقيت خطوات كبيرة لكننا سنجتازها كما أرجو دون عقبات..

في اليوم التالي، اقتربت من صقر قبل أن نجتمع معاً حيث وقف قرب مسكنه ونظرة لامبالاة بي واضحة في

عينيه.. كنت أريد أن أعرف سبب بغضي له، وأريد التأكد من حکمي عليه.. أحقاً انجرفت لأهوائي وأطلقت عليه

حكماً قاسياً؟ يجب أن أتأكد من ذلك الليلة..

فور اقترابي، بادرني بالقول بسخرية "ما الأمر؟ هل ستطلبين مني الابتعاد عنكم أنت أيضاً؟"

خمنت أن من سبق وأخبره بذلك كان أدهم، لكني لم أعلق وأنا أسأله "أخبرني.. لماذا أنت مصرّ على الهرب معنا

رغم مخاطر ذلك؟ لقد جربت الفشل من قبل، وكن متأكداً أن عقابهم ليس شيئاً محبباً البيتة"

فقال بسخرية "إذن لماذا تعاودين الكرة مرة أخرى؟ لا تعامليني كأحمق رجاء"

قطبت بضيق لسخريته وعدت أسأله "ثم إنك تحاول دفع أمجد لإبعاد أدهم.. أترى أن لك حقاً في ذلك؟"

قال بحدة "لأنني أبغضه.."

فقلت بابتسامة لم أملكها "ألا تظن أن المشاعر تلك متبادلة بينكما؟ لكن هذا لا يعطيك الحق بإستبعاده"

اقترب صقر مني خطوة وهمس بحدة " اسمعي يا متذاكية.. لا يهمني رأيك أو رأي أي فرد من فريقك.. أنا سأهرب معكم، سواء شئت أم أبيت ذلك.. أخبرني ذلك الضخم العنيف أن يتنحى من طريقي ولا يتعرض لي، وإلا سيلاقي ما لا يعجبه.. "

تطلعت لعينيه لحظات، ثم قلت " أنا لم أخطيء الظن أبداً.. أنت بغيفض حقاً " فضحك صقر قائلاً " حقاً؟.. يسعدني سماع ذلك "

غادرته دون كلمة أخرى وهو يضيف " لا تنسي إيصال الرسالة لذلك البغيفض.. " لم أعلق بكلمة.. هل أخبر أدهم حقاً؟ لا أظن أن رد فعله سيكون محبباً..

مضى علينا أسبوع ونحن على هذه الحالة.. يقضي أمجد ليليه مجتمعاً مع صقر وأحاديثهما تدور في هراء لا ينتهي، واجلس معهما أحياناً استجابة لرغبة أمجد رغم أنني استنقل وجود ذلك الرجل.. لكن لا أعلم ما الذي يدفعني في بعض الليالي للتقدم منهما والجلوس قريباً وإن كنت أتلفع بالصمت متجاهلة أي سؤال أو تعليق من صقر..

أدهم طبعاً قد توقف تماماً عن الجلوس معنا، وكأنه يعلن اعتراضه على انضمام صقر بشكل سافر، بينما ظلت بسمة متذبذبة في قدمها إلينا..

وبعد انقطاع الأنوار بعدة ساعات، كان اجتماعنا الحقيقي يبدأ بغفلة من عيني صقر.. أحياناً نجتمع في مسكني أو مسكن أمجد.. ولم نكن نجتمع نحن الأربعة معاً إلا نادراً.. ومن لم يحضر يخبره الآخرون عما فاتته.. وضعنا خطة عامة عما سنفعله في الليلة التي سنهرب فيها، وحصرنا ما سنحتاجه من أدوات ومؤونة.. ما زال أمامنا الكثير لكننا نمضي بخطى ثابتة مما كان يريحني..

ورغم أن اجتماعاتنا السرية لا تدوم طويلاً، إلا أنها كانت كافية لرسم دوائر سوداء تحت أعيننا لقلة النوم والتعب الشديد.. لقد تقلصت ساعات نومنا كثيراً وصار التعب لا يغادرنا.. وطبعاً لا يمكن أن يفوت ذلك عينا صقر الحادثتين.. حاول استجوابنا عدة مرات ليعرف سرنا، لكننا تجاهلناه في كل مرة مما كان يثير غيظه أكثر.. فيصّب جام غضبه على أمجد المسكين الذي يحاول تهدئته وتبرير أفعالنا بما يرضيه ويصرفه عنا..

وفي إحدى الليالي، وبينما كنت مع أدهم نجتمع في مسكن أمجد، تساءلت "متى تعتقد أننا جاهزون للرحيل؟ لقد طال بقاؤنا أكثر من اللازم "

أجابني أمجد "أعتقد أنه يمكننا البدء في مخططنا في أي ليلة.. المشكلة تكمن في وجود صقر.. إنه سيدرك الأمر فور بدء مخططنا وأنا لا أضمنه حقاً لأسمح له بالانضمام إلينا.. "

قال أدهم "مهما حاولت إقناعنا فلن نرضى بقدمه معنا.. نحن لسنا مجبرين على تحمل مسؤوليته في هذا الهروب، وشخصيته البغيضة تمنعنا حتى من المحاولة"

فقال أمجد "إذن ماذا نعمل إزاءه؟"

تساءل أدهم "حدد لي يوماً لتنفيذ خطة الهرب ودع لي أمر صقر بعدها.."

قال أمجد "يمكننا البدء بعد الغد.. لازلت بحاجة لبعض العدة التي يجب أن أحضرها من المستودع.."

فقال أدهم "رائع.. دع لي كل شيء ولا تقلق"

سأله أمجد مقطباً "ما الذي ستفعله بالرجل؟ لا تفكر باستخدام العنف فقد يتم سجنك أنت في غرفة العزل عندها.."

قال أدهم "قلت لك ألا تقلق.."

وغادر المسكن بهدوء تاركاً أمجد وقد تزايد قلقه، فقلت له "أدهم ليس بأحمق لو كنت تظن ذلك.. كفّ عن حمل

همّ كل شيء في خطتنا هذه وامنحه بعض الثقة.."

زفر أمجد صامتاً للحظة، ثم نظر لي قائلاً "ألست خائفة؟"

تساءلت بدهشة "مم؟"

أجاب "من الفشل.. لقد خضت تجربة سابقة ونلت تعذيباً قاسياً عليها.. ألا يراودك خوف من العودة لذلك التعذيب

من جديد؟"

هزرت رأسي نفيّاً قائلة "لماذا تبصم على خطتنا بالفشل منذ الآن؟ أنا لا أخاف الفشل وما يتبعه من عواقب، لكنني

أكره شعور الندم الذي سيراودني لو لم أستغل الفرصة المتاحة لي.."

ثم قلت بابتسامة "ولا تذكر الفشل مرة أخرى أو حتى تفكر فيه.. بسمة تكاد تموت ذعراً خوفاً من عواقبه، لذلك

فهو غير وارد البتة.."

غمغم أمجد "سأحاول.."

ثم أضاف "فلنر ما سيفعله أدهم للتخلص من صقر.. وإن لم يعفنا شيء فسنبدأ خطتنا بعد غد بإذن الله.."

هزرت رأسي موافقة، ثم غادرت مسكنه بصمت رغم أنني أشعر بأن قدمي لا تحملانني.. أخيراً، أصبح لهروبنا

موعد محدد.. وهذا أشد ما يسعدني الآن..

ما حدث في اليوم التالي كان أمراً لم نتوقعه.. إذ اقترب أدهم من صقر قبل انتصاف النهار في المنجم، ويبدو أن

عمل أدهم قريب شيئاً ما من صقر، قائلاً "قائد الحرس الموجود خارج المنجم يطلبك.. ويتوعدك بالعقاب إن

تأخرت.."

نظر له صقر شزراً قبل أن يقول بجفاء واضح "ولماذا أرسلك أنت ولم يرسل أحد الحراس؟" قال أدهم بسخرية "اعذرنى لأن قائد الحرس قتل من شأنك وأرسل لك شخصي المتواضع.. لقد استدعاني قبلك ثم وكلني استدعائك قبل عودتي لعملي"

ظل الشك واضحاً على ملامح صقر، وقبل أن يفتح فمه قال أدهم زافراً بحدة "لماذا أكلف نفسي إقناعك بالذهاب؟ إنه لمن أحب الأمور إلي رؤيتك تعاقب على لا شيء.."

وابتعد عائداً لعمله، فحسم صقر أمره وتوجه لمخرج المنجم.. ولم يفته النظر لأدهم بعد عدة خطوات خطاهن، فوجده يتحدث مع رجلين مثيري المتاعب، ووجهيهما يتلونان غضباً مع كل ثانية تمر وهما يرمقان أدهم بحنق شديد.. عندها غمغم صقر "يا لك من شخص مثير للمتاعب.. أتمنى أن يوسعك ضرباً.."

واتجه نحو المخرج فلم يعثر على قائد الحرس.. تلفت حوله برهة بحيرة، ثم اقترب من أحد الحراس قائلاً "قائد الحرس يطلب رؤيتي.. فأين يمكن أن أجده؟"

تسائل الحارس مقطباً "قائد الحرس لم يأت اليوم.. من أبلغك بهذا الأمر؟"

قطب صقر بدوره قائلاً "أحد السجناء أبلغني بهذا قبل قليل.."

فقال الحارس بصرامة "لو طلبك قائد الجند لأرسل لك أحد الحراس بدل إرسال سجين.. عد إلى عملك فوراً"

استدار صقر عائداً لموقعه وهو يدمدم بغیظ "إذن كانت تلك خدعة من ذلك البغيض.. الويل له.."

قطع قوله اصطدامه بأحد السجناء، ولما رفع رأسه رأى الرجلين مثيري المتاعب إياهما واقفان ينظران له بأعين تطلق الشرر.. فغمغم على الفور "أنا آسف.."

قال أحدهما بلهجة جافة "الاعتذار لا يحل مشاكل الكون كلها يا هذا.."

نظر له صقر بدهشة، ثم فوجيء بأحدهما يقبضه من ثيابه ويجره خلفه وهما يتجهان لبقعة منعزلة من موقع عملهم.. ظل يحاول الإفلات وهو يقول "ما الذي تفعلانه؟ لماذا تجرني هكذا؟"

أوقفه الرجل وهزه قائلاً "ما الذي قتلته لذلك الحارس؟"

أجاب صقر بدهشة "لا شيء.. كنت أسأل عن قائد الحرس.."

هزه الرجل بقوة أكبر قائلاً بحنق "وما الذي تريده من قائد الحرس؟ أي وشاية كنت ستنتقلها له؟"

تزايدت دهشة صقر وهو يهتف "لم أنقل أي شيء.. صدقتي هو من طلبني"

أمسك الرجل وجهه بأصابعه بقوة ألقت صقر وهو يلفحه بأنفاسه قائلاً "من أخبرك عن الصندوق؟ من رأني وأنا أستلمه من الحارس؟"

قال صقر وهو يحاول دفعه بألم "عن أي شيء تتحدث؟ لم أعلم بأي شيء من هذا.."

قال الرجل بحدة "كف عن الكذب.. من أخبرك؟ أهو أحد الحراس أم السجناء؟"

صاح صقر وهو يلوح بيديه "أيها الحراس.. ساعدوني.. هذا السجين يثير الشغب.."

التفت إليهم أقرب الحراس صائحاً "ما الذي تفعلونه؟"

فوجيء صقر بلكمة على فكه كادت تكسر أسنانه قبل أن يرفعه الرجل قليلاً ويرميه أرضاً بقوة.. تأوه صقر الألم قبل أن يحاول النهوض والفرار.. لكن الرجل اقترب وركله بقوة قبل أن يجلس على صدره ويلكمه قائلاً بغضب "أيها الحقيير.. تظنني سأصمت على وشايتك أيها الفأر الجبان؟"

تلقي الرجل ضربة قوية على رأسه من سلاح الحارس، لكنها لم تفقده وعيه وهو يقف مزمجرأ ويتقدم تجاه الحارس بعينين حمراوين.. فتكالب عليه ثلاثة من الحراس وهم يضربونه ثم قيدوا يديه.. أما صقر فقد كبله حارس آخر وهو يهتف بعم مليء بالدماء "أنا لم أفعل شيئاً.. هو من تهجم علي.."

ضربه الحارس قائلاً بصرامه "كف عن الصراخ.."

تلقت صقر حوله هاتفاً "أسأل بقية السجناء.. الكل شاهد على...."

التقت عيناه بعيني أدهم الذي كان وجهه يحمل ابتسامة ساخرة ويقف معقود اليدين يتفرج على ما يجري.. فقال صقر بذهول وهو يتذكر كل ما حدث هذا اليوم "أهو أنت؟"

ثم صرخ بالعربية وهو يقاوم الحارس "أيها الحقيير.. أنت خططت لهذا؟.. أيها الوغد.. أيها النذل.. ستري.. سترون جميعكم.. سأنتقم.. حقاً سأنتقم.."

قيده الحارس قبل أن يجره خارج المنجم، بينما تكالب الحراس الثلاثة على الرجل الآخر يقودونه خارجاً وهو يقاومهم.. أما رفيقه فقد تراجع منذ قدوم الحراس واختبأ بين السجناء مفضلاً السلامة..

وفي تلك الليلة، اجتمعنا في موقعنا لتغلبنا الدهشة لغياب صقر غير المعتاد.. وازدادت دهشتنا برؤية أدهم الذي اقترب منا بخطوات هادئة مانحاً إيانا ابتسامة تدل على سرور عميق.. وبسؤالنا إياه عن سبب الابتسامة فإنه قصّ علينا ما حدث اليوم في المنجم، ومع كل كلمة كان السرور يتزايد في صوته وفي ملامحه وكأنه مستمتع بكل ما يجري..

ولم يكد ينهي جملة حتى هتف أمجد "لم فعلت ذلك أيها الأحمق؟"

قال أدهم بهدوء "خلصتكم منه.. أليس هذا أفضل من تحمل سخافات؟"

صاح أمجد "أفضل؟ لن يلبث في السجن إلا ليلة واحدة.. وغداً سنجد أماننا بكل غضبه وحفده.. فبم أفادنا هذا؟ لقد أخبرتك أننا سننفذ خطتنا ليلة الغد.."

قال أدهم ببساطة "الحل الوحيد هو البدء الليلة.. ولا أرى ما يمنع ذلك"

قال أمجد بغير تصديق "الليلة؟ أنت تمزح.. الخطة يجب أن تنفذ غداً.. لا يحق لك أن...."

قاطعته أدهم قائلاً "لماذا؟ أسنا مستعدين؟ ما الذي يجبرنا على التأخير فقط لتشعر براحة نفسية لالتزامك بالخطة؟"

احتقن وجه أمجد وهو يواجه تعليقات أدهم الصارخة للمرة الأولى، ثم قال بشدة "لا زلنا نواجه خطر وشاية

صقر.. ألم تظن أنه أدرك عزمنا على الهرب في الليلة التي سيقضيها في العزل؟ لقد فهم اللعبة التي قمت بها، ولا يحتاج الأمر لعبقرية لتحليل الموقف.."

قال أدهم بهدوء "وهذا أدعى للإسراع بإتمام الخطة"

ظل أمجد ينظر لأدهم بغير تصديق لمدى هدوءه وبروده إزاء أمر حاسم كهذا.. ويبدو أنه لم يتوقع أن يعالج شخص ما موقفاً حساساً كهذا بكل ذلك الكم من الإهمال واللامبالاة كما يراها.. أما أنا فقد أعجبتني هذا الحل فقلت مساندة لأدهم "أنا أرى ألا داعي للإبطاء أكثر من هذا.. نحن مستعدون.. فلنمض في مخططنا وندع مخاوفنا خلفنا.."

زفر أمجد بحلق شديد وهو يغرق بأفكاره، بينما صمت أدهم تماماً ونحن معه بانتظار ما سيستقر عليه من رأي رغم عدم شكنا بالنتيجة.. ثم رفع رأسه إلينا وقال متهدداً "القيام بالخطة الليلة خير من مواجهة غضب صقر غداً.."

هتفت بسعادة "رائع.."

نظروا لي بدهشة وتعجب، فدمدمت وأنا أخفض وجهي "كنت بانتظار هذا اليوم منذ مدة.."

علق أدهم مبتسماً "بدوت كطفل على وشك زيارة متجر الحلوى.."

احتقن وجهي بحقن.. هل بدوت بتلك السعادة الطفولية؟.. أما أمجد فقد قال "لنعد لمساكننا ولنلتزم الهدوء.. حاذروا أن تستسلموا للنوم مهما كنتم متعبين فلا نملك الوقت الكافي لإيقاظ من نام.. وعندما تشعرون بالإشارة المتفق عليها نفذوا الخطة دون إبطاء.."

هزنا رؤوسنا موافقين.. هذه هي الليلة الموعودة، ويا لها من ليلة..

قبل أن نفترق، اجتمعنا في غرفة أمجد الذي كان قد جهز الأحجار بحوزته في اليوم السابق وحوّلها لعجينة شبه لينة.. فقام بتوزيع أجزاء من العجينة على سوار كل منا وهو يقول لنا "حافظوا على المادة حتى تبدأ بالتبمس بعد ساعة لتكون أكثر ثباتاً بالأساور.. غطوها بأكممكم حتى لا يلمحها أحد ويبدأ بالتساؤل.."

انتهى من سوار أدهم الذي غادر بعدها على الفور، فاندفعت بسمة بعده لتنتهي أمر سوارها ثم لحقت بأدهم كي تضمن وجوده حتى تصل لمسكنها بأمان.. وأخيراً جاء دوري فمددت يدي لأمجد الذي أمسكها وبدأ يلطخ سوارى بالعجينة السوداء.. ولما ساوى المادة على السوار الذي اختفى اللون الأبيض منه تماماً، جذبت يدي من يده لكنه شدّ عليها بيده دون أن يرفع بصره أو يتفوه بكلمة.. ظللنا صامتتين للحظات وأنا أشعر بالحرارة تكاد تخنقني..

أهذا بسبب تدافع الدماء في خدي؟.. كما أن يدي قد أصبحت حارة جداً في يده وأنا أشعر بحريق من ملمس أصابعه.. ووددت أن أبتعد عنه على الفور ليعود لي هدوئي.. ولما طال صمته سألته مقطبة وأنا أداري انفعالاتي "ما الأمر؟"

ظل على صمته وإن أطلق تنهيدة حارة.. فقلت "أهناك ما يقلقك؟"

قال بهزاء "ما يقلقني؟ كل شيء يقلقني.. بدءاً من هربنا وعواقبه الوخيمة خاصة مع ضعف إمكانياتنا، وليس انتهاءً بقلقي عليك وعلى الآخرين.."

فقلت متعجبة "أنت من طرح فكرة الهرب هذه المرة دون تدخل من أحد.. فلماذا الندم الآن؟" قال زافراً "كلما اقترب الوقت شعرت بفداحة ما اقترحتة.. أخشى العواقب وأخشى الندم الذي قد يلاحقني بقية عمري.."

جذبت يدي من يده وربت على كتفه قائلة "أنت لم تدفعنا لفعل شيء ضد رغباتنا.. فمهما حدث لأي أحد منا لا تجعل الندم يتسلل لنفسك أبداً.."

لم ينظر لي أمجد منذ بدء حديثنا لكن شعرت أنه أهدأ حالاً، فتراجعت وأنا أقول "سنكون بانتظار إشارتك..". وخرجت من المسكن قبل أن يستوقفني.. لو كان الأمر بيدي لابتعدت أمتاراً عدة عن أي موقع يتواجد فيه أمجد.. هرباً من تلك المشاعر الغريبة التي تنتابني في وجوده، وهي أكثر ما أكره في هذا الكويكب ولا أعلم السبب..

بيد مرتجفة، أمسكت الهاتف المحمول ذو اللون الملفت والزينة اللامعة التي تتدلى منه..

شعرت بباطن يدي يتعرق من فرط التوتر، لكنني استجمعت شجاعتي وأنا أضغط على الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب..

استمعت للرنين الذي طال وتوتري يزداد، ولما حصلت على إجابة من الجانب الآخر، لما سمعت الصوت الذي

يذيب أعماقي، حاولت التغلب على جفاف حلقي وأنا أهمس "حبيبي.. هل أنت غاضب مني؟"

سمعت زفرة متمللة في الجانب الآخر، وقبل أن أسمع ما قد يسبب لي التعاسة سارعت لأقول "أنت تعلم أنني

سأفعل أي شيء لأرضيك.. فلم لا تقتنع بأنني لا أستطيع تحقيق ما تطلبه مني؟"

وأضفت بصوت مرتجف وكأني أحاول استمالة مشاعره "أنت تعلم أنني أحبك.. أليس كذلك؟"

سمعت الصوت الذي أحبه يخاطبني ببرود لم يفتني "ليس هذا ما أريد سماعه"

صمّ أذني ضجيج إغلاق السماعه، فعضضت شفتي بيأس، قبل أن أهرع لطلب الرقم من جديد بانتظار إجابة لم

أحصل عليها..

اتصلت مرة ومرة ومرات عدة حتى وجدت أن الهاتف الآخر قد تم إغلاقه، عندها لم أملك دموعي وأنا أنهنه

بعجز ويأس.. هل انتهى كل شيء بهذه البساطة؟..

أليس من وسيلة لاستعادة حبه من جديد؟ أنا مستعدة لأفعل أي شيء.. أي شيء قد يضمن لي استعادته واستعادة

حبه قبل أن أخسره..

ما لم نعلمه ونحن ماكنون في مساكننا بصمت بانتظار الإشارة.. أن صقر كان يدور في غرفة العزل بتوتر شديد وحنق أشد وهو يدمدم "الويل لهم.. الويل.."

فتح باب الغرفة في تلك اللحظة ليووجهه النور القوي مقارنة بالظلمة الداكنة في الغرفة.. فأغمض عينيه لثوان قبل أن يفتحهما وينظر لقائد الحرس الذي وقف بغير صبر أمامه قائلاً "حسناً.. ما الذي جعلك تلح لرؤيتي؟ الأمر متعلق بهروب كما سمعت.."

قال صقر بلهفة "نعم.. هناك من ينوي الهرب.. الليلة بالتأكيد، فقد سعوا لتوريطي بدخول العزل لإبعادي وضمان صمتي.. أوقفوهم قبل أن ينجحوا"

رغم الاهتمام البادي في عيني القائد قال بهزء واضح "ينجحوا؟ أهذه مزحة؟"

هتف صقر "كلا.. هذا مؤكد.. فمعهم تلك الفتاة التي سبق لها الهرب ونجحت في ذلك لفترة من الزمن.. تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر"

تزايد الاهتمام في عيني القائد وهو يقطب مغمماً "أجل أذكرها.. وكيف عرفت بالأمر؟"

أجابه صقر بسرعة "تنصتُ على حديثهم فهم يتحدثون العربية وأنا عربي.. ولما أدركوا أنني عرفت بأمرهم دبروا لي هذا المكيدة ليتخلصوا مني"

سأله القائد بصرامة "وماذا تعرف بعد؟"

قال صقر بلهفة "هناك حريق.. يبدو أنه جزء من خطة هربهم فقد سمعتهم يذكرونه عدة مرات.. لا أعرف تفاصيل كثيرة فقد كانوا يخدعونني بخطط كاذبة"

فقال القائد "كم شخصاً هم؟ هل تستطيع إخبارنا بهوياتهم؟"

قال صقر "هم رجلان وامرأتان.. إحداهن تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر.. وأحد الرجلين هو ذلك الضخم أسمر اللون والقوي البنية.. إنه يملك قبضة قاسية ولكمته مؤلمة"

قال القائد بسخرية "أجل.. أذكرها فقد جربتها فيما مضى.."

نظر صقر له بدهشة، فقال القائد بحدة "هل تعتقد أن وصفاً مثل هذا يمكن أن يوصلنا لأي شيء؟"

قال صقر بارتباك "إنه.. إنهم يطلقون على أنفسهم أسماء.. لكن لا أتوقع أن تعرفوهم بها.. ولا أعرف أرقامهم التسلسلية"

فقال القائد وهو يبتعد "سنرسل لك صور كل سجناء المسكن الذي أنت فيه وأريد منك تحديدهم"

هتف صقر قبل أن يغادر القائد "لا وقت لهذا.. إنهم سينفذون مخططهم الليلة.. عليكم أن تنتبهوا لأي حريق في

المساكن.. لا تدعوهم يستغفونكم ويفلتوا بفعالتهم.."
لكنه وجد الباب يغلق في وجهه علامة إنهاء الحوار..

الفصل الثاني عشر [المحاولة مرة أخرى]

لم أكد أجلس علي سريري بتحفز وترقب شديدان بانتظار إشارة أمجد، حتى سمعت طرقات مألوفة علي الباب.. لم أحتج لمعرفة هوية صاحبها وأنا أنهض لأفتح الباب بصمت.. وكما توقعت رأيت بسمه تقف قرب الباب وانتفاضة واضحة تبدو عليها.. فجذبتها بصمت لتدخل وأجلستها علي السرير.. وجلست قربها متسائلة بلطف "أنت خائفة؟"

اتسعت عينا بسمه لتؤكد المعنى الذي نطقته شفتاها المرتجتان "بل مرعوبة.. بودي نسيان كل شيء والبقاء.. لكنني أخشى من البقاء وحيدة ورحيلكم عني.. لكنني خائفة، حقاً خائفة" كانت انتفاضتها تزداد مع كل حرف تنطقه، فلم أملك إلا أن أضمها وشفقة تغمرني علي حالها.. بدت كطائر مبتل ريشه يرفف في وجه الريح.. فقلت لها بصوت حاولت جعله مطمئناً "كلنا سنكون معك وسنحميك بكل ما نستطيع.. إن لم تثقي بقدرتي علي ذلك فعلى الأقل ثقي بأمجد وأدهم..". زفرت بسمه محاولة إخراج توترها وإيقاف النفضة التي استعمرتها، ثم رفعت عيناها المحملتان بدموع جاهدت لحبسهما "هل أستطيع البقاء معك حتى يحين الوقت؟ أخشى البقاء وحدي والعودة للهواجس التي تحتلني..". فقلت لها مبتسمة "لا بأس.. لا أرى ضيراً في ذلك..".

بعد عدة ساعات، قضيتها أتجاذب الحديث مع بسمه محاولة شغلها عن مخاوفها، تسللت لأنوفنا الرائحة المميزة للحريق.. فنظرت لبسمه التي اشتعل توترها وازدادت نفضة جسدها.. فشددت يدي علي يدها وأنا أقول بتصميم "هي ساعات قليلة ونكون أحراراً.. لا تقلقي ولا تخافي..".

هزت رأسها وهي تبلع ريقها بتوتر.. فبقيت دقيقتان أنتظر ثم هببت واقفة وخرجت من مسكني وهي تتبعني.. لم أنس أن أحمل الحقيبة الصغيرة التي صنعتها بنفسني بشكل ارتجالي مستخدمة أحد أريدتي والتي حوت بعض العدة.. ولدى بسمه حقيبة مماثلة.. وحالما خرجت من مسكني رأيت أدهم يصرخ ويطرق أبواب بعض المساكن القريبة من الحريق.. بينما اندلع حريق يلتهم معظم مسكن أمجد الذي لم يكن بعيداً من مسكني..

أسرعت أخبيء الحقيبة في موقع بعيد عن الحريق، ثم انطلقت بدوري أوقظ أصحاب المساكن القريبة لكي لا نتسبب بموت أحدهم اختناقاً أو حرقاً أثناء نومهم، ولنحدث الجلبة الكافية لتنفيذ خطتنا كما يجب.. وخلال دقيقة، كان عدد كبير من السجناء قد استيقظ ووقف ينظر للحريق بقلة حيلة.. ونظرت لأجهزة المراقبة القريبة فرأيتها كلها قد استدارت لتراقب الحريق وما يجري حوله.. لذلك، وكما تقتضي الخطة، تراجعت للخلف دون أن أحاول لفت الانتباه واتجهت بين المساكن حيث رأيت أمجد يخنفي قبل قليل..

قبل أن أصل لموقع أمجد، سمعت صيحة صارمة توقفني، فاستدرت بتوتر لأرى أحد الحراس يتقدم مني متحفزاً مشهراً سلاحه.. ظللني قلق شديد وأنا أراه يخصني بالنداء، وفكرت جدياً بالهرب قبل أن يصل، لكنني خشيت العواقب.. وعندما وصل إليّ وجدته يقبض ذراعي بيد من حديد وهو يقول "إلى أين أنت ذاهبة؟" قلت بتوتر "هناك بعض السجناء في المساكن لم يستيقظوا.. علي تحذيرهم.."

فقال بجفاء "دعهم وشأنهم.. أنت مطلوبة لدى القائد.."

اشتعل قلقي وأنا أقول "لماذا؟ هل ستنهمني بتدبير هذا الحريق أيضاً؟ توقف.."

كان يجرنني خلفه غير عابيء بصياحي، ورأيت مركبة تابعة للإدارة تقف وسط الساحة ويبدو منها قائد الحرس وهو يلقي بأوامره لحراسه.. عندها قلت بحدة أكبر "أطلقني.. لم أنت مصر على جرّي بهذه الطريقة؟"

وجدنا بسمّة في تلك اللحظة تندفع تجاهنا وهي تقول للحارس بتوتر "أيها الحارس.. أسرع.. هناك بضع سجناء يحاولون الهرب من هذا الاتجاه.."

نظر لها الحارس مقطباً محاولاً قراءة ملامحها لمعرفة إن كانت تكذب، لكن ملامحها المتوترة المنفعلة أيدت حديثها بشكل سرّع تصديقه لها.. فأمسك جهاز الاتصال في يده ليحدث رفاقه من الحراس، لكن بسمّة جذبت يده بعصبية وهي تهتف "لا وقت لهذا.. سيفلحون بالهرب قبل أن تنتهي اتصالك هذا.."

قال الحارس بحدة وهو يدفعها "لا شأن لك.. أخبريني أين هم ومن هم.. ولا تتدخلني في عملي.."

نظرت لي بسمّة بتوتر شديد وقد فشلت في إبعاده عني، لكنه لم يكذب فيه الجملة حتى تلقى ضربة قوية على رأسه خرّ لها مغشياً.. وظهر أدهم من خلفه مغمماً "لا مفر من العنف أبداً.."

جذب انتباهي صياح وسط الساحة، فرأيت قائد الحرس يشير لنا ويصرخ على رجاله الذين قدموا من عدة جهات من المساكن شاهري أسلحتهم.. فهتف بنا أدهم "الهرب.."

انطلقنا حيث كان مقرراً لنا أن نلتقي في إحدى جهات المساكن الخارجية، فعبّرنا المساكن بأسرع ما نستطيع وأدهم يتأخر عنا قليلاً ليتأكد من هروبنا.. وهناك رأينا أمجد ينتظرنا وقد اتسعت عيناه مع مرآنا وهتف "ما الذي فعلتموه؟"

صاح أدهم "سبق السيف العزل يا صاح.. اهرب الآن.."

لم يكذب فيه جملته حتى ظهر الحراس من بين المساكن وهم يلحقون بنا.. فركض أمجد معنا وهو يهتف بحنق "تبا لكل هذا.."

نظرة مني للحراس رأيت بها على وجوههم غضب وتوتر مشهود له.. لا بد أنهم حاولوا استخدام الأساور لإعاقة هربنا لكن النتيجة كانت مخيبة لآمالهم.. فمع الطبقة الغليظة التي كانت شبه قاسية ومحيطة بأساورنا بشكل تام، أشك أن يصل للأساور أي ذبذبات من الإدارة..

انطلقنا نركض بأقصى سرعتنا متجاوزين المساكن والأعمدة المحيطة بها والتي كانت تحمل أجهزة المراقبة التي

تتبع خطواتنا بشكل حثيث.. لكن ما المهم في هذا الآن وقد انكشفت خطتنا؟..
وقبل أن نتوغل في الغابة، سمعنا صوت طلقة شقت الهواء قربي لتستقر في جذع شجرة قريب.. قفزت مبتعدة
عن موقع الطلقة بفرع فيما صاح أمجد "احتموا بالأشجار.. إنهم يحاولون الإمساك بنا بأي طريقة"
تمالكت فزعي من المفاجأة وأنا أهرع للاختباء في الغابة وإن لم أتوقف عن الركض خلف أمجد.. ولم تكذب بسمه
تقترب من أقرب الأشجار حتى شعرت بطلقة أخرى تمر قريبها.. سمعت الفتاة تصرخ بفرع قبل أن تتعثر بجذور
شجرة ممتدة أرضاً فتسقط على وجهها.. توقفت فوراً عن الركض وأنا أهمم بالعودة إليها لأعينها وعيني تراقب
الحراس الذين تجاوز عددهم العشرة وهم يتقدمون منا بشكل حثيث.. لكن أمجد جذبني من ذراعي وهو يهتف بي
"اختبئي في الغابة.."
هتفت "لكن.. بسمه.."

دفعني بقوة وهو يصيح "أدهم سيتكفل بها.. انطلقى.."
بالفعل رأيت أدهم يحملها لتقف بينما تعالي صوت عدة طلقات رأيت إحداها تضرب أوراق الشجر قربي بعد أن
مرت قريباً من وجهي.. وبدفعة أخرى من أمجد عدت أركض بين الأشجار بأسرع ما أستطيع.. سمعت خطوات
أمجد الحثيثة خلفي وإن لم أجرؤ على الالتفات والنظر محاولة الاختباء بين الأشجار التي ازدادت كثافتها مما
سيشكل لنا غطاء جيداً عن الطلقات التي لم تتوقف..
مع صدمة اكتشافهم أمرنا بدون أن يكون ذلك ناتج عن خطأ اقترفناه، فإن خططنا قد تبلبلت ونحن نتفرق في
الغابة.. لم أعرف ما حال بسمه وأدهم وإن اطمأننت لوجود أدهم معها، فهو قادر على حمايتها.. لكن القلق
استعمرني وخطواتي تحملني بأسرع ما أستطيع عبر الغابة محاولة ألا أتعثر وأسقط لنألممكن الحراس من
الاقتراب مني.. كنت أسمع تصايحهم وصوت طلقاتهم.. كما أنهم يحملون مناظير للرؤية الليلية، لذلك هذا الظلام
لن يكون مشكلة بالنسبة لهم..

سمعت صيحة مذعورة أطلقتها بسمه على مبعده منا توقف لها أمجد والقلق يغزو ملامحه، فسألته وأنا أقف
بدوري "أنتظن مكروهاً أصابها؟"

قال أمجد "لا أعلم.. بودي العودة إليهما لكن أخشى أن نسقط في يد الحراس.."
فقلت بتوتر لا مثيل له "هل ستتركهم يعون في قبضة الحراس؟ لا يمكن أن أترك بسمه بين أيديهم.. إنها..."
فوجئت بدفعة قوية من يد أمجد أسقطتني جانباً فيما مر قرب أذني أزيز قوي مع صوت الطلقة التي حطمت
سكون الغابة.. اعتدلت واقفة فور سقوطي وأنا أرى حارساً يتقدم منا من بين الأشجار بينما غمغم أمجد "استغلي
انشغاله واهربي.."

صاح الحارس بلغة نايبو "لا تتحركا أو تتفوها بكلمة.. سأطلق النار على الفور.."
أتيت بحركة مفاجئة جعلت الحارس يلتفت إليّ متحزراً، فاستغل أمجد انشغاله بي ليرمي بمصباح ضوئي بقوة..

استدار الحارس من فوره تجاه أمجد مطلقاً رصاصه أصابت المصباح بدقة، فيم استغل أمجد الفرصة ليركل السلاح من يد الحارس وهو يصيح بي "اهربي يا حمراء.."

لكني لم أفعل وأنا أرى أمجد يلتحم بالحارس في عراق محدود.. فانحنيت وحملت فرعاً خشبياً وجدته ساقطاً على الأرض ونظرت للرجلين محاولة إيجاد فرصة لضرب الحارس.. في النهاية، أسقط الحارس أمجد أرضاً واندفع لاستعادة سلاحه.. فاندفعت إليه ورميت الفرع بكل قوتي في وجهه لتصيبه ضربة قوية ألقته للوراء، وأسرعت للسلاح فحملته وألقيته تجاه أمجد..

استعاد الحارس توازنه ووقف فيما حمل أمجد السلاح مصوباً إليه وقال "ابتعد وعد لرفاك إن أردت النجاة..". ظل الحارس ينظر له بغضب، لكن لم تفتني يده التي تعبت بجهاز الاتصال، فتقدمت بسرعة من خلفه وضربته بقوة على رأسه أسقطته أرضاً فاقد الوعي.. نظر لي أمجد وقد اندهش من عنفي، فغمغمت "كان ينوي إرشاد رفاقه لموقعنا.."

لكن لم أكد أنهي قولي حتى ظهر أمامنا حارسان مشهري سلاحيهما وأحدهما يجري اتصالاً بالآخرين ليعلمهم عن موقعنا.. بينما الآخر يصيح في وجوهنا بصرامة..

تبادلت النظرات مع أمجد، ولم أجد فيهما ما يريحني.. هل ينوي شغلهم ليسمح لي بالفرار؟ أتمنى أن أكون مخطئة وأن أكون حقاً لا أجد قراءة العيون.. ورغم أن أمجد كان يشهر سلاحه في وجهيهما، إلا أنه لم يجعلهما يترددان في التقدم وهما متأكدان أنه سيخشي عواقب إطلاقه النار..

بدا التوتر شديداً في وجه أمجد، بينما تقدم أحد الحراس تجاهي والآخر يراقب أمجد بتحفظ.. رأيت الحارس الذي يقترب مني يستخرج قيداً من جيبه، بينما تراجعت أنا خطوتين ملوحة بالفرع في يدي بتحفظ.. فقال الحارس "لا تقومي بأي تصرف أحمق"

قلت له "دعني أكتشف ذلك بنفسي"

ابتسم الحارس بسخرية، بينما هتف أمجد "لا تفعلي يا حمراء.."

رغم خوفي من السلاح الموجه لرأسي، لكنني كنت متأكدة أن الحراس لا يملكون الإذن بقتلنا.. لذلك لم يكد الحارس يقترب مني حتى طوحت الفرع بقوة، لا نحو رأسه الذي أبعدته تلقائياً، بل نحو سلاحه الممتد نحوي.. ورغم أن الحارس تراجع مع ضربتي لكن الضربة كانت سريعة كفاية لتصيب سلاحه قبل أن يبتعد، وإن لم أستطع تجريده منه، وإنما أبعدت الفوهة المصوبة لوجهي..

وقبل أن يعيد الحارس الفوهة نحوي، كنت قد رميت الفرع في يدي بكل قوتي نحو الحارس الآخر الذي يواجه أمجد.. وقد كانت الضربة كافية لتشتت انتباهه فاستغل أمجد الفرصة ليطوح سلاحه في وجه الحارس بضربة قوية تلتها ضربة أخرى أفقدته الوعي.. أما الحارس الذي كان قربي فقد هتف بحنق "تباً.. حذرتك من الإتيان بأي حركة"

وأُتبع قوله بضربة وجهها لرأسي أسقطتني أرضاً ودوار شديد يكتنفني.. وكاد يتبعها بأخرى لولا أن عاجله أمجد بضربة من الخلف جعلته يلقي سلاحه ثم أخرى أفقدته الوعي..
تقدم مني وساعدني على النهوض قائلاً بلوم "لماذا لم تسرعني بالهرب عندما طلبت منك ذلك؟"
غمغمت وأنا أحاول استعادة توازني "لم أستطع التخلي عنك عندما....."
من بين الدوار ومضت ومضة مؤلمة وأنا أشعر بما حولي يتذبذب..

"أرجوك.. لا تتخلّ عني.."

نفضت رأسي لاستعادة انتباهي فليس الوقت ملائماً للاستغراق في الذكريات، وقد يهاجمنا الحراس في أي لحظة الآن.. شعرت بأمجد يمسك يدي ويجذبني خلفه قائلاً "النسرع.."
لم أعترض على ذلك وأنا أستعيد صفاء ذهني شيئاً فشيئاً.. ورغم قلقي على حال أدهم وبسمة، إلا أنني انشغلت بحالي أنا وأمجد.. وتمنيت أشد ما أتمنى أن تمضي هذه الليلة على خير..

ما أخبرتني به بسمة فيما بعد، أنها مع مرور تلك الرصاصة قريباً منها أطلقت صرخة دعر قبل أن تتعثر وتهوي على وجهها بشكل مؤلم.. تطاير دعرها وتعبها لجعلها ترتبك وهي تحاول النهوض، عندما شعرت بيدين ضخمتين ترفعانها لتقف ومزيد من الرصاصات تدوي حولهما.. ثم أمسك أدهم ذراعها وجذبها وهو يهتف بها "اركضي ولا تتوقفي مهما حدث.."
ركضت بسمة بخطوات لا تكاد تلاحقه لسرعته وهو يجذبها خلفه عبر أشجار الغابة، وبعض الرصاصات تآز قريباً منها بشكل يزيد دعرها.. ألقت نظرة سريعة حولها فلاحظت اختفائي وأمجد مما أراحتها وألقها في الآن ذاته.. أراحتها لهربنا من جحيم الرصاصات المتناثرة، وألقها من تفرقها عنا..
كادت تتعثر عدة مرات لعدم توافق خطواتها القصيرة بخطوات أدهم الواسعة، حتى شعرت أنه يكاد يسحبها سحباً على الأرض.. ثم فوجئت بتوقف أدهم المفاجيء حتى كادت تصطدم به، فتوقفت بدورها مخطوفة الأنفاس وهو

يترك ذراعها قائلاً "ابتعدنا عن مرمى رصاصات الحراس.. الآن يجب أن نكون أكثر حرصاً لئلا نقابل أحدهم في طريقنا"

سألته بسمة من بين أنفاسها المتقطعة "أين البقية؟ أين حمراء؟"

قال باقتضاب "ابتعدا.. لكننا سنلحق بهم"

قالت بسمة بصوت مرتجف "كيف؟ ماذا لو لم نجدهم؟"

قال أدهم مقطباً "لا تقلقي.. فقط اتبعيني"

عادا للهرب بين الأشجار وهي تشعر أنهم لا يسلكون طريقاً محدداً.. ولم يكادا يبتعدا حتى فوجئت بأحد الحراس يظهر فجأة من بين الأشجار.. صرخت بسمة بذعر وهي ترى السلاح موجهاً لرأسها، لكن ردة فعل أدهم كانت سريعة حقاً.. إذ التقط حجراً من الأرض ورماه بسرعة بقوته المذهلة تجاه الحارس.. فأصابه الحجر بدقة في رأسه لثسقطه أرضاً متألماً، فانقض أدهم عليه وانتزع سلاحه من يده، وعاجله بالسلاح في فكه قبل أن يهتف ببسمة "النبتعد.."

كان حصوله على السلاح مطمئناً أكثر من بقائهما دون ما يدافعان به عن نفسيهما.. خاصة مع ذلك الهدير الذي تعالى فوق رأسيهما في الليل الهاديء ونور ساطع شق الظلام ناشراً ضوءه الذي تغلغل في الغابة وبين أشجارها.. رفعا رأسيهما بتوجس ليريا مروحية تحلق في الأعلى قريبة من الأشجار ومروحيها تدف الهواء بقوة ليهز أعالي الأشجار القريبة..

همست بسمة بارتجافة "إنها مروحية.. منذ متى كانوا يملكون واحدة هنا؟"

علق أدهم وهو يعاود الركض "لا بد أنهم يستخدمونها للتنقل بين المناجم.. فهي أسرع من المركبات بكل تأكيد" كان يتفادى المناطق المكشوفة في ركضه ويستغل ظلال الأشجار الكثيفة للاختباء منها.. أما بسمة فقد كانت تتبع خطواته بينما يتزايد ذعرها أكثر.. لا يمكن لوحش ضخم كهذا أن يغفل عن موقعهما.. لا بد سيراهما.. ولا بد عندها أن يقتنصهما بكل سهولة..

قالت بسمة لاهثة "إلى أين نحن ذاهبان؟ هل تعرف الطريق الذي علينا سلكه؟"

أجابها وهو يتوقف لينظر حوله "أعرف بالطبع.. المهم ألا تبتعدي عني أو تضيعي في الغابة"

بعد فترة وجيزة ابتعد الضوء والهدير في بحثه الدؤوب.. فتوقف أدهم كما يفعل بين فينة وأخرى، ونظر حوله

ليستوثق من طريقه قائلاً "لم تعثر علينا.. الآن علينا أن نتجه للمنطقة المتفق عليها.."

نظر لوجه بسمة الشاحب المنهك ولهاثها المتقطع وهي تكاد تصلب نفسها بصعوبة، فسألها "هل تريدان التوقف قليلاً للراحة؟"

قالت بسرعة وتوتر "لا.. لنكمل حتى نصل لموقع آمن.. لا يمكن أن أنال أي راحة في هذا المكان والحراس على إثرنا"

ابتسم أدهم معلقاً "أخبريني إن شعرت بأي تعب.. ولا تخشي شيئاً وأنت معي.."

توترت بسمة وهي تشعر بشيء من عدم الراحة.. وسط تلك الأحداث فإنها نسيت خوفها من أدهم وذعرها الدائم من البقاء وحيدة مع أي رجل.. لكن الآن، فقد عادت لها تلك الأحاسيس مع الابتسامة التي أشعلت في روحها خوفاً مبهماً.. خوف جربته سابقاً لكنها نسيته ونسيت سببه..

لم يبد على أدهم أنه أدرك ما يدور في عقلها وهو يستمر في ركضه وإن خفف من سرعته.. فحاولت هي اللحاق به وعدم التعثر في هذا الظلام، ثم توقفت وهي تلهث واستخرجت من حقيبتها مصباحاً يدوياً.. فتوقف أدهم بدوره وسألها "ما الأمر؟ هل تعبت؟"

قالت وهي تشير للمصباح "لا.. لكنني أخشى التعثر في هذا الظلام.. سأستخدم المصباح فهذا أحسن لي"

قال أدهم مقطباً "إياك.. أنت بهذه الطريقة تدلين الحراس والمروحية على موقعنا بوضوح.."

غمغت بسمة "لكن....."

توقفت عن الحديث وعيناها تتسعان وهي تنظر خلف ظهره، فاستدار أدهم بسرعة ليرى خمسة من الحراس يخرجون من بين الأشجار ويقربون منه.. كانت الأسلحة مشهورة في وجهيهما، ولم يكن لسلاح أدهم أي فائدة في مواجهتهم.. ألقى نظرة سريعة للموقف الذي هما فيه، ثم قال لبسمة بالعربية "أضيئي المصباح"

وقفت بسمة تستمع له بدون فهم، بينما قال أحد الحراس بصرامة "إرم سلاحك.."

فقال أدهم بحدة "أضيئي المصباح في وجوههم بسرعة.."

لم تفهم بسمة المغزى من هذا العمل، لكنها نفذت أمره وبحركة بسيطة كانت تضيء المصباح وترفعه.. عندها فوجئت بالحراس الخمسة يتلوون ألماً ويسارعون لنزع النظارات السوداء عن أعينهم..

وقفت بسمة بغير فهم فيما استغل أدهم الفرصة واندفع نحو الحراس مشهراً سلاحه.. وبضربة من مؤخرة السلاح كان قد أسقط حارسين ثم بركلة من قدمه أسقط آخر وأعقبها بلكمة من يده..

لكن قبل أن يستدير نحو الرابع كانت فوهة السلاح تلتصق بظهره والحارس يهتف به "كف عن المقاومة.. لن تستطيع التغلب علينا جميعاً.."

وقف الحارس الخامس مشهراً سلاحه في وجه أدهم، وقد تجاهلوا بسمة التي تجمدت في موقعها بخوف مما رآته.. عندما فوجئت بأدهم يهتف بها "اهربي.."

قفزت لصوته الأجنح الذي هز أعماقها، واستدارت تلقائياً لتنتقل هاربة.. لم تتوقف لحظة لتعرف كيف أو أين ستهرب.. ولم تسمح لذعرها من البقاء وحيدة بالتسلل لأعماقها..

في نفس اللحظة، هتف الحارس المواجه لأدهم وهو ينطلق خلف بسمة "توقفي.."

لكن أدهم كان قد مَدَّ ساقه الطويلة بقوة في ركلة لقدم الحارس جعلته يتعثر، في نفس اللحظة التي طوّح فيها بسلاحه للخلف ليضرب سلاح الحارس الآخر الملتصق بظهره.. ثم ارتفعت قدمه لتضرب معدة الحارس بقوة

شهق لها وهو يئنني، وأتبعها بضربة على مؤخرة رأسه أسقطته فاقد الوعي..

لم يكن ذلك آخر متاعبه والحارس الذي تعثر ينهض ملوحاً بسلاحه كما فعل الحراس الثلاثة الذين تلقوا الضربات من أدهم في البداية.. نظر أدهم لبسمة التي اختفت بين الأشجار، ثم غمغم لنفسه وهو يطوح سلاحه في وجه أقرب الحراس إليه "لا تبتعدي كثيراً يا فتاة.."

أما بسمة فقد أخذتها قدماها دون تفكير بين الأشجار وهي تحمل المصباح في يدها دون أن تتجرأ على إضاءته هذه المرة.. تقطعت أنفاسها لطول ركضها، وتعثرت عدة مرات، لكنها لم تجرؤ على التوقف.. بعد فترة من الوقت، وقفت ونظرت خلفها حيث تركت أدهم.. لم تعرف الوجهة التي عليها سلكها، ولم تكن بقادرة على ترك أدهم والمضي وحيدة.. لا تعلم ما حاله مع الحراس، لكن ما يطمئنها أنها لم تسمع صوت أي طلقات رصاص.. نظرت حولها للحظات، ثم زفرت وهي بحيرة.. لم ترغب بالابتعاد كثيراً لئلا تضيع وحيدة أو تقابل أحد الحراس.. لكن لا يمكنها الوقوف هنا مع خطورة ذلك.. نظرت حولها بتمعن، ثم شددت عزمها واقتربت من إحدى الأشجار ذات الجذع الضخم، وشرعت بتسلقها رغم صعوبة ذلك عليها.. كادت تنزلق عدة مرات وتخدشت يدها وهي تحاول التشبث بالجذع، لكنها لم تستسلم حتى وصلت أقرب فرع منها.. فجلست فوقه وهي تراقب الموقع تحتها.. هل سيرونها لو مروا قريبا؟ تمنيت ألا يحدث ذلك وهي تنكمش على نفسها على الفرع المتين وتلبث صامته مرهفة سمعها لأي صوت قد تسمعه..

مرت دقائق طويلة وهي تكاد ترتجف من البرد والقلق وهي تنصت.. هل نجا أدهم منهم؟ هل هو بخير؟ هل سيعرف الطريق الذي سلكته؟ لا تريد التفكير في حالها لو كان جواب تلك الأسئلة هو النفي.. بعد كل ذلك الانتظار، سمعت صوت خطوات راكضة مما جعلها تتوجس.. تلفتت حولها بحثاً عن أي من الحراس.. لكنها رأت أدهم يقترب من موقعها وهو يتلفت حوله بحثاً عنها.. فهتفت قبل أن يبتعد "أدهم.. أنا هنا.."

توقف أدهم مع صوتها وتلفت حوله، فقالت "في الأعلى.."

رفع أدهم بصره ليراها فوق الشجرة، فغمغم "ما الذي فعلينه هناك؟"

قالت وهي تقف تأهباً للنزول "فضلت الاختباء بدل الركض بغير هدف.. هل أنت بخير؟"

هز رأسه إيجاباً وقال "كان التخلص من أولئك الخمسة عسيراً ولكنه لم يكن مستحيلاً.."

قاطعته شهقتها وهي تهتف بذعر "انتبه.."

لم يكذب استوعب قولها حتى وجد ضربة قوية قاسية تصيب مؤخرة رأسه ليسقط على إثرها أرضاً يغالب الدوار، بينما هتف الحارس ببسمة "انزلي ولا داعي لأي مقاومة.."

وقفت بسمة مترددة وهي تنظر لأدهم بقلق، ثم بدون تفكير أضاءت مصباحها ووجهته للحارس الذي كان كالأخرين يرتدي منظاراً للرؤية الليلية.. وكالأخرين فوجيء بالنور الساطع يعشي عينية فرمى المنظار وهو يشتم متألماً، فاستغل أدهم الفرصة وهو يستعيد ثباته فطوح ساقه ليركل الحارس على ركبته من الخلف.. فسقط

الحارس على ظهره ليجد أدهم يطأ يده القابضة على السلاح ويسدد لفته لكمة قوية أتبعها بأخرى..
ترك أدهم الحارس فاقد الوعي دون أن ينسى الاستيلاء على سلاحه وهو يقول لبسمة "أسرع.. يجب أن
نغادر.."
أطاعته وهي تنزل من الشجرة بشيء من البطء خشية الانزلاق، ولم تكذ تستقر أرضاً حتى انطلق أدهم وهي
خلفه.. ثم سألته "لماذا لم تطلق رصاصة من السلاح الذي تملكه حتى الآن؟"
أجابها "صوت الرصاصة كان سيجذب المزيد من الحراس تجاهنا ونحن بغنى عن ذلك.. ثم إنهم لا يستحقون
ذلك.. فما هم إلا موظفين ينفذون الأوامر.."
تعجبت بسمة لقوله وإن جعلها هذا تحترمه أكثر.. لكنها لم تصرح له بذلك أبداً..

"أنت واثق أننا لا ندور في دوائر؟"
ألقيت هذا السؤال على أمجد وأنا أتلفت حولي، ثم أضفت "أكاد أقسم أنني رأيت هذه الشجرة من قبل.."
غمغم أمجد معلقاً "نحن محاطان بالأشجار.. كيف يمكنك تمييز شجرة عن أخرى؟"
قلت بتقطيب "هذا لا يجيب سؤالي.. أتعرف الطريق الذي نسلكه أم أنك تخمن؟"
فوجئت به يجذبني لأنخفض وهو يكلم فمي.. ثم أبعد يده وهو يشير لي لأصمت.. درت بعيني فيما حولنا، عندها
رأيت أحد الحراس يتقدم من بين الأشجار متلفاً حوله ولم يبد عليه أنه رآنا حيث اختبأنا خلف أجمة شجيرات
صغيرة.. ثم وقف الحارس في موقعه ليجري اتصالاً بالإدارة..
همست لأمجد بأخفض صوت "يجب أن نبتعد.."
أوقفني قبل أن أتحرك وهمس "لا.. إنه وحيد.. لتغلب عليه ونأخذ سلاحه.. وأريد الحصول على جهاز الاتصال
ذاك.."

لم نكد ننهي حديثنا حتى رأينا حارسين آخرين ينضمان لرفيقهما.. فهمست بتوتر "انهرب.. قد يكشفوننا.."
همس "إنهم يرتدون مناظير ليلية.. لو لم يتحطم مصباحي قبلاً لاستخدمته لإرباكهم والتغلب عليهم"
تساءلت "وأين المصباح الآخر؟"
أجابني وهو يراقب الحراس "الدى أدهم.. لذلك أعتقد أن علينا أن نهرب ونتخلى عن هذه الفكرة الآن.."
تنهدت براحة وتحركت من موقعي، لكن أمجد قبض ذراعي من جديد وهمس "مهلاً.. أحدهما سيرحل.."
رأينا أحد الحراس ينفصل عن رفيقه ويختفي بين الأشجار، بينما بقي الآخران وهما يتحدثان بصوت خفيض..
فهمس أمجد "اثنان أفضل من ثلاثة.. ولدي الفكرة المناسبة لذلك"

وهكذا، بعد دقائق، كان أمجد قد تركني وحيدة ليتجه للجانب الآخر من موقع الحراس، مع وعد بأن نتحرك نحن الإثنين في الوقت ذاته بعد أن نعد لخمسين، فنحن لا نملك ساعات لتأكد من التوقيت.. من المفترض أن أستخدم مقلاع بدائي مشابه للذي صنعته سابقاً في جذب انتباه الحراس بعيداً عن أمجد الذي سينقض من الاتجاه المقابل، ثم أعاونه في تشتيت انتباههم حتى يتسنى له التغلب عليهم..

زفرت وأنا أمسك بالمقلاع الذي حشوته بحجر صغير وفي يدي حجرين آخرين تأهباً للحظة الحاسمة، وهمست وأنا مستمرة بالعد "خمس وأربعون.. ست وأربعون.. سبع....."

شعرت بجسم بارد يلتصق بمؤخرة رأسي جعلني أبتلع ما بقي من الأرقام وحلقي يجف من المفاجأة.. ثم سمعت صوت أحد الحراس يقول بلغة نابو "ما الذي تنتوين فعله بهذا المقلاع الصبياني يا فتاة؟" تجمدت من المفاجأة دون أن أتحرك.. فدفعت الحارس السلاح في رأسي بقوة أكبر وهو يقول بصرامة "قفي وتقدمي أمامي بصمت.."

نهضت ببطء وقلقي يتزايد.. حاولت التوصل لطريقة أتخلص بها من هذا الحارس قبل أن أقترب من الآخرين فيغدو الأمر أصعب علي، لكنني لم أجد طريقة مناسبة.. وشعرت به يدفع السلاح في ظهري، لكنني عزفت عن السير وأنا أقول "ماذا ستفعل بي؟"

دفع السلاح بقوة أكبر وهو يقول بحدة "تقدمي ولا داعي لهذا التباطؤ.."
تقدمت بشيء من التردد مجتازة الأجمة لأرى الحارسين الآخرين يلتفتان جهتي بتعجب والثالث خلفي يقول "انظرا علام وقعت.."

قال آخر "معنى هذا أن البقية قريبون من هنا"
شعرت بالقلق والثالث يقول "لا تنس أن بعض الرفاق يطاردون اثنين آخرين في الجهة الشمالية من الغابة.."
وجدت أن الحارسين أمامي قد أدارا ظهريهما للموقع الذي من المفترض أن يحتله أمجد، وبقي الثالث خلفي.. فتراجعت عدة خطوات وأنا أقول بتوسل "أرجوكم لا تعيدوني للعزل"
أسرع الثالث يقبض ذراعي وهو يقول بصرامة "إياك التفكير باستغافلنا.."

كان بتلك الحركة قد أدار ظهره هو أيضاً لموقع أمجد، فتظاهرت بالمقاومة وأنا أهمس من تحت أنفاسي "الآن يا أمجد"

وكأنه قد سمعني، إذ تقدم بسرعة وخفة مطوحاً سلاحه نحو رأس أول الحراس ثم أكمل ضربته نحو الحارس الآخر قبل أن يدرك أحدهم الأمر.. وجدت الثالث يستدير وهو يهتف "ظهرت أيها الوغد"
كان يرفع سلاحه نحو أمجد، فأسرعت أجذب السلاح بعيداً لتطيش الضربة وأنا أدفعه بكتفي وإن لم أتمكن من جعله يفلت السلاح، عندها عضضت يده بأقوى ما أستطيع مما جعله يطلق صرخة ويحاول إبعادي عنه.. ثم ضربني بكوعه على رأسي ليلقيني أرضاً.. وقبل أن يستدير كان أمجد يضربه بسلاحه بأقوى ما أستطيع..

نهضت من سقطتي وأنا أشتم بحنق.. يبدو أنهم ينوون تحطيم مجمعتي بكل هذه الضربات الموجهة لرأسي..
وسمعت أمجد يهتف بي لأهرب، فلم أكذب خيراً وأنا أبتعد عن الموقع بأسرع ما أستطيع وأمجد على إثري.. لكنه
وجد أحد الحراس يهب نحوه ويلقي بجسده عليه ليتسبب في سقوطه، قبل أن ترتطم لكمة قوية بوجهه.. أما اللكمة
الأخرى فقد صدها بسلاحه قبل أن يدفعه في فك الحارس ليبعده عنه..

توقفت عن الركض وعدت لأمجد، لكنه صرخ فيّ "اهربي يا حمراء.. ابتعدي وسألق بك.."
لم يكن التخلي عنه بالعمل الذي أحبه، لكنني خشيت أن أزيد الأمر سوءاً ببقائي وعصيانى لأمره، فاستدرت
بصمت وانطلقت هاربة بين الأشجار ولهائي يتعالى جراء كل ذلك المجهود والتعب الذي حل بي.. لم تكذ تحملني
خطواتي وأنا أتجاوز الأشجار وأغيّر طريقي بين فترة وأخرى.. وتفكيري منشغل بأولئك الثلاثة الذين تركتهم
خلفي.. هل هم بخير؟ هل قبضوا عليهم؟ هل نجحوا بالفرار؟... وهل.. هل سألتقي بهم من جديد؟....

الفصل الثالث عشر

[بعض الحرية]

بعد هروبنا الذي كاد يفشل، وبعد انفصالنا في البداية عن أدهم وبسمة، وانفصالي التالي عن أمجد، ركضت في الغابة السوداء المظلمة وحيدة لا يصاحبني فيها إلا الصمت التام عدا عن أنفاسي اللاهثة المتلاحقة..

دام ركضي مدة طويلة لم أر فيهما أي حارس لحسن حظي، كما لم ألتق بأي من رفاقي.. دعوت لهم بالسلامة وأنا أركض دون وجهة ودون هدف محدد، إلا أن أنفذ بجلدي..

بعد فترة قصيرة سمعت صوت خطوات تتردد خلفي وهي تلاحقني، ألقيت نظرة سريعة ولم أدرك هوية الشخص خلفي بسبب الظلام مما زاد ذعري وأنا أزيد سرعتي قدر استطاعتي.. تجاوزت عدة أشجار واندفعت وسط أجمة شجيرات تسد الطريق مما تسبب في تخفيف سرعتي، لكن فات الأوان للعودة والخطوات تقترب مني أكثر..

دفعت نفسي بقوة بين الأفرع المتشابكة محاولة تخطي الأجمة الكثيفة مهما اتخذت وجهي وجسدي منها، ولم أكد أخطو خطوة خلفها حتى علت شهقة قوية من حلقي وأنا أشعر بقدمي تعانق الفراغ التام.. شعرت بنفسني أنزلق بسرعة ومددت يدي أحاول التمسك بالأفرع التي تكسرت مع ثقلي قبل أن أجد يدي اليمنى تمسك جذع شجيرة متوسطة الحجم تقف قرب الحافة..

لهنت بقوة وذعر وأنا أرى على النور الضعيف للقمر تلك الهوة العميقة من تحتي وقدمي معلقتان في الفراغ.. حاولت رفع يدي اليسرى والتمسك بشجيرة ثانية لرفع جسدي للأعلى، لكنني لم أفجح وأنا أسمع صوت تكسر في جذع الشجيرة الأولى.. يبدو أنها لن تتحمل ثقلي، فحاولت رفع جسدي بسرعة رغم انزلاق قدمي على الصخور المجاورة لي.. ولم أكد أتقدم في ذلك حتى انكسرت الشجيرة فجأة وأنا أشهق وأتخبط في الفراغ محاولة الإمساك بأي شيء.. وشعرت بجسدي يهوي وأنا أكتم صرخة زعر من أن تغلت حلقي.. شعرت بالوقت يمر بطيئاً جداً وكأنه فيلم قد تم تأخير سرعته بشكل كبير وأنا ألوح بذراعي.. إلى أن وجدت ذراعي اليسرى تتشبث بشجيرة نبتت في جانب الهوة شاقة الصخور بعزم مدهش.. توقف جسدي عن الهبوط بقوة آلمت ذراعي وأنا أتمسك بالشجيرة بيديّ اليمينتين.. تنهدت بقوة وأنا أحاول السيطرة على ذعري ودقات قلبي الهائجة.. ثم ألقيت نظرة قلقة على الشجيرة وأنا أخشى تحطمها، وهي كانت بالفعل تكاد تنثني تحت ثقلي الذي فاجأها..

تلفت حولي بياس.. كان الجرف منحدرًا انحداراً رأسياً من المستحيل عليّ أن أتسلقه للأعلى، أما نهاية الهوة فقد كانت بعيدة عني وسقوطي فيها لن ينتج عنه إلا كسور بعظامي إن لم يكن موتي.. ظللت في موقعي والياس يتزايد في صدري وأنا أفر بضيق وعقلي عاجز عن إيجاد مخرج للوضع الذي أنا به.. حتى بعد موتي لن يكتشف رفاقي موقع جسدي ولن يعلموا بموتي فالهوة مغطاة جيداً بساتر من الأشجار تبعدها عن الأنظار..

شعرت بصخور صغيرة تتناثر قربي وعلى رأسي، فنظرت للأعلى بقلق.. أياكون ذلك الذي جعل الصخور تتساقط هو صاحب الخطوات التي كانت تلاحقني؟ لم أر أي شخص مما حيرني، ثم بعد لحظات قصيرة وجدت حبلاً طويلاً يسقط ممتداً بجواري، وسمعت همساً في الأعلى يقول "تشبثي بالحبلى يا حمراء"

رفعت بصري لأجد أمجد ممسكاً بالحبلى بانتظارى، فقلت له بقلق "قد لا تستطيع تحمل ثقلى فتسقط معى.." قال أمجد "لا تقلقى.. لقد ربطته فى شجرة قريبة.. أسرعى قبل أن يقترب منا أحد الحراس.."

مددت يدي وتشبثت بالحبلى وأنا أتأكد من قوته، ثم تركت الشجيرة وتعلقت بالحبلى محاذرة الاصطدام بالصخور وإيذاء جسدى أكثر من السابق.. ثم قلت لأمجد "لدى فكرة جيدة.."

وبدأت أنزل قليلاً وهو ينظر لى بتعجب، ثم قال لى "ما الذى تفعلينه؟ أسرعى بالصعود قبل أن يداهمنا الحراس" لكنى لم أجبه وأنا أكمل نزولى لعدة أمتار، وبعد أن تأكدت من فكرتى هتفت لأمجد الذى كان يراقبنى "تأكد من تغطية الحبلى فى الأعلى لى لا يعثر عليه أحد، ثم اتبعنى وكن حذراً.."

سألنى مقطباً "ما الذى تتوين فعله؟"

قلت له مشيرة بإصبعى "هنا فتحة فى الجرف يمكننا الاختباء بها حتى تخف المطاردة قليلاً.. هيا اتبعنى"

لم يجد أمجد بداً من متابعتى، فيما كنت أهبط بقدمى على الجزء البارز من الفتحة التى كانت على شىء من الاتساع تكفى لإيواء أربعة أو خمسة أشخاص.. تركت الحبلى وإن أبقيت بصري معلقاً بالأعلى وأنا أرى أمجد يعود بعد أن أخفى الحبلى بأوراق الأشجار، ثم أمسك الحبلى بقوة وبدأ النزول محاذراً أن يزلّ أو تنزلق قدمه على الحجارة.. مضت دقائق طويلة وأنا أراقب الأعلى خشية أن نجدنا أحد الحراس أو يسمع أصواتنا، ولما هبط أمجد قربي ونظر للفتحة بدهشة قلت له "ما رأيك؟ أليس حلاً رائعاً؟"

لم يعلق وهو يسألنى "هل أنت بخير؟"

هزرت رأسى إيجاباً وأنا أقول "شكراً لك.. لو سقطت فى تلك الهاوية لمتّ على الفور"

قال أمجد ووجهه يفصح قلقه "الحمد لله على نجاتك.. كاد قلبى يتوقف ذعراً وأنا أراك تسقطين أمامى وخشيت ألا ألحق بك.."

كان فى قوله مبالغة شديدة.. لكنى تجاوزت عن ذلك وهو يقترب منى ويمسك يدي قائلاً "هل تأذيت؟ ألم تصابى بأى إصابات؟"

كانت الخدوش والجروح البسيطة تملأ كفى والكدمات تملأ ذراعى من تحت كم ثيابى.. لكنى سحبت يدي قائلة "لا تقلق.. هذا لا شىء.."

مدّ يده ليمسح بعض الغبار الذى علا وجهى وهو يقول مقطباً "لا شىء؟ لو كانت الإصابة أسوأ لما استطعت علاجك فنحن لا نملك أى عدة طبية كما تعلمين"

لكنى أبعدت يده ومسحت وجهى بكم ثوبى قائلة "أعلم ذلك.. لكن هل ظننت أنى تعمدت القفز فى هذه الهوة من

باب التسلية؟"

زفر أمجد وهو ينظر للأعلى وقلق يغزو ملامحه، فيما جلست أنا جانباً أحاول الحصول على بعض الراحة بعد كل الجهد الذي بذلناه هذه الليلة.. حسب تقديري لم يبق الكثير على طلوع النهار، لكننا سنظل مختبئين حتى تهدأ المطاردة ونتمكن من الحركة بحرية أكبر ودون مخاطر..

تساءلت وفكري يعود لمن خلفناهم خلفنا "أين تعتقد أن بسمة وأدهم قد اختفيا؟ هل تظنهما نجيا من الحراس؟" قال أمجد وهو يجلس جانباً بدوره "لقد اتفقنا على أن نتقابل في بقعة معينة على أطراف هذه الغابة.. وأتمنى أن ينجحنا في اللحاق بنا هناك.."

تساءلت بدهشة "كيف أمكنكم تحديد مثل تلك البقعة وأنتما لم تخرجا من المسار الذي حدده لنا في المنجم؟" قال أمجد وهو يبحث في حقيبته التي قمت بتجهيزها له ليحمل عدته بها "لقد استعانوا بي مرة في العمل على أحد المرتفعات القريبة من المنجم، مما أتاح لي الحصول على نظرة شاملة للمنطقة المحيطة بالمنجم والغابة.."

استخرج من حقيبته بعض الماء، فرماه لي قبل أن يتناول آخر ويجرع بعض الجرعات منه.. ثم أعاده لحقيبته وأضاف "في الجهة الشرقية للغابة، هناك جبال ممتدة تشغل مساحة كبيرة.. مثل تلك الجبال تحوي مخابئ كثيرة يمكن أن نلجأ إليها حتى نتمكن من تنظيم أنفسنا وبدء خططنا التالية"

فغمغمت "أتمنى ألا يصاب أدهم وبسمة بأي أذى وينجحوا بالفرار.."

شربت بعض الماء الذي أطفأ الحريق بداخلي.. ثم احتفظت بما بقي فما جلبناه معنا من ماء قليل جداً.. لم نكن نملك إلا تلك الحقايب البدائية والتي تحوي أقل القليل من كل شيء نحتاجه..

قال لي أمجد ملاحظاً التعب الصارخ على وجهي "حاولي أخذ قسط من الراحة قبل أن نعاود السير.. نحن لم ننم اليوم بطوله، وهذا المجهود الذي بذلناه في الهرب ستظهر نتائجه في أسوأ الأوقات الممكنة"

سألته وأنا أشعر بكل خلايا جسدي تنن "وماذا عنك؟"

قال مطمئناً "سأفعل المثل بعد أن أتأكد من أماننا هنا.."

لم يكن المكان مريحاً أو مهياً لنوم مثالي، لكنني اكتفيت بوضع حقيبتي خلف رأسي والبقاء جالسة حيث عقدت ذراعي على صدري، وأغمضت عيني مستسلمة لتعبني والهدوء يعمّ المكان حولي.. كنت سأكتفي بإغماض عيني وإراحة جسدي، لكنني لم أتوقع أن أغرق في مثل هذا النوم العميق..

تهدت بسمة والتعب يجعلها مضعضعة الأعضاء، ورغم تواجدهما في ذلك المخبأ المؤقت المكون من كهف واسع المدخل في أقرب الجبال للغابة، إلا أنها لم تستسلم للنوم والراحة وقلقها يشتدّ عليّ وعلى أمجد.. خاصة مع

مرأى تلك المروحية التي تجوب السماء منيرة ما تحتها من أشجار..
التفتت إلى أدهم الصامت بشكل غريب، فرأته يتأمل السوار في يده بتمعن شديد.. سألته بشيء من القلق "أهناك
أي خدش على سوارك؟ أي خدش ولو كان صغيراً سيتسبب في القبض علينا لا محالة.."
قال أدهم وهو يتناول شيئاً من جيبه "ليس هذا ما يشغل تفكيري.."
نظرت ليده فرأيته يحمل خنجرأ كبيراً نوعاً، فسألته بقلق "ما الذي تنوي فعله؟ انتظر قدوم أمجد وشاوره
بالأمر.."
قال ملوحاً بالخنجر "أمجد هو أول من سيعترض.. لكنني لن أنتظره.. إن شككت في ما قد يحدث لي فاهربي على
الفور.. ولا تنتظري لتري ما سيحل بي"
وقفت بقلق وهي تهتف "توقف أيها المجنون.. ما الذي تنوي فعله....."
قطعت هتافها مع حركة يده السريعة، وصمتت وهي تتأمل السوار الذي استقر مقطوعاً في راحة يده.. ظلت
تحقق فيه بذهول بينما أطلق أدهم ضحكة عالية وقال "ما رأيك؟"
لم تستوعب حدوث ذلك بتلك السرعة والسلاسة.. والأغرب أن السوار ظل صامتاً في يده باستكانة غريبة..
أخيراً تساءلت "كيف؟ لقد أبلغونا أن قطعه مستحيل.."
أجاب أدهم وهو يقف مقترباً منها "هذا ما أرادوا إيها منا به.. إن حاولنا فعل ذلك والسوار يعمل لمرّت شحنة
كهربية كافية في أجسادنا لإفقادنا الوعي.. أما وهو معطل، فما المانع؟"
وأمسك السوار في يدها، وبحركة سريعة كان قد خلصها منه ولوح به أمام وجهها مضيفاً "أليس هذا أفضل من
الشعور بالخوف الدائم من انكشاف السوار؟"
لم تعلق وهي تفرك يدها بشيء من الراحة، ثم تساءلت "أتظنهما سيصلان قريباً؟"
عاد ليجلس قرب مدخل الكهف متسلحاً بسلاحه وقال "لا أعلم.. هذه هي الحقيقة الوحيدة.."

عندما استيقظت، راعني الهدير المخيف الذي أفرغني من نومي، ونور يشق السماء ويضيء الهاوية ليكشف كل
بقعة فيها.. وقفت على قدمي والتصقت بالجدار خلفي وأنا أتساءل بفرع "ما هذا؟"
أجابني أمجد وهو يتراجع للجدار بدوره لئلا يكشفه النور "هذه مروحية.. إنها تجوب الغابة بحثاً عنا.."
تساءلت بقلق "هل يستطيعون رؤيتنا هنا؟"
قال "لا أتوقع ذلك.. الهاوية ضيقة والمروحية لا تستطيع النزول لترانا وموقعنا منخفض بالنسبة لها.. لكن...."
قطع قوله وهو يهتف "يا إلهي.. الحبل.."

نظرت له بغير فهم، ثم استوعبت الأمر فجأة.. فمع النور، كان الجرف واضحاً لقائد المروحية بشكل كامل.. ولا يمكن له أن يغفل عن الحبل المتدلي والذي كان للأسف بلون أحمر شديد الوضوح.. فقلت بتوتر "ماذا نفعل الآن؟"

أجاب أمجد وهو يتأمل نور المروحية الذي كان يدور في البقعة "لا أعلم.. أظن المروحية ستخبر الحراس بأمرنا على الفور.. ولا نستطيع استعادة الحبل من موقعنا هذا.."
قلت "ألا يمكننا أن نتسلق الجرف ونلوذ بالهرب قبل قدومهم؟"

قال أمجد "أتعتقد المروحية ستظل صامتة تراقب هروبنا؟ لا أشك في كون هذه المروحيات مسلحة"
ظللت أتأمل ما ظهر من المروحية أمامي، ثم قلت بحزم "لن نعرف حتى نحاول"
وحملت حقيبتي على كتفي وأسرت أمسك بالحبل، لكن أمجد أمسك ذراعي وهو يهتف "أيتها المجنونة.. ما الذي تنوين فعله؟"

قلت مقطبة "الهرب.. أليست هذه هي خطتنا؟"
قال بحدة "ستكونين كمن يتوسل لهم ليصيبوك برصاصاتهم.. هذا أغبي تصرف ستقومين به في حياتك والأخير حتماً"

فقلت "أتملك حلاً آخر؟"
قال بضيق "فلننتظر ابتعادها.. وعندها سنحاول"
علقت بهزة "إذن نكون وفرنا على الحراس النزول إلينا.. سنصعد لنجدهم يستقبلوننا بأذرع مفتوحة"
وشرعت بتسلق الحبل رغم اعتراضه.. ولما هتف منادياً بحدة، قلت له "إن لم ترغب باللحاق بي فاخترني في الفتحة.. لن يدور بخلدكم وجودك فيها وحيداً.."

بعد لحظة صمت غاضبة، زفر أمجد بحدة وهو يراقب المروحية التي قامت بدورة واسعة في السماء قبل أن تعود للهاوية.. ثم قام بالتسلق بدوره وهو يقول لي "قد نجد الحراس في انتظارنا في الأعلى"
قلت معلقة "لنأمل غير ذلك.."

وجدنا المروحية تسلط كشافها علينا وتكشفنا بشكل تام.. ولا أشك أن يكون قائدها يهيب بالحراس الإسراع للموقع، لكن للمفاجأة، فإنه لم يحاول إطلاق رصاصة واحدة نحونا.. رغم أننا سنكون هدفاً سهلاً، لكن يبدو أنه لم يتلق الأمر بذلك بعد..

تسلقت الحبل بأسرع ما أستطيع وأمجد على إثري.. ولما وصلت للأعلى وجدت يدين ترفعانني وتقبضان عليّ بقوة.. نظرت متفاجئة لأجد حارساً يقيد يديّ بيده ويكمم فمي باليد الأخرى، بينما وقف حارسان ينتظران أمجد الذي لم يدرك ما حلّ بي وهو مستمر بالصعود.. حاولت مقاومة الحارس وحاولت حتى عض يده، لكنه ازداد تشبثاً بي فيما تسلق أمجد قمة الجرف ليفاجأ بالأسلحة الموجهة لرأسه..

تنهد أمجد وهو يقف مفلتاً الحبل والحراس يجردونه من سلاحه، وقال لي "كان يجب أن نهرب منذ البداية.."
 لم يكن لهذا أي معنى فقد مضى ما مضى.. وجدت الحارس يطلق فمي بينما بقي قابضاً على يديّ وهو يرفع
 إحداهما وينظر لسواري متسائلاً "كيف فعلتم ذلك؟ أهذه المادة مصنوعة من حجارة المنجم؟"
 لم نجبه بكلمة.. الآن قد اكتشفوا سرنا الصغير ولن يسمحوا لنا بتكراره أبداً.. ولشدة ذعري وجدته يحاول إزالة
 المادة السوداء من السوار، ومعنى ذلك أن تمر شحنة كهربية في جسدي وتتسبب في إفقادي وعيي على الفور
 كما حدث أول مرة..

ركلته بقوة على ساقه حتى أفلتت يدي فابتعدت عنه وإن ارتفعت الأسلحة نحوي وأمجد الواقف قريباً مني.. ثم قال
 أحد الحراس لزميله "قيدهما لئلا يفلتا مرة أخرى.."
 نظرت لأمجد بقلق وبادلني القلق ذاته.. تقييدنا يعني صعوبة جديدة تضاف لمتاعبنا الجمّة.. وهذه المرة سيغدو
 الإفلات من هذا الفخ شبه مستحيل..

بحث الحارس في جيوبه ثم غمغم "لست أملك واحداً.. لنأخذهما للمركبة ونقيدهما هناك قبل نقلهما للإدارة"
 تنهدت بشيء من الراحة والحارس يدفعني مع أمجد لنتبعه بينما بقي الآخرون خلفنا بأسلحتهم المشهورة.. فسرنا
 دون مقاومة وأنا أهمس لأمجد "وبعد؟"

أشار لي لأصمت، ولم ألمه على ذلك.. من الصعب الحديث بحرية وزوج من العيون المترصدة يراقبنا
 باستمرار..

وبعد سير قصير، اقترب أمجد مني قليلاً في سيره وهمس "هل تستطيعين إبعاد سلاح الحارس خلفك حتى
 أتخلص من الآخرين؟"

هزرت رأسي قليلاً لكن لكزه أحد الحراس بالسلاح وهو يقول بصرامة بلغة نايبو "سر في طريقك ولا تتهامسا"
 صمت أمجد مبتعداً وأنا أراقبه، وبعد لحظات رأيته يعد بأصابعه.. واحد.. اثنان.. ثلاثة..

في تلك اللحظة ارتد أمجد على الحارس خلفه، وفي الوقت ذاته كنت أقف فجأة وأراجع خطوة للخلف حتى
 شعرت بالسلاح يضغط على ظهري، عندها قبضت السلاح بيد وبالأخرى تمسكت بالحارس، وقبل أن يدرك ما
 يحدث له كنت قد جذبته وأنا أنحني ودفعته من فوق لأرميه على الحارس الذي توقف عن السير أمامنا وكاد
 يرفع سلاحه في وجوهنا..

كان أمجد قد تمكن من الحارس الثالث في الوقت ذاته، فانطلقنا سوياً هاربين قبل أن يقف الحراس على أرجلهم
 من جديد وتبدأ المطاردة مرة أخرى.. وسمعت أمجد يسألني بتعجب "كيف أمكنك فعل ذلك؟!"
 كنت أنا نفسي متعجبة مما فعلته، لكنني قلت هازة كتفي "يبدو أنني أخذت دروساً لا بأس بها في الدفاع عن النفس
 في الماضي.. وقد قررت هذه القدرات أن تظهر الآن.."
 غمغم بتعجب "لم أعرف ذلك عنك قبلاً"

سألته بشيء من السخرية "وهل تعرف عني أي شيء قبل قدومي للكويكب؟"
صمت أمجد صمتاً غريباً مما جعلني أنظر له بتعجب، وإن لم أحمل الأمور أكثر من طاقتها.. فقط رجوت أن
نخرج من الغابة بسلام دون أن نواجه المزيد من المتاعب..

كانت الشمس قد انتصفت السماء عندما وصلنا للجبال تاركين الغابة خلفنا.. لم تحدث لنا أي مفاجآت أخرى مع
الحراس بعد حادثة الجرف، وهذا ما مكننا من التقاط أنفاسنا..
لازالت المروحية تجوب السماء وإن كان ذلك في اتجاه بعيد من الغابة، وهذا دليل على أنهم فقدوا أثرنا تماماً
وغدونا في أمان مؤقت..

قلت لأمجد وأنا بالكاد أتنفس بعسر "كيف سنستدل على موقع أدهم وبسمة؟ أم أنك تنوي أن تجوب الجبال كلها
بحثاً عنهما؟"

التفت إلي قائلاً "هل أنت متعبة؟"

قلت وأنا أقف مستندة بيدي على ركبتي دون أن أجد في نفسي القوة للاعتدال "ماذا ترى؟ لقد قضينا الليل بطوله
وجزاءً من النهار نركض دون توقف.. أليس من الطبيعي أن يصيبني التعب بعد كل ذلك المجهود؟"
غمغم أمجد وأنا أشم رائحة إشفاق في نبرته "لم يبق لنا إلا القليل.. اصبري قليلاً ثم يمكنك الراحة عندما نصل
لهدفنا"

لم أجد بداً من اللحاق به وأنا أتساءل "وما هو هدفنا هذه المرة؟"

أشار لما أمامه قائلاً "هذا.."

تتبعت إشارته لأجد على مبعده منا وسط الجبل كهف واسع المدخل، ولاشك أن مدخله هذا يبدو من مسافة بعيدة..
فعدت أسأل أمجد "كيف استطعت تحديد هذا الكهف من المنجم؟ وكيف عرفت أن أدهم سيصل لهذا الكهف
بالذات؟"

أجابني "إنه يبدو من المرتفع قرب المنجم بوضوح تام، وقد رسمت خريطة لأدهم حددت له موقعه استناداً لموقع
المنجم والمسكن.. وأتمنى ألا يخيب ظني فيه.."

لم نكد نصل لمدخل الكهف، حتى سمعنا صوت سلاح يشهر في وجوهنا.. فتجمدنا في موقعنا قبل أن يهتف أمجد
"أدهم.. أهذا أنت؟"

وصلتنا تنهيدة ارتياح قبل أن يظهر أدهم قائلاً "ظننتكما بعض الحراس، فمن الصعب علي رؤيتكما من هذه
الزاوية.."

ظهرت من خلفه بسمة وسعادة تملأ وجهها، فتنهدتُ بارتياح لرؤيتهما سالمين.. ثم قلت لهما وأنا أسير مثقلة الخفى لقلب الكهف "الحمد لله على نجاتنا جميعاً.. الآن لا يحدثني أحدكم فلدني موعد مع النوم.." ضحك أدهم معلقاً "يا لك من عجوز.."

كدت أرد عليه برد حانق، لولا أن هتف أمجد بذهول "أدهم.. ما الذي فعلته بسوارك؟" نظرت ليد أدهم بفضول فرأيتها حرة طليقة بغير قيد يقيدها، وكذلك كانت يد بسمة.. ثم نظرت لأدهم بهشة مذهولة وهو يجيب ببساطة "قطعه.."

تعجبت لرده البسيط وكأنه أمر متوقع وعادي، وأمجد يسأله بحدة "كيف فعلت ذلك؟ ماذا لو تسببت في كشف موقعنا أو أزلت جزءاً من الطبقة العازلة ودللت الحراس علينا؟"

قال أدهم مقطباً "أليس الوقت متأخراً جداً لهذا التأنيب؟ لقد قطعته ولم نواجه أية عواقب تذكر" ورغم ذلك، إلا أن أمجد قد ثار بشدة، ونال أدهم منه تأنيباً شديداً لمدة ليست بالبسيطة.. يبدو لي أمجد ممن يتحسسون خطواتهم جيداً قبل السير ولا يمكن أن يغامر بالقفز أبداً.. وهذا يخالف طبيعة أدهم كثيراً.. رغم اعتراض أمجد على فعل أدهم، إلا أنه استسلم له بصمت حتى تحرر من السوار وكذلك فعلت أنا.. فركت يدي حيث كان السوار يحتله سابقاً.. كان شعور عجيب بالحرية يتملكني كما لم يحدث من قبل.. ذلك القيد البغيض الذي يشعركنا بأننا مراقبون، أن أنفاسنا محسوبة علينا قد زال أخيراً.. ويا لها من راحة..

ثم قال أدهم وهو يحمل الأجزاء في يده "ماذا نفعل بها الآن؟ لا يجب تركها معنا أو تركها هنا لتدلّ على المسار الذي اتخذناه.."

فقال أمجد وهو يتناول الأساور منه ويربطهم في قطعة قماشية مزقها من أحد الأردية التي حملناها معنا "علينا أن نرميها في هوة سحيقة.. والأفضل حمايتها لئلا تتخدش فتعود للعمل وتدلهم على موقعنا في هذه الجبال.."

مدّ أدهم يده ليتناول الأساور الملفوفة، لكن أمجد لم يسلمه إياها وهو يقول "لا أضمنك بفعل كهذا.. سأذهب لرميها بنفسي، فابقوا أنتم هنا وانتظروا عودتي.."

وغادرنا ليقول أدهم فور غيابه "ذاك الرجل مهووس بالكمال في كل عمل يقوم به.. لن نتقدم إن لم نغامر ونتعلم من أخطائنا"

قالت بسمة بخفوت "إنه يخشى علينا ويحاول حمايتنا.."

فقال أدهم "هذا لا يعني أن نقيد أنفسنا دون معنى.. إنه لا يتقبل أي شيء نفعله دون استشارته.."

فقالت بسمة بشيء من الحدة "لأنه لا يندفع لأي فعل دون تفكير أو تقدير للمخاطر كما تفعل أنت.."

فقال أدهم بتعجب وضيق "ولماذا تدافعين عنه؟"

خففت بسمة رأسها بضيق ولم تجب، ويبدو أن صمتها قد أساء أدهم كثيراً وهو يصمت بدوره..

ركل الكرسي بقوة ليرتطم جانباً وهو يصرخ "أنت خدعتني.. كذبت علي.. ما الذي تستفيدة من تحطيمي؟"
قال الرجل المتأنق ببرود "أنت تسببت بهذا لنفسك.. خسرت مباراة مهمة، وخسرنا معك أموالاً طائلة"
فقال بغیظ "هذا شيء لا أملكه.. لست أقوى ولا أمهر ملاكم في العالم.. من الطبيعي أن تصيبي الخسارة في
بعض المرات.."
قال الرجل المتأنق بحدة "ليس مقبولاً.. أنا لم أخترك من بين المئات لتخسر.. نقودي ليست رخيصة لأرميها في
مباريات خاسرة"
قال بحدة "لماذا ترميها في المباريات أصلاً.. لم لا تستثمرها في أعمال أكثر فائدة"
ضرب الرجل المتأنق الطاولة أمامه صائحاً "ليس من شأنك.. عليك أن تفوز.. وإلا وضعت كل الأموال التي
أخسرها ديوناً على ظهرك"
فقال بغضب "لست لعبة بين يديك.. لن أشارك في مثل هذه المباريات.. بل وسأفصح كل ما يجري هنا حالاً.."
قال الرجل المتأنق بعينان متسعتان "لن تجرؤ.."
ابتسم بسخرية قائلاً "جربني.."
وغادر بحدة ضارباً الباب بقوة خلفه.. بينما قال الرجل المتأنق بغیظ "أنتحادي يا هذا؟ أنت ميت.. صدقني
ستكون كذلك بإشارة من يدي.."

قرب المغيب، كنت مع أمجد نتفحص مجموعة من الكهوف التي يزخر بها الجبل بحثاً عن مخبأ جديد وأكثر
أمناً.. وبعد بعض البحث، عثرنا على كهف عميق نوعاً ومدخله شبه مغلق لا يبدو للناظر إلا لمن يقترب منه
كثيراً.. ولما تفحصناه عن كثب واقتنعنا به كأفضل مأوى لنا الليلة، قال أمجد "ابقي هنا.. سأذهب لمناداة أدهم
وبسمة وأعود سريعاً.."
قلت وأنا أبتعد "بل أنا سأفعل.. لا أشعر بالتعب بعد.."
ورحلت قبل أن يعترض.. كنا قد تركنا بسمة وأدهم في الكهف الأول بانتظار عودتنا، فلم يرغب أمجد بالمخاطرة
بتحركنا معاً على الجبال المكشوفة..
لم أستغرق الكثير لأصل إليهم في الكهف، لكنني عندما فعلت وجدت بسمة تهبّ واقفة بارتباك متوتر فيما حدجني
أدهم بنظرات مبهمة.. لم أتساءل عن التوتر المطلق فوق رأسيهما فليس من عادتي التدخل فيما لا يخصني..

وقلت لهما "لنذهب.. أوجد في انتظارنا، فقد وجدنا المخبأ المناسب لنا.."

أسرعت بسمة الخطى تجاهي وأنا أشعر بها تنتهد بارتياح، فيم قال أدهم "سأتبعكما بعد قليل.."
تعجبت من أمرهما وأنا أسير مع بسمة عائدين لأوجد ببطء بانتظار أن يلحق بنا أدهم.. لم تعجبني النظرات التي
تبدت في عينيه، ولكني لم أرغب بالتعليق بما قد يسيء له أو لها.. ولما ابتعدنا عن أدهم قالت لي بسمة بارتباك
"حمراء.. أريد رأيك في أمر"

نظرت لها بشيء من التشجيع، ففركت كفيها قائلة بصوت خافت "لقد سألتني أدهم إن كنت أحمل اهتماماً تجاه
أوجد.. لقد فاجأني هذا، ولم أعلم بم أجيئه.."
فقلت بتعجب "وما الذي تريدني رأيي فيه؟"

قالت بقلق متزايد "لقد ألح عليّ بالسؤال.. حاولت أن أؤكد له أنني لا أهتم بأوجد إلا كصديق، لكنه حاصرني
بأسئلته.. لماذا يفعل ذلك؟ لقد.. لقد كان لحوماً جداً وبدا عصبياً شيئاً ما.. وقد أخافني ذلك كثيراً.."
ابتسمت معلقة "لا تخافي منه.. إنه يريد الاطمئنان أنك لا تحملي اهتماماً خاصاً بأوجد لا غير"
سألته بقلق "ولماذا يريد معرفة ذلك؟"

قلت هازة كنتي "قد يكون مهتماً بك.."

بدل أن يتورد خذاها كعادة الفتيات لمثل هذا الخبر، فإن عيناها اتسعتا بذهول وذعر وهي تهتف "لا.. لا يمكن أن
يكون ذلك.. أنا لا أريد ذلك"

نظرت لها بدهشة من ردة فعلها، فأضافت وهي تفرك يديها وتقول بصوت مرتجف "لماذا قد يكون مهتماً بي؟ ما
الذي يريده مني؟"

قلت مقطبة "بسمة.. ما بك؟ كيف تفسرين اهتمام رجل بك؟ ولماذا قد يصيبك ذلك بالذعر؟"

قالت بانفعال "لكنني أخاف منه.. كيف.. كيف يمكنني أن أرفضه دون أن أجرحه؟ أخبريني ماذا أفعل"
تساءلت وقد دهشت من قولها "ولم ترفضينه؟ هل تكرهينه؟"

قالت بارتباك وهي تعيد خصلات من شعرها للوراء "لا أكرهه.. لكنني لا أعتقد أنني أحبه.. أنا أخافه وأطمئن له
في الوقت ذاته.. حقاً لا أدري ما أفعله.."

قلت بتعجب أكثر "لم أفهم.. ظننتك تترتاحين لوجوده قليلاً.. كنت دائماً معه أينما ذهب ولم تفارقيه إلا قليلاً.."
ازداد ارتباكها وهي تقول "لا أعلم.. أنا أعرف أنه سيحميني ولن يدع شيئاً يصيبني بضرر.. لكن الأمر لا يتعدى
ذلك.."

قلت رافعة حاجبي "إذن أنت استخدمته كحارس شخصي ولا تريدني أن يحلم بأكثر من هذا..!"

ثم قطبت وأنا أقول بشيء من اللوم "هذا اسمه استغلال.. أعلمين ذلك؟"

نظرت إلي وقالت مدافعة عن نفسها "لم أقصد ذلك.. إنه يخيفني أحياناً.. لا أظنني أحبه ولا يمكن أن يجبرني على

ذلك"

فقلت ولومي يتزايد "إذن قولي له ذلك في وجهه فأنت ستجرحينه بأي طريقة تقولينها بها.. ولا تكوني أنانية وتتوقعي منه أن يرضى بموقع الحارس الشخصي للأبد.."

قبل أن تجد الفرصة لتزد عليّ ظهر أدهم من خلفنا، فسرنا بصمت وكل منا غارق في أفكار شتى.. شعرت بحنق شديد.. من أنانية بسمة.. ومن غياب أدهم الذي جعله يحبها لجمالها.. رأينا أمجد يقف قرب الكهف ينتظرنا، وبادرني "لم تأخرتم؟"

غمغمت بأي عذر غير مفهوم وأنا أتجاوزهُ وأجلس على صخرة جانبية والضيق بادٍ على وجهي، فيما ارتسمت حيرة على وجه بسمة.. أما أدهم فقد انشغل مع أمجد في التخطيط لليلة القادمة.. بعد أن توغل الليل، خرجت لأجلس قرب مدخل الكهف أرجو الحصول على بعض الهواء والضيق في صدري يجعل الكهف خانقاً.. ولم تمض دقائق على جلوسي حتى اقترب أمجد مني وسألني بتعجب "ما الذي أثار غيظك لهذه الدرجة؟"

غمغمت بضيق "لا شيء.. لا تقلق.."

فقال "لكني قلق بالفعل.. فما الذي حدث؟"

فقلت "لم أكن أعلم أن بسمة بهذه الأنانية.. لقد استغلت حماية أدهم ومساعدته لها طوال الوقت.. وعندما شعرت بإعجابه بها رفضته دون تفكير.. لو كان يخيفها كما تدعي الآن فلماذا لم تبتعد عنه منذ البداية؟" قال أمجد وقد تعجب من الموضوع الذي يسمعه لأول مرة "الحب لا يفرض فرضاً.. مادامت غير مرتاحة لاستجابة مشاعره فلها كل الحق في ذلك"

قلت بغيظ لوقوفه معها "لكنها استغلته.. هذا ما يغيظني أكثر"

قال هازماً كتفيه "هي لم تستغله، بل هو من عرض خدماته دون مقابل.. لا أعتقد أنه عندما أسبغ عليها حمايته كان يهدف أن يغضبها على حبه.."

قلت بعصبية "أمعنى هذا أنك ترى أنها لم تخطيء؟"

سألني بصوت هاديء "أكل هذا الغضب لأجل أدهم؟"

زفرت صامتة محاولة استعادة هدوئي، فقال أمجد "لا تقلقي على أدهم، لديه من الذكاء ما يجعله يدرك متى عليه أن ينسحب"

فغمغمت "أتمنى ذلك.. لا أودّ رؤيته تعيساً بسبب بسمة"

علق أمجد قبل أن يغادر "ليس هو وحده من يبدو تعيساً"

نظرت له بدهشة وهو ينتعد.. أكان يعينيني أنا بهذا؟.. رأيت بسمة تقترب مني بقلق، ووقفت قريباً تسألني

"حمراء.. أنت غاضبة؟"

تنهدت محاولة إزالة تعليق أمجد من رأسي وأنا أجيب “طبعاً لا.. وهل لي الحق في ذلك؟”

عادت تسألني “إذاً.. ما بالك؟”

نهضت مجيبة “لأشيء.. متعبة وبحاجة للراحة”

وابتعدت عنها لأتركها تتجرع حيرتها، فيما دلفت للكهف الذي سادته الصمت تلك الليلة..

انشغلنا بتناول القليل من الطعام وتهيئة موقع نومنا، فيما بقي أدهم للمراقبة قرب الباب طواعية..

كانت بسمة تلقي عليّ نظرات مترددة، ويبدو أنها تشعر بعمق ضيقي من تصرفها والحيرة ظاهرة على وجهها

لردة فعلي.. ولها الحق في التعجب، فمن أكون أنا لأغضب لأدهم؟ من أكون لأجبرها على ما لا تريده؟ وهل

سأرضخ لما قد يمليه عليّ الآخرون لو كنت في موقعها؟ لكني لم أملك ضيقي وأنا أتجاهلها وأخذ للنوم فور

انتهائي من طعامي..

لكني ظللت مستيقضة مدة طويلة أحاول استعطاف النوم بلا فائدة.. فكرت بتعليق أمجد الأخير مراراً وتكراراً

بحثاً عن معنى له.. لكني عجزت عن ذلك وأنا أستسلم للنوم الذي استعمرني أخيراً..

الفصل الرابع عشر

[وليد]

راعنا قرب الفجر هدير قوي صمّ آذاننا مع تضخم الصوت في الكهف.. نهضنا مذعورين ننظر لما حولنا بعدم فهم، فيما وقف أمجد الذي كان يراقب قرب المدخل وقال لنا "إنها المروحية.. يبدو أنهم يشكون بالتجائنا للجبال.."

قالت بسمة بدهشة "كيف؟ أتظنهم تبعونا؟.."

أجابها "لو حدث ذلك لكانت القيود في أيدينا منذ مدة.. لا بد أنه شك يحاولون التأكد منه.."

كان الهدير قد بدأ يخف تدريجياً، فتنفسنا الصعداء وأمجد يقول "قد يستمر بحثها فوق هذه الجبال وقتاً.. الأفضل أن نتفادى الخروج قبل الاطمئنان لابتعادها تماماً.."

لم نكن نرغب بالعودة للنوم مع قرب بدء النهار، فانشغل كل منا بصمت ونحن ننتظر الفرصة المناسبة للخروج.. غسلت وجهي بالماء الذي أحمله محاولة الاقتصاد في استخدامه.. وتناولت القليل من الطعام الذي نحمله.. من حسن حظنا أن الكويكب يتميز بجو معتدل يميل للبرودة.. وهذا أفضل من الحرارة القوية التي ستفسد الطعام بسرعة كبيرة.. ومع ذلك، فما نملكه من طعام لن يكفي إلا ليوم آخر، وهذا ينطبق على ما نحمله من ماء أيضاً.. اتجهت إلى أمجد الذي وقف قرب المدخل يراقب المروحية التي بدا أنها لم تغادر الموقع تماماً بل هي تدور حول هذه الجبال في بحث مستميت.. فسألته "وماذا بعد الآن؟ لقد نجحنا في الهرب وفي التخلص من الأساور، فما هي خطتنا القادمة؟"

أجابني "لا يمكننا أن نظل مختبئين هنا للأبد، ولا يمكننا أن نسير بلا وجهة محددة.. رغم كل بحثي وتساؤلاتي لم يفدني أحد السجناء بأي معلومة عن مواقع المناجم الأخرى.. والحراس صامتون كالقبر كالعادة.. وهذه هي أكبر مشاكلنا، قلة المعلومات التي نملكها وصعوبة الحصول عليها"

قلت "هذه ليست إجابة سؤالي.. ما هي خطتنا للأيام القادمة؟"

ابتسم معلقاً "يبدو أنك لا تحبين الاستفاضة في الجواب.. تريدين إجابة مختصرة وسريعة"

أجبت "أجل.. أكره الإجابات التي لم أسأل عنها.."

قال مشيراً للخارج "لا يمكننا التحرك قبل أن نتأكد أن المكان آمن تماماً.. ولا تنسي الحراس الذين هم ولا بد منتشرون في الغابة القريبة من مسكننا.. بعدها، الخطوة الوحيدة التي يجب أن نقوم بها هي التسلل لمبنى الإدارة والبحث عما ينقصنا من معلومات.."

قلت بصدمة "لكن هذا مستحيل.. كيف يمكننا أن نتسلل للإدارة دون أن يتم كشفنا؟ خاصة مع عددنا هذا الذي

يعتبر كبيراً بالنسبة لـ...."

قاطعني قائلاً "هذا مستحيل بالفعل.. لذلك فإن أنسب طريقة هي ببقائكم هنا وذهابي وحيداً لهذه المهمة.." هتفت "مستحيل.. أنت تخاطر بمخاطرة كبيرة بهذا.."

قال أمجد دون أن يفعل "هذا ما وطئت عزمي عليه منذ قررت الهرب.. تجوالنا بدون هدف ليس في مصلحتنا.. لن يمضي يومان حتى نفقد طعامنا وماءنا أو يتم القبض علينا.. كما أنني لا أعلم في أي منجم هو خالد.." تساءلت "خالد؟"

قال موضعاً "عمي الذي سبقني للكويكب العاشر.. يجب أن أبحث في ملفات الإدارة حتى أعر عليه وأحدد موقع المنجم الذي يعمل فيه.."

سمعنا أدهم يقول من خلفنا "ولا بد لنا من سرقة مركبة من مركباتهم... التنقل عبر هذه المساحات الشاسعة لن يكون سهلاً.. سيستغرق منا وقتاً وجهداً نحن بغنى عنه.."

علق أمجد "لكن سيكون من السهل عليهم رؤية المركبة من المروحية.. كما أننا لا نعلم إن كانت مركباتهم مزودة بأجهزة تعقب، وإن كنت أرجح هذا الظن كثيراً.."

هتفت بأدهم "هل توافقه على ما يقول؟ هذا جنون.."

قال أدهم هازماً كتفيه "هذا هو السبيل الوحيد.."

وأضاف أمجد "لا تنسي أنك عازمت على فعل المثل سابقاً ولم تردعك أي محاولة منا.."

فقلت بحدة "أنت تتحدث عن وقت طويل ستقضيه في ذلك الموقع تفتش وتنقب عن المعلومات التي تريدها.. كيف تتوقع فعل ذلك دون أي معلومة ولو صغيرة عن المكان الذي تنوي اقتحامه؟"

قال وهو يقف "كل ما أحتاجه هو بعض الهدوء، والتخطيط الجيد.."

واتجه لموقف متطرف من الكهف ليستلقي بعد مناوبته الطويلة.. فالتفت لأدهم قائلة بحنق "رغم أنك عارضت طويلاً الانضمام إلينا في الهرب وادعيت أنها مخاطرة مجنونة، الآن أجذك تشجعه على المخاطر التي ينوي رمي نفسه فيها دون تفكير؟ كيف انقلب حالك؟"

قال أدهم "رحيله وحيداً أفضل بالنسبة له في التسلل للمباني الإدارية، كما أنه أفضل في حال سقوطه في أيديهم.."

صحت "كيف تقول ذلك؟"

قال ضاحكاً "ليجد من يعينه على الهروب إن سقط.. إلى أين وصل تفكيرك؟"

زفرت بغیظ، ثم قلت "لازلت تستمتع بالسخرية مني؟"

قال بابتسامة "وما الضير في ذلك؟"

نظرت له حانقة للحظات، ثم عدت أزر بحدة وأجلس جانباً بدوري عازفة عن أي حديث..

عندما استيقظ أمجد بعد نوم قصير، فوجيء باختفاء أدهم من المكان.. فاقترب مني متسائلاً "أين أدهم؟ ألم أخبركم بوجود الحذر وعدم الخروج إلا بعد خلو المنطقة؟" أجبته "لقد خرج ليستطلع الأجواء ويتأكد من عدم اقتراب الحراس من موقعنا.. لأن عثورهم علينا في هذا المكان كارثة إذ لن نجد الوقت الكافي للهرب.."

صمت أمجد مقطباً وهو يجلس جانباً وينظر للخارج عبر الفتحة الضيقة للكهف، فسألته "أتعتقد أن هذا المكان ملائم لاختبائنا فيه حتى عودتك؟ أم الأفضل لنا التوغل قليلاً في الجبال؟ وكيف سنوفر الطعام في تلك الفترة؟ لا يمكننا البقاء بالزاد القليل الذي نملكه لفترة طويلة.."

قال أمجد "أعتقد من الأفضل لنا البحث عن موقع جديد، لكنني لن أغادر قبل أن أتأكد من أموركم كلها.. لا أريد أن أشعر بالقلق عليكم وأنا بعيد.."

اقتربت بسمة متسائلة "كم يوماً تعتقد سيستغرقك البحث؟"

هز أمجد كتفيه مجيباً "لا أعلم.. لكنني أجزم أن البحث لن يتم في يوم واحد.. هذا إن سلمت من أيدي الحراس.."

فقالت بسمة بقلق "وماذا سنعمل إن قبضوا عليك؟ كيف سنعرف أخبارك وأنت بعيد عنا؟"

تطلع أمجد لعينيها القلقتين وابتسم معلقاً "أتمنى ألا يحدث هذا.."

غاضني شيء ما في حوارهما دفعني لأن أنهض فجأة قائلة بجفاء لم أملكه "لن نفعل شيئاً بالتأكد.. فنحن لم ندفعه لهذا العمل الأحمق.."

نظر لي أمجد بصمت مندهش للحظة ثم خفض رأسه متشاغلاً بيديه والضيق بادٍ على وجهه.. هل كنت قاسية قسوة لم يتوقعها؟ حسناً، لقد أحققتني ابتسامته لها، واندفعت بدون تفكير بهذا القول.. ولست آسفة على هذا..

سمعنا صوت خطوات تقترب من المدخل بهدوء، فتحفزنا وأمجد يهبط واقفاً أمامنا وهو يشير لنا لنصمت.. لكنني عرفت أن القادم أدهم بالتأكيد، خطواته التي تدك الأرض بقوة، وسيره الواثق المتمهل، أكد لي أنه ليس أحد الحراس كما قد يتوقع البقية.. وبالفعل، فقد دلف أدهم الكهف ليقول فور رؤيتنا "أخبار سارة يا رفاق، وجدنا مخزوناً جيداً من الطعام"

ورمى عند أقدامنا عذقاً متوسطاً من الموز صغير الحجم.. نظرنا له بدهشة وهو يضيف "وجدت عدداً من أشجار الموز قريباً من هنا، وهي ستكفينا لتعويض ما لا نملكه من طعام"

قالت بسمة قالبية شفيتها "موز؟ أنا لا أحبه"

فقال أدهم دون أن ينظر لها "إما هذا أو تتحملي الجوع دون سبب.."

قال أمجد مقطباً "أين اختفيت منذ الصباح؟ ولماذا غادرت قبل أن تعلمني بذلك؟"

قال أدهم متعجباً "هل كنت تود مني إيقاظك لأستأذنيك؟ لقد ذهبت لأطمئن على أمان المنطقة المحيطة بنا، والحمد لله أن الأمور كلها تبشر بخير.. لا يبدو أنهم يبحثون عنا في هذه الجبال.. عدا عن المروحية التي ابتعدت بعد أن يئست من البحث.."

ثم أضاف "سأذهب لإحضار المزيد.. على الأقل حتى لا نضطر للخروج لفترة من الوقت ونعرض أنفسنا للخطر في كل مرة"

لم يعترض أمجد على قوله، فغادر أدهم بصمت.. عندها قلت لبسمة "لنذهب لمعاونته.."

ونهضت لأتبع أدهم، فيما نهضت بسمة بعد تردد قصير.. يبدو أنها لا ترغب بالاحتكاك بأدهم كثيراً خاصة بمفردها، وإن كان ذلك محتملاً مع الظروف التي نمرّ بها..

أسرعت خلف أدهم وقلت له وأنا أتبع خطواته الواسعة شبه راکضة "هل أنت متأكد من أمان الطريق الذي سنسلكه؟ أأنا يفاجئنا أحد الحراس أو نكون مكشوفين أمام المروحية لو مرت فوقنا؟"

أجاب أدهم "لا تقلقي.. هناك الكثير من الصخور التي يمكننا الاختباء تحتها لتخفينا عن المروحية، وكما قلت لكم الحراس لم يصلوا لهذه المنطقة بعد.."

التفت خلفي فوجدت بسمة تتبعنا على شيء من المبعدة وإن حرصت على ألا تضيق عنا.. وبعد سير قصير وجدنا أنفسنا ننحدر من الجبال باتجاه جزء من الغابة يخالف الموقع الذي أتينا منه سابقاً بعد هربنا من المساكن..

كانت أشجار الموز تغطي نصف الغابة القريبة منا بأوراقها العريضة زاهية اللون وأعناقها المحملة بالموز المختلف الأحجام والألوان وإن كان أغلبه أخضر اللون.. سمعت أدهم يقول "انتبهنا.. قرب هذه الأشجار هناك جرف صخري يطل على هاوية عميقة.. كونا حذرتين فإن سقطتما لن نستطيع إنقاذكما منها"

بدا الذعر يتزايد لدى بسمة، لكنني لم أعلق وأنا أتساءل "كيف سنقطع الأعناق دون خنجر أو أي أداة حادة؟"

استخرج أدهم خنجره قائلاً "أنا من سيقطعها، وأنتم احملوا ما سأرميه.."

كان أدهم سريعاً في عمله، لكن إيجاد الموز الذي نضج كفاية للأكل كان صعباً.. أخذنا ندور في المكان خلفه بحثاً عن بغيثنا دون أن نشعر بمرور الوقت.. ولما سمعنا خطوات خلفنا التفتت متسائلة "هل جاء أمجد للبحث عنا؟"

تعلقت أبصارنا بجزء من الموقع حيث سمعنا الصوت، ثم رأينا الأوراق الخضراء تنشق عن فوهة سلاح تبعها وجه أحد الحراس الذي صاح فور رؤيتنا "لا تتحركوا من موقعكم.. لن أتردد في إطلاق النيران"

تجمدنا نحن الثلاثة بصدمة شديدة.. لم نشعر باقتراب أحد الحراس منا، كما أن المروحية قد ابتعدت عن هذا المكان منذ فترة.. فما الذي جاء به هنا الآن وحده؟..

سارع أدهم برفع سلاحه الذي لا يتخلى عنه، لكن الحارس صاح به "لا تحاول.. يمكنني إصابة أي منكم بسهولة قبل أن تصيبيني"

زمر أدهم بحنق دون أن يحاول إطلاق النار.. فنظرت له بتردد.. هل نستطيع الهرب دون أن نخاطر بالإصابة بنيرانه؟ أي إصابة ولو كانت بسيطة ليست في صالحنا البتة إذ لا نملك أي علاج له..

رأيت عينا بسمة تتسعان فزعاً، ثم لا شعورياً اختبأت خلف أدهم الذي ظل ينظر للحارس مقطباً.. رغماً عني شعرت بحنق كبته بصعوبة.. ألم تتجاهل بسمة مشاعر أدهم منذ فترة قصيرة؟ هي بالأناية الكافية لطلب حمايته رغم رفضها المستتر له؟ وكأنها تستمتع بدسّ إصبعها في جرحه لإيلامه أكثر..

عدت أنظر للحارس الذي تقدم منا شيئاً ما وهو يقول بصرامة "لا تأتوا بأي حركة.. لن أتوانى عن إطلاق النار.."

رأيته يرفع جهاز الاتصال ليجري اتصالاً بالإدارة، لكن أدهم لم يمهل، إذ هبّ فجأة نحو الحارس الذي بوغت بهجومه، فقبض أدهم على سلاحه بقبضته القوية وأبعده بعيداً وهو يسدد له لكمة عنيفة في فكه ترنح لها الحارس، وصاح أدهم فينا "اهربا.."

لم أستطع التحرك قبل الاطمئنان على أدهم، ولم تفعل بسمة ذلك أيضاً، بينما كال أدهم لكمة أخرى لفك الحارس الذي تشبث بسلاحه أكثر، ثم رفع الحارس قدمه بضربة قوية لبطن أدهم، لكن أدهم لم يتزحزح وهو يعاجله بضربة أخيرة ويفلته في الآن ذاته مما تسبب بسقوطه للوراء بعنف.. ثم شهق بقوة وقدمه تزل قرب حافة الجرف القريب ليسقط في الهاوية التي يطل عليها الجرف.. أسرع أدهم يجذب بسمة من يدها وهو يصيح بي "لنهرب.. لا بد أن المزيد من الحراس قادمون خلفه.."

لم يبدُ على أدهم أي تردد وهو يغادر وبسمة لاهثة خلفه، لكنني لم أستطع التحرك خطوة وأنا أطل في الهاوية تحتنا مقطبة.. سمعت أدهم يصيح "حمراء.. أسرعي.."

فهتفت له "تأكد من إيصال بسمة لمخبأنا قبل قدوم الحراس.. سألحق بكم حالاً.."

قال أدهم بغضب "لا تفعلني هذا.. حمراء"

نادتني بسمة بدورها، لكنني لم أستجب لهما وأنا أدقق في الهاوية تحتنا.. كان الجرف الذي نقف فوقه على شيء من العلو، بانحدار شبه حاد، والهاوية التي تقع خلفه تظللها الأشجار بحيث يمكن للمرء غير المنتبه أن يسقط فيها بسهولة.. ولن تكون سقطة آمنة أبداً..

بعد أن تأكدت من الطريق الذي يمكنني سلكه بأمان، اتخذت طريقي نازلة من على الجرف معتمدة على الصخور البارزة التي جعلتها متكأً لقدمي، وبالاستناد على بعض الأشجار التي بدت لي قادرة على تحمل ثقلي.. كدت أنزلق عدداً من المرات، لكنني تجنبت التهور وأنا أتأكد من قوة فرع الشجرة الذي أتشبث به قبل أن أقفل موضع قدمي..

لم أسمع صوت أدهم وبسمة مما أكد لي ابتعادهما، وهذا أراحني.. فالحراس إن اقتربوا سيرونهما بسهولة في الأعلى بينما لن يلمحوني بسهولة ما لم يقفوا قرب حد الجرف ويدققوا النظر في الأسفل..

بعد وقت بدا لي طويلاً ومرهقاً من النزول الصعب والبطيء.. وجدت نفسي أستقر في الأسفل لاهثة.. نظرت للأعلى لأتأكد أن أحداً لم يكشف موقعي، ثم عدت أبحث ببصري حولي حتى وجدت ما أريد.. تقدمت عدة خطوات نحو الجسد الملقى ووقفت قربه وأنا أقطب مغممة "يا إلهي.. إن هذا عسير حقاً.."
 كان جسد الحارس ملقى أرضاً وعدة جراح أراها تنزف من ذراعه اليمنى وساقه اليمنى أيضاً.. ويبدو أن ظهره قد أصيب كما بدا من بقعة الدماء المنتشرة تحته.. لكن رأسه كان سليماً، والأفضل من كل هذا أنه كان حياً..
 تأكدت من هذا بفحص سريع لنبضه.. يبدو أن الأشجار قد حمت جسده وخفت سقوطه الذي من المفترض أن يكون مميتاً.. ولست أدري إن كان هذا من حسن حظه أم لا..

عدت للنظر حولي بتمعن.. ثم أمسكت ذراعي الحارس وحاولت جهدي جذبه بعيداً عن موقعه هذا، إذ أنه مكشوف أكثر مما أبغي.. كان هذا عملاً أحمقاً إذ سيضره ويؤدي جراحه أكثر.. لكن ماذا بيدي فعله وأنا أجذبه بالكاد مع ثقله مقارنة بقوة ذراعي؟..

بعد جهد جهيد، توقفت وأنا ألهث وأتمتم من بين أنفاسي المتقطعة "أنت مدين لي يا هذا.. إياك أن تنسى ذلك.."
 كنت قد جذبته تحت نتوء بارز في الجرف أخفانا عن العيون في الأعلى.. ثم تفحصت جراحه لأتأكد مما عليّ التركيز عليه أكثر.. كان جرح ظهره سيئاً بالفعل.. لكن لا يمكنني إهمال جراحه الأخرى التي تنزف بلا انقطاع..
 تنهدت وأنا أفكر بما ورطت نفسي فيه.. لا يمكنني نقله للأعلى، وحتى لو استيقظ سيكون عسيراً عليه التحرك من موقعه وارتقاء هذا الجرف..

إذن عليّ التكفل به حتى يغدو أفضل حالاً ويستدعي رفاقه ليساعده على العودة للإدارة وتلقي العلاج المناسب..
 كان الحارس يرتدي قميصاً وفوقه معطفاً من القطن بلون ترابي كبقية الحراس.. فقامت بنزع المعطف عنه محاذرة أن أؤدي جراحه أكثر، وبعد تفتيشه وجدت لديه خنجرأ صغيراً فاعلاً.. فقامت بتمزيق المعطف أجزاء طويلة، استخدمت أحدها لربط جرح ذراعه بقوة، والثاني لربط جرح ساقه.. ما دام النزف سيتوقف في جرحه هذين عندها أستطيع التركيز على جرح ظهره..

بعدها قلبته على بطنه وضغطت على جرح ظهره بقوة بإحدى القطع.. ظللت على حالي لثوان وأنا أصيخ السمع خوفاً من قدوم بقية الحراس.. لسنا ندري إن كان الحراس يملكون جهازاً يُمكنهم من العثور على رفاقهم، وإن كان كذلك فعندها سأكون قد أوقعت نفسي في مأزق..

بعد أن تأكدت أن النزف قد قلت حدته عن السابق، قامت بربط الجرح بأخر قطعة نظيفة أملكها، ثم جلست قربه وأنا أفكر فيما عليّ فعله الآن.. لا بد أن البقية غاضبون كثيراً من تخلفي عنهم.. لكن هذا لا يهمني الآن.. كيف يمكنني أن أقود الحراس إلى هنا لإنقاذ رفيقهم دون أن أوقع نفسي في أيديهم؟..

قررت أن أتحرك الآن ولا أبقى ساكنة إذ يبدو أنه لن يستيقظ قريباً.. تركته في موقعه ونظرت حولي محاولة حفظ معالم المكان لأستدل عليه عند عودتي.. ثم بحثت عن سبيل للصعود للأعلى بشكل أسهل من الموقع الذي

قدمت منه، لكنني فشلت في ذلك.. عندها شددت عزيمتي وصعدت من موقعي السابق بحذر شديد، وأنا أنظر للأعلى بين وقت وآخر بحثاً عن أي عين قد تكشفني..

لم يمض وقت طويل حتى كنت قد وصلت لمخبأنا بسلاسة دون مشاكل.. وهناك، هبّ أدهم يقول بحدة "أين اختفيت؟ أهدأ وقت التنزه في الغابة؟"
تساءلت مقطبة "و هل تظنني كنت أنتزه حقاً؟"
قال بعصبية "يحسن أن يكون عندك عذر مقنع.. لقد وبخني أمجد بشدة.."
فقلت "ومن الذي نصّب أمجد قائداً علينا بحسب علينا تحركاتنا؟"
سمعت صوته من خلفي يقول بهدوء "مادمت ترفضون هذه المهمة، كان عليّ أن أقوم بها أنا.."
التفتُ إليه لأجده يقترب مني بهدوء.. لكن رغباً عني توجست وأنا أتراجع خطوة.. كان غاضباً.. غاضباً وبشدة بالأحرى.. أستطيع رؤية ذلك وبوضوح في عينيه رغم أن ملامحه اكتسبت هدوءها الشهير..
وقف أمامي وتساءل "إلى أين ذهبت؟ أين اختفيت في الساعة الماضية وقد قلبت المكان بحثاً عنك؟"
قلت محاولة ألا أبدي تأثراً بغضبه "لقد حاولت إنقاذ الحارس الذي أسقطه أدهم من الجرف.."
نظر الثلاثة إليّ بغير تصديق، ثم هتف أدهم "أحمقاء أنت؟"
لم تعلق بسمة بكلمة وهي تنقل بصرها بيننا بقلق، بينما ظل أمجد ينظر لي مقطباً، فقلت مقطبة بدوري "لم أستطع تركه ليموت.. كان في موقع من المستحيل أن يستدل عليه الآخرون.. وكان سينزف حتى الموت، لذلك نزلت لموقعه وربطت جراحه بشكل مؤقت.. سأبقى عنده حتى يستعيد وعيه ويتمكن من الاتصال برفاقه لينقلوه للمشفى التابع للإدارة"
قال أدهم بغير تصديق "أجادة أنت؟ هل غلبتك الطيبة فجأة لتتصرفي بهذا الغباء؟"
قلت له بصرامة "هلا كفتت عن التجريح بدون سبب؟ أنا لم أطلب معاونتك، وأدرك مخاطر ما أفعله تماماً"
سألني أمجد دون أن يغادره هدوءه "لماذا فعلت ذلك؟"
أجبت "لقد أخبرتك.. لم أستطع تركه ليموت.. ما الغريب في ذلك؟"
عاد يسألني بحدة "لماذا يا حمراء؟ أتعلمين من هو؟ أتعلمين ما سيفعله فور أن يستيقظ؟ أتركه ولا تعودني إليه مرة أخرى وتعرضينا جميعاً للخطر"
قلت بحدة بدوري "ألا تفهم؟ إنه بشر.. حتى لو كان حارساً، فهو لا يستحق أن نتركه ليموت فقط لأنه كان يؤدي الأوامر التي أصدرت له.. ليس هو من تسبب بقومنا هنا، فلماذا نعاقبه على ذلك؟"

قال بصرامة “وتخاطرين بنا جميعاً لأجل إنقاذ حياته؟ ألا نهلك نحن؟”
قلت مشيخة “لم أقل ذلك.. لن أسعى لتعريضكم للخطر.. سأؤكد أنه لن يستطيع الاتصال برفاقه وتتبعي أبداً”
فقال أمجد بغضب “وأنا أمنعك من العودة إليه.. لا يمكنك أن تتجاهلينا جميعاً وتقومى بفعل أنانيّ مثل هذا”
صدمت لقوله الخالي من أي معنى، وبرق خاطر غريب في ذهني جعل رأسي يدور..

“أهذا كل ما يهملك؟ أي أنانية تملكينها؟”

تمالكت نفسي بسرعة وأزلت ذلك الخاطر، وصحت في أمجد “أنانية؟ أهذا ما تسمي ما أفعله؟ قل ما تشاء، لكنني لم أوافق على تنصيبك رئيساً علينا.. أنا لي مطلق الحرية فيما أفعله، وإن لم ترغبوا بعودتي إلى هذا المخبأ، فأنا لن أفعل”
واندفعت لتناول بعض الماء القليل وحصّة واحدة من الطعام، ثم غادرتهم متجاهلة نداء أدهم وبسمة لي.. إن كانوا يرون سعبي لإنقاذ الرجل أنانية، فأنا أنانية بالفعل.. على الأقل سأرضي ضميري بهذا، وسأترك التفكير بأمرى لوقت آخر.. وأنا متأكدة أنني لن أندم على ما أفعله أبداً..

عندما وصلت لموقع الحارس، دهشت لرؤيته مستيقظاً يتلفت حوله وإن بدا متعباً بشكل ظاهر.. ولما رأني اعتدل جالساً وهو يبحث بيديه حوله، فقلت له “لا تحاول.. سلاحك ليس قريبك بأي حال”
صمت وهو ينظر لسلاحه المعلق على كتفي.. ثم سمعته يقول “هل أنت من عالج جراحي؟”
قلت وأنا أرمي بالماء له “لا أظنها قد ربطت نفسها بنفسها بالتأكد..”
فقال “أنت عربية.. أليس كذلك؟”
نظرت له بدهشة للحظات، فلم يحدثني بلغة نايبو كعادة الحراس مع السجناء، بل باللغة العربية.. فقلت له مبتسمة
بتعجب “أنت عربي أيضاً؟.. مرحى.. لكن كيف عرفت أنني عربية؟”
أجابني “سمعت هتاف رفيقك لك قبل أن يسقطني في الهوة”

جلست على مبعدة وأنا أقول “هل أنت أفضل حالا الآن؟”

هز رأسه موافقاً ثم جرع جرعات كبيرة من الماء وأنا أنتظره بصبر، فما الذي يشغلني الآن وأنا أعتبر نفسي مطرودة من الفريق؟.. كان الحارس يبدو في الأربعينات من عمره، على شيء من الصرامة وإن كنت لا أستطيع وصفها بالقسوة.. أسمر بشكل خفيف، عيناها بنيتان، وشعره أسود قصير جداً كبقية الحراس.. سمعته يقول “لماذا عالجت جراحي؟ عندما سقطت ظننت لو هلة أنني سأقضي نحبي دون أن يستدل أحد على موقعي”

أجبت “لهذا السبب عدت.. لو لم تسقط في هذه الهاوية، لأيقنت أن رفاقك سيعثرون عليك ويسرعوا بمعالجتك.. لكن هنا، فهذا مستحيل.. ولم أستطع عدم التدخل”
قال عاقداً حاجبيه “هذا غريب.. ولماذا قد تفعلين ذلك؟”
قلت ببساطة “لأنني لا أستطيع تركك تموت بلا ذنب..”
ظل ينظر لي بدهشة، فأضفت “أنت تطيع الأوامر التي أصدرت لك.. لا ذنب لك في وجودنا هنا، ولا فائدة سنجيها من قتلك..”

قال بابتسامة جانبية “أفلسفة خاصة بك هذه؟”

ثم أضاف بجدية “ما الذي ستفعلينه لو أنني كنت قد أبلغت رفاقي بموقعي قبل مجيئك؟ لن تستطيعي الهرب منهم إن تكاتفوا عليك هذه المرة”

قلت هازة كتفي “مستحيل.. جهاز الإرسال محطم تماماً.. تحطم أثناء سقوطك كما أعتقد”

نظر للساعة في يده بسرعة، فرأها محطمة تماماً كما رأيته أنا عندما فتشته أثناء غيبوبته، فعلق “بدون هذه، من المستحيل عليهم أن يعثروا عليّ أبداً”

ثم نظر لي مضيفاً “أنا مدين لك بالكثير إذا..”

لم أعلق وأنا أشرب من الماء الباقي عندي، ونظرت مجدداً للأعلى خوفاً من انكشاف موقعنا.. ثم عدت بنظري إلى الحارس الذي كان يراقبني بصمت، فسألته “متى تظن نفسك قادراً على ارتقاء هذا الجرف؟ يجب أن تعود

لتتلقى العلاج الملائم.. فنحن لا نملك أي علاج لجراحك العميقة هذه”

أجابني “يلزمني وقت طويل لهذا.. لست بحال يسمح لي بالصعود مع هذه الجراح المختلفة.. أليس هناك من سبيل آخر للخروج من هذه الهاوية؟”

قلت وأنا أنهض “سأبحث عن طريق آخر..”

ورميت بحصة الطعام إليه قائلة “تناوله إن كنت جائعاً.. لكن هذا هو آخر ما أملك”

وابتعدت حاملة السلاح على كتفي، لكن سمعته يناديني “مهلاً.. يا فتاة”

التفتُ إليه معلقة “حمراء.. هذا هو اسمي هنا”

رفع حاجبيه لثوان بتعجب، ثم سألني “رفاك.. أين هم؟”
قلت “لقد انفصلت عنهم.. ولن أخبرك بموقعهم بالتأكيد”
واستدرت مبتعدة من جديد، فسمعتة يقول بصوت واضح “وليد.. هذا هو اسمي”
لم ألتفت أو أتلف بأي مجاملة، فهذا ليس من طبعي، بل سلكت طريقي وأنا أبحث بعيني عن مسلك صالح لرجل
عاجز مثله.. لم يكن من مصلحته أبداً البقاء لمدة أطول هنا.. ستتلوث جراحه، هذا إن لم يقض عليه النزف الذي
سلبه الكثير من دمه..

الفصل الخامس عشر

[دماء]

بعد بحث طويل وغير مثمر عن موقع آخر يمكننا الصعود عبره لأعلى الجرف دون أي تعب على الحارس، عدت إلى موقعي السابق والسماء قد أظلمت مع مغيب الشمس والليل يحلّ معتماً.. لم أجرؤ على إشعال المصباح الذي أملكه خوفاً من كشف موقعي، بل اعتمدت على حدسي حتى عدت لموقعي الأول لأجد الحارس ينتظر صامتاً وهو يتأمل ساعته المحطمة، فسألته بشيء من الشك “هل تعمل؟”

ابتسم مجيئاً “لا تخافي.. حتى لو كانت تعمل، فلن أستدعيهم ما دمت في الجوار”

جلست على مبعدة دون أن يغادر الشك وجهي، فقال بجديّة “أخبرتك أنني مدين لك بحياتي.. ولا يمكن أن أضرك أبداً.. وإن كنت لا أعلم لم تفعلون ما تفعلونه بهربكم هذا..”

قلت مبتسمة بجانب فمي “أريد جواب هذا السؤال منك أنت.. ما الذي تعتقد يغيرنا بالبقاء والاستسلام في هذه الظروف التي نعيشها؟ هل ترضى بالاستعباد وقضاء حياتك دون رغبتك في كويكب بعيد تحت رحمة أشخاص لا تعرفهم وتقوم بعمل مجهد بلا أجر ولا راحة؟”

قال مقطباً “لكن أنتم جميعاً محكوم عليكم بالسجن المؤبد.. أنتم أصحاب سوابق خطيرة.. العيش في هذا المكان الخلاب أفضل بالتأكيد من العيش في زنزانة حقيرة بقية عمرك، وأفضل قطعاً من الإعدام..”

قلت باعتراض “من قال ذلك؟ لقد أفقدونا ذاكرتنا.. أتعلم لماذا؟ لأنهم لا يريدون أن نكتشف حقيقة ما يفعلونه.. ليس الكل هنا مجرم خطر يقضي عقوبته مدى الحياة.. بعضنا بريء، أجبر على القدوم هنا لتغطية العجز في العمال على الكويكب..”

نظر لي بغير تصديق وهتف “مستحيل.. لا تملكين دليلاً على ذلك..”

فقلت “بعضنا قد بدأ يستعيد ذكرياته.. وأحد رفاقي يؤكد أنهم اتهموه بتهمة باطلة بعد أن بدأ بنبش خبايا المؤسسة بحثاً عن عمه الذي اختفى في ظروف غامضة..”

غمغم وليد “هذا قول كبير، لو كان مؤكداً.. لكن مع ذلك ينقصكم إثبات..”

علقت “ستجد الإثبات في بيانات السجناء في الإدارة.. لاشك أنهم يحتفظون بدلائل مهمة في ملفاتهم.. لكن أخبرني.. منذ تلك الليلة التي هربنا فيها، لا أشعر أن الإدارة تبذل جهداً كافياً للبحث عنا والقبض علينا.. فلم ذلك؟”

أجابني “إنهم يبحثون عنكم بالفعل، لكنهم لم يُسَخِّروا الكثير من الحراس لهذا.. المساكن والمناجم تستهلك الكثير من الحراس، ولا يمكن أن نتسبب بضعف الحراسة في مواقع مهمة كتلك للبحث عن بضع هاربين.. ثم إن القائد

مقتنع أنكم ستحاولون التسلل للسفينة الفضائية، وبهذا يمكنه القبض عليكم دون بذل كثير من الجهد..”
 غمغت “وهذا حق.. هذا معناه أن الخطر سيكون مضاعفاً عند محاولتنا التسلل.. لكن....”
 صمتُ فجأة وأنا أقف متوجسة مع الصوت الخافت الذي تسلل لسمعي.. أشرت له ليصمت وإن لم يكن بحاجة لذلك مع منظري، ثم استعددت بسلاحي، أو سلاحه بالأحرى، وأنا أنتظر الشخص الذي سيظهر أمامي مع اقتراب الصوت من موقعنا..
 بعد فترة قصيرة سادها الصمت، سمعت صوتاً هامساً يناديني، عندها تهتدت وخرجت من موقعي وأنا أقول
 “أتعلم لو أنك لم تتحدث، لوجدت رصاصة تحييك فور اقترابك مني؟..”
 وجدت أمجد قد نزل على شيء من المبعدة من موقعنا، ولما رأيي اقترب قائلاً “إذن لم نخفي في المكان.. من المستحيل رؤيتك أو الشك بوجودك من الأعلى..”
 سألته وأنا متعجبة “ما الذي جاء بك الآن؟ لقد حلّ الظلام وسيغدو ارتقاؤك هذا الجرف أكثر صعوبة وخطورة”
 قال أمجد وهو يشير خلفه “ليس كذلك.. لقد أتيت لإستعادتك..”
 فتحت فمي لأعترض، فسارع ليقول “وقمت بتجهيز وسيلة لإخراج الحارس من هنا.. فقط علينا الاعتماد على قوة أدهم وعلى حظنا البحث في عدم مباغته الحراس لنا”
 كان قد وصل لموقعي، فنظر للحارس من خلفي وهو يغمغم “أهو بخير؟”
 تساءلت بابتسامة “لم يكن هذا يهكم قبل فترة قصيرة”
 أجابني مقطباً “لست مهتماً به بل بك.. أريد أن أعيده للأعلى لتطمئني عليه وتعودي إلينا دون اعتراض.. لا يمكنني أن أتخلى عنك الآن”
 نظرت للحبل المتدلي خلفه وقلت “لا أفهم.. كيف تنوي...”
 فقال أمجد “سنرفعه بهذا الحبل حتى أعلى الجرف، وهناك سيصبح قادراً على استدعاء زملائه والعودة للإدارة”
 قلت مقطبة “جهاز اتصاله معطل.. وهو جريح بشدة ولا يمكنه السير لمسافة قصيرة حتى”
 علق أمجد “لا تقلقي.. سنتدبر الأمر”
 فقلت بحدة رغماً عني “لو كنت تنوي رميه في الأعلى ليعود بمفرده فانس الأمر.. لن يتحرك من هنا بأي حال”
 قال مقطباً “ما الأمر يا حمراء؟ لماذا أنت متحاملة علينا بهذه الطريقة لأجله؟ نحن نحاول استعادتك دون أن نتعرضي للخطر، فساعدنا قليلاً دون اتهاماتك هذه”
 صمتُ بانتظار تفسير منه، فقال “سنرفعه ونحاول نقله لأقرب موقع يمكن أن يجده الحراس فيه بسرعة.. وبهذا سيتمكن من تلقي العلاج قبل أن تسوء حالته.. أيكفي هذا؟”
 سمعنا صوت الحارس من خلفي يقول “سيكون هذا رائعاً.. شكراً لكم”
 علت أمجد الدهشة لما سمع لغته العربية الواضحة، لكنه لم يعلق وهو ينظر لي بانتظار رأيي، فغمغت “إن كنت

متأكدًا أنه لن يتضرر، فلا اعتراض لديّ.."

علق أمجد بصوت خافت "ما الذي تهدفين لفعله حقًا؟"

ابتلعت لساني قبل أن أرد عليه برد يزعجه، فيما اقترب أمجد من وليد قائلاً "هل تستطيع الوقوف والسير حتى الحبل؟"

غمغم وليد "سأحاول.."

وحاول النهوض بعسر شديد والألم صارخ على وجهه بسبب جراحه، وقبل أن أعترض بكلمة قام أمجد بمساعدته على الوقوف وأسند ذراعه على كتفه ليساعده على السير.. فتبعتهما صامتة، ورغم قلقي على جراح الرجل التي بدأ بعضها بنزف المزيد من الدماء، إلا أنني صمت عن التعليق.. ليس من حقي أن أستبقي الرجل وأسبب له ضرراً أشد في غياب العلاج المناسب.. عندها سأكون قد أذيتَه بدل مساعدته..

قرب الحبل، قام أمجد بعمل حلقة صغيرة به ليتخذها وليد كمتكأ لقدمه، وساعده ليضع قدمه اليسرى فيها قائلاً "عليك باستخدام قدمك الأخرى في دفع جسدك بعيداً عن الصخور لئلا ترتطم بها.."

لم يعلق وليد وهو يحيط ذراعه الأيسر بالحبل عدداً من المرات، ثم بجذبة قوية للحبل قام بها أمجد، وجدوا الحبل يشتد فجأة ويبدأ بالارتفاع شيئاً فشيئاً.. وكما اقترب وليد من الصخور، قام بدفع جسده بعيداً عنها بدفعة خفيفة.. ظللت مع أمجد نراقب ما يحدث بقلق خشية سقوط وليد وحدث أضرار أكبر لجراحه.. لكن بعد أن ارتفع وتجاوز نصف المسافة، التفت أمجد إليّ قائلاً "هيا بنا.. لا يجب أن نتأخر.."

واقترب من الجرف القائم ليصعد عليه، فقلت قبل أن يبتعد "شكراً لمجيئك.. وأسفة إن كنت قد أذيتك في غضبي.."

قال أمجد وهو ينظر إليّ "لقد جئت لأجلك أنت.. لكن أتمنى ألا تشذي عن الفريق مرة أخرى.."

غمغمت مطرقة "أخبرتكَ أنني لم أستطع تركه ليموت.."

فابتسم أمجد ابتسامة صغيرة قائلاً "وتدعين أنك لا تهتمين؟ أنت فتاة غريبة، تخالفين أقوالك بأفعالك باستمرار.."

قلت مقطبة وأنا أشرع بالصعود "هذا شيء آخر.."

لم يعلق أمجد وهو يصعد بدوره محاذرين أن نزلّ مع اشتداد الظلام وعدم تمكننا من إنارة أي مصباح.. كان صعوداً مرهقاً جداً، ولما وصلنا للأعلى غمغم أمجد محاولاً التقاط أنفاسه "ألم تجد مكاناً أفضل للسقوط فيه يا رجل؟"

علق وليد وهو يجلس جانباً بتعب "الفضل لرفيقكم في هذا"

لم يعلق أدهم بكلمة وهو يطوي الحبل بيده ثم يحمله على كتفه، فيما قالت بسملة من موقعها وهي تراقب المنطقة القريبة "أسرعوا.. أخشى أن يقترب منا الحراس دون أن ننتبه"

فقال لي أمجد "عودي أنت وبسملة لمخبئنا.. سننقل الرجل حتى أقرب موقع نستطيعه وسنعود سريعاً.."

لم أكن أستطيع الاعتراض لئلا أبدو متشككة بهما، لكن قبل أن أبتعد مع بسملة سمعت وليد يقول “مهلاً.. ما أخبرتني به عن المؤسسة.. أنت متأكدة من صحته؟”

نظر أمجد وأدهم لي مقطبين، فقلت متجاهلة إياهما “أجل.. ابحث عن السبب الذي يجعلهم يفقدوننا ذكرياتنا.. دقق في تصرفاتهم وملفاتهم وستدرك كل شيء..”

فقال وليد “إن كان ما تقولينه حقاً، فلا يمكنني السكوت على ذلك.. وإلا كنت مجرماً مثلهم..”

ثم نظر لأمجد مضيقاً “لو أردت الوصول إليكم، فكيف يمكنني ذلك؟ لازلت أريد التأكد من هذا الأمر قبل أن أنغمس فيه أكثر..”

قال أدهم بحدة “لو حاولت البحث عنا مجدداً فلن أتهاون معك، ولن ينفذك أبنا مرة أخرى..”

وأضاف أمجد “مهما كانت أسبابك، فلا يمكننا الوثوق بك أبداً.. لذلك ابتعد عن طريقنا إن كنت ممتناً حقاً لإنقاذها حياتك”

كان هذا إيذاناً لي ولبسملة بالرحيل، فاستدردت معها وغادرت بصمت.. فيما أسند أمجد وأدهم وليد وهما يتجهان به إلى إدارة المؤسسة..

بالنسبة لي، فقد شعرت أن وليد لم يكن كاذباً.. قد أكون مبالغة، لكنني شعرت بالصدق في عينيه.. لكن مع ذلك لا يمكنني تجاهل خطورة وجوده علينا.. مهما كان ممتناً لنا، فقد يرى أن إعادتنا لحظيرة المؤسسة خير لنا من الضياع ثم الموت في هذا الكويكب.. أو التعرض للقتل على أيدي بقية الحراس..

سألنتي بسملة بهمس ونحن نسرع في طريقنا للمخبأ “أعتقدين أننا خسرنا مساعدة أحد الحراس؟ ألم يكن من الأفضل منحه بعض الثقة؟ قد يعيننا على ما نريد خاصة وأنه من طاقم المؤسسة، أي أنه سيواجه تساؤلات أقل منا نحن السجناء لو حاول التقصي عن بعض الحقائق”

قلت هازة كتفي “لا أعتقد أن أي الرجلين سيوافقك على قولك هذا.. يكفي أنهما كادا يقتلاني لأنني حاولت إنقاذ حياته”

غمغمت بسملة “أنت تبالغين.. هما كانا خائفين عليك فقط”

لم أعلق على هذا قط.. بل التزمت الصمت ونحن نسلك طريقاً حفظناه في هذه الغابة المظلمة..

ظلت بسملة تجول في المخبأ بقلق، بينما بقيت جالسة قرب مدخله بصمت أنظر لأصابعي وأحاول تقييم كل ما حدث هذا اليوم.. هناك عدة أفكار تدور في رأسي، حول ما أنتوي فعله، حول أهمية وجودي مع الآخرين رغم تعارضنا الدائم، حول تلك الومضات التي تتراءى لي بشكل دائم..

ويبدو أنني بدوت لبسمة غير مهتمة، إذ أنها وقفت أمامي بغضب لم أعده منها وهي تقول لي “ألست قلقة عليهما؟”

رفعت رأسي إليها مجيبة “لم أقل ذلك”

فقلت بعصبية “إذن لماذا لا يبدو ذلك عليك؟ فيم تفكرين في هذا الوقت؟ لو حدث لهما أي شيء، سيكون هذا بسببك أنت”

قلت بحدة “أنا لم أطلب منهما اللحاق بي.. أخبرتك صراحة أي مستعدة للانفصال عن الفريق إن كنتم تخشون أن أسبب لكم ضرراً.. كان عليهما الاكتفاء بهذا والبقاء هنا بصمت..”

ظلت بسمة تنتظر لي بغضب استغريته، ثم جلست في جانب المكان وهي تهز قدمها بعصبية.. فلم أمنع ابتسامتي من التسلسل لشفتي وأنا أداريها عن أنظارها.. لقد أبدت هذه الفتاة انفعالاً غير الذعر والهلع الدائمين.. للمرة الأولى تتخلى عن طبيعتها ومراعاتها للآخرين وتظهر غضباً كهذا..

سمعنا خطوات أمجد وأدهم ورأيناها يتقدمان منا بصمت، فوقفت وأنا أسألها “هل أخذتماه قريباً من الإدارة؟ ساعته محطمة، كيف سيتمكن من مناداة رفاقه؟”

قال أدهم مقطباً “لا تقلقي.. إنه بخير”

قلت بحدة “هذه إجابة عائمة.. قد تعني أنه بخير عند رفاقه يتلقى العلاج المناسب أو أنه بخير في هوة عميقة ينتظر الموت”

أجاب أدهم وهو يلقي بجسده جانباً “هلا كفتت عن هذه الأسئلة؟ يكفيني ما واجهته هذا النهار”

لم يبدُ على أمجد أيضاً أنه سيجيب على أسئلتني مما سبب لي الضيق.. هل أنا لحوحة لهذه الدرجة؟..

لم يمض وقت طويل من الليل حتى كانت بسمة قد استلقت جانباً بدورها متدثرة بكل ما تستطيعه وهي تنام نوماً عميقاً.. أما أنا، فقد جلست قرب المدخل أراقب في مناويتي الأولى، وعليّ بعدها إيقاظ أدهم الذي لم يكن بأفضل حالاً من بسمة.. كنت لازلت أحتفظ بخنجر الحارس، فأخذت ألقه في يدي وأتمله.. لا أعتقد أنه سيكون أسفاً لفقده كثيراً، وهو قطعاً أكثر فائدة لي منه.. وطبعاً لم أعد له سلاحه فهو أكثر نفعاً لي..

رأيت أمجد يقترب ليقف قريباً مني، لكنني لم أفه بكلمة وأنا مستمرة بتقليب الخنجر في يدي، ثم سمعته يقول وهو يجلس قريباً “ما معنى ما حدث هذا اليوم يا حمراء؟ أنت تتصرفين بغرابة تامة.. وكأنك تحاولين إثبات نقطة لا نفهمها..”

نظرت له مقطبة وقلت “أي نقطة هذه؟ حاولت إنقاذ حياة رجل.. ما الغريب في هذا؟”

قال بإصرار “ليس بهذه الطريقة.. لقد كنت متحاملة علينا ومصرة إصراراً غريباً أننا ننوي إيذاءه.. لو كان ذلك الحارس شخصاً قريباً منك، لما استغربنا الأمر.. لكنه غريب عنك.. وربما عدو.. فلماذا؟”

أجبت “لقد عاملته كإنسان قبل أن يكون غريباً وعدواً.. وألم يدر في ذهنك أننا قد نكسبه في صفنا بعمل كهذا؟ لا

أدري ما الذي يسوؤكم في ما فعلته..”

ظل ينظر لوجهي وكأنه يبحث عن إجابة أخرى، فقلت بشيء من الحدة “أستطيع أن أرى التكبذب في عينيك بوضوح.. فلماذا لا تصدقني؟”

قال بصرامة “لأنني أجد اهتمامك به يتجاوز الاهتمام بأي شخص غريب”
قلت بسخرية “أجل.. لقد وقعت في هواه من النظرة الأولى.. أو ربما من الجرح الأول”
بدت الصدمة على وجهه.. الأحق، هل صدق مزحة كهذه؟.. ثم وجدته يغادر بصمت تام مما جعلني متعجبة من أمره.. لكن ما المهم؟ سواء صدق هذا أم لم يصدقه فلا يهمني في شيء..

عندما اجتمعنا في اليوم التالي في المخبأ، قال أمجد وهو ينظر لنا “لقد قررت أن أضع خطة لإنقاذ عمي وتنفيذها بمساعدتكم.. بعدها سنحاول الهرب من هذا المكان بأسرع ما نستطيع”
قلت بشيء من الدهشة “تعلم هذا.. لكن ألم تقل إنك لا تعلم أين هو عمك؟”
صمت أمجد وهو يتبادل النظرات مع أدهم، ثم قال بهدوء “بل أصبحت أعرف موقعه الآن..”
نظرنا له بدهشة شديدة لم يشاركنا فيها أدهم.. إنهما يعلمان بأمر ما وأخفياه عنا.. فما الذي استجد من البارحة حتى اليوم؟..

عدت أسأله “كيف؟ ما الذي استجد منذ أمس؟”

أجابني أمجد “لقد سألت الحارس المصاب إن كان يعرف عمي، وقد أخبرني أنه يعرفه ويعرف موقعه..”
فقلت بضيق “ما الذي فعلتماه به؟ هل استغللتما جراحه لإجباره على الحديث؟”
قطب أمجد بضيق بينما قال أدهم بصرامة “لا داعي لهذه الاتهامات يا حمراء.. نحن لسنا وحوشاً”
ظللت أنظر لأمجد بحنق بانتظار تفسير منه، فقال بشيء من الجفاف “لم نجبره ولم نسع لأذيته.. لقد سألته قبل أن نصل للمباني الإدارية.. وهو لم يتوان عن إجابتنا.. هو يشعر أنه مدين لنا بالكثير ولم يعترض على ما طلبنا معرفته أبداً”

صمتُ بعد قوله فيما هو يضيف “لست أدري لم تصرين على اتهامنا برغبة إيذائه..”

قلت مقطبة “ليس ذنبي أنكم أفصحتم عن عدم رغبتكم معاونته منذ البدء..”

قال أدهم “لنترك هذا جانباً.. ولننتحدث عن عمك يا أمجد”

زفر أمجد وهو يحاول استعادة هدوئه، ثم قال “عمي موجود في المباني الإدارية.. إنه مسجون فيها بشكل دائم، وليس موجوداً في المساكن التابعة لأحد المناجم”

نظرت له بدهشة وبسمة تقول "لم ذلك؟ لم لا يعمل في المناجم كالبقية؟"

التمتعت عينا أمجد وهو يجيب "لأن عمي ليس مجرد سجين عادي.."

نظرنا له بتساؤل، فقال بابتسامة ثقة "عمي هو أحد العلماء الذين ساعدوا على تطوير الكويكب"

اتسعت أعيننا بذهول وقد فاجأتنا تلك المعلومة.. ثم غمغمت "أنت لم تذكر ذلك من قبل.. ثم إن الكويكب اكتشف

منذ أوائل القرن، هذا معناه أن عمك لا يقل عمره عن السبعين بحال"

أجابني "لم يكن هناك سبب قوي لأخوض في تلك التفاصيل.. وعمي لا يزال في الأربعين من عمره.. إنه انتدب

لتطوير الكويكب منذ فترة قصيرة، سبع سنين تقريباً.."

ثم أضاف "عمي شارك ضمن فريق العلماء الذين انتدبوا لتطوير الكويكب بشكل عام، وبخاصة جهاز ضبط

الجادبية فيه.. لكننا لم نسمع الكثير منه لأنه غادرنا منذ انتدابه ولم تصلنا أي أخبار منه حتى عودته فجأة للوطن،

وظل يتصرف بارتباك مثيراً تعجبنا وريبتنا.. ثم اختفى فجأة منذ عدة أشهر بعد أن حادثني عدة مرات بالهاتف

وألقى في نفسي عدداً من التساؤلات عن تصرفاته العجيبة.."

تساءل أدهم "أعتقد أن لعمله هذا فائدة بالنسبة لنا في هروبنا؟"

قال أمجد بثقة "بالطبع.. معلوماته عن الكويكب تفوقنا جميعاً.. وقد نستطيع بواسطته كشف الكثير من خبايا

المؤسسة.. وبعد أن نتمكن من الهرب من هذا الكويكب، سأسعى لفضح ممارسات المؤسسة وانتهاكاتها لدى العالم

أجمع"

بدا لي هذا إغراقاً في أحلام لا حدود لها، بينما قال أدهم "بالنسبة لي أريد مغادرة هذا الكويكب، وفور أن يتحقق

لي ذلك سأنسى وجوده تماماً وأعيش حياة أعوض بها البؤس الذي حاق بي هنا.."

فقلت مؤيدة "هذا أفضل بالنسبة لي أيضاً.. لا أريد الدخول في دهاريز قضية أعتبرها خاسرة منذ الآن.. مهما

فعلنا فلن يصدق أحد حديث سجناء محكوم عليهم بالإعدام أو السجن المؤبد.."

نظر أمجد لنا بشيء من الإحباط.. أكان يتوقع منا حماساً غير محدود وانصياعاً لأحلامه غير المعقولة؟.. ثم تنهد

قائلاً "لن أفرض عليكم أكثر من ذلك.. يكفي مساندتكم لي حتى نتمكن من الهرب من الكويكب.."

ثم اعتدل جالساً وقال "الآن سنعمل على إنقاذ عمي قبل أي شيء آخر.. ثم نرسم خطتنا التالية بمساعدته.."

تساءل أدهم "كيف سنتمكن من إنقاذه من بين أيديهم؟"

قال أمجد "هذا ما يجب أن نخطط له.. معلوماتنا عن المباني الإدارية قليلة.. أقترح أن نقوم بمراقبتها لعدة أيام

حتى نكتشف الثغرة التي تبيح لنا الدخول وإنقاذ عمي منهم.."

قال أدهم باعتراض "ولم الانتظار؟ أنسيت أن ذلك الحارس قد عاد لهم؟ لا ندري ما الذي سيخبرهم به.. قد يدلهم

على الموقع الذي التقينا به فيه، وهو غير بعيد عن مخبأنا هذا.. قد يخبرهم بنيتنا تهريب العم.. لذلك يجب أن نبدأ

التحرك بأسرع مما يتوقعونه.. أقترح أن نقوم بذلك الليلة"

قال أمجد مستكراً "الليلة؟ هذا جنون.. يجب أن نعرف خط سير الحراس والوقت الذي نقلّ فيه الحراسة في الساحة وغيرها من معلومات ضرورية لتمكيننا من إحباك خطة جيدة.. لا يوجد أي داع لهذا التهور"

قال أدهم بحزم "لست مقتنعاً بذلك.. تأخرنا يزيد من خطورة موقفنا.. لست آمن ذلك الحارس ولو قليلاً.. يجب أن نضرب ضربيتنا قبل أن يحكموا تحصيناتهم حول عمك ويترصّدوا لنا بكل ما يملكونه.."

قلت بدوري "هذا ما أراه أنا أيضاً.. رغم أنني أشك بخيانة وليد لنا بهذه السرعة، وهو قد أكد لي كثيراً أنه لن ييوح بأمرنا أبداً، إلا أنني أرى في التأخير تطويلاً لا داعي له.."

قال أمجد بغير تصديق "أنتما متهوران كثيراً.. هذه مسألة حياة أو موت.. لن نسلم من خطر أن يصاب أحدنا أو يتم القبض عليه إذا ما فشلنا.."

اندفعت أقول "ولم هذا التشاؤم؟ لا تكن متردداً بهذا الشكل.. أحياناً يكون الارتجال أفضل من الخطط المدروسة"

نظر لي أمجد بضيق ظاهر في عينيه، لكنه لم يعلق وأدهم يضيف "سنبدأ الليلة.. هذا أفضل وقت ممكن.."

صمت أمجد تماماً دون تعليق، مما دلنا على رضوخه للأمر.. فآثار هذا راحة في نفوسنا، في نفسي أنا وأدهم على الأقل.. فبسمّة تذعر من مجرد ذكر خطط التسلل للمباني الإدارية وتصور ما قد يحدث عند تنفيذها.. وأمجد لا يبدو راضياً بأي حال..

مع مغيب شمس هذا اليوم، كان أمجد وأدهم قد استعدا للقيام بالعملية التي خططنا لها، وقد استعددت أنا أيضاً وأنا أتسلح بسلاح وليد الذي لازلت محتفظة به.. كان من المفترض أن ينفذ أمجد وأدهم خطتهما بدخول المباني الإدارية، بينما أبقى أنا في أقرب جزء من الغابة مستعدة بسلاحي في حال تعرضوا لملاحقة أو خطر أثناء هروبهم.. عندها قد يفيدهم وجودي لأجذب عنهم انتباه مطارديهم..

أما بسمّة، فقد اقتنعت بعد جهد بالبقاء في المخبأ وحيدة.. لأن وجودها معنا عبء أكثر منه فائدة لنا، وقد ينالها شيء من الخطر الذي سيحيق بنا.. أما في المخبأ فلا نظن أن أحد الحراس قد يتوصل إليه في الليلة التي سنغيب فيها..

وصلنا بعد وقت قصير لأطراف الغابة المقابلة للمباني الإدارية، فربضنا في موقع مدروس وأمجد يقول بخفوت "ستمر المركبة قريباً.. نفذ الخطة دون ضوضاء ما أمكنك يا أدهم.."

ابتعد أدهم عن موقع أمجد مسافة معقولة واختبأ خلف الأشجار بصمت بينما أسرعت أنا ارتقي شجرة قريبة وسلاحي معلق على كتفي.. مرت دقائق استطالت لتصبح نصف ساعة قبل أن نسمع صوت المركبة الواضح في سكون الغابة.. ولما تبدت لنا أنوارها الأمامية وهي تعبر في طريقها المعتاد كما تفعل دائماً منذ قدومنا للكويكب،

عندها أسرع أمجد خارجاً من مخبئه وهو يلوح بذراعيه صائحاً بلغة ناير "توقفوا.. أرجوكم توقفوا.." سقط نور الكشاف على أمجد ليظهره بوضوح للحارسين في المركبة، فتوقفت المركبة فجأة والحارسين يشهران سلاحيهما في وجهه وأحدهما يصيح "يا للشيطان.. ما الذي تفعله هنا؟"

اقترب أمجد منهما رافعاً ذراعيه بينما قال الآخر "إنه أحد الهاربين"

كنا واثقين أن الحراس لن يحاولوا إطلاق النار على أمجد رغبة باستجوابه، وهذا قد طمأن أمجد الذي أسرع

يقول بلهفة "أرجوكم ساعدوني.. أحد السجناء ممن هربت معهم يحاول قتلي.. إنه قريب من هنا.."

كان قد وصل قريباً من قائد المركبة الذي أولاه هو ورفيقه اهتمامهما رغم الأسلحة التي لم يخفهاها، ولم ينتبها لأدهم الذي تسلل من خلفهما بدون صوت واستخدم سلاحه في توجيه ضربة قوية لرأس الحارس الآخر دار لها رأسه.. ولم يكد القائد يلتفت لرؤية ما حدث والدهشة تغمره حتى وجد أمجد يعاجله بضربة قوية لسلاح الحارس ليدفعه للخلف بقوة فيصيبه في وجهه، وقبل أن يتمالك القائد نفسه وجد أدهم الذي قفز في المركبة يعاجله بضربة مماثلة أسقطته هو الآخر على مقود مركبته..

عندها سارع أمجد وأدهم لإنزال الحارسين فاقدى الوعي من المركبة وقاما بجرهما بعيداً بين الأشجار.. وفي منطقة بعيدة، قام أدهم بتقييدهما لإحدى الأشجار مستخدماً حبلأ وجده في المركبة، بينما قام أمجد بنزع أجهزة الاتصال المكونة من ساعة حول الرسغ وقطعة صغيرة في الأذن، وتأكد من تحطيمها بشكل تام، ثم نزع ملابس أحدهما ممن يماثله في الحجم وارتداها بعجلة..

بعد كل ذلك، حمل أمجد سلاح الحارس وهو يقول "لا تناسبك ملابس أيهما.. أليس كذلك؟"

فقال أدهم "لنلتزم بالخطة الأصلية.. سأتظاهر بأنك أحضرتني بناء على الأوامر حتى نتمكن من دخول ساحة

المباني الإدارية دون أن نثير الشكوك"

عادا للمركبة فاستقلها وأمجد يلتفت إليّ حيث جلست على فرع عالٍ من الشجرة، فلوح لي بإشارة لأبقى متنبهة لعودتهما.. لم أعلق وأنا أراه يقود المركبة مكملاً طريقه نحو المباني الإدارية، فتنهدت وأنا متشبثة بسلاحي أنظر للمباني القريبة..

وفي المركبة، عدل أمجد وضعية القبعة على رأسه وقال لأدهم "تذكر أن الساحة والمباني مليئة بأجهزة المراقبة

فلا تظهر ما يكشف سرنا.. ولا تنس تخبئة يدك اليسرى لئلا يكتشفوا غياب السوار.."

علق أدهم وهو يدس يديه في جيوبه "المرور عند المدخل سهل.. لكن ماذا بعد ذلك؟"

غمغم أمجد "سنعمل بالخطة المحددة وسنرتجل فيما غير ذلك"

ضحك أدهم قائلاً "سنرتجل اعتماداً على خبراتنا الحربية السابقة؟ هذا لا يبشر بخير"

زفر أمجد دون تعليق والمركبة تحملهما خارجين من الغابة وعبر المساحات الصخرية التي تفصل الغابة عن

المباني الإدارية.. كانت الكشافات الموزعة عبر السور تكشف المناطق المحيطة به كلها.. وعندما اقتربت

المركبة من البوابة اعتدل أمجد في جلسته محاولاً أن يكسب وجهه صرامة تناسب ما يبدو على الحراس عادة.. وعند المدخل أوقفه الحارس المسؤول واقترب من المركبة قائلاً "أين تأخذ هذا السجين؟" قال أمجد وهو يحاول ألا يظهر وجهه بوضوح للحارس "طلب مني أحد مساعدي القائد إحضاره من المساكن.. أهنالك مشكلة؟"

نظر الحارس لوجه أدهم بتمعن وأمجد يخشى أن يتعرف الحارس وجهه، لكن الحارس تراجع بعد لحظات قائلاً "انطلق.. ولا تنس تسليم مفتاح المركبة للقائد قبل انتهاء مناوبتك"

هز أمجد رأسه إيجاباً وهو يدلّف من البوابة التي فتحت أتوماتيكياً.. ثم قام بإيقاف المركبة في وسط الساحة وهبط منها ممسكاً سلاحه وأشار لأدهم ليهبط من المركبة بدوره.. ظل محتفظاً بمفتاح تشغيل المركبة ليتسنى لهما استخدامها عند خروجهم، والذي لا يشك أنه سيكون حافلاً..

سار أمجد عبر الساحة وهو يجرّ أدهم معه محاولاً ألا يلفت الأنظار كثيراً، عندما أوقفتهم صراحة من خلفهم.. تجمدا في موقعهما بتوتر، قبل أن يلتفتا خلفهما ليريا ما زاد توترهما أضعافاً.. كان قائد الحراس يقترب منهما بخطوات صارمة ومعه أحد مساعديه.. فغمغم أدهم "يا للمصيبة.. إنه قائد الحراس" رد عليه أمجد بشيء من العصبية بصوت خافت "اصمت.."

سمعا قائد الحراس يقول لأمجد بصراحة "ألست قادماً من المنجم (أ) أيها الحارس؟" اعتدل أمجد في وقفته مجيباً "أجل سيدي.."

قال القائد بحدة "أين روبرت؟ لقد طلبت منه إحضار إحصائية مهمة من المنجم، وحتى الآن لم يخاطبني ويرفض الإستجابة لاتصالاتي.. فأين هو؟"

شك أمجد أن يكون القائد يتحدث عن أحد الحارسين اللذين أطاحا بهما سابقاً في الغابة، لكنه تمالك ارتبائه وهو يقول "لا يزال في المنجم يا سيدي.. رأيته منهمكاً بعمله هناك ولست أدري لم لا يجيب على الاتصال" تأمله القائد بنظرة طويلة شعر أمجد أنها تحمل شيئاً من الشك، ثم مد يده لأمجد قائلاً بصراحة "أين مفتاح المركبة؟ ناولني إياه مادمت قد أنهيت مناوبتك"

كان أمجد يود الاحتفاظ بالمفتاح لتسهيل هروبهم، لكنه لم يجد مناصاً من تسليمه إياه لئلا يثير الشكوك، بينما قال المساعد "ما الذي يفعله هذا السجين هنا؟ من أمر بإحضاره؟"

أجاب أمجد بسرعة مستخدماً الحجة التي فكر فيها مسبقاً "لقد طلب مني أحد المساعدين إحضاره من المنجم فور إنهائه لعمله.. ولست أعلم بالسبب"

تساءل المساعد "من من المساعدين بالضبط؟"

ارتبك أمجد قليلاً ثم قال "المساعد دانييل.. هو قد خاطبني عبر جهاز الاتصال وطلب مني إحضاره"

نظر المساعد للقائد بشيء من الدهشة والقائد يغمغم "لقد كنت مع دانييل للتو ولم يذكر لي شيئاً من هذا"

ظل يحدج أمجد بنظرات متفحصة بينما غمغم المساعد “هل أعود له لأسأله عن السبب؟”
شعر أمجد بتوتر بالغ وهو يخشى أن تُثار شكوك أكثر حولهما، ثم سمعوا أدهم يقول بضجر “هيا.. أنا متعب بعد كل ذلك العمل الشاق وأريد أن أنتهي من هذا بسرعة”
ألقي القائد نظرة سريعة على أدهم قبل أن يلوح بيده قائلاً “أذهب وأبعد هذا الوقح من أمامي.. يبدو أن هذه الليلة لن تنتهي على خير”
أسرع أمجد يجذب أدهم ليسير معه مبتعدين عن القائد الذي صاح في مساعده “جذ أي طريقة للاتصال بذلك الأحمق روبرت وليحضر لي ما طلبته منه على وجه السرعة”
غمغم أمجد وهما يتبعان عن مسامع القائد “ألم تستطع إغلاق فمك لدقائق معدودة؟”
قال أدهم بصوت خفيض “لقد بدأ يشك بك.. لذلك حاولت أن أصرف نظرهما عنك.. عليك شكري بدل تأنيبي..”
دلفا أحد المباني القريبة دون أن يلتفت إليهما أحد، وأسرع للطابق الثاني فيه حيث قُلت الحركة كثيراً وبدا الطابق مهجوراً.. في الواقع كان ذلك الطابق أصغر من بقية المبنى إذ لم تكن فيه إلا أربع غرف متباعدة..
نظر أمجد حوله بتوتر متفحصاً الأبواب وأدهم يسأله “أتعرف أي واحد فيها هي المطلوبة؟”
غمغم أمجد “قال إنها الغرفة المتطرفة.. لكن من الصعب تحديد ذلك هنا”
تقدم أدهم لأبعد باب في الطابق قائلاً “لا بد أن يعني هذه الغرفة..”
حاول فتح الباب فوجده مغلقاً كما توقعوا، فقال أدهم “هل نكسر القفل باستخدام الرصاص؟”
أسرع أمجد يقول “لا نستطيع.. سنجذب الانتباه بهذا ولا شك.. لنحاول فتحه بالقوة دون جلبه”
أبعده أدهم وهو يقول “سيكون هذا صعباً..”
وضرب الباب بكتفه بقوة عدة مرات.. بينما وقف أمجد يراقب الممر بقلق ثم يعود ببصره لأدهم الذي وجد الباب قد تضعض لكنه لم يفتح بعد، فقال “مرة أخرى بعد..”
أوقفهما صياح من خلفهما فالتفتا بسرعة ليجدا حارساً عند رأس الممر ينظر لهما بدهشة، ولم يلبث أن رفع جهاز الاتصال عندما أدرك أنهما يحاولان اقتحام الغرفة، فصاح أمجد وهو يرفع سلاحه “أسرع يا أدهم.. لقد كشف أمرنا”
أطلق أمجد عدة رصاصات قريباً من الحارس ليجبره على التراجع والاختباء في زاوية الجدار، بينما استنفر أدهم قوته وضرب الباب بأعنف ما عنده ليفتح بدويّ عالٍ.. أسرع أدهم للغرفة بينما حاول أمجد الاختباء وهو يتبادل إطلاق النيران مع الحارس، لكنه لم يلبث أن سمع أدهم يصيح “إنها فارغة..”
بهت أمجد للحظات قبل أن يهرع للغرفة فينأمل زواياها الفارغة إلا من بعض الأثاث المهمل، عندها قال بضيق “لقد فشلنا.. أم أن وليد خدعنا؟ والآن الحراس قادمون إلى هذا الطابق.. لنهرب”
أطلق عدة رصاصات من سلاحه عبر الباب ليجبر الحارس على التراجع قليلاً ثم ركض مع أدهم في الاتجاه

الآخر من الممر ليجدا أمامهما مخرج الطواريء.. فدلغا من الباب بسرعة وهبطا السلالم قفزاً.. لكن لم يتجاوزا الطابق الأول عندما سمعا أصواتاً قادمة من الأسفل بالإضافة لصوت صفارات الإنذار التي تعالت في الساحة.. الآن غدا الوضع مكشوفاً أكثر وسيواجهان الكثير من المصاعب حتى يستطيعا تجاوز بوابة الساحة.. التفت أمجد لأدهم متسائلاً “هل تستطيع تشغيل المركبة دون مفتاح؟”
قال أدهم مقطباً “بالطبع، لو أنها مثل السيارات العادية..”
فنظر أمجد عبر فتحة السلالم وقال “لن نستطيع النزول عبر هذا المخرج ولا العودة من حيث جئنا.. اكسر النافذة خلفك واقفز، وفور أن نخرج من هذا المبنى حاول تشغيل المركبة التي أتينا بها وأنا سأبعد الحراس عنا ما استطعت”

قال أدهم “أنت مدرك أن السلاح الذي بيدك سعة خزانه أكبر من المعتاد، لكنه محدود.. سيفرغ عما قريب”
واتجه للنافذة التي تقع خلفهما فضربها بقبضته بقوة لتتكسر ويتناثر زجاجها دون أن يجرح أدهم يده إلا بشكل بسيط، ثم نظر من النافذة ليرى الساحة تكاد تخلو من الحراس وأغلبهم يتجهون لمدخل المبنى الأمامي..
سمع أمجد يطلق بعض الرصاص من خلفه، لكنه لم يتوقف وهو يقف على الإفريز متطلعاً للمسافة التي تفصله عن الأرض وهي بعلو طابق واحد، ثم قفز دون تردد ليتجاوز تلك المسافة ويسقط أرضاً متدحرجاً ليخفف من سقوطه، ثم هبّ واقفاً بنشاط واتجه نحو المركبة التي لم تكن بعيدة عنهما..

أسرع أمجد يقفز خلفه وفور أن استقر أرضاً اعتدل ورفع سلاحه نحو الحراس الذين انتبهوا لهما وشهروا أسلحتهم.. فاختبأ أمجد خلف صناديق قريبة وبدأ يطلق رصاصات سلاحه على من يراه يحاول الاقتراب من أدهم الذي قفز في المركبة وانحنى فيها ينزع أسلاكها محاولاً تشغيلها..
استغرقه ذلك ما لا يزيد على الدقيقة لكنها كانت طويلة جداً بالنسبة لأمجد الذي شعر بتوتر بالغ لفكرة أن يفرغ خزان سلاحه من الرصاص.. وفور أن سمع صوت المركبة وهي تبدأ العمل أطلق رصاصاته بغزارة على الحراس القريبين ليدفعهم للتراجع ويمنح نفسه فرصة للتقدم للمركبة دون خطر.. وقبل أن يفعل سمع أدهم يصيح “انتبه خلفك..”

نظر خلفه بسرعة ليجد أحد الحراس ينقض عليه محاولاً ضربه بسلاحه، فتفادى أمجد الضربة بعسر وفي المقابل وجه ضربة بمؤخرة سلاحه لرأس الحارس بقوة.. ثم انتزع سلاحه من يده وهو يكيل له ضربة أخرى قبل أن يتركه ويركض بسرعة نحو المركبة..

كان الحراس قد عادوا بعد تراجعهم وأطلقوا عليه رصاصاتهم، فنال منها أمجد رصاصة في كتفه وأخرى خدشت خاصرته قبل أن يقفز في المركبة، وعلى الفور اندفع أدهم بالمركبة بعنف ليتجاوز الساحة والحراس الذين تراجعوا من طريقه وإن أطلقوا رصاصاتهم بغزارة محاولين إيقافه.. لكنه لم يتوقف وهو يندفع نحو البوابة التي بدأ حارسها في إغلاقها، فتجاوزها وطرفي الباب يرتطمان بالمركبة بقوة وإن لم تستطع إيقافها.. تنهد أدهم

براحة وهو يقول "لم نحظ بخسائر بليغة.. إن تجاوزنا عن إصابة كتفك.."
غمغم أمجد مقطباً وهو يمسك سلاحه بقوة "لكننا فشلنا.. ولم ننحُ بعد"
رأيا أمامهما نوراً قادمًا من إحدى الجهات.. كانت إحدى المركبات قادمة باتجاههما من المنجم كما يبدو، فقال
أمجد "استعد للمناورة"
اعترض أدهم "وما أدرهم أننا هاريون؟"
غمغم أمجد وهو يرفع سلاحه "سيعلمون.."
وبالفعل، سمعا صوت ارتطام رصاصات بمركبتهم، فزجر أدهم وهو يدير مركبته بقوة ويناور مبتعداً عن
مرمى رصاصهم قائلاً "إنهم يحاولون تفجير إطار اتنا.."
صاح أمجد "خبيء رأسك ما استطعت.."
وأطلق رصاصاته بالمثل على المركبة محاولاً تفجير إطارها ليفقدها توازنها.. تبادل الطرفان الطلقات
والمركبتان تقتربان من بعضهما بسرعة حثيثة، ثم بدا أن الطرف الآخر قد غيّر هدفه إذ ارتفعت الرصاصات
محاولة أن تصيب أدهم الذي انخفض ما استطاع وهو يقود مركبته بتهور..
أما أمجد فقد حاول بالمثل أن يصيب قائد المركبة الأخرى، أو على الأقل يربكه، وهو يرى المركبة الأخرى
تحمل ثلاث حراس على الأقل.. شعر بإحدى الرصاصات تصيب ذراعه وأخرى تتجاوز رأسه بالكاد، ورأوا
المركبة الأخرى تواجه مركبتهم بتهور، فمال أدهم بالمقود جانباً بسرعة ليبعد مركبته التي كادت تنقلب وهي
تستدير.. في تلك اللحظة، تلقى أمجد رصاصتين في صدره ضربته بقوة فشقق وهو يفقد توازنه وجسده يرتمي
خارج المركبة مع ميلها العنيف..
صعق أدهم مع مرأى جسد أمجد الذي قفز خارج المركبة وصاح محاولاً الإمساك به "لا.."
لكنه لم يفلح في التثبيت به وهو يرى جسده يرتطم بالأرض ويتدحرج لمسافة قصيرة قبل أن يهدم تماماً.. عاد
أدهم يتشبث بالمقود بقوة وهو يجزّ على أسنانه بغیظ، ولما عادت الرصاصات تضرب مركبته أحنى رأسه ما
استطاع وهو يتجاوز المركبة الأخرى بسرعة وتهور..
لكن بدا أن الآخرين لن يستسلموا وهم يطلقون رصاصاتهم التي فجّرت الإطار الخلفي لتتحرف المركبة بقوة
وهي تزحف بعنف قبل أن ترتطم بصخرة كبيرة نوعاً خفت سرعتها وهي تنقلب جانباً وتزحف لمسافة قصيرة
قبل أن تتوقف تماماً..

الفصل السادس عشر

[صدمة قاسية]

طال بي الوقت وأنا جالسة على ذاك الفرع أراقب الظلام الدامس من حولي إلا من النور الذي يصدر عن كشافات المباني الإدارية.. وهذا أفضل ما في الأمر، إذ يمكنني مراقبة كل ما يجري في الجانب المواجه لي من الساحة بوضوح تام.. مرت مدة طويلة منذ رأيت مركبة أمجد وأدهم تدخل من البوابة دون صعوبات.. ورأيتهما يسيران في الساحة ليدلّفاً أحد مبانيها دون عسر كبير.. وبعدها عمّ الموقع سكون تام جعلني أتململ في جلستي وأنا أتأفف من تعبي.. وبعد مدة طويلة، انفجر الوضع بشكل فعليّ في الساحة مع صفارات الإنذار التي وصلني صوتها بوضوح وسط صمت المكان.. ثم بدأ بعض الحراس المتواجدون في الساحة بالترأخ نحو أحد المباني حاملين أسلحتهم..

تحفزت في مكاني وأنا أنظر للموقع بتوتر شديد.. لقد كشف أمرهم، لكن هل نجحوا في مسعاهم أم لا؟ والأهم من هذا.. هل سيتمكنون من الهرب بدون خسائر أم لا؟.. تبا.. بودي لو كنت هناك الآن، رغم أنني قد أكون بلا فائدة لهم.. لكني لا أحب دقائق الانتظار الصعبة هذه..

رأيت عندها أدهم يركض خارجاً من خلف ذلك المبنى مستغلاً قلة من بقي من الحراس في الساحة حتى قفز في المركبة.. غلبنني قلق على أمجد حتى رأيت يخرج من مخبئه خلف الصناديق ويركض بدوره نحو المركبة ويقفز فيها، فأسرع أدهم يقودها بشيء من التهور متقدماً نحو البوابة ليتجاوزها بعد أن ارتطم بطرفي البوابة.. وقاد المركبة عبر المساحات الصخرية قادماً تجاه الغابة.. شعرت بشيء من الراحة لنجاتهما وأنا أظن أخطر ما في العملية قد انتهى، وإن خاب أمني برؤيتهما وحيدين مما يعني فشلهما في إنقاذ عم أمجد.. لكن القلق عاد إليّ مع مرأى تلك المركبة التي شق نورها الظلام قادمة من الاتجاه الآخر، من المنجم كما يبدو، وركابها يبادلون أمجد الرصاص بغزارة..

من موقعي هذا كان من الصعب عليّ الوصول برصاصاتي للمركبة المهاجمة مما جعلني بغير فائدة وأنا أراقب الوضع بقلب واجف.. لذلك لكم أن تتخيلوا هلعي وأنا أرى جسد أمجد يقفز من المركبة ويسقط أرضاً متدحرجاً لمسافة قصيرة قبل أن يسكن تماماً.. ولم تلبث بعدها مركبة أدهم أن انفجر إطارها لتزحف على الصخور وتقلّب بعدها قريبة من الغابة..

نزلت من الشجرة بسرعة حتى منتصفها وقفزت متجاوزة المسافة الباقية، ثم شهرت سلاحي وأنا أقف عند أطراف الغابة فأطلق الرصاص على الحراس في المركبة الأخرى التي توقفت قريباً.. لم أكن ذات مهارة في التصويب، لكن ما فعلته كان كافياً لردع الحراس عن الاقتراب من أدهم الذي نهض بعسر من المركبة المنقلبة

وركض تجاه الغابة دون إبطاء.. وحالما وصل إليّ جذبني من ذراعي لأكف عن إطلاق النار وألحق به.. لكنني توقفت وصحت “إلى أنت تذهب؟.. يجب أن نستعيد أمجد”

هتف “لا فائدة.. لنهرب قبل أن يصلوا..”

صحت من جديد “لا يمكن.. لنستعده الآن.. هذا أسهل من محاولة إنقاذه من المباني الإدارية فيما بعد”
وعدت أطلق الرصاص على الحراس الذين اقتربوا من جسد أمجد.. لكن أدهم عاد يجذبني بقوة وهو يصيح “لنبتعد من هنا..”

جذب سلاحي من يدي وأجبرني على اللحاق به بين أشجار الغابة وأنا أحاول التملص من قبضته القوية دون فائدة.. فصرخت بغضب “لماذا تفعل ذلك؟ كيف تتخلى عنه بهذه السهولة؟ هل خفت على حياتك لتتخلى عن رفيقك بسرعة؟”

وقف أدهم فجأة والتفت إليّ ليقول بحدة “لأنه مات.. أيرضيك هذا الجواب؟”

انتفضت لقوله وعيناى تتسعان، ثم صحت “مستحيل.. أنت تكذب”

هز رأسه وأضاف وهو يغمض عينيه بقوة “لقد أصابوه إصابة قاتلة.. أنت بعيدة فلم تراه بشكل جيد أما أنا فمتأكد.. حتى لو استعدناه فلا نستطيع فعل شيء له الآن”

صرخت بصدمة “أنت تكذب..”

لكنه لم يعلق وهو يقول بسخط “تبا لك يا أمجد..”

وعاد يجذبني لنواصل الهرب وأنا مذهولة أحاول تذكر ما رأيته.. نعم رأيتهم يصيرونه.. نعم رأيته دماءه تلتخ الأرض الصخرية وهو يتدحرج عليها.. نعم رأيته جسده هامداً بلا حراك.. لكن أن يكون قد مات؟.. أن يكون قد قتل؟.. هذا لا يمكن.. لا أستطيع تصديق هذا..

جذبت يدي بقوة وأنا أصيح بغضب “كل هذا بسببك أنت..”

نظر لي بدهشة، فقلت بغضب أشد “بسبب إصرارك على القيام بهذه العملية بسرعة.. أنت حثته على عدم توخي الحذر والاندفاع في عملية فاشلة.. لقد مات بسببك”

قال أدهم مقطباً “وأنتِ عاونتني على هذا..”

ظلمت أهدق فيه بغضب وأنا أحاول استيعاب ذلك.. ووجدت الدموع تندافع غصباً عني من عينيّ بشكل سبب لي ضيقاً شديداً.. فاندفعت في اتجاه آخر راكضة دون توقف ودون أن أعبأ بهتافه خلفي.. سمعته يصيح “حمراء..

عودي.. لا تبتعدي وحيدة فهم يلحقون بنا..”

لكنه توقف لما سمع صوت خطوات خلفه، ولما ظهر الحراس الثلاث من بين الأشجار يتراكمون خلفه أسرع يركض في اتجاه بعيد عني وهو يقول بحنق “تبا لكل هذا..”

أما أنا، فلم أنتبه لطريقي وأنا أركض دون توقف وأكاد لا أرى ما أمامي جيداً بسبب الدموع.. وبعد ركض يائس

توقفت وسط الأشجار الساكنة المظلمة، وركعت أرضاً دافئة وجهي في ركبتي وأنا أستسلم لنشجي المرّ مثيرة دهشة عقلي.. سمعته يقول لي بغير تصديق "أليس هذا من تدّعين أنك لا تهتمين به؟ أليس هو من تحاولين الابتعاد عنه؟ لقد وفر عليك بذل الجهد وها هو قد تنحّى من طريقك.. فلم البكاء؟"

بادره قلبي بالجواب قبل أن أجد في نفسي القدرة على ذلك "وما أدراك أنت أيها المغرور؟ إنها تحبه.. قد أحبته منذ زمن طويل، لكنك حاولت خداعها وإيهامها بعدم جدوى ذلك.. جعلتها تياس وتتحلى عنه، والآن فقدته قبل أن يتبرع حبها.. فهل يسعدك ذلك؟"

أجاب عقلي بحيرة "أردت أن أحميها، أن أجنبها عذاب الرفض والصدود.. فكيف تلموني على ذلك؟"

قال قلبي بغضب "ألومك لأنك حرمتها منه قبل أن يحرّمها القدر منه.. والآن ماذا بيدها غير البكاء؟ ماذا بيدها غير الحزن؟"

لوّحت بذراعي أطردهما بعيداً، واختليت بنفسي مستسلمة لحزني ولوعتي وألمي.. بكيت كما لم أبك من قبل.. بكيت مفرغة أطناناً من المرارة المعجونة بالصدمة والرفض.. لكن ما جدوى البكاء الآن؟..

لم أعرف كم طال بي الوقت باكية، ولم أعرف كم بقيت بعدها ساهمة الفكر جالسة وحيدة في الغابة.. ظللت أحاول إقناع عقلي أنني أخطأت تفسير الأمر.. ربما لم يمّت، وأنا أهول الأمر فقط.. لكن عقلي كان يقول لي في كل مرة بضجر "حتى متى تريد خداع نفسك؟ هل تنتظرين قراءة نعيه في الجريدة حتى تقتنعني؟ يكفيك حزناً وانفعالات درامية.. لا أحد يستحق البكاء عليه.."

فكنت أشيح بوجهي بعيداً بغضب ممزوجة بصدمة.. إذن لم أكن واهمة.. لم تختلط عليّ الرؤى ولم يرسم الظلام خيالات خادعة أمام عيني، وهو ما كنت أحاول إقناع نفسي به منذ فترة..

اقتحمت غصة حلقي وغامت عيناى بدموع لم تكذ تتوقف عندما شعرت بقلبي يضع يده على كتفي قائلاً بإشفاق ممتزج بشيء من السخرية "ابك.. وهل تملكين إلا البكاء؟ لطالما شتمتني وأسكت صوتي كلما حاولت إقناعك بالحقيقة.. واتبعت عقلك الذي حاول خداعك.. فبم أفادك الآن؟"

نهضت فجأة لأسكته وقد عزمت على العودة للمخبأ.. لو بقيت معهما لوقت أطول فسأصاب بالجنون حتماً.. غالبت رجفة أعماقي وأنا أدفع نفسي للعودة بسرعة.. اجتزت الغابة بحذر خشية أن ألتقي بأحد الحراس، وقد كان حظي حسناً أن أحداً منهم لم يعثر عليّ، ثم ارتقيت الجبل رغم التعب الذي شعرت به يتنامى في جسدي، وأخيراً دلفت المخبأ لأجد أدهم جالساً بتعب في جانب المكان وثيابه تحمل كمية لا بأس بها من الدماء بينما بسمه منزوية في جانب آخر تبكي بحرقة.. ولما رأني أدهم قال بحدة "أين اختفيت أيتها الحمقاء؟ الحراس انتشروا في الغابة

بحثاً عنا وكادوا يقبضون عليّ، وأنت تجدين الوقت ملائماً للابتعاد وحيدة؟”

لم أعبأ بغضبه وإن سألته بشيء من الهدوء “أنت مصاب؟”

زفر بحنق وقال “الدماء ليست دمائي..”

لم أعلق بكلمة بينما نهضت بسمة وركضت نحوي فعانقتني بقوة وهي تبكي بدون توقف.. أهي تواسيني أم تريد مني مواساتها؟.. لم أكن أقدر على التفاعل معها أكثر من هذا فأبعدتها عني برفق وانزويت جانباً في المخبأ بصمت محاولة ألا أعود للبكاء من جديد.. ألا أسمح للحزن باحتلال عقلي من جديد.. لكن هيهات..

مرت علينا عدة ساعات والصمت يسكننا ويغلف مشاعرنا.. غاب أدهم عنا فترة من الوقت ثم عاد إلينا مصراً على تغيير مخبئنا، إذ وجد مخبأً جديداً مناسباً.. وبعد إلحاح شديد منه أطعناه بصمت كالعادة فحملنا متاعنا القليل وتبعناه مستغلين الظلام من حولنا.. وفي سيرنا غمغمت بسمة والدموع تبلل رموشها الطويلة بشكل أبدي "ما الحاجة لتغيير المخبأ في هذه الظروف؟"

قال أدهم دون أن ينظر إليها "الحيطة واجبة.."

كان رداً مقتضباً لا يفسر أي شيء.. لكننا لم نعلق وهو يقودنا عبر الجبل مسافة طويلة.. ظلت أتبعه بتلقائية وهدوء وأنا أغلف سريرتي الثائرة بجمودي الظاهري.. كان بي انفعال شديد لا يكاد يتيح لي فترة هدوء.. كنت أتذكر كل حوار دار بيني وبين أمجد، أتذكر كل الكلمات الجامدة الساخرة التي أرميها في وجهه، أتذكر كل معاملة سيئة تلقاها مني وأجلد نفسي بشعور الندم والمرارة.. لا ألومه لو اكتشفت أنه كان يكرهني.. بل يزيد ندمي معاملته اللطيفة الدائمة لي.. تذكرت إلحاحي بالقيام بتلك المهمة بدون الاهتمام بقلقه وجلدت نفسي بندم أكبر.. شعور كرهه سيطر عليّ ولم أجد ما يخفف عني انفعالاتي..

بعد استقرارنا في المخبأ، اختلقت أي عذر طراً لذهني المنهك وانسلت خارجة لمسافة.. وهناك، بعيداً عن الأعين، انزويت متلذعة بحزني ومرارتي ومحاطة بسكون زاد أحزاني.. وبين أفكار المتدافعة، شعرت بيد توضع على كتفي بحنان.. ظننته خيال قلبي الذي لا أجد غيره يواسيني وهممت بطرده كالعادة، لكنني صدمت برؤية وجه بسمة الذي تتوسطه عيناها الدامعتان، وسمعت همسها المتعاطف "لا تحزني يا حمراء.. أعلم مقدار ألمك لما جرى، لكنني أخشى عليك.."

أشحت بوجهي بعيداً ودموعي تتساقط من جديد دون أن أتعب نفسي بمسحها.. وجدتها تحيطني بذراعيها وهي

تهمس "أه يا فتاتي المسكينة.. ما الذي أستطيع فعله لأحو ألمك هذا؟"

غمغمت بمرارة "وهل هذا مما يمكن محوه بوضع كلمات؟ إذن تخلص البشر من نصف الألمهم.."

صمتت بسمه وهي ترى دموعي تتدافع من جديد وأنا أهمس بألم "لطالما أذيتنه بأقوالي وأفعالي.. وإصراري على الاندفاع في تلك العملية بحمق كان أسوأ قرار اتخذته في حياتي.. وهذا ما يؤلمني الآن.. لقد تسببت بموته بحمق شديد.."

شدت ذراعيها حولي وهي تهمس بصوت خفيض "يا لفتاتي المسكينة.."

أفرغتُ حزني دون تحفظ ودموعي تتدافع وأنا أبكي بمرارة شديدة.. أنا عادة أخفي انفعالاتي وضعفي عن الآخرين، أشعر أن انفعالي بسمه ضعف في شخصيتي وأكرهه بشدة، لكنني اليوم لم أعبأ بكل ذلك وأنا أستكين بين ذراعي بسمه.. شعرت أنها تملك حناناً غير محدود أغدقته عليّ دون تحفظ.. لأول مرة أجدها تمد يد العون لي فيما العكس هو ما اعتدناه منذ قدمنا لهذا الكويكب.. شعرت أي فتاة صغيرة تبحث عن حنان وتعويض لآلام صفتها دون إنذار.. ولم أعهد في نفسي كل هذا الضعف الذي رأيتُه اليوم.. لا بد أنني سأكره نفسي بشدة في الصباح.. لكن هذا لم يعد مهماً.. لاشيء يهم بعد الآن..

تظاهرت بالنوم فور عودتي للمخبأ.. ربما هرباً من تعليق قد يرميه أدهم عليّ، خاصة مع جفوني المتورمة ووجهي المزري.. ولا أظنه منظرأ محبباً أبداً.. لكن أدهم لم يعلق بكلمة واكتفى برمي بعض النظرات القلقة الصامته تجاهي.. وبعد مرور وقت على انفرادي، سمعت أدهم يسأل بسمه بصوت خافت "أتظنين أنها ستغدو أفضل حالاً في الصباح؟" قالت بسمه بقلق "هذا يعتمد على مقدار حزنها.. لكنني أخشى عليها من هذا الانفعال.. لقد سبق أن أغمي عليها بسبب الومضات المؤلمة.. ألن يضرها انفعال كهذا؟"

تجاهلت حوارهما رغم أنه يخصني.. لكنني لم أعد أعبأ بشيء.. سمعت صوت بسمه يتهدج وهي تقول "المسكين.. لم يرحموه رغم أنهم ظلموه منذ البدء.. والآن اغتالوا ما بقي من عمره دون سبب.."

قال أدهم متنهداً "هذا هو المصير الذي رسموه لنا منذ البدء بإحضارنا إلى هذا الكويكب.."

يبدو أن انفعالاً ممزوجاً بقلق شديد ارتسم على ملامح بسمه، إذ علق أدهم بعد لحظة صمت "أنادمة أنت على مجيئك معنا؟"

قالت بسرعة "ما كنت لأبقى وحدي في المساكن بعد رحيلكم.. لقد كتب علينا القدر أن نجتمع منذ استيقاظنا في السفينة، وهذا لا يمكن أن يكون إلا خيراً لنا.."

سادهما الصمت التام بعد هذه الجملة.. ولم ألبث بعدها أن غرقت في النوم هرباً من هذا اليوم الذي حمل لنا شؤماً منذ بدايته.. وانتظاراً ليوم جديد أملاً في ما قد يجلبه معه لنا..

مرت علينا أيام طويلة قضيناها بلا هدف محدد.. يخرج أحدنا لتوفير الطعام الذي لا يتغير في كل مرة، بينما الآخران ينشغلان بجولات مراقبة في المنطقة المحيطة بنا خوفاً من هجوم قريب.. وبالطبع تخلينا عن فكرة إنقاذ عم أمجد فنحن لا نعلم موقعه ولا من هو بالضبط..

كنت أستغل الجولات تلك في الغرق بأفكاري بعيداً عن إلحاح بسمه التي يبدو أنها أقسمت ألا تتركني وحيدة لثوان.. يبدو أن هذا الإزعاج هو وسيلتها للتعبير عن الاهتمام بي.. لكن كيف أقنعها بالعكس؟..

لذلك لا تستغربوا شعوري بالراحة فور حصولي على بعض الهدوء والوحدة أثناء تجوالي.. كنت أعود لأفكاري لذلك اليوم.. أحاول تفسير كل ما حدث وكل ما رأيته.. أحاول معرفة أكان أمجد يستحق ما جرى له؟ أي قسوة تحلى بها أولئك الحراس في تلك اللحظة؟ أم أنهم كانوا مقتنعين أنه مجرم خطر يحاول الفرار من عقابه؟..

حاولت أيضاً ترجمة كل الأحاسيس التي مررت بها وأنا أراه يهوي والدماء تتناثر من صدره لتغرق الصخور القريبة وتسيل على الأرض بلا انقطاع.. كيف لحادث بهذه القسوة أن ينبئني بأنني أحمل حباً لذلك الرجل؟ لطالما صددته.. ولطالما رفضت فكرة الحب ورفضت الاقتناع بها.. لطالما أقنعت نفسي أنني لا أحمل نحوه أي مشاعر خاصة.. فكيف تفجرت مشاعري مع ذلك المنظر؟ كيف استطاع قلبي إقناعي بأنني أحبه ولا أحتمل فراقه؟..

سؤال أعجز عن إجابته.. بل ما فائدة تلك الإجابة وقد غاب صاحب الحب الذي يشغل تفكيري ومشاعري الآن؟.. تنهدت بمرارة وعدت لدوامة التفكير من جديد دون ملل..

بعد تلك الأيام، بحثت عن حقيقتي التي تحوي عدتي القليلة.. بحثت وبحثت في الكهف كله دون فائدة.. يبدو أنني أضعتها.. أم أنني نسيتها في المخبأ الآخر؟ نظرت خلفي لبسمة النائمة بوداعة حيث جلست أنا أراقب قرب البوابة.. بينما خرج أدهم في هذه الليلة للمراقبة كما صار يفعل مؤخراً.. هل عليّ انتظاره؟ عقدت العزم وغادرت المخبأ وأنا أشعر أن بسمه ستكون بخير.. لا يمكن أن يهاجمنا الحراس في تلك اللحظة فالمخبأ آمن تماماً..

سرت بأسرع ما أستطيع عائدة لمخبئنا السابق، وهناك دلفته دون حذر وأنا أستمع للصمت المسيطر على الأرجاء.. لم ألبأ لإنارة المكان قبل دخولي خوفاً من أن يرى نوره من على مبعده.. لكن بعد خطوات قليلة قادتني للدخل، انتبهت لذلك الشبح الأسود الذي يحتل المخبأ على مبعده مني.. توترت جسدي وحبست أنفاسي وكأني أخشى أن يسمعها، ثم ولّيت الأدبار محاولة الهرب قبل أن يقبض عليّ.. لم يكن ذلك أدهم فهو أطول قامته، وبغياب أمجد فإن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون هنا هو أحد الحراس..

انتبه الحارس لي عند دخولي، ووجدته على إثري فور محاولتي الهرب.. وبخطوات واسعة كان يقبض عليّ ويقيد يدي بقوة شديدة.. شتمت بحنق وأنا أركله بكل قوتي في ساقه.. فسمعته يتأوه بقوة قبل أن يهتف "أهذه أنت

حمراء؟"

بوغتُ بالصوت الذي لم أتوقع سماعه، فقلت بدهشة "وليد؟"

أضاء وليد مصباحه موجهاً إياه نحوي، فقلت بغضب والنور يعشي عيني "أبعد عني هذا النور وإلا حطمته الآن.."

أبعد وليد النور عن وجهي وهو ينير وجهه لأراه بوضوح مغمماً "مازلت حمراء كعادتك.."
تساءلت مقطبة "ماذا تعني بذلك؟"

لم تجاوبني إلا ابتسامة صغيرة منه.. فقلت بحدة "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ألم تكف وشايتك عنا؟ ألا يكفي ما خسرناه بسببك؟"

قال وليد بدهشة "أي وشاية؟ أنا لم أشي بأي شيء عنكم؟"

قلت بغضب "كاذب.. لقد فعلت.. لا بد أنك فعلت.. وإلا لماذا فشلنا في إنقاذ....."

صمتُ بمضض وشفطاي تعجزان عن نطق اسم أمجد، حتى لو كان هذا لذكر عمه.. بينما قال وليد عاقداً حاجبيه "أنا لم أنقل أي شيء عنكم للإدارة لو كان هذا ما ظننتموه.. أترينني بهذه الخسة لأفعل هذا لمن أنقذ حياتي؟"
قلت بجفاء "لست أعرفك جيداً حقاً"

فقال هازراً رأسه "أؤكد لك أنني لم أنقوه بأي كلمة عنكم.. رغم الاستجواب الذي خضعت له من المسؤولين لمعرفة كيفية عودتي بجراح كهذه، إلا أنني لم أذكركم البيت"
تساءلت مقطبة "إذن كيف صدقوك؟"

أجاب بسرعة "كل ما قلته أنني فقدت الوعي ولم أستيقظ إلا لأجد نفسي قرب المباني الإدارية، وأجهل هوية من عاونني على العودة.. ويبدو أنهم بعد تحقيق طويل اقتنعوا بقولي.."

صمت بعد أن اقتنعت شيئاً ما بحديثه.. ونظرت له ملياً للمرة الأولى.. كان يبدو أفضل حالاً من ذلك اليوم الذي رأيته به آخر مرة.. كم مرّ علينا منذ افترقنا؟ لم أعد اذكر فقد اختلطت الأيام ببعضها في هذا الكويكب.. سألته بعد فترة صمت "كيف هي جراحك؟"

أجاب "بخير حال.. لقد تلقيت العناية المناسبة فور عودتي للإدارة.."

فقلت وقد تذكرت أمراً "كيف استدلت على هذا المخبأ؟ أم أنها ضريبة حظ؟"

أجاب هازراً كتفيه "الذي مصادري.."

كان جواباً غير مقنع، لكن لست أدري لم عزفت عن سؤاله عن تفسير ما قاله.. بينما سألتني باهتمام "يبدو أنكم قد غادرت هذا المخبأ.. فأين التجأتم؟ وأين البقية؟"

قطبت قائلة "أظن أنك ستحصل على جواب لهذه الأسئلة؟ نحن لم نضعك في خانة الأصدقاء بعد لو لاحظت هذا.."

ثم أضفت بصرامة "وما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما الذي تنتوي فعله وعم تبحث؟ أخبرناك أن تبتعد عنا، ولو رآك أدهم لما تورع عن إصابتك من جديد ولن يرحمك هذه المرة.."
 غمغم وليد "صديقكم الشرس ذاك؟ إنه عنيف حقاً بدون منطق"
 قلت بحدة "المنطق هو أن نحاول حماية أنفسنا من الخيانة.. أم أنك لا توافق على ذلك؟"
 ابتسم وليد محاولاً تهدئة حوارنا وهو يقول "لا تقلقي.. أنا لن أتسبب في أذيتكم أبداً.. لست نذلاً جاحداً للجميل لهذه الدرجة.. أردت فقط أن أطمئن عليكم وأتفقد أحوالكم.."
 أيضاً لم يقتعني هذا الجواب.. رأيتته يبتعد نحو المخرج فسألته "إلى أين؟"
 أجابني "لأعود لعملي.. لقد اقتطعت بعض الوقت من عملي لأبحث عنكم وأطمئن عليكم، والآن عليّ العودة سريعاً قبل أن ينتبه شخص لغيابي وأثير تساؤلات أنا بغنى عنها.."
 راقبته وهو يبتعد وأنا بحيرة من هذه الزيارة الغريبة.. ثم سمعته يقول قبل أن يبتعد "على فكرة، لقد التقيت رفيقك وهو سيعود قريباً فلا تقلقي عليه.."

وابتعد قبل أن أجد الفرصة لأسأله.. هل التقى أدهم أثناء قدومه؟ هل كان أدهم هو من دله على هذا المخبأ ليعده عن مخبئنا الجديد؟.. ألغاز جديدة يطرحها وليد بزيارته القصيرة المفاجئة.. فمتى ستتكشف هذه الألغاز يا ترى؟..

عندما عدت للمخبأ وجدت أدهم يشتعل غيظاً ويكاد يأكل نفسه بانتظاري، بينما جلست بسمة في جانب المكان بعينين متسعيتين قلقاً وخوفاً.. وفور عودتي صاح بي بصوته الجهوري الأجش "أين اختفيت أيتها الحمقاء؟ لماذا تركت المخبأ خالياً خاصة أن بسمة كانت وحيدة ونائمة؟"
 قلت دون أن أظهر اهتماماً بغضبه "هل حدث شيء أثناء غيابي؟ أشك في ذلك فقد غبت لفترة قصيرة فقط"
 قال أدهم بحنق "وهل تنتظرين أن يحدث شيء؟"
 قلت بحدة بدوري "وماذا عنك؟ لماذا أخبرت وليد عن مخبئنا القديم؟ ماذا لو دلّ بقية الحراس إليه؟"
 صاح أدهم "عم تتحدثين؟ من وليد هذا؟"
 قلت مقطبة "الحارس الذي أنقذته بعدما رميته أنت من فوق الجرف.. هل نسيت بهذه السرعة؟"
 أجاب أدهم بغیظ "أنا لم أره منذ ذلك اليوم.. لكن ما شأن ذلك بحدیثنا هذا؟ أنت أهملت واجباتك كثيراً.. حتى متى ستظلين ساهمة غائبة الفكر؟ يكفيك ما مضى من....."
 ضاع فكري وهو معلق بأول جملة سمعتها من أدهم.. هو لم يرَ وليد الليلة؟ إذن من دله على المخبأ القديم؟ وأي رفيق كان يقصد بحدیثه قبل أن يغادر؟ رباه.. لا يمكن.. أكان يعني أمجد؟..

نفضت الفكرة من رأسي بقوة قبل أن تكتمل.. لن أعود لهذا الألم من جديد.. لن أتوهم وجوده لأصدم مرة أخرى برحيله.. يكفيني كل ما قاسيته في الأيام التي مضت.. لم يخفت حزني لكني واريته في أدراج عقلي وغلفته بالنسيان.. فهذا أفضل لي وليرتاح رفاقي من همّي..

سمعت أدهم يقول وهو يجذبني من ذراعي ليلفت انتباهي "حمراء.. ما بك؟ أنت غير طبيعية البتة.. كلنا حزناً على موت أمجد، لكنك وحدك من غرق في الحزن والذهول.. لست أنت حمراء التي تمثليء عزيمة ولا تجعل أي أمر مهما كانت قسوته أن يكسر روحها القوية.. فما الذي حدث لك؟"

زفرت وقد ساءني ما أصبأ يرياني عليه، ثم شددت جسدي وأنا أجذب ذراعي قائلة بهدوء "لا تقلق.. لم يتغير شيء.. أنا كما عهدتني دائماً.."

نظر أدهم لي بدهشة لتغيري السريع، ثم علت ابتسامة جانبية شفوية وهو يقول "جيد.. هكذا يجب أن تكوني.. قوية كعادتك.."

ابتسمت بدوري ابتسامة باهتة، فقال بجدية "أخبريني ما الذي قالك للمخبأ القديم في هذا الوقت ولم تتمكني من انتظار عودتي أو انتظار الصباح.."

هزرت كتفي مجيبة "نسيت حقيتي هناك.. وخشيت أن يعثر عليها الحراس ويعلموا أننا كنا هناك.."
فقال وهو يبتعد "لا تكرريها مرة أخرى.. أفهمت؟"

لم أعلق على قوله.. يبدو أن أدهم قرر اتخاذ منصب القائد لمجموعتنا الصغيرة بعد غياب أمجد، ولم أعترض فهذا الترتيب يناسبني أكثر..

نظرت لبسمة التي كانت تستمع لنا من موقعها بصمت وترقب وانفعال لا بأس به يغزو ملامحها.. فتركت أدهم ليراقب المدخل واقتربت منها قائلة "هل خفت أثناء غيابي يا بسمة؟ أنا أسفة.. لم أرد إزعاجك وظننت أنني سأعود بسرعة قبل استيقاظك.."

هزت بسمة رأسها نافية ذلك، ثم قالت بتساؤل متعجب "ما حكاية وليد؟ هل رأيتة اليوم؟ كيف استدل على موقعنا؟"

حكيت لها ما دار بيننا وذلك الحوار العجيب الذي تبادلناه دون أن أفهم معناه تماماً.. كان تعجبي يزداد وأنا أتذكر تفاصيل الحوار وما قيل فيه، ولما انتهيت قالت بسمة بلهفة "من عنى بقوله ذاك؟ أتظنين أنه أمجد؟"

قلت نافية بسرعة "لا يمكن.. أمجد مات.. رأيت ذلك بعيني، وأدهم يؤكد ذلك.. ربما يعني شخصاً آخر"
هتفت بسمة "لا يمكن أن يعني أي شخص آخر.. لا بد أن يكون أمجد.."

ونهضت بسرعة قائلة "سأخبر أدهم.."

لم أعلق وإن غرقت في تفكير عميق وضيق يكتنفني.. لا أريدهم أن يعيدوني لمستنقع الأمل والترقب.. نعم هو مستنقع إن خضته لن أفيق قبل أن أجد قدمي قد غاصتا في وحله وما عدت أقدر على الفرار.. هو مستنقع لن آخذ

من الخوض فيه إلا الندم والعجز..

ناداني أدهم بعد حوار قصير مع بسمة، فنهضت من موقعي متأففة وأنا أتقدم تجاههما.. سيكون عليّ إقناعهما

بمنطقي قبل أن يفلحا بإقناعي..

الفصل السابع عشر

[الحياة من جديد]

سرت بخطوات خافتة محاولة التخفي بين الصخور ما استطعت وأنا أدور دورة واسعة حول المخبأ الذي اتخذناه.. كان هذا دوري لمراقبة المكان وقد أظلمت السماء وارتفع القمر فيها عالياً.. ورغم كل ذلك الوقت إلا أنه لم يبد للحراس من أثر في المناطق القريبة منا، عدا عن بضع مرات مرت فيهن المروحية قريبة منا في بحث متذبذب..

غيرت طريقي المعتاد متخذة طريقاً جديداً لأتفحص المكان دون أن يكون في نيتي الابتعاد كثيراً عن المخبأ.. كان الصمت التام والهدوء يدفعانني أكثر للغرق في أفكار أتمنى إبعادها.. لم أرد نكأ جراحي من جديد.. قد تبدو مشاعري سطحية، لكن هذا ما تبقى منها بعد أن دفنت معظمها في تلافيف عقلي وردمتها تحت أطنان من البرود واللامبالاة..

تتهدت وأنا أطلع حولي بحثاً عن لمحة حياة.. ثم غرقت من التفكير وأنا أسير بغير هدى.. هل سيكتب لنا ترك هذا الكويكب البائس والعودة لحياة طبيعية لا خوف فيها ولا بؤس؟ أم أننا سنقضي نحبنا وندفن فيه مسجونين تحت ترابه كما كنا مسجونين فوقه؟.. يضيق صدري كلما فكرت بهذه الأفكار.. وكلما تذكرت الموت.. فالموت يذكرني بمن أود لو أنساه.. لكن أتى لي هذا؟..

عدت أتهد بحدة وركلت صخرة صغيرة بحنق مغممة "لماذا لا أفقد ذاكرتي الآن لأرتاح؟" طارت الصخرة بعيداً عني وسقطت خلف مجموعة شجيرات تسدّ طريقي.. وعندما سقطت صدر عنها صوت بهت له وأنا أسمع صده الذي تردد للحظات.. هل أنا أهذي؟ اندفعت فجأة بين الشجيرات غير عابئة بفروعها التي كانت تتشبث بملابسي بقوة، وبعد أن اجتزتها وجدت نفسي فجأة أخوض في حفرة صغيرة امتلأت بالمياه.. توقفت أتلفت حولي بدهشة وأنا أرى انعكاس ضوء القمر على المياه التي كانت رغم الظلام المحيط بنا إلا أنها تبدو مشعة بنور خفيف.. أهو ضوء القمر منعكس عليها أم أنني أتوهم هذا النور وعيناوي تنظران بلهفة لهذا الكنز الثمين..

لم يسبق لي أن سمعت بوجود مياه في الكويكب ولست أدري إن كانت حقاً مياه أم سائل مميت.. لكن رغم أن المياه غمرت جزءاً من ساقيّ إلا أنني لم أشعر إلا ببرودة المياه تتغلغل ملابسي.. مددت يدي بشيء من الحذر ولمست المياه ثم نظرت ليدي.. كانت فعلاً مياه، شفاقة شبه نقية لا يشوبها إلا أوراق الشجر وبعض الطين والحجارة.. ورائحتها تختلف قليلاً إذ تبدو كرائحة الحديد الصديء..

غالبت ترددي وشربت القليل جداً منها.. لو كانت سامة أو مضرّة فلن يعلم أحد بما حدث لي في هذا الموقع

المنقطع، لكنني لم أجعل ذلك يوقفني.. كان طعم المياه، كرائحتها، مثل الحديد الصديء، لكن بشكل خفيف جداً.. لو غالبت تقززي من الطعم والرائحة، فيمكن القول إن طعمه منعش تماماً.. لم أستطع مغالبة لهفتي فركضت عائدة للمخبأ.. وهناك وجدت بسمه تراقب المدخل وقد وقفت بقلق لدى رؤيتي.. سألتها باستعجال "أين أدهم؟" قالت بقلق "ذهب لإحضار بعض الطعام.. ما الذي حدث؟" أسرعت لحقيبتني وتناولت بضع حاويات للمياه التي كانت قد فرغت سابقاً، ثم هرعت عائدة لموقع المياه دون أن أجيب بسمه على تساؤلاتها.. كان العثور على الماء يحل مشكلة كبيرة سقطنا فيها، فقد نفذ الماء منا منذ بضعة أيام ولم نستطع تعويضه بالطعام أبداً لذلك كان الجفاف والتعب يظهر علينا بوضوح.. بعد مدة قصيرة، كنت أعود للمخبأ محملة بالحاويات المليئة، فرميت بإحداها تجاه بسمه، والأخرى تجاه أدهم الذي سألني فور دخولي "ما الأمر؟ بسمه أخبرتني أنك كنت تتصرفين بغرابة" قلت مشيرة للحاوية "أنظر ماذا وجدت لكم.."

فتحا الحاويتين ونظرا فيها، ثم نظرا لي بدهشة وأنا أقول مبتسمة "اشربا ولا تخافا.. لقد سبقتكما واختبرتها، وهي منعشة للغاية"

شرب أدهم قليلاً في البدء، ثم رفع الحاوية وتجرع ما بها دفعة واحدة.. أما بسمه فقد ظلت تتذوقها وتشرب القليل بمزيج التردد والتقزز من الطعم.. ولما انتهيا سألني أدهم بتعجب "أين حصلت على هذه المياه؟" قلت وأنا أجمع ما بقي من الحاويات الفارغة "في جانب من الجبل خلف شجيرات تغطي حفرة تجمعت فيها المياه بشكل سيكفينا شهوراً.. لقد عثرت عليها بصدفة بحتة.."

أسرعا يساعدانني بحمل الحاويات، وخرجنا لأدلهما على موقعها ولنملاً ما نستطيعه من الحاويات بالماء تحسباً لأي طاريء.. كانت هذه مشكلة وقد حلت بفضل الله تعالى.. وأفضل ما فيها أنها صرفت عقلي عن التفكير فيما لا أود التفكير فيه..

بعد أن ارتويينا من المياه شبه العذبة وتمددت عروقنا باسترخاء، نادانا أدهم والجديه مرتسمة على ملامحه.. وعندما اقتربنا وجلسنا معه، قال لنا "أعتقد أن وقتاً كافياً قد مر لتمالك أنفسنا وتجاوز ما مضى.. الآن علينا أن نمضي في مخططنا بدون تأخير"

شعرت به يحرق بي وهو يقول جملته تلك، فقلت له بشيء من الجفاء "أتعنيني أنا بقولك هذا؟ شكراً لأنك قد حرصت على مشاعري ولم تسارع لنبذ رفيقك الذي مات بسببنا وتمضي في مخططاتك لإنقاذ عنقك"

فقال أدهم مقطباً "لست أعنيك أنت بالذات ولست ألمح لأي شيء.. لسنا هنا الآن لتبادل الاتهامات ونلقي التعليقات الجارحة.. ما أريد قوله إن بقاءنا هنا أكثر من ذلك ليس في مصلحتنا.. من يدري متى يدهم الحراس هذه الجبال بحثاً عنا؟ يجب أن نسرع في تنفيذ مخططنا الأساسي بالتسلل لإحدى السفن الفضائية فبقاؤنا هنا لن ينفع أمد في شيء"

رغم كل ذلك، شعرت في حديثه اتهاماً لم يعجبني، وإن لم أعلق أكثر لئلا أبدو انفعالية أكثر مما بدت عليه في الأيام الماضية، فأضاف أدهم عندما لم يجد منا اعتراضاً "في البدء علينا جمع بعض المعلومات.. أريد أن أراقب المباني الإدارية، وأحصر تحركات الحراس والمركبات والسفن الفضائية.. أريد أن نحصل على أكبر قدر من المعلومات في مدة قصيرة وذلك عبر المراقبة المكثفة.. لا نريد تكرار ما حدث في السابق.."

غمرتني غصة وعاد لي الإحساس بتأنيب الضمير.. لو أننا فقط استمعنا له.. ربنت بسمه على كتفي بتعاطف.. يبدو أنها تشعر بدخيلتي بسهولة تامة.. فقلت لأدهم محاولة تجاوز تلك النقطة "بسمه خارج هذه الخطة بالطبع لأنها ستكون أكثر توتراً من أن تستطيع التركيز على عملها.. فكيف سنعمل؟ هل سنبادل المناوبات أم نعمل في الوقت ذاته في مكانين مختلفين؟"

قال أدهم مقطباً "لم أعن ذلك.. المراقبة هي مهمتي وحدي.. أنت عليك البقاء هنا وحماية بسمه إن تعرضتما لخطر.."

قلت بشيء من الحدة "لا يمكن.. وجود اثنان خير من واحد.. فلنجعلها بالمناوبة، ومن سيبقى في الكهف منا سيؤمن الحماية لبسمه.. لكني لن أرض باستبعادي من هذه المهمة"

فتح فمه ليعترض لكنني قلت بحزم "أنا سأذهب سواء رضيت أم أبيت ذلك.."

عندها تنهد أدهم وهو يصمت بمضض.. وهكذا تروني بعد أن توجهت مع أدهم لاستكشاف أفضل موقع للمراقبة دون خطر كبير، أجلس فوق فرع شجرة كثيفة الأوراق، أراقب المباني التي كانت على شيء من المبعده.. لم يكن بإمكاننا تجاوز المساحة الصخرية التي تفصلنا عن الإدارة فهي مكشوفة ومغطاة بأجهزة المراقبة ولاشك.. أما هذا المكان فعلى بعده فهو ممتاز للمراقبة وإن كان يتطلب الكثير من الانتباه والتدقيق..

أمضينا على حالنا هذا ثلاث أيام في مراقبة مستمرة لا تكاد تنقطع، متجنبين كشف موقعنا ما استطعنا.. وتمكنا من خلال هذه المراقبة حصر المركبات والحراس الذين يتحركون من وإلى المباني الإدارية.. وربطنا حركتهم بقدم السفن الفضائية لنعرف ما سيواجهنا من مخاطر عندما نقرر التسلل للسفينة الفضائية..

وفي اليوم الرابع، كنت أجلس فوق الفرع أثناء بتعب فقد كنت لا أحظى إلا بنوم متقطع.. وقد تركت أدهم في المخبأ ينام بعمق بعد أن قضى ليلته في المراقبة كالعادة، بينما كان يترك لي المراقبة في النهار.. تأملت ما يجري في المباني الإدارية.. من مراقبتنا طوال تلك الأيام، لم نعثر على الثغرة التي سنتيح لنا التسلل بدون مخاطرة كبيرة.. لكننا لم نياس.. سنجد تلك الثغرة مهما طال بنا الزمن..

كانت الشمس قد قاربت الأفق عندما قررت أن موعد قدوم أدهم قد اقترب، فنزلت بحذر بعد أن تأكدت من خلو الموقع من الحراس.. لكن لم أكد أصل لمنتصف الجذع في هبوطي حتى سمعت صوت أقدام من خلفي تدوس على بعض الأوراق الجافة.. ظننته أدهم، والتفت خلفي لأصدم بمرأى أحد الحراس الذي انشقت عنه الأشجار.. كتمت شهقتي بصعوبة ويدي تفلت الجذع مع المفاجأة التي صدمتني، ورغم أنني سقطت على قدمي، إلا أن السقطة كانت من القوة بحيث انتشر الألم حارقاً في قدمي اليمنى..

نظرت خلفي فرأيت الحارس للدهشة لم يتحرك من موقعه، وإن كنت غير قادرة على استشفاف ما ينتويه وقبعته ترسم ظلالاً على ملامحه.. حاولت الوقوف والهرب قبل أن أقع في قبضته، وقد تناسيت لسبب ما السلاح المعلق على كتفي، لكن مع أول خطوة خطوتها بقدمي اليمنى فقد تهاويت أرضاً وأنا لا أتمالك نفسي من الألم الذي ينبع من كاحلي..

حاولت الهرب مجدداً.. لم يكن من مصلحتي مواجهته وحيدة هنا.. لكن الألم جعلني شبه عاجزة وأنا أركع أرضاً وأعضّ شفتي بألم.. ثم سمعت الحارس من خلفي يقول بدهشة وهو يقترب "مهلاً.. لماذا تهربين؟" نظرت خلفي بذهول شديد وتعجب.. كان ذلك الرجل يرتدي زي الحراس.. ويبدو كأحدهم من بعيد، مع تلك القبعة التي لا تمكّني من رؤية وجهه بشكل جيد.. لكن ذلك الصوت.. ذلك الصوت الذي أعرفه تمام المعرفة.. لا يمكن أن يحمل رجلان الصوت ذاته.. هل بدأت أتوهم؟.. سمعته يقول بتعجب "ألم تعرفيني يا حمراء؟"

تحول ذهولي صدمة شديدة وأنا أدقق النظر في وجهه.. أيمكن؟ لا.. هذا غير معقول.. لقد مات.. أمجد مات.. أمجد لم يعد له وجود في عالمنا.. إذن من هذا الذي أراه أمامي؟ من هذا الذي يحمل صوتاً كصوته ويخاطبني بلطف كلطفه؟..

رأيته يقترب مني.. ويقترب.. ويقترب بهدوء الذي يغيظني عادة.. ولكني ظللت أنظر لوجهه الذي بدا واضحاً من هذا القرب بدهشة شديدة.. كان هو.. أمجد ذاته الذي رأته يسقط صريعاً على يد الحراس.. هل عاد من الموت أم أنني لازلت أتوهم؟..

ولما وقف أمامي مباشرة، مد يده وأمسك يدي وشدّني لأقف.. لكن ساقيّ أبتا ذلك وأنا مسمّرة مكاني رافعة وجهي إليه بصمت مذهول.. عندها ركع أمامي مغمماً "ما بك يا حمراء؟ هل تأديت من سقطتك هذه؟" تلفتُ حولي بحيرة باحثة عن جواب مقنع.. لماذا يعجز لساني عن الحديث؟.. لماذا أعجز عن السيطرة على ساقيّ وجسدي المرتجف؟.. وجدت يده تمتد وتمسح جانب وجهي برقة وهو يقول بقلق "لم تبكين؟ هل تتألّمين؟ هل أصابك شيء؟"

رفعت يدي أتمسّ خدي لأجد الدموع تبلله، فمسحتها بسرعة وأنا مذهولة وقلت بصوت مرتجف "لاشيء.. لا بد أن لهذا سبباً.. لا بد أنه.... لا بد....."

عجزت عن إقناع نفسي فألقيت بوجهي على ذراعي المعقودتين على ركبتي بصمت ودموعي تتحدر دون توقف.. ثم همست أخيراً من بين نشيجي "ظننتك مت.. كنت واثقة من ذلك"

فشعرت به يضع يده على رأسي برفق متسائلاً بهمس "أيمكن أن يكون هذا سبب بكائك؟ لا.. هذا مستحيل.."
لم أملك نفسي وأنا أبكي كاتمة صوتي، وظل هو بقربي صامتاً يتلمس خصلات شعري.. ثم قال بصوت بدا لي مبتسماً "من المفترض أن أحزن لرؤيتك باكية.. لكنني سعيد.. حقاً سعيد برؤية هذه الدموع التي لم أحلم بأن تتساقط لأجلي"

ثم همس قرب أذني "هل حزنت لغيابي حقاً يا حمراء؟"

دفنت وجهي أكثر وكأني أحاول الابتعاد عنه وخوفاً من مواجهته، فضحك وهو يبعثر خصلات شعري القصير بيده بعبث.. ألم أقل لكم إنه يعاملني كصبي؟..

ثم وقف وجذبي واقفة غصباً عن ساقبي.. ولما جذبني لأسير خلفه تأوهت بألم وأنا أقع أرضاً من جديد.. فعاد لي وسألني بقلق "يبدو أن قدمك قد أصيبت.. دعيني أراها.."

خلعت حذائي وآلام لا حصر لها تنتشر في ساقبي مكمناها كاحل قدمي اليمنى.. فرأيت الكاحل وقد تغير لونه وبدا متورماً بشكل خفيف.. ولمس أصابعي تنثير ألماً قوياً فيه.. فقال أمجد وهو يفحص كاحلي "يبدو أنك قد لويته أثناء سقوطك.. لكنها إصابة خفيفة وستغدو بخير بعد راحة يوم.. لكن يجب ألا تجهدي نفسك بالسير عليه لئلا تسوء حالتك.."

تلفت حوله قليلاً، ثم قال "المهم الآن أن نبتعد من هذا الموقع.. ستثور ثائرة الحراس بعد قليل وسيكشفون موقعنا خلال لحظات.."

مسحت الدموع التي لم تزل تغرق وجهي بينما لم يعلق هو أكثر عليها مما أراحي.. ساعدني بعدها لأقف، ثم سار معي ببطء وأنا أستند على كتفه محاولة عدم الضغط على قدمي اليمنى ما استطعت.. كان سيرنا بطيئاً، لكننا لم نتوقف ولم أحاول أن أبدي له تعبي لئلا يجبرني على الوقوف والراحة.. فالابتعاد عن الخطر هو أهم ما يشغلنا الآن.. وبعدها لكل حادث حديث..

بعد مسير صامت لفترة طالت، وقد توغلنا أكثر في الغابة وابتعدنا عن المسار الذي تتخذه مركبات الحراس عادة، وجدته يجلسني على جذع شجرة سقط أرضاً قائلاً "هنا سنكون بأمن أكثر.. عليك بالراحة حتى نتمكن من الاستمرار فمزال الطريق أمامنا طويلاً"

لم أعلق وأنا أحاول تمالك أنفاسي المتعبة، فيما جلس أمجد قريباً يتأملني بصمت.. فأطرقت في جلستي وأنا أتأمل أصابعي حامدة الله تعالى أن توقفت دموعي المخجلة من الانحدار.. سيمر وقت طويل قبل أن أنسى الإحراج الذي شعرت به تلك اللحظات وأنا أبكي بضعف لست معتادة عليه..

وجدت يده تلمس خصلة من شعري بصمت، فقلت دون أن أرفع رأسي "أرجوك.. لا تفعل.."

ابتسم وأصابه تنتقل لوجهي الذي تركت الدموع خطوطاً ظاهرة عليه فمسحها بخفة غير عابئة بغیظي، فنظرت له بنظرة أردتها حانقة، لكنها جاءت مترجبة له أن يقف.. فتنهد وهو يسحب أصابعه مغمغماً “بودي لو أقرأ دخيلتك يا حمراء.. على الأقل الجزء الخاص بي فيها.. فانت تثيرين حيرتي دوماً..” قلت بصوت خافت “ليس في دخيلتي ما يهكم..”

ظل صامتاً متعجباً من أمري.. ثم قال وهو يقف فجأة “أين أدهم وبسمة؟ ألازلم في المخبأ ذاته؟” أجبت دون أن أنظر إليه “بل غيرنا المخبأ بعد... بعد رحيلك..” لم أجرؤ على قول بعد موتك.. ولم يعلق هو على لحظة الصمت التي تخللت حديثي، بل قال “إذن يجب أن أعتد عليك في العودة.. هل تريدني مني أن أحملك؟ لقد ضغطت على نفسك في السير أكثر من اللازم” قلت بسرعة “لا داعي لذلك.. لازلت أستطيع السير بعد..”

عاد يسندني بكتفه وهو يسير بصمت طوال الطريق إلى المخبأ، مما شكرته عليه.. فهذا مكنتني من الاستفراة بعقلي وأفكاره المجنونة.. مرة أخرى أحاول إقناع عقلي أنني لا أعني شيئاً لرجل كأمد.. لا يمكن أن أعني له شيئاً.. ليس فتاة مثلي بوجه غير ملفت وشعر غريب اللون مبعثر دوماً وجسد غير جميل.. ليس فتاة مثلي سريعة الغضب عنيفة التصرفات لا تخشى من بضع لكلمات ترمى في وجهها.. ما الذي قد يعجبه في فتاة كهذه؟.. قطع أفكاري وهو يقول دون أن يلتفت إليّ “هل قلقتم علي أثناء غيابي؟.. لم أرغب بإثارة قلقكم علي لكن لم أستطع العودة أبكر من هذا.. أنا آسف إن كنت قد سببت لكم حزناً..” قلت بصوت خافت “المهم أنك بخير.. لقد حزنت بسمة كثيراً عليك” لست أدري لأي شيء أهدف من ذكر بسمة فقط.. وقد بدا أن التساؤل قد تردد لديه بدوره إذ وقف فجأة والتفت إليّ متسائلاً بتعجب “بسمة فقط؟..”

فقلت بسرعة “أدهم ولا بد قد حزن أيضاً.. لكن ذاك الرجل لا يجيد التعبير بكلمات مناسبة.. لقد شتمك عندما أبلغني بالخبر..”

ضحك أمد معلقاً “هذا يبدو كأدهم فعلاً.. لكن ليس هذا ما أريد سماعه” أطرقت وأنا أدرك معنى قوله.. فصمت وأنا أدير وجهي بعيداً متجنباً النظر إليه.. أخشى أن تكشفني عيناه.. بعد كل ما فعلته منذ رأته اليوم، أخشى أن تتكشف مشاعري أكثر فأكثر فأصبح في موقف الضعيفة الذي أكرهه.. لا أريد أن أمكنه من الحصول على ما يلوي ذراعي به مستقبلاً، ولست أدري لم أنا واثقة أنه قد يفعل ذلك.. لكن بدا أنه لن يستسلم هذه المرة.. إذ ناداني بصوت متسائل “حمراء..”

لم أقو على مواجهة عينيه، فتخلّيت عن كتفه وابتعدت خطوة رغم ألم كاحلي وأنا مطرقة.. لكنه تشبث بيدي ليمنعني من التراجع قائلاً “هذه المرة لن أسمح لك بالهرب.. فقد سئمت هربك الدائم مني.....” قطع حديثه إثر سماعه صوتاً خافتاً خلفنا.. التفتنا لنرى أدهم ينظر لأمد بذهول ويقول بدهشة “أمد؟ أهدا أنت

حقاً؟ أنت حي؟”

ابتسم أمجد وهو ينظر لذهول أدهم قائلاً “أنا حي فعلاً.. فالأشباح لا وجود لها”

قال أدهم بغير تصديق “كيف يمكن ذلك؟ لقد رأيت إصابتك وسقوطك، وكنت متأكداً من موتك..”

كرر أمجد “لكني حي حقاً.. استغرقت بعض الوقت للعودة إليكم وسأشرح لكم السبب لاحقاً.. الحمد لله أنكم جميعاً بخير”

فاقترب منه أدهم ولكمه بقوة على كتفه كادت تلقي به أرضاً وهو يقول “حمداً لله على سلامتك أيها الوغد..”

ابتسم أمجد دون تعليق، بينما تساءل أدهم وهو ينظر إليّ “ما بك يا حمراء؟ هل أصبت؟”

أجاب أمجد عني “لقد التوى كاحلها، لكنها ستغدو بخير.. سأخذها للمخبأ لتتمكن من الراحة”

فقال أدهم “أنت مدين لنا بالكثير من التبريرات يا رجل.. كيف استطعت تركنا وقد ظنناك مت؟ عندما أعود بعد

أن أنني عملي سأطالبك بتفسير كل ما فعلته”

هز أمجد رأسه مغمغماً “لا تقلق.. ستفهم كل شيء عندما تعود..”

ابتعد أدهم دون أن يضيف المزيد، بينما سرت مع أمجد عائدين للمخبأ وقد ظننته نسي حديثنا قبل قدوم أدهم، لكنه

قال بصوت خافت بعد مسير قصير “حديثنا لم ينته بعد.. ولن أدعه ينتهي قبل أن أعرف ما يدور في عقلك هذا يا

حمراء”

نظرت له بدهشة لإصراره، فمحنني ابتسامة واثقة، جعلتني أشيح بوجهي وأنا أسير معه مزعزة الفكر.. هل

حقاً أستطيع تجاهله؟.. هل أستطيع رمي كل المشاعر التي تتناوبني لدى أقل تصرف منه خلف ظهري ولا أبدي

انفعالات؟.. هل أنا بالقوة هذه التي أتوقعها من نفسي؟..

عند وصولنا للمخبأ كانت ردة فعل بسمة حافلة بالانفعال كشخصيتها المعتادة.. بكثير من الشهقات والدموع

والبكاء.. وبكثير من العبارات الدرامية مثل "هذه معجزة..". و "حزنت كثيراً لما عرفت ما حدث".. وبالطبع فور

أن ساعدني أمجد لأجلس في جانب المكان، فقد تركني واتجه لبسمة يربت على كتفها لتهدئة بكاءها المستمر..

ظللت أنظر لظهره بدهشة من أمري وأنا أشعر بغیظ يتسلل إليّ.. مجرد رؤيته يعامل بسمة برقة كعادته تثير

غیظي.. هذا يثبت لي أنني لا أعني له شيئاً.. فهو يعاملها بأحسن مما يعاملني.. ها هو يحاول تهدئتها بكلمات رقيقة

غير عابيء بوجودي.. فكيف يمكن أن أكون شخصاً مهماً بالنسبة له؟.. أعتقد حالي وأدهم واحد عنده..

عضضت شفتي بصمت وأنا أشيح بوجهي.. سأجاهل كل شيء.. لماذا يصيبني بالغيظ والحق وأستسلم لذلك؟..

لم لا أعود لما كنت عليه سابقاً وأعامله بحيادية؟ قد أرتاح مما يصيبني من انفعالات شتى فيما لا يشعر هو بشيء

من ذلك البتة..

طوال تلك الليلة التي غاب فيها أدهم منشغلاً بالمراقبة، لم يشرح لنا أمجد الكثير عدا عن تأكيده أنه بخير وأنه سيشرح لنا ما حدث لاحقاً.. أما أنا، فبعد أن قضيت يومي على فرع شجرة في جلسة مؤلمة، وبعد الانفعالات التي تباينت بين ذهول ودهشة وسعادة وغيظ، فقد كنت بلهفة للنوم لتناسي كل ما جرى، ولئلا أواجه عيني أمجد بعد أن امتلأت بالحنق منه ومن نفسي.. لذلك فقد استلقيت جانباً وتظاهرت بالنوم على أمل الاستغراق فيه فعلاً، لكنه كان عزيزاً عليّ وأنا أقضي ليلتي مستيقظة ساهمة الفكر..

وفي الصباح عند عودة أدهم، فقد اعتدلت جالسة وغسلت وجهي بالقليل من الماء الذي أملكه محاولة إزالة الإنهاك الذي أشعر به.. ثم تلمست كاحلي الذي ربطته البارحة بجزء من قماش اقتطعته من حقيبي اليدوية، فوجدت التورم قد ازداد قليلاً وإن كان الألم قد خفَّ كثيراً عن السابق.. ورغم ذلك لم يكن بمقدوري السير براحة عليه..

بعد تجمعنا فقد تحلقوا حولي ونحن ننظر لأمجد بانتظار تفسير مقنع لكل ما مررنا به.. فقال “ما حدث أثناء هروبنا ولا بد قد صدمكم.. لكن لحسن حظي فلم تكن الإصابة التي أصابتنى قاتلة..” قال أدهم باعتراض “لكنها بدت كذلك.. لقد رأيت الرصاصات تخترق صدرك.. أكاد أجزم أنها اخترقت موضع قلبك، كما أن سقوطك بعدها من المركبة لم يوح بأنك بخير”

ابتسم أمجد معلقاً “لا.. بل أصابتنى في بقعة أعلى منه بقليل قرب كتفي.. لكن ربما فقداني لوعيي هو ما هيا لك أي قد أصبت إصابة قاتلة.. المهم أنهم نقلوني للإدارة ولم يتركوني أنزف حتى الموت.. وبعد أن تلقيت العلاج المناسب في المشفى الصغير هناك، وأصبحت أفضل حالاً، فإنهم نقلوني لإحدى غرف العزل بغية استجوابي..” لاحظت عند قوله ذلك أن آثار استجوابهم ظاهرة في وجهه، وإن لم يبد لي بشكل واضح الليلة الماضية.. بينما قال أدهم “وكيف شفيت إصاباتك بهذه السرعة؟”

هز كتفيه مجيباً “إنهم يستخدمون تقنيات متطورة لعلاج الإصابات.. لم يستغرق الأمر إلا بضعة أيام لأغدو بخير تقريباً..”

ثم أضاف “كانوا ينقلونني يومياً من مبنى العزل لأحد المباني الأخرى حيث أخضع لاستجوابهم المكثف.. وأثناء ذلك رأيت وليد عدة مرات يراقبنا من بعيد، وإن لم يبد أنه ينوي التدخل.. وبعد عدة أيام تمكن من الحديث معي عندما أصبح موكلاً بإيصالي لموقع الاستجواب، وأخبرني أنه سيحاول إنفاذي قريباً.. وقد فعل ذلك بخطة بسيطة.. فقد استغلّ نقلي للمبنى الإداري في وقت قلّ فيه عدد الحراس في الساحة، فساعدني لإفقاد الحارس الذي يقيدني وعيه، وبعدها ارتديت ملابس الحارس وتسللت من المباني الإدارية بسهولة في إحدى المركبات مع وليد قبل أن ينتبهوا لاختفائي ويدركوا هويتي.. وقد تركني قرب الغابة وأكمل هو طريقه للمنجم القريب..”

سأله أدهم بتقطيعة على جبينه “وماذا عن أجهزة المراقبة؟ لا بد أنها قد صورت كل ما جرى.. وقد يكون وليد هذا

قد كشف أمره بفعله ذاك”

هز أمجد رأسه نفيًا قائلاً “وليد أعلم بها مني.. لقد اختار بقعة لا تصلها عين أجهزة المراقبة، فلا بد أنه لن يكشف أمره بهذه السهولة..”

ربت أدهم على كتف أمجد قائلاً “حمداً لله على سلامتكم.. حقاً نحن سعداء بعودتك.. والآن ما الخطة؟”
اعتدل أمجد قائلاً بعزم “كالسابق طبعاً.. سننقذ عمي”

قالت بسملة بدهشة “لماذا لم تفعل ذلك قبل هروبك من المباني الإدارية؟”

هز أمجد رأسه نفيًا وقال “لم يكن الوقت مواتياً كما أبلغني وليد.. هناك أوقات معدودة يتم فتح الغرفة فيها، ولسنا نملك مفتاحاً إلا الذي يملكه قائد الحرس”

تساءل أدهم بتعجب “ألستم تتقون أكثر من اللازم في ذلك الرجل؟ لا معنى لاستغراقه في معاونتنا ولا فائدة يجنيها من ذلك..”

قال أمجد مقطباً “الوقت متأخر على هذه الشكوك.. إنه مدين لحمراء بحياته، وقد ساعدني على الهرب من أيديهم.. فلماذا تريد أن نشك بنواياه الآن ونحن بأمس الحاجة إليه؟”

قال أدهم “لكنه لم يثبت حسن نواياه بعد.. ماذا لو كان يستدرجنا لغرض في نفسه أو نفس رؤسائه؟”

فعلق أمجد وهو ينهض “أخبرتكم أننا نحتاجه.. فلا تسبب لنا بلبلة نحن بغنى عنها الآن”

وابتعد فيما أدهم يغمغم بسخط “لماذا يعاملني كطفل غرير أحمق؟ لقد تجاوزت تلك المرحلة منذ دهور”

قلت مبتسمة “حتى وأنت غاضب لم تنسَ سخريتك هذه؟ أنت عجيب يا رجل..”

دمدم أدهم وهو ينهض “وأنت تستمتعين بذلك؟”

لم أنكر ذلك.. وإن كنت متعجبة له.. لقد تبدل حالي بشكل سريع ما بين البارحة واليوم.. الآن أنا أكثر انشراحاً

وتقبلاً لما نحن فيه بدل البؤس والتعاسة التي كنت عليها قبله.. أكل هذا بسبب عودة أمجد؟.. رغم أنني لست واثقة

أنه يحمل لي أي اهتمام حقاً، إلا أنني أشعر براحة عميقة لوجوده، وراحة أكبر لأننا عدنا لطريقنا الواضح

واستعدنا أهدافنا وعزائمنا..

الفصل الثامن عشر

[العقار]

فركت كاحلي برفق بعد أن فككت رباطه.. بعد يوم، كان الألم قد خفَّ كثيراً، مما أراحني.. ففي ما نحن فيه تكون أي إصابة على تفاؤها سيئة جداً بل كارثة.. اقترب مني أمجد متسائلاً بقلق "هل أنت أفضل حالا الآن؟" غمغت بهدوء "أفضل حالا من قبل.."

فقال وهو يشير للرباط المرمي جانبا "لا تنسي إعادة ربط كاحلك من جديد.. لا نريد أن تسوء حالته في هذه الظروف.. كما يجب عليك رفع قدمك عن مستوى الأرض قليلاً.."
لم أعلق على قوله أو أنظر له مباشرة في عينيه، ثم بعد لحظة صمت طالت وتمنيت أن تنتهي، سمعته يقول بخفوت "هل حقاً بكيت لموتي يا حمراء؟"

صمتُ دون تعليق وإن احمر وجهي بمزيج الإحراج والحنق، فأضاف بصوت مبتسم "سمعت أنك بقيت مكتئبة لا يجف دمك عدة أيام.. بالإضافة ليكائك الحار عند رؤيتي.. أليس كذلك؟"
فقلت له بجفاء "وما الذي تستفيده من مثل هذا السؤال؟"
قال وابتسامته تتسع "كيف لا أفيد من معرفة ذلك؟ على الأقل، سأعرف من هي حمراء حقاً، وسأعرف ما يخفيه برودك وجفاؤك هذا.."

قلت بلهجة هجومية "لا يعني بكائي أي معنى خاص مما قد يدور في ذهنك.. ألن تحزن لموت شخص عشت معه أياماً طويلة وأنت ترى أنه لا يستحق مثل هذه الميثة؟ ألا تظن أن منظر كالأذي رأيته قد يفزعني ويثير ذعري ويقض مضجعي لليال عدة؟"

قال بتحدٍ "لا أصدق ذلك.. حتى بسمة لم تتفعل بالشكل الذي بدا عليك.. أتريدين إقناعي أنها أكثر ثباتاً وتحملاً منك؟"

أشحت بوجهي دون أن أمنحه إجابة ترضي غروره، ولما شعرت بيده ترتفع تجاهي، قلت له بشيء من الجفاء "أرجوك احتفظ بيدك لنفسك.. ولا تسبب لي ضيقاً أكثر مما بي.."

شعرت به يحرقني بنظراته، قبل أن يزفر بشيء من الضيق والحدة، وابتعد دون كلمة أخرى.. بينما بقيت أنا متنازعة المشاعر وقد تداخل ضيقي مع حيرتي من تذبذب معاملتي لأمجد.. لم أستमित برفض كل محاولاته للتلطف معي؟ لم أذعر من كلماته الرقيقة ومن لمستته الحانية؟ لست أدري.. حقاً لست أدري.. فغمغت لنفسي بحدة "يكفي ما تسببه لي من انفعال لا أحبه ولا أبغيه.."

بعد أن اختفى أمجد لفترة بسيطة مع مغيب الشمس، عاد إلينا ومعه شخص لم نتبينه للوهلة الأولى.. ولكن فور أن سقط نور المصابيح التي وزعناها في المخبأ عليه تبينت فيه وليد بزّي الحراس المعتاد.. يبدو أنه قد هرب من عمله هذه المرة أيضاً ليتمكن من الحضور إلينا، وقد قال أمجد فور دخوله “وليد قد وعدني بمساعدتنا في عمليتنا هذه.. لذلك حضر إلينا هذه الليلة”

لم يعلق أحدنا بكلمة بينما اقترب وليد مني متسائلاً “هل أنت بخير؟ سمعت أن ساقك مصابة”

غمغمت “ليس شيئاً خطيراً.. لويت كاحلي عند سقوطي والآن هو أفضل بكثير..”

رأيت أمجد وأدهم وبسمة يجلسون في جانب المخبأ يتحدثون بانتظار وليد، فقلت له بصوت خافت “شكراً لإنقاذك أمجد من قبضة المؤسسة.. لن ننسى لك هذا”

ابتسم وليد معلقاً “لا داعي للشكر.. إنما هو دين أقوم برده..”

فقلت قبل أن يبتعد “وليد.. هل تعلم بوجود دواء لدى المؤسسة يجعلنا نستعيد ذكرياتنا؟”

تساءل وليد بدهشة “لم أسمع بهذا من قبل.. من أوحى لك بهذا؟”

قلت مفسرة “إنهم يستخدمون طريقة ما لإفقادنا ذكرياتنا، أغلب الظن هو الدواء الذي حقنونا به قبل قدومنا للكويكب.. إذن لا بد من وجود دواء مضاد..”

غمغم وليد مفكراً “لم أسمع بهذا من قبل..”

فقلت له برجاء “اسأل عنه وحاول الحصول عليه.. لا أريد أن أبقى فاقدة للذاكرة مدة أطول.. أشعر أي تائهة..”

هز وليد رأسه موافقاً وقال “سأبذل جهدي..”

سمعت أمجد يسأله “تبذل جهديك فيم؟”

نظرنا له بتعجب لاقترابه، ثم قال وليد “حمراء تريد مني البحث عن دواء أو وسيلة لاستعادة الذكريات.. ورغم أنني لم أسمع بهذا من قبل”

حدجني أمجد بنظرة مبهمة، قبل أن يقول مقطباً “لا أعتقد أن هذه الفكرة صحيحة.. لا يمكن إعادة الذاكرة بجرعة دواء”

قلت بحدة “أنت كنت مؤيداً للفكرة فيما مضى..”

أجابني بهدوء “لم أكن أملك أي فكرة عن المؤسسة.. الآن أرى الفكرة سخيفة”

أصابني ضيق شديد من قوله، لكن وليد قال لتهدئة الوضع “لا بأس.. سأحاول البحث وأخبركم النتائج”

ثم تركني مع أمجد باتجاه البقية فيما كنت أفكر في أمر أمجد.. لماذا اعترض بهذا الشكل واستخف الفكرة التي كانت له بالأساس؟ هل يعلم أمراً لا أعلمه؟.. بودي أن أعرف..

نهضت بشيء من العسر وسرت بعرج خفيف متجهة لموقع البقية.. كانوا يتناقشون ويخططون للخطوة القادمة، بينما جلست بسمه جانباً بصمت.. فقلت لهم "هل قررتم استبعادني من خططكم تماماً؟" علق أدهم "ألا تظنين الأمر طبيعي مع إصابتك هذه؟ ثم إن وجودنا نحن الثلاثة كافٍ لتنفيذ الخطة.. فلا تشغلي بالك حتى تتحسن حالتك"

ورغم أن رده لم يعجبني، إلا أنني قلت بهدوء وأنا أجلس في جانب المكان "لكن هذا لا يفرض إبعادي عن مشاركتكم في التخطيط.."

لم يعترض أحدهم بكلمة وهم يستمرون في النقاش.. أما أنا فقد التزمت الصمت أستمع لحوارهم وقد ازداد ضيقي.. رغم منطق أدهم، إلا أنني أكره تهميشي للجوانب.. أكان ذلك بسبب إصابتي حقاً أم لكوني فتاة؟.. أكره هذا.. أكرهه بشدة..

سمعت وليد يقول "يمكنني مدكم بالمعلومات اللازمة لأسهل دخولكم وإنجاز مهمتكم، لكن أي مشاركة مباشرة مني ليست في صالحتي.. لا أريد كشف نفسي بعد ولا أريد الشكوك أن تدور حولي.. فالشكوك بوجود خائن بين الحراس تدور بين المسؤولين بالفعل.."

فقال أدهم مقطباً "بعد كل ما فعلته تخشى من الشكوك؟ لو لم يشكوا بك بعد كل ما جرى فلا أظنهم سيشكون أبداً" علق وليد بضيق "لا أحد يضمن ذلك.. المهم أنا عند وعدي السابق مادام الأمر لا ينطوي على تدخل مباشر مني.."

قال أمجد باعتراض "لكن كيف يمكننا إنجاز هذه المهمة بدونك؟ لا نملك المهارات والمعدات اللازمة لمهمة مثل هذه"

أجاب وليد "سأساعدكم في التخطيط وقد أستطيع تهريب بعض المعدات التي تطلبونها.. لكن فيما عدا ذلك، فأنا آسف"

قلت لأمجد "هل تملك خطة محددة؟"

قال أمجد "ليس بعد.. عمي مسجون في أحد المباني الإدارية في غرفة هيئت لسكنه الدائم.. أعرف موقع الغرفة بالتحديد لكن كيف سأجاوز الحراس عند المدخل والمبنى وهم قد أصبحوا أكثر حذراً؟ وكيف سأفتح قفل الغرفة دون مفتاحه؟ لا بد أن يساعدني وليد على الأقل في فتح الغرفة.."

قال وليد باعتراض "المفتاح عند قائد الحراس فقط.. ولو حضر الحراس ورأوكم فسأضطر لمساعدتهم في القبض عليكم.. لذلك لا أريد التدخل هذه المرة.."

تهدد أمجد مفكراً، فقال أدهم بعد أن ساد الصمت "أنت لازلت ترتدي زي الحراس"

نظر له أمجد باستفهام، فأضاف أدهم "أليست هذه نقطة لصالحنا؟"

أسرع وليد يقول "لم يعد هذا ينفذ كثيراً.. أصبح الحارس عند البوابة يدقق كثيراً في القادمين للمباني الإدارية بعد

محاولتكما الأخيرة.. سيتم القبض عليكم فور وصولكما للبوابة”
فتتهد أمجد معلقاً بضيق “إذن ما العمل؟ لا نستطيع البقاء هكذا طويلاً.. ولا نستطيع التسلل للمباني الإدارية دون
مخاطر.. لو أمكننا دفع الإدارة لإخراج عمي من سجنه، عندها قد يغدو من السهل علينا تهريبه من بين أيديهم”
لمعت في رأسي فكرة مهمة، فاعتدلت في جلستي وأنا أقول “يمكننا فعل ذلك..”
نظروا لي بدهشة، فأسرعت أقول “أليس عمك هو المسؤول عن تطوير أحد الأجهزة في الكويكب؟”
قال أمجد “أجل.. لقد شارك في تطوير جهاز الجاذبية..”
فقلت باهتمام “إذن الأمر سهل.. لا بد أنها تحتفظ به هنا وهي بحاجة لخبراته.. لو وقعت المؤسسة في مأزق
يحتاج منها استشارته خارج المباني الإدارية فقد تحين لنا الفرصة لتهريبه أثناء ذلك”
قال وليد مقطباً “مستحيل.. ما تفكرين به خطير جداً.. لو عيئتم بالجهاز دون دراية فستتسببون بكوارث عديدة
للكويكب لن تسلموا منها أنتم أيضاً..”
قلت بسرعة “لن نلسمه بضرر.. لكننا سنوحي للإداريين بوجود خطر عليه مما يستدعيهم ترحيل عمه لموقع
الجهاز دون إبطاء”
ظلوا صامتين يتبادلون النظرات، ثم قال أمجد “أعجبتني هذه الخطة..”
قال وليد معترضاً “إنها خطة نظرية فحسب.. قد لا تعتمد الإدارة لترحيل عمك إلا بعد التأكد من تأمين موقع
الجهاز جيداً، وهذا يعني القضاء عليكم بشكل تام..”
فقال أمجد “لا عليك من هذا.. فقط أخبرني بموقع هذا الجهاز وبالتحصينات حوله واترك الباقي لنا..”
نظر له وليد بعدم تصديق، فأضاف أمجد “أنت وعدت بمساعدتنا هذه المرة..”
زفر وليد صامتاً للحظات، ثم قال “حسناً.. لكن يجب أن أخذك لرؤية الموقع بنفسك، فلا يمكنني ذلكم عليه
بالوصف فقط”
بعدها، أسرع وليد بإيجاز كل المعلومات التي طلبها منه أمجد، قبل أن يغادر مستعجلاً ليعود لعمله مع وعد
بالالتقاء بأمجد في وقت آخر ليبدله على موقع الجهاز.. الآن، بقي علينا أن نضع خطة محبوكة لهذه العملية،
ونرجو ألا تبوء بالفشل مرة أخرى..

بعد انقضاء معظم تلك الليلة، وقبل طلوع فجر نهار جديد، اقترب وليد مع بعض من رفاقه من قائد الحرس
الواقف وسط ساحة المباني الإدارية مع أحد مساعديه بعد استدعائه لهم، ولما اجتمعوا به بادروا بالقول مشيراً
لصندوق قريب منه “احملوا هذا الصندوق للمركبة واتجهوا لمساكن المنجم (أ).. يجب أن يأخذوا جرعته من

العقار الآن قبل أن يبدأوا عملهم، وحاولوا الانتهاء من هذه المهمة اليوم أو غداً على أكثر تقدير.. فالإدارة الرئيسية تطلب منا بذل مجهود أكبر في الفترة القادمة في توريد المادة الخام لها، ولا نريد أن يعطلنا أي أمر عن هذا”

همس أحد الحراس بضيق “لقد بقينا مناوبين طوال الليل.. ألن يتركونا ننام؟”
لم يعلق أحد الحراس بكلمة بينما التفت القائد الذي لم يسمعه لمساعدته مضيفاً “أذهب معهم وأشرف على عملهم.. ولا تنسى الإحصائيات التي طلبتها منك”

أسرع حارسان لحمل الصندوق الثقيل للمركبة القريبة ووليد والبقية يصعدون للمركبة بدورهم، بينما جلس المساعد في المقعد الأمامي وسرعان ما انطلقت المركبة لوجهتها المحددة..
سمع وليد أحد الحراس ممن كان قربه يقول “مادام موعد أخذ الجرعة قد حان للمنجم (أ)، فهذا معناه أن موعدنا نحن قريب أيضاً..”

تساءل حارس آخر بقلق “أتظن أن كمية كافية من العقار ستصلنا عما قريب؟ ماذا لو تأخروا عن موعدهم؟ ماذا سيحل بنا؟”

قال حارس آخر “لا تقلق.. هذه ليست المرة الأولى بالنسبة لي ولم تنقص كمية العقار عن حاجتنا أبداً..”
زجرهم المساعد عن تبادل المزيد من الأحاديث، فساد الصمت المركبة وفكرة مهمة تطرأ لوليد.. لقد حان موعد أخذ الجرعة والأربعة الهاربين لن يحصلوا عليها.. وهذه قد تصبح كارثة.. نظر للصندوق القريب منه بتفكير.. لا بد من تهريب أربع جرعات من هذا الصندوق مهما كلف الأمر.. فلا يعلم متى سيتمكن من الاقتراب من مخزون هذا العقار من جديد قبل أن يحين الوقت.. أو يفوت..

”ما هذا؟“

ألقى أمجد السؤال وهو يتأمل مع أدهم علبة صغيرة شفافة تحوي أربع إبر زجاجية مليئة بسائل شفاف، فقال وليد الذي كان يدور في المكان يتأمل ما حولهما بحذر “لا وقت للشرح الآن.. يجب أن تحققوا أنفسكم بها في أقرب وقت..”

سأله أمجد مقطباً “ما بالك؟”

قال وليد بتوتر وهو يقترب من أمجد “إنهم قريبون.. أسمعهم عبر جهاز الاتصال.. لو رأوني معك لكنت كارثة”
وقام برفع كم أمجد المندهش بسرعة حتى أعلى الذراع.. فتناول إحدى الإبر من العلبة وأمجد يقول “لكنني لست بحاجة لـ...”

قال وليد بشيء من العصبية "لا يهم.."

وحقنها في أعلى ذراع أمجد مفرغاً مادتها كاملة في جسده.. ثم قال وهو يعيد الإبرة الفارغة للعبة "هذا سهل جداً ولن تعجزوا عنه.. والآن يجب أن أذهب"

أسرع أدهم يسأله "وماذا عن جهاز الجاذبية؟ أنت وعدت أن تأخذنا إليه"

قال وليد هازماً رأسه "ليس اليوم.. أنا بعجلة من أمري.."

سأله أمجد وهو يراه يبتعد "هل هذا هو دواء استعادة الذاكرة الذي طلبته حمراء منك؟"

لوح وليد بيده بإشارة غير مفهومة وهو يقول بتوتر شديد "لا تنس.. يجب أن يحصل عليه البقية في أقرب وقت ممكن.. ولا تبقيا هنا طويلاً"

ثم غادر بسرعة ليختفي بين أشجار الغابة المظلمة، فيما نظر أمجد للعبة بيده وهو يستشعر ألماً من العقار الذي سرى في ذراعه، بينما غمغم أدهم "لابد أن يكون هو.."

غادرا البقعة بسرعة وصمت وأفكار أمجد تدور في فلکها الخاص.. هل يمنحه لهم؟ هل من مصلحته ذلك؟ لا

بأس بأدهم وبسمة.. لكن ماذا عن حمراء؟ لابد أنها متلهفة بشدة لاستعادة ذاكرتها.. فهل يمنحها العقار؟ لكن لو لم يفعل فبأي حجة يمنعها من الحصول عليه خاصة أن أدهم يعلم بأمره أيضاً؟..

أما وليد، فلم يكذب يغادر الموقع ويتوغل في الغابة حتى فوجيء بعدد من الحراس أمامه يلقون بنور كشافهم على وجهه ومعهم مساعد قائد الحرس.. فنظر لهم بتوتر وهو يتساءل "ما الأمر؟ هل صدرت أوامر جديدة؟"

أشار المساعد للحراس فاندفعوا خلف وليد بصمت تام ليغيبوا بين أشجار الغابة ووليد يراقبهم بقلق وتوتر.. هل غادر أمجد وأدهم أم أنهم سيرونهما ويقبضون عليهما من جديد؟..

سمع المساعد يقول له بصرامة "أين اختفيت أيها الحارس طوال الساعة الماضية؟"

قال وليد بتوتر "كنت أقوم بعملي.. هذه مناوبتي ومن المفترض أن أقوم بمراقبة هذا الجزء من الغابة.."

ظل المساعد ينظر له ببرود أثار ريبة في أعماق وليد.. إنهم يشكون في أمره.. هذا واضح تماماً من لهجته ونظراته بالإضافة للحراس الذين انطلقوا يبحثون عن أمجد.. لابد أنهم يشكون في مساعدته لهم..

سمع خطوات عدة تقترب منه، ثم ظهر الحراس من خلفه وأحدهم يقول "لم نعثر على أحد.."

كتم وليد تنهيدة ارتياح، لكن المساعد سأله فجأة بصرامة "أين اختفت آخر جرعة من الدواء؟ هناك عدة إبر فقدت من الصندوق، فما الذي فعلته بها؟"

قال وليد بتوتر "لقد كسرت عندما وقعت من يدي خطأ.. لقد أبلغتكم بذلك من قبل"

ثم فتح ذراعيه مضيفاً "يمكنك تفتيشي إن كنت تشك في أمري.."

ظل المساعد يحدجه بنظرات اتهام صريحة، ثم استدار وهو يقول "لست بحاجة لأفعل هذا الآن، فلو كنت تملكها لما تركتها في مكان يمكن أن نعثر عليه"

شعر وليد براحة لقلوله، فهذا معناه أنه مجرد شك ولم يتأكدوا من شكوكهم بعد.. لكن المساعد أضاف "سيتم التحقيق معك في المباني الإدارية.. هناك عدة شكوك تدور حولك.. ومن الأفضل لك أن تملك حججاً مقنعة.." لم يعلق وليد وهو يتبعه مع بقية الحراس.. أمامه ساعات طويلة وصعبة.. لكن إن لم يثبت براءته فيها، فالويل له..

دخل علينا أمجد وأدهم بعد وقت طويل غابا فيه عنا ليقابلا وليد في الموعد الذي حدده لهما مسبقاً لأخذهما لموقع جهاز الجاذبية.. كان وجه أمجد يحمل وجوماً غريباً جعلني أتعجب له، فسألت أدهم "ما بالكما؟ هل أبلغكما وليد بأخبار سيئة؟"

قال أدهم بابتسامة "بل لدي أخبار رائعة"

ازدادت دهشتي وأنا أتعجب من التناقض بين ملامح أمجد وقول أدهم.. ثم رأيت أمجد يرفع علبة صغيرة تحوي أربع إبر مليئة بسائل شفاف، إحداها قد فرغت مما بها.. وإزاء نظرات الحيرة التي علت وجهي وبسمة تنهد وهو يقول "وليد أحضر هذه.. كان مستعجلاً جداً وأخبرني بضرورة حقن أنفسنا بهذا الدواء دون تأخير.."

سألته بتعجب "ماذا تعتقد أنها تحوي؟ لا أريد تجربة أي من أدويتهم دون أن أعرف ماهيته"

قال أمجد "لا تخافي.. لقد دار في ذهني معنى واحد لإحضاره هذا الدواء.. وعندما سألته عما إن كان تخميني صحيحاً، وافقني وهو يغادر مسرعاً.."

سألته بسمة "إذن ما هذا الدواء؟"

قال أمجد دون أن يرفع بصره "دواء استعادة الذاكرة.."

نظرنا للإبر بدهشة ثم تبادلنا نظرات اللهفة وأنا أقول "حقاً؟ ستعيد لنا ذاكرتنا؟ كيف؟"

قال أمجد "لا أعلم.. لقد كان وليد مستعجلاً ويبدو أنه لاقى صعوبة في تهريب هذه العلبة.. كان غامضاً في حديثه ولم يشرح لنا أي شيء.."

سألته بسمة بتردد "هل جربته بنفسك؟"

هز أمجد رأسه إيجاباً قبل أن يقول "عليكم فقط حقن الإبرة في أعلى الذراع ودفع العقار فيها.. لم أشعر بأي شيء عدا ألم بسيط في ذراعي حيث سرى العقار.. لكن.. هل تريدون حقاً استعادة ذكرياتكم؟"

تناولت بسمة إحدى الإبر ونظرت للسائل الشفاف بلهفة قائلة "أريد أن أعرف حقاً.. أريد أن أستعيد ذاكرتي مهما يكن.."

قال أمجد زافراً "لست أدري إن كان هذا أمراً جيداً.."

قلت مقطبة "كلنا لنا الحق في ذلك ما دمت قد فعلت الشيء نفسه.."

لم يعلق أمجد بكلمة وهو يبعد بصره بشكل استغريته.. فيما تناول أدهم إبرة أخرى وكشف عن ذراعه ليحقن نفسه بها بدون تردد ودفع الدواء في جسده، بينما تطوعت أنا لفعل ذلك لبسمة التي كانت تغمض عينيها بقوة قبل أن تسبب لها الإبرة ألماً بالفعل.. كنتُ بدوري بلهفة للحصول على جرعة من هذا الدواء.. بلهفة للتخلص من تلك الومضات المؤلمة.. بلهفة لمعرفة من أكون حقاً..

ما إن انتهيت من بسمة، والتفتُ لتناول الإبرة الأخيرة، وجدت أمجد يختطفها قبل أن أتناولها أنا.. وتأمل محتواها وأنا أقول له "ناولني إياها.. أريد أن أستعيد ذاكرتي أنا أيضاً.."

نظر لي قائلاً "هل أنت واثقة من هذا؟ ماذا لو كان ما تريدين استعادته لن يسعدك بأي حال؟" قطبت معلقة "وكيف تعرف ذلك أنت؟ ناولني إياها.."

ظل أمجد متردداً بشكل غاضبي، ثم مد يده بها لي.. ولكن قبل أن أمسكها وجدته فجأة يطلقها لتسقط أرضاً متحطمة على الصخور وكل محتوياتها تنسكب مختلطة بالزجاج المهشم.. نظرت لما حدث بدهشة قبل أن أحوّل نظري لأمجد مقربة، فقال لي بارتباك "أسف.. لم أقصد ما حدث.. كان خطأ مني إفلاتها قبل الأوان.. سأرى إن كان باستطاعة وليد إحضار بديل لك.."

قال أدهم معلقاً "لكن لم يحدث لنا شيء.. ما زلت أجهل كل شيء عن ماضي.."

قال أمجد "لا أعتقد أن هذا سيحدث مرة واحدة بل قد يستغرق بعض الوقت.. كن صبوراً"

استغرق الاثنان في حوار جانبي فيما مالت بسمة عليّ هامسة "يبدو لي أمجد غير راغب باستعادتك لذاكرتك.. أتعلمين لم كسر الإبرة عمداً؟"

قلت بحق "لا أدري.. لكنه عمل أناني.. لم حرص على استعادة ذاكرته فيما حرمني أنا من ذلك؟"

غمغمت بسمة "ربما لأنه يخشى ذلك.. أنت متأكدة أنك لم تعرفي أمجد فيما مضى؟"

جاء تعليقها كصدمة لي وأنا أنظر إلى أمجد بنظرة جديدة.. هل هذا الاحتمال وارد؟ هل كنا نعرف بعضنا قبل مجيئنا إلى هنا؟ هو استعاد ذاكرته، فما الذي وجده فيها ليحرص على أن أبقى فاقدة لذاكرتي؟ ولماذا أنا بالذات بينما لم يعترض على أدهم أو بسمة؟..

بعد فترة وجدت الفرصة للاختلاء بأمجد بعد ابتعاد بسمة وأدهم عنا شيئاً ما، فسارعت لمواجهته وأنا أقول "لم فعلت ما فعلته؟"

قال بحيرة بدت لي مصطنعة "ماذا تعنين؟"

قلت بحدة "أنت تعمدت كسر الزجاج.. لماذا؟ ما الذي يسوؤك في استعادة ذاكرتي؟"

قال مقطباً "لا علاقة لي بذاكرتك.. كان ذلك حادثاً.. لم لا تصدقين؟"

قلت بعصبية "لأنه لم يبذُ كحادث.. حتى بسمة انتبهت أنك تعمدت كسر الزجاج.. أجبني.. هل كنا نعرف بعضنا البعض قبل مجيئنا للكويكب؟"

بدا ارتبأكه واضحاً في عينيه اللتين أدارهما بعيداً مما أكد لي الجواب، لكنه قال بهدوء مفتعل “لا لم أعرفك مسبقاً.. هذا شيء مؤكد.. فلماذا أخفي عنك الأمر؟”

رددت “لا أدري.. هذا ما أريد جوابه منك..”

زفر للحظات بضيق، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة مجيياً “لا تقلقي.. لم أعرفك سابقاً ولا دخل لذكرياتك بك أبداً.. ثقي بي”

ظللت أنظر له بشك واضح.. لم تقنعني ابتسامته، ولم يقنعني حديثه أبداً.. لكن سيتضح كل شيء مع الأيام.. لا بد أن أستعيد ذاكرتي يوماً ما.. عندها سأعرف حقيقة الأمر..

الفصل التاسع عشر

[ذكريات]

عندما أتى وليد في الليلة التي تليها، بعد أن أفلت من شكوكهم بالكاد كما أخبرنا، عرض اصطحاب أمجد لرؤية جهاز الجاذبية الذي كان على شيء من المبعدة، فأصررت على القدوم معهما.. لقد أصبحت قلمي أفضل حالاً، وقد سئمت الجلوس بدون هدف أو عمل..

لم يعترض أيهما على ذلك، فانطلقنا بسرعة كي لا يتأخر وليد في العودة ويثير الشبهات باختفائه.. أكملنا سيرنا في الجبال تلك متجاوزين عدة مناطق منها بأسرع ما نستطيع.. مررنا بويان عميقة تغطيها الأشجار بشكل تام، ورأينا كهوفاً ضخمة فاغرة فاهها بصمت تام.. لكننا لم نتوقف ونحن نجد السير عبر درب صعب وشاق..

بعد فترة من السير سألت وليد "هل يقع جهاز الجاذبية في هذه الجبال؟"

أجابني "ليس تماماً.. إنه يقع خلفها، في بقعة منخفضة من الكويكب هي في الواقع أخفض بقعة فيه.. لذلك تم اختيارها لوضع الجهاز فيها"

قلت بصدمة "خلف الجبال؟ إذن سنستغرق دهوراً لتتجاوزها.."

قال وليد "ليس بالضرورة.. هذه الجبال تشق الكويكب بشكل عرضي.. لذلك هي لا تمتد لمساحة كبيرة أمامنا.. سنتجاوزها بسرعة"

صمت عن التعليق وأنا أبذل جهدي لمتابعة خطواتهما السريعة.. عاد كاحلي يؤلمني شيئاً ما بعد أن ضغطت عليه كثيراً في سيري.. لكن لا يحق لي التذمر وقد اخترت هذا المجهود بنفسه بل وأصررت عليه..

بعد مرور وقت طويل، توقف وليد عن السير قائلاً "لنأخذ قسطاً من الراحة.. مازال الدرب طويلاً أمامنا" لم نعترض على ذلك وكل منا يجلس جانباً ويتناول حاوية مياه ليشرب جرعات منها بلهفة.. ثم سألت أمجد "كيف يصلون لموقع الجهاز؟ هل هناك طريق ممهد تسلكه المركبات؟"

هز وليد رأسه نفيماً وقال "بل يستخدمون المروحية.. هي الأسهل في عبور هذه الجبال واختصار هذه المسافة الطويلة إليه"

سألت أمجد بدوري "لم يتوجب علينا الذهاب حتى موقع الجهاز ذاته؟ لم لا ننتظر قدوم المروحية في موقع قريب من هنا؟ ثم كيف سنجبر المروحية على الهبوط؟"

أجاب أمجد "لا يمكن.. خطتي تستدعي استخدام جهاز الاتصال الخاص بالحراس.. ويستطيع قائد الحراس أن يعرف موقع الجهاز الذي جرى منه الاتصال كما أخبرني وليد.. لا نريد ما يثير الشبهات في خطتنا"

عدت أسأله "والمروحية؟ كيف يمكننا إجبار المروحية على الهبوط دون أن نؤذي من فيها بما فيهم عمك؟"

أجابني باقتضاب "سنرى ذلك.."

نظرت له بتعجب.. فقد كان من المستحيل بالنسبة لنا التغلب على هذه النقطة.. لا نملك أي إمكانيات تمكننا من ذلك، والجهاز ولاشك يملك حراسة قوية لن نستطيع تجاوزها بعد وصول تلك المروحية.. فما العمل في هذا الأمر؟..

سمعت وليد يحنثنا على النهوض، فنهضت بشيء من العسر لألحق بهما وقد تيبس كاحلي بعد الراحة فأصبح يؤلمني أكثر عند ضغطي عليه.. اقترب أمجد مني متسائلاً "هل أنت بخير؟ ألا يؤلمك كاحلك؟"

قلت كاذبة "لا.. لا تقلق.."

ظل ينظر لي بنظرات اتهام، فلففت وجهي بعيداً وأنا أغمغم "لا تقلق.. لا يؤلمني إلا بشيء قليل.. يمكنني التحمل بعد"

فقال "أخبريني متى صرت غير قادرة على الاستمرار.. لا تضغطي على نفسك أكثر من اللازم" وابتعد عني لاحقاً بوليد.. فزفرت وأنا أجهد نفسي للحاق بهما.. كانت الجبال أمامنا مترامية الأطراف، وعجبت من ثقة وليد بأننا سنجتازها بسرعة.. لكن عندما فعلنا، وقفت على حافة الجبل الأخير أنظر لما أمامي بدهشة.. رأيت خلف سلسلة الجبال تلك مساحات ومساحات شاسعة خضراء تغطيها طبقة كثيفة من العشب.. بدت تتراعى على مد البصر دون نهاية.. وفي وسطها، على مسافة من الجبال، رأينا تلك البقعة التي بدت في أخفض بقعة من المكان.. وفي حفرة واسعة ذات قطر لا يقل عن ٢٠٠ متر ربض ما بدا كصندوق فضي كبير الحجم.. ومنه خرج عمود يرتفع لمسافة عالية فوقه.. كان الجهاز يبدو من هذا المكان على شيء من الضخامة، فكيف يبدو من موقع قريب منه؟.. ويحيط بهذه الحفرة الواسعة سور حجري عالٍ ذو بوابة معدنية ضخمة.. لم نتمكن من رؤية الكثير من التفاصيل الدقيقة ووليد يقول "غير مسموح بالاقتراب من هذا الجهاز إلا لعدد محدود من الحراس الذين يحظون بثقة المؤسسة.. وهم ملتزمون بارتداء رداء خاص إذ يبدو أن البقاء طويلاً قرب الجهاز له مضاره.."

تساءل أمجد "أين تهبط المروحية القادمة من الإدارة؟"

قال وليد "في أي بقعة قرب السور.. إذ لا مكان لها داخله.. وطبعاً السور مزود بالعديد من أجهزة المراقبة التي تعمل باستمرار.."

ظل أمجد يتفحص المنطقة بتمعن ويلقي بأسئلته على وليد، بينما جلست في جانب المكان بإنهاك محاولة إراحة قدمي المصابة.. وبعد فترة قصيرة تنصّل وليد من أمجد وأسرع يغادر عائداً للجانب الآخر من الجبال، بينما بقيت مع أمجد وأنا أتساءل "أتظن من السهل علينا تنفيذ خطتنا في هذا المكان؟ لا نريد أن نكرر فشلنا مرة أخرى"

غمغم أمجد "طبعاً أدرك هذا.. لكن لنأمل خيراً.."

كانت هذه إجابة مبهمة، لكنني لم أتساءل عن مغزاها وأنا أزر متطلعة لما حولي بصمت..

كان النهار قد طلع عندما نجحت بالعودة لمخبئنا بإنهاك شديد وقد تركت أمجد خلفي.. ومع أول شعاع للشمس، استطعت أن أرى بسمه وأدهم جالسين قرب المدخل يتحدثان ويراقبان الموقع حولهما، ربما بحثاً عنا.. فزفرت وأنا أتقدم وأعضائي تتوق لراحة عميقة بعد كل ذلك المجهود الذي بذلته.. تنأهى لسمعي صوت أدهم وهو يسأل بسمه "هل استعدت شيئاً من ذكرياتك؟"

قالت بحيرة وهي تفرك يديها بقلق "لا شيء عدا عن اللقطات المبهمة السابقة.. يبدو أن وليد خدعنا بذلك الدواء.."

نظر لها أدهم بشيء من التردد، ثم تنح قليلاً وقال بصوت خافت "بسمه.. أعلم أن موقفنا لا يدع مجالاً لما أريد قوله بحال.. أعلم أنني أحمق.. لكني....."

تردد قليلاً وهي تنظر له باستفهام لم يخلُ من توجس، بينما توقفت أنا قبل أن أبدو لهما من بين الصخور المحيطة بالمخبأ.. بدا أنه ينوي قول شيء مهم، ولم أرغب بإفساد تلك اللحظة عليه.. لذلك فقد جلست خلف إحدى الصخور مستندة بظهري عليها لأمنحه حرية أكثر في الحديث.. وسمعته يقول دون أن أرى نظراته المترددة لها "أعلم أنك لا تشعرين بالراحة لوجودك معي، لكن أتمنى أن أستطيع أن أزيل ذلك بأي طريقة كانت.. أنا مهتم بك، ولا أريد أن يسبب وجودي لك الضيق بأي شكل.."

أبعدت بسمه بصرها عنه وقالت بارتباك "لا تقلق.. لست تسبب لي أي ضيق"

ظل ينظر لها بصمت، ثم قال "وماذا بعد ذلك؟ أنت ولا بد مدركة مقدار اهتمامي بك.. فهل يمكنني أن أمل بأن يلقى هذا صدىً عندك؟"

تعجبت من جرأة أدهم على قول ذلك، فنظرت من خلف الصخرة لأرى رد فعل بسمه.. بدت مرتبكة وارتجافة واضحة تغزو جسدها وهي تنظر له بعينان متسعتان، ثم همست برجاء "ابتعد عني أرجوك.."

صدم أدهم لقولها الذي لا معنى له، ثم سألها بشيء من الضيق "ما معنى هذا؟"

اغرورقت عيناها بالدموع كعادتها دائماً، مما جعلني بحيرة من قدرتها على البكاء باستمرار دون ملل، بل ومن قدرة أدهم على الإعجاب بها وهي على هذه الحال.. لكني أحياناً أظنه يحب ضعفها واعتمادها الدائم عليه.. يحب ما تمنحه إياه من إحساس بالقوة وبأن مصيرها بين يديه..

خضت بسمه عينيها وهي تهمس بصوت مرتجف "أنت.. أنت فقط.. تخيفني كثيراً.. تخيفني بأكثر مما قد تتصور.."

تبدى الضيق على وجه أدهم لقولها، وظل صامتاً والحيرة تظله، فأطرقت وهي تكرر بصوت أعلى وبتهدج

واضح “أنا أخشاك كثيراً.. أدرك أنك ستحميني دائماً.. وأدرك أنك شخص طيب كثيراً.. لكني.. لا أستطيع..”
اقترب أدهم وركع قريبا هامساً “أنا لا يمكن أن أؤذيك.. هذا مستحيل.. فم تخافين؟ ألا تثقين بي؟”
دفنت بسمه وجهها بين يديها وكأنها تحاول الاختباء منه، وهمست بضعف “لا أستطيع.. لا أستطيع.. ابتعد عني أرجوك..”

أطرق أدهم والمرارة تبدو واضحة على وجهه.. لو تراه بسمه الآن والألم يغزو وجهه، لما كانت قاسية معه لهذه الدرجة.. ما الذي تريده هذه الحمقاء حقاً؟..
وقف أدهم فجأة وهو يتمتم بشيء لم أسمعه.. فرفعت بسمه رأسها إليه على الفور قائلة من بين دموعها “أرجوك.. لا تكرهني..”
صمت أدهم تماماً وهو يرميها بنظرة مريرة، ثم ابتعد في الاتجاه الآخر مغادراً الموقع وهي تنظر له بيأس..
زفرت وأنا أسند رأسي للصخرة من جديد دون أن أحاول التدخل.. لو تدخلت، فلربما آذيت بسمه بكلمة فيتوتر الجو أكثر مما هو عليه الآن.. فما تفعله أكثر مما أطيق.. ولو كان الأمر بيدي لجعلت أدهم ينساها تماماً.. لكني أدرك أن هذا مستحيل في الواقع.. ليس الحب مما يمكن إزالته بإرادة الشخص..
قطبت وأنا أنتبه فجأة.. هناك شيء يطرق ذاكرتي.. شعرت بومضة مؤلمة تتردد في عقلي، فأمسكت رأسي وأنا أكف عن مقاومتها كعادتي.. أريد أن أعرف.. أريد أن أستعيد كل شيء.. أريد الحقيقة..

“أرجوك.. لا تتركني.. لا تتخلّ عني..”
لكن ذلك الشخص لم يلتفت تجاهي وهو مستمر في سيره، فتمسكت بيده وأنا أصيح “أرجوك.. أنا أحبك حقاً.. لا تفعل هذا بي”
لم يلتفت تجاهي أيضاً وإنما جذب يده بقوة وهو يقول بصوت قاس “لا أحب الفتاة الضعيفة مثلك.. أنت ضعيفة وخانعة.. بيدك أمري كله، لكنك تتخلين عني خوفاً على منصبك التافه.. لقد خيبت ظني بك”
هتفت من بين دموعي “لكن ما تطلبه مستحيل.. أرجوك.. لا بد من وسيلة أخرى”
فقال بجفاء ملحوظ “إذن لا فائدة من وجودك في حياتي.. ذاك كان الشيء الوحيد الذي أردته منك، وما دمت ترفضينه، فأنت لا أهمية لك عندي”
اتسعت عيناى بغير تصديق وهمست بصوت مرتجف “أتعني ذلك حقاً؟.. لكن.. أنا....”
لكنه لم يستدر أيضاً وهو يبتعد عني بسرعة.. فانهرت أرضاً وأنا أبكي قائلة من بين نشيجي “أنا أحبك.. لا تتخلّ عني.. أرجوك..”

فتحت عيني وأنا مصدومة.. لم أتعرف الشخص الذي بدا لي في ذاكرتي ولم أتمكن من رؤية وجهه، أهو ذات الشخص الذي دارت حوله ذكرياتي سابقاً.. لقد صدمت مما فعلته أنا.. أهكذا كنت؟ أهكذا تصرفت إزاء شخص نبذني لسبب لا أعلمه؟.. لكن هل كنت أستحق ذلك؟..

عضضت شفتي وأنا غارقة في أفكاري.. أحاول البحث عن ذكريات تفسر لي ما رأيته.. لكنني عجزت عن ذلك تماماً..

كرهت نفسي أكثر مما أكرهها فعلاً.. لهذا السبب كرهت أن أبدي الضعف في شخصيتي.. لا بد أنه رد فعل لما حدث في تلك اللحظة.. أغمضت عيني وأنا أستسلم لتعبي المتزايد، وكدت أغرق في نوم عميق بالفعل لولا صوت أمجد الذي قال “حمراء؟ ما الذي تفعلينه بعيداً عن المخبأ؟”

فتحت عيني بتعب وغمغت “لا شيء.. لم يعد لدي طاقة للسير بعد”

فقال وهو يجذبني لأنهض “لنعد.. هذا المكان مكشوف أكثر مما ينبغي.. والمخبأ قريب جداً”

لكنني لم أفعل وأنا أعود لإغماض عيني قائلة “اتركني.. سأرتاح قليلاً ثم أعود للداخل.. الصخور محيطة بي ولا يمكن رؤيتي من بعيد”

لم يعلق بكلمة وإن شعرت به يجلس بدوره قريباً، فقلت مقطبة وأنا أنظر إليه “قلت لك سأعود.. لم لا تتركني قليلاً؟”

قال بهدوء “لأنني قلق عليك.. سأبقى ما دمت باقية هنا”

لم أعلق وأنا أدير وجهي جانباً وأغمض عيني.. لم أكن أرغب بالعودة للمخبأ الآن ورؤية بسمة.. شعرت أنني أكرهها، ورغبت بتجاوز هذه المشاعر قبل أن أواجهها.. لا يحق لي هذا الغضب الذي أصبه عليها مهما كنت أهتم بأمر أدهم.. هي حرة بقبول من تريد ورفض من تريد.. لكنني حانقة عليها لأنها تصده وفي الآن ذاته لا تتوانى عن استغلال حمايته ورعايته.. وهذا أكثر ما يغيظني منها..

“أرجوك.. لا تفعل هذا..”

لوحت بالسكين الضخمة في يدها الصغيرة وهي ترفعها أمام وجهها الغارق بالدموع بتحذير لم يبذرها فائدة تذكر.. فيما قال الرجل الضخم بابتسامة ساخرة “لا داعي لهذه الألعاب البلهاء.. أنت لا يمكنك إيذاء ذبابة، فهل تظنين

ليست موجودة عند مدخله.. ولم نكد نتجاوز المدخل حتى تناهى لسمعنا صوت بكاءها.. فأسرنا من خطونا لنراها منطوية على نفسها تبكي بحرقة أدهشتنا.. تبادلنا النظرات المتعجبة للحظات ثم تنهدت قليلاً وأنا أجلس قربها ولمست كتفها متساءلة بلوم لم أملكه “لم البكاء الآن؟ هل تبكين على ما ضيَّعته يا بسمة؟” نظر أمجد لي بتعجب دون أن يفهم مغزى جملتي، بينما رفعت بسمة وجهها المبلل بالدموع وهي تهتف بصوت متهدج “لقد تذكرت كل شيء يا حمراء.. تذكرت ماضيّ كله.. وليتني لم أذكر ذلك أبداً” نظرنا لها بدهشة، فعادت ترمي وجهها على ذراعيها وهي تبكي من جديد قائلة “تذكرت السبب الذي جاء بي إلى هنا.. أنا قاتلة.. قاتلة..”

تحولت دهشتي لصدمة وأنا أستمع إليها، والتفت لأمجد لأرى صدمة مماثلة على وجهه، فقلت وأنا أهرز بسمة “هل أنت واثقة من هذا؟ ألم يلتبس عليك الأمر؟”

هزت رأسها نفيًا وهي تقول بيأس “لا يمكن.. أنا قتلته بيدي هاتين.. طعنته بسكين في صدره، بل طعنته عدة مرات حتى سقط ميتاً أمامي.. أذكر كل هذا بوضوح، ولا يمكن أن يلتبس عليّ الأمر..” سألتها أمجد بدهشة “لماذا؟ ومن يكون هو؟”

خففت بصرها قليلاً باضطراب واضح، ثم رفعت خصلات شعرها عن وجهها بيد مرتجفة وهي تقول “كان أحد الرؤساء في العمل.. هو من قام بتوظيفي رغم عدم امتلاكي لمؤهلات جيدة، وكوني من بيئة فقيرة.. شكرت له ذلك كثيراً، وكنت أحاول أن أرد له الجميل بأي طريقة.. لكن..”

تهدج صوتها من جديد وهي تكمل “لم أظن أنه أعجب بلامحي فقط، وكان مقصده النيل مني.. حاول استمالي بأي طريقة.. بالنقود، بالعلاوات، بالهدايا.. لكنني رفضت وتجاهلت تلميحاته المستمرة.. حتى ادّعى في يوم أنني سأذهب معه في موعد مهم كوني أعمل سكرتيرة له.. لم أشك بالأمر، ولم أظن أنه سيقدم عليّ ما فعله..”

ودفنت وجهها بين ذراعيها من جديد وهي تقول باكية “اختطفني رغماً عني.. أخذني لمنزله الريفي، وحاول النيل مني بأي طريقة.. كان المكان منعزلاً، ولم أجد أحداً أستنجد به.. كان ضخم الجسد وقويًا، يفوقني قوة بمئات المرات، ولم يكن لي من مهرب.. لذلك.... لذلك لم أجد بداً من الدفاع عن نفسي.. كنت أريد جرحه فقط.. لكنني قتلته دون أن أدرك ذلك لشدة ذعري.. طعنته عدة مرات بسكين حصلت عليها من مطبخه، ولم أنتبه إلا وأنا أراه جثة هامدة على الأرض.. لم أستطع الهرب بعدها لشدة ذهولي، حتى عندما اكتشف أحد رجاله جثته، حتى عندما وصلت الشرطة وقبضت عليّ.. عندها أجروا لي محاكمة سريعة وحكموا عليّ بالإعدام، ولم يأخذوا بعين الاعتبار كوني كنت أدافع عن نفسي.. اتهموني بأنني ذهبت معه بإرادتي..”

وبكت بحرقة بعد أن نقلت صدمتها إلينا، فعلقت قائلة “وطبعاً عرضت عليك المؤسسة تخفيف حكم الإعدام بالقدوم والعمل هنا.. أليس كذلك؟”

هزت رأسها إيجاباً، ثم رفعت رأسها بعد أن تماكنت نفسها وقالت بصوت مرتجف “ليس لي الحق بالهرب.. أنا

قاتلة، ويجب أن أقضي عقوبتي بصمت وإلا كان الإعدام جزائي..”

قلت مقطبة “من قال ذلك؟ أنت كنت تدافعين عن نفسك.. من قال إن من يدافع عن نفسه يجب إعدامه؟ هذا حكم ظالم.. وأظن أن يداً تدخلت في الأمر لكي لا تحسلي على حكم مخفف..”

تساءلت بسمة بدهشة من بين دموعها “ماذا تعنين؟ من له مصلحة في ذلك؟”

أجاب أمجد عني “لن أندش لو كانت المؤسسة قد رشت بعض القضاة لإصدار مثل هذه الأحكام.. لا تنسي أنها غير مخولة بإحضار أي عمالة إلا السجناء المحكوم عليهم بالإعدام أو السجن المؤبد.. وهذه المناجم تستهلك الكثير الكثير من الأيدي العاملة كما رأيت”

مسحت بسمة دموعها بيد مرتجة وهي تغمغم “كنت دوماً أخشى الرجال من حولي منذ استيقظنا، وخصوصاً أدهم بضخامته المرعبة.. ولم أعلم لماذا.. أدركت الآن أن لذلك علاقة بتلك الحادثة”

ربتُ على كتفها معلقة “لا يمكنني لومك على ذلك الآن.. ما مررت به كان قاسياً عليك بما فيه الكفاية..”

زفر أمجد وهو يبتعد وقد بدا ضيق على وجهه ولا ألومه على ذلك.. بينما خفضت بسمة عينيها مغممة “أظنن أنه قد يسامحني في يوم ما؟”

ابتسمت قائلة “إن كنت تعنين أدهم فأنا متأكدة أنه قد سامحك بالفعل.. ثقي بهذا”

مسحت بسمة دموعها التي تساقطت من جديد، فضممتها ومسحت على شعرها لتهدأ نفسها.. المسكينة عاشت أيامها هنا مذعورة بشكل دائم بسبب حادثة واحدة.. فكيف أستطيع لومها على أي شيء الآن؟..

بعد مضي وقت طويل رأينا أدهم يقترب من المدخل، فقال أمجد فور رؤيته له “أين كنت يا أدهم؟ ما الذي جعلك تغادر المخبأ وتترك بسمة فيه وحيدة؟”

غمغم أدهم بهدوء “كنت أراقب الموقع حول المخبأ.. ماذا فعلتم أنتم؟”

أوجز له أمجد كل ما حدث منذ غادرنا المخبأ، بينما تأملت وجهه بشيء من القلق بحثاً عن أي ضيق أو حزن قد يبدو عليه.. لكنني دهشت لما رأيته على وجهه.. لم أر أي أثر لحزن أو كآبة.. لا أثر لمرارة أو أي انفعالات مما رأيت قبل ساعات عندما ترك بسمة وغادر لمكان لا نعلمه.. لاحظت أن بسمة تنظر لأدهم أيضاً بشيء من القلق.. فابتسمتُ لاهتمامها به رغم خوفها الدائم منه..

بعد انتهاء حوارهما، انتبه أدهم لوجه بسمة الغارق في الدموع.. ظننته سيتجاهلها ويعرض عنها، لكنه على العكس اقترب منا وهو يتأمل عيناها المنتفختان من البكاء وتساءل بقلق “ما الأمر؟ هل حدث شيء؟”

خفضت بسمة رأسها ولم تنظر له وهي صامتة، فقلت مبتسمة “لا داعي للقلق.. لقد استعادت ذكرياتها، وكانت صدمة كبيرة لها..”

فقال أدهم لبسمة بقلق “هل أنت بخير؟”

هزت رأسها إيجاباً دون أن تنبس بكلمة أو ترفع بصرها إليه، فقال بعد لحظة صمت “إن كنت كذلك فهذا جيد..”

وابتعد عنا ليجلس قرب المدخل بصمت.. لاحظت في تلك اللحظة تعابير بسمة الحزينة وشفاتها ترتجفان وكأنها على وشك البكاء من جديد، فسألتهما مقطبة "ماذا جرى لك بعد؟"
قالت بهمس وهي تخفض وجهها أكثر "أدهم طيب جداً.. لم أظنه سيغفر لي صدّي له والكلمات الجارحة التي ألقيتها في وجهه.. لكني لا أستطيع تمالك خوفي كلما رأيته.. ليتني كنت فتاة طبيعية.. عندها ربما..."
ربتُ على كتفها وأنا أقول "لا داعي للوم نفسك أكثر من هذا يا بسمة.. لا يد لك في ما جرى، ولا يمكنك أن تجبري نفسك على ما لا تطيقينه.."
سمعتها تغغم دون أن ترفع رأسها "مها.. اسمي مها"
نظرت لها معلقة بابتسامة "لا يشبه اسم بسمة بأي حال.. أتفضلين أن أناديك به؟"
انتفضت بسمة وهي تقول "لا.. أرجوك، أفضل اسم بسمة.. ذلك الاسم يثير رجفة في أوصالي إذ طالما سمعته يناديني به.. وأريد أن أنساه مع كل تلك الذكرى البشعة"
فهمت أنها تقصد ذلك الرجل الذي قتلته، فلم أعلق ونحن نجلس بصمت تام.. الحسنة الوحيدة التي سببتها لي بسمة بذكرياتها البشعة، أنها أزاحت من عقلي تلك الذكرى الأخيرة.. لم تكن بسوء ذكرى بسمة، لكنها سببت لي صدمة كبيرة وضيقة شديداً أنا في غنى عنه الآن..

الفصل العشرون

[لمياء]

مضى علينا يومان في مراقبة مستمرة لجهاز الجاذبية.. لقد زدنا وليد بمنظار صغير يمكننا من مراقبة الموقع دون الحاجة للاقتراب منه كثيراً وكشف أنفسنا.. وفي كل مرة، كان اثنان منا يذهبان للمراقبة والبقاء هناك في موقع مخفي جيداً في الجبال لليلة كاملة والعودة في الصباح..

كانت بسمه في أغلب الأوقات تذهب معي أو مع أمجد، وفي أوقات أخرى تبقى مع من بقي منا في المخبأ متجنبه أدهم ما استطاعت وهو يتجنبها في الآن ذاته.. وأمجد الذي لاحظ ذلك لم يعلق على الموضوع بكلمة..

أنا، في ناحية أخرى، انشغلت بذكريات بسمه التي عادت دفعة واحدة كما حدث هذا لأمجد من قبل.. هل ستعود لي ذكرياتي في وقت قريب؟.. رغم أنني لم آخذ العقار مثل البقية، لكن أمجد قد استعاد ذكرياته قبل هروبنا، فلم يكن ذلك ناتجاً عن العقار.. فهل سيحصل لي المثل وأستعيد ذاكرتي في لحظة ما؟.. هل ستصيني الصدمة ذاتها التي أصابت بسمه عندما تعود لي ذكرياتي وأكره اللحظة التي استعدتها فيها؟ أم أنني سأكتشف أنني جئت ظلماً لهذا الكويكب ولا ذنب لي في ما رأيته من لقطات سابقة؟.. بي لهفة وتوجس في الآن ذاته من تلك اللحظة التي سيتخلص عقلي فيها من الظلام المحيط به..

لم أحاول محادثة وليد بأمر العقار في وجود أمجد لئلا يفسد عليّ الأمر، وأنا متأكدة أنه سيفعل.. سأحاول محادثته عن هذا بعيداً عن مسامع أمجد وأطلب منه إحضار جرعة جديدة لي..

في الليلة الثالثة كنت مع أدهم نراقب الموقع والصمت التام يلفنا كالعادة إذ لا وجود لأي حياة حولنا يمكن أن يصدر عنها أي صوت.. ورغم الرياح التي تصدر صفيراً عند مرورها بين بعض الوديان والكهوف القريبة، إلا أن الصمت كان شبه تام دفعني لأكسره وأنا أقول لأدهم "هل أنت بخير يا أدهم؟"

نظر لي بتعجب وقال "لم هذا السؤال؟ أترينني جريحاً أو متعباً بشكل ما؟"

قلت وأنا أتأمل ملامحه الهادئة "لا.. لكنني تعجبت من تبدل ذلك السريع منذ يومين.. بين مغادرتك للمخبأ وعودتك إليه بعد عدة ساعات بحال مختلفة.. ما الذي جرى في الساعات التي اختفيت فيها عنا؟"

نظر لي بدهشة وتساؤل، فغمغمت "لقد.. رأيت كل شيء حدث بينك وبين بسمه.."

بدا شيء من الضيق على وجهه، فأسرعت أقول "أنا لم أتعمد التتصت عليكما، لكنني كنت عائدة للمخبأ وصوتكما كان يصل إليّ بوضوح.."

سرعان ما رأيت أدهم ينبذ ضيقه جانباً وهو يقول ماطاً شفتيه "لا شيء.. أفنعت نفسي أنني لم أخسر الكثير حقاً.. لا فائدة من البكاء على ما ليس لي.. هذه ليست نهاية العالم لو لاحظت ذلك.."

وابتسم مضيفاً “ثم إن الكأبة لا تناسبني.. مع حجمي هذا تجعلني الكأبة مرعباً أكثر..”

دهشت لمنطقه العجيب، ثم اتسعت ابتسامتي وأنا أشعر بثقل في داخلي يزول.. وقلت مرتبة على كتفه “صدقني لم تخسر شيئاً أبداً.. بل أنت تستحق أكثر من هذا.. وخيراً تفعل برمي كل شيء خلف ظهرك..”

ضحك معلقاً “تبددين مرتاحة أكثر مني..”

فقلت “لأنك طيب حقاً.. وتسوؤني رؤيتك تتأذى بدون ذنب جنيته..”

التفت لما أمامه وهو يتنهد وكأنه يلغي ضيقاً لا يزال يستعمر قلبه، بينما ابتسمت براحة حقيقية.. حقاً شعرت براحة لرؤية أدهم يستعيد مرحة السابق.. كنت أشعر بضيق وحزن لمرأى حزنه، ربما لأنني أرى ذاتي فيه.. لست أدري لماذا، لكني أشعر أنني وأدهم متشابهان كثيراً، بخلاف الحجم طبعاً.. ربما لأن أشكالنا عادية جداً.. ربما لأننا انفعاليين جداً.. ربما لأننا لا نتمتع بتهديب ورقى كالآخرين.. ربما لأننا ما فتئنا منذ البداية نستقرّ بعضنا البعض دون سبب مفهوم..

لا أحمل نحوه اهتماماً خاصاً لو كنتم تتساءلون عن هذا.. لكني شعرت به كصديق مقرب أكثر من البقية.. خاصة مع طبيته الواضحة وتصرفاته الصريحة وصفاء ضحكته.. لكن، أحقاً تخلصي عن حبه لبسمة أم أنه نفاه لأقصى موقع ممكن من تلافيف عقله؟..

سمعتة يقول لي “يحسن بنا أن نعود.. تكاد الشمس تطلع من الأفق”

غمغمت وأنا أتناول المنظار من يده “أريد البقاء قليلاً بعد.. أعتقد أن وقت تبديل مناوبة الحراس قريب، وقد يفيدنا معرفة توقيته وما يحدث فيه بالضبط..”

نهض أدهم قائلاً “لكني متعب حقاً.. لنعد ونترك هذا لوقت لاحق”

قلت وأنا أنشغل بالمراقبة “عد أنت ولا تخف علي.. سأعود بعد أن أعرف ما يدور عند تبديل المناوبة، ولا تخش شيئاً فهذه الصخرة فوقنا تشكل غطاء لي ولن يراني قائد المروحية أبداً عند مروره فوق هذه الجبال..”

زفر أدهم وقال “هذا شأنك.. لن تسلمي من تأنيب أمجد أبداً”

سمعنا خلفنا صوتاً يقول “أنتحدثان عني من خلف ظهري؟”

التفتنا بدهشة لنرى أمجد يقترب منا، فسأله أدهم “ما الذي دفعك لقطع كل هذه المسافة الآن؟”

قال أمجد وهو يجلس قريباً مني ويتناول المنظار من يدي “أردت أن أتولى المراقبة في النهار.. عسى أن نكتشف أمراً يُسهّل علينا خطتنا ولم نره سابقاً”

قلت بحماس “هذا كان رأيي أيضاً.. وقت المناوبة قريب ولا شك.. قد تكون تلك اللحظة هي التي ننتظرها”

غمغم أدهم وهو يبتعد “لست بمزاج كافٍ للبقاء أكثر من هذا”

لم يعلق أحدنا بكلمة ونحن نراقب الموقع الذي يبدو ساكناً، ثم تساءل أمجد “ألن تعودني معه؟”

هزرت رأسي نفيماً، فأضاف “سيبقى وحيداً مع بسمة.. ألن تصاب بدعر من ذلك؟”

تذكرت بقاء بسمه وحيدة في المخبأ الآن، لكنني قلت بعد تفكير قليل “أنا واثقة أن أدهم لن يسيء إليها بكلمة.. أن الأوان لتواجه مخاوفها قليلاً وتدرك أن أدهم ليس هو الرجل الذي هاجمها سابقاً”
ابتسم أمجد معلقاً “أنت قاسية القلب حقاً..”

لم أعقب بكلمة على قوله رغم أنني أود ذلك.. هل أنا قاسية حقاً؟ أليس هذا في مصلحتها هي بالأساس؟.. عموماً، لاشيء يجبرني على مراقبتها ليل نهار لأضمن لها هناء البال..
تخلى أمجد عن منظاره لي، فعدت لمراقبة الموقع فيما شعرت به يراقبني بصمت للحظات طالت، وقبل أن أسأله عما به سمعته يقول “حمراء.. هل تكرهيني حقاً؟”

نظرت له بدهشة متسائلة، فقال وهو يتأمل ملامحي بحثاً عن جواب قد أحاول إخفائه “أشعر بك كذلك رغم أنني حاولت أن أبدي لك حبي بكل الأشكال الممكنة.. لكنك في كل مرة تتهريين مني وكأني الأحقك بغية سلب روحك.. بل لو كنت أسعى خلف حياتك لما هربت مني بهذه الطريقة”

كانت عيناى تتسعان بحجم ذهولي الذي تزايد مع كل كلمة ألقاها أمامي بكل صراحة.. تعجبت من بساطته في حديث مهم كهذا، وذهلت أكثر لمعرفة أنه يحبني حقاً.. يحبني أنا رغم كل عيوبي ونواقصي وصفاتي التي لا أراها تستحق الإعجاب.. وهو ما كنت أستنكره وأنكره في كل موقف لي معه..

رأيتيه يبتسم وهو يعلق على ذهول ملامحي “أنت تعلمين أنني أحبك فلا داعي لإنكار ذلك..”
أدرت وجهي بعيداً محاولة تمالك تلك الارتجافة في أعماقي والتي لطالما كرهتها.. لست أدري لم أنا مختلفة عن بقية الفتيات، لم لا أسعد بكلمات يلقاها شخص بمثل وسامة ولطف أمجد.. لست أدري لم أتهرب من حبه هذا وأحاول إنكاره وتجاهله دائماً.. قلت بعد لحظة صمت وترقب من أمجد “لست أدري لم تظن أنني أحاول التهرب منك.. في الواقع أنا مندهشة لمعرفة أنك تحبني.. لطالما كنت لطيفاً مع الجميع ولم أحمل لطفك معاني أكبر من هذه..”

تنهد أمجد وهو يراني أتهرب من جديد، ثم همس وهو يمد يده ويمسك يدي “أرجوك.. لا داعي لكل هذه الألعاب اللفظية والمتاهات التي ترميني فيها في كل مرة.. كوني صريحة معي ولن ألومك على ذلك أبداً، مهما كان ردك”

وما هو ردي؟ أنا نفسي لا أعرف بم أرد على حبه ذاك.. هل أرفضه؟ لكن قلبي لا يطاوعني.. هل أقبله؟ لكن عقلي يستنكر ذلك.. وأنا حائرة بين الاثنين..

فتحت فمي لأتفوه بأول لفظ يطراً لي، لكن قاطعني في تلك اللحظة صوت المروحية الذي بدا على شيء من المبعدة.. تلقائياً أفلتني أمجد وهو يتناول المنظار قائلاً بانفعال “لقد وصلوا..”

شعرت براحة لهذه المقاطعة، فالحديث كله لم يكن يسرنى.. ولم يلبث الصوت أن تضخم والمروحية تقترب حتى عبرت قريباً من موقعنا وصوتها يهزّ الصخور حولنا مما سبب لي صداداً بعد الليلة التي قضيتها مستيقظة..

ولما شاهدناها نتججه لموقع جهاز الجاذبية أسرع أمجد يراقب الوضع باستخدام المنظار الذي لم نكن نملك غيره.. رأى المروحية تهبط خارج السور المحيط بالجهاز، وربضت في موقعها دون أن تكف مروحتها عن الدوران وإن تباطأت وهي تدفع الهواء بقوة محركه مساحة واسعة من العشب تحتها.. ومنها، خرج ستة حراس هم المسؤولون عن حراسة الموقع، وركضوا بظهور محنية حتى ابتعدوا عن المروحية واقتربوا من بوابة السور.. وقرب البوابة، كان الحراس السابقين قد وقفوا متأهبين لمبادلة المواقع بعد ليلة طويلة قضاها في حراسة الجهاز..

لست أدري ما يخيف المؤسسة لتحرس الجهاز بهذا الحرص.. الكويكب كله ملك لها، ومن يتمكن من الفرار من السجناء يبذل جهده للتسلل لسفينة الفضاء ولا يفكر بهذا الموقع بتاتاً ناهيك عن علمه به.. أهم يخشون من محاولات تأتي من الفضاء لتدمير الجهاز؟ لست أدري..

بعد أن راقبنا العملية كلها، وبعد أن رأينا المروحية ترتفع بحملها وتعود أراجها لموقعها السابق في المباني الإدارية، نهضت قائلة “هذا يكفيني.. سأعود للمخبأ لأنال قسطاً من الراحة فالصداع يكاد يقتلني..” نظر لي أمجد بقلق لم أخطئه، ورأيت شيئاً من الإحباط في ثناياه، لكنه قال بهدوء المعتاد “يحسن أن تفعل ذلك، وكوني حذرة.. أنا سأبقى حتى انتهاء النهار وعودة أدهم ليتولى المراقبة من جديد..”

لم أعترض بكلمة وأنا أبعد وأمجد يشيعني بنظرته.. لكني لم أبعد كثيراً وأنا أشعر بالصداع ينزاد في رأسي ويتحول لنبض قوي.. فقبضت رأسي وأنا أقف بشكل دهش له أمجد وهو يسألني “هل كل شيء على ما يرام؟..” جلست أرضاً فجأة بعدما اشتد الألم في رأسي بشكل فاض بي.. فاقترب أمجد مني وركع قربي ممسكاً كتفي وهو يتساءل “حمراء.. ماذا ألم بك؟”

كنت مغمضة عيني بقوة، وهمست بصوت ضعيف “تلك الومضات.. إنها مؤلمة..” فقال لي بقلق شديد “هل تنزايدي؟ هل تؤلمك كثيراً؟.. حمراء”

لم أستطيع قول كلمة وأنا أشعر بوعبي ينتقل من الواقع الذي أنا فيه، إلى الومضات التي دفعت بذكرياتي من مكان مجهول لتغمر وعبي كله دون جهد.. ومن مكان ما أسمع هتاف أمجد المتباعد وهو يصيح “حمراء.... حمراء.....”

ورغم أني، شعرت بتداخل صوته مع ذكرياتي.. حتى لم أعد أستطيع التفريق بينهما..

“.....اء ـاء لمياء.. هل تسمعيني؟”

نظرت للوجه الذي أراه قريباً مني، وابتسمت بعذوبة قائلة “طبعاً أسمعك.. ومن يمكنه أن يشغلني عنك يا

حبيبي؟”

هل تبدى شيء من الضيق على وجهه الوسيم؟ لا بد أنني واهمة.. فأمجد يحبني حقاً.. يحبني كثيراً كما أخبرني مرات ومرات ومرات عديدة.. نظرت لوجهه الحبيب، وتأملت ملامحه واضحة الوسامة، وشعره البني ذو الأطراف الشقراء وابتسامتي تتسع دون أن أحاول إخفاء إعجابي الواضح.. كنا قد التقينا في مطعم هاديء مفتوح، وإن فضل أمجد الجلوس في موقع منعزل بعيد عن الآخرين كعادته.. عدلت خصلات شعري الطويل والذي طالما كان مثار إعجاب أمجد بلونه الناري، عندما لاحظت تقطبية في وجهه الحبيب.. فتساءلت متعجبة وأنا أتأمل ملامحه “ما الذي رسم هذه التقطبية الغريبة على جبينك يا عزيزي؟ هل سمعت أخباراً سيئة عن عمك المفقود؟”

أجاب مشيحاً “أجل.. لقد علمت أين هو الآن.. لكنني لا أستطيع الوصول إليه بأي حال”

قلت بتعجب “لماذا؟ ما الذي حدث له؟”

صمت قليلاً قبل أن يقول “لقد تم ترحيله للكويكب العاشر”

اتسعت عيناى بصدمة وأنا أهتف “ماذا؟ هذا يعني أنه ارتكب جرماً أدى للحكم عليه بالسجن المؤبد.. أنت واثق من هذا الخبر؟”

قال بضيق “واثق طبعاً وإلا ما أخبرتك به..”

غمرتني الدهشة، فتساءلت “ماذا تعني؟”

صمت بشكل بدا لي أنه يدرس كلماته جيداً قبل أن يلقينها أمامي قائلاً “أريد مساعدتك.. أريد التأكد من الخبر والبحث عن عمي..”

قلت بدهشة “لكن ما الجرم الذي ارتكبه؟”

قال بعصبية “عمي بريء..”

دهشت أكثر من عصبية الغريبة عليه، ثم سمعته يضيف “أنا واثق أنه بريء.. لقد ألبس التهمة زوراً، وذلك لأنه اكتشف أشياء تخص المؤسسة أثناء عمله معها.. لقد أبلغني بذلك بشكل مبهم سابقاً، ولكنه اختفى بعدها دون إنذار.. الآن بعد أن تأكدت أنه في الكويكب العاشر، أنا موقن أنه متهم زوراً وبهتاناً.. لكنني لا أملك الدليل على ذلك بعد..”

فقلت مشفقة “أنا معك يا عزيزي.. هذه أيام عصيبة بالنسبة لك، لكنني لن أتخلى عنك حقاً..”

نظر لي بطرف عينه مغمماً “حقاً؟”

بدا سؤاله بالنسبة لي عجبياً، لكنني قلت بحرارة “طبعاً أنا معك في كل الأحوال.. بودي لو قدمت لك أي مساعدة.. لكنني....”

قاطعني أمجد بحزم “يمكنك ذلك.. وأتمنى أن تساعدني بما لا يقدر عليه غيرك..”

فقلت بلهفة "أخبرني بما تريده.. وأنا لن أتوانى عن تقديمه لك.."

نظر حوله للحظات بصمت، ثم قال لي بهدوء "هناك بعض الملفات التي أحتاجها من المؤسسة لأثبت براءة

عمي.. ولن يستطيع أحد تسليمي إياها إلا أنت"

اتسعت عيناى دهشة وقلقاً.. فرغم عملي في المؤسسة، إلا أن هذا كان آخر ما توقعت أن يطلبه مني.. بعد تردد قصير ابتسمت له وأنا أقول "عزيزي.. أنت تعرف أن هذا مستحيل.. أنا لا أملك ترخيصاً بالاطلاع على الملفات في المؤسسة بتاتاً.. وإن فعلت ما يخالف قوانين المؤسسة فهذا سيجذب الانتباه إليّ وسأنال عقوبة ولا شك"

فقطب أمجد قائلاً "أتمتعين عن مساعدتي؟"

بدا الغضب في عينيه.. رباه.. لا أحب رؤيته غاضباً.. لا أحب رؤية وجهه الوسيم إلا مبتسماً سعيداً.. ولكن ما يطلبه مستحيل..

مددت يدي وأمسكت يده وأنا أقول "هل ستكون سعيداً بتوريطي في مشاكل مع المؤسسة؟ ألن تقلق على مصيري لو حدث ذلك؟"

قال بلهجة بدت لي قاسية "أهذا كل ما يهمك؟ لو اكتشفوا أمرك فلن يتجاوز الأمر طردك.. لكن ألا يهمك معرفة ما حدث لعمي؟ ألا يهمك معرفة مصير العشرات ممن هم على شاكلته؟ أي أنانية تملكينها؟" تراجعت بقلق.. أنانية؟ أهذا ما يراني عليه؟ همست بضعف "لكن.. هذا شيء لا طاقة لي به.. يمكنني.... يمكنني أن أعرفك إلى أحد زملائي.. اشرح له وضع عمك.. وأنا واثقة أنه سيقدم لك كل مساعدة ممكنة.. لكن أنا لا أقدر على ذلك"

رمانى بنظرة قتلتني قتلاً.. فارتجف صوتي وأنا أضيف "سامحني يا أمجد.."

فقال بقسوة "لم أتوقعك ضعيفة لهذه الدرجة.. يبدو أنني أخطأت الاختيار.."

ونهض مغادراً دون أن يلتفت خلفه.. لكنني كنت أرتجف خوفاً.. وهلعاً.. ويأساً.. هل سيتخلى عني؟ هل سيكرهني؟.. لا.. لن أطيق ذلك أبداً.. لن أطيق أن يغضب مني.. لن أطيق أن يبتعد عني.. لذلك، لم أملك إلا أن أركض خلفه.. إلا أن أتمسك بيده.. علّه يسامحني.. علّه ينظر لي بنظرات الحب التي اعتدتها منه.. علّه يعود لي كما كان..

"إنه أنت؟"

نظرت لأمجد الراكع قربي بعينين متسعيتين مصدومتين.. وهو يبادلني نظرات الدهشة.. ثم بدا أنه أدرك ما قصدته، فتبدلت الدهشة في عينيه بحسرة واضحة قبل أن يخفض بصره بصمت..

يبدو أنه أدرك الأمر.. بالتأكيد أدرك استعادتي لذكرياتي معه.. لكن لم الحسرة؟.. لم الحسرة وهو المجرم الرئيسي في حياتي التي أتمنى لو لم أذكر منها حرفاً؟..

قلت مرة أخرى وكأني أستوثق الأمر “هو أنت حقاً؟”

جاء صوتي مرتجفاً رغباً عني.. مرة أخرى أبدو ضعيفة كما أكره.. الآن أدركت لماذا أكره الضعف.. الآن أدركت لماذا أريد أن أجد قوة، أن أعتمد على نفسي، أن أتغير.. الآن أدركت لماذا لا أريد الاعتماد على أحد.. وكل هذا بفضلك أنت يا من جعلتني أكره نفسي..

غمغم أمجد بصوت بدا حزيناً “لمياء....”

انتفضت وأنا أترجع مبتعدة عن يده التي حاول لمسي بها.. وهتفت بحدة “أنا حمراء.. لا تحاول مناداتي بذلك

الاسم أبداً.. بل لا تحاول مناداتي أبداً..”

قال بضيق شديد “اسمعي يا حمراء.. أنا.....”

هتفت بغضب “أنت ماذا؟ أنت حطمتني.. أسعيد أنت بهذا؟ أسعيد أنت برؤية إلام وصل الحال بالفتاة التي كرهتها والتي خدعتها للحصول على ما تريده؟ لو لم تضغط عليّ، لما حاولت نبش ملفات المؤسسة، ولما وصلت لما أنا فيه الآن.. ما الذي تريده مني بعد؟”

تبدى الحزن في عينيه وهو ينظر لي صامتاً.. فقلت بلهجة قاسية “الآن أدركت لماذا كنت أحاول الهرب منك طوال الوقت.. لأنني أثق في أعماقي أن حديثك كله زائف.. لم تصدق معي مرة في حياتك.. وأغلب الظن أنك لم تفقد ذاكرتك بل كنت تخدعني طوال الوقت.. أكانت تلك أيضاً كذبة من كذباتك؟”

قال بضيق “بل فقدت ذكرياتي حقاً.. وهذا ما أحمد الله عليه.. لقد كنت وغداً.. عاملتك كوغد.. لكنني وقد فقدت ذاكرتي فقد تسلى لي أن أرى حقيقتك.. وقعت في حبك صدقاً.. أتمنى لو أنني لم أستعد ذاكرتي... أتمنى لو لم تستعيديها أنت..”

وأمسك يديّ الاثنتين بيديه غصباً عني وهو يهمس “لقد وانتنا فرصة نادرة لأن نبدأ من جديد.. نبدأ من الصفر.. نتعرف على بعض بدون أحقاد سابقة.. نحب بعضنا البعض بدون ذكريات بغیضة.. وهذا ما حدث.. فلا تجعلي الذكريات السيئة تغطي على السعيدة منها”

قلت بصوت مرتجف غضباً “سعيدة؟ لست متأكدة من ذلك.. أي سعادة تحملها ذكرياتي معك وأنا في هذا المكان وهذه الظروف التي سببتها لي أنت؟ استعادتي لذكرياتي أفضل شيء حدث لي، لأنه بين لي من أنت حقاً ومن أكون بالنسبة لك.. فكيف تريدني أن أتغاضى عن كل هذا؟”

قال أمجد بشيء من الرجاء “أخبرتك أنني كنت وغداً.. لكن كانت لي أسبابي الخاصة.. أأن تسامحيني أبداً؟ أأن تنظري لمشاعري الآن تجاهك وتغفري ما سبق؟”

قلت بكره شديد “أغفر لك؟ أظنني ضعيفة لهذه الدرجة؟ انس الأمر.. انس الفتاة التي اتهمتها بالضعف والغباء..

انس الفتاة التي وصفها بأبشع الأوصاف.. فهي قد ماتت.. ومن تراها الآن، تملك من القوة لرفضك كما رفضتها أول مرة”

ودفعت يده بعيداً وأنا أقف وأبتعد عنه بخطوات غاضبة.. لم أحتج لألقي نظرة عليه لأدرك أنه لم يتحرك من مكانه.. أمصدوم هو؟ يحق له أن يصدم.. أظنني سأبقى تلك الفتاة الخائعة الضعيفة التي تركض خلفه باكية؟ أظنني سأنتظره بلهفة متى قرر أنه سيستبقيني لفترة أطول حتى يملّ من خنوعي ويرميني من جديد؟.. لا.. قطعاً لا.. حمراء لن تفعل ذلك.. حمراء أقوى من ذلك.. وسيرى..

جلست في موقع متطرف، دون أن أجد في نفسي الرغبة بالعودة للمخبأ، وحاولت إقصاء ذكرياتي مع أمجد جانباً.. لقد عادت لي ذكرياتي.. عادت مع ما تحمله من صدمات بخلاف صدمتي بأمجد.. هناك أجزاء أهم مما فعله أمجد بي، وعليّ تذكرها والاستيثاق منها جيداً.. هناك تلك الحادثة التي حدثت في غرفة المكتب تلك.. جثة الرجل الأشيب.. والمسدس في يدي.. هناك حادثة تسلي في تلك الحديقة وانقضاء الكلب على ساقني ثم الضربة التي تلقيتها.. هناك الاستجواب الذي أجري لي، والمبنى ذو الساحة الذي نقلت له.. أكان ذلك سجنًا؟ إذن فهذا كان بعد حادثة المكتب.. رياه.. هناك الكثير مما عليّ استجماعه.. وكلها ذكريات لا تبشر بخير..

عضضت إصبعي وأنا غارقة في التفكير.. هل أنا قاتلة؟ هل قتلت ذلك الرجل؟ مع ما أتذكره من تصرفي مع أمجد، فشخصيتي كانت ضعيفة لا يمكنها القيام بتصرف جريء وحاسم.. فما الذي حدث؟ ولماذا لا أذكر شيئاً مما جرى قبل تلك الحادثة؟ بل لماذا لا أذكر اللحظة التي ضغطت فيها يدي على الزناد؟ لا بد أنها كانت لحظة مأساوية ولا يمكن أن تغيب عن ذاكرتي بتلك السهولة..

بدأت الذكريات تعود لي وتتجمع كما نقوم بتجميع قصاصات صورة ممزقة.. وشيئاً فشيئاً تذكرت كل ما حدث لي، في تلك الليلة وقبلها.. أدركت ما حدث فعلاً، وأدركت كم كنت محقة عندما شعرت أنني بريئة من هذا الحكم الظالم الذي حكموا به عليّ..

ورغم براءتي، إلا أنني شعرت بضيق شديد من كل ما تذكرته.. ووددت لو أنني كنت واهمة.. لو أنني لم أكن حقاً بتلك الشخصية الضعيفة التي كرهتها..

زفرت بضيق شديد ونهضت لأعود للمخبأ بصمت.. وهناك، رأيت بسمة تجلس عند المدخل تفرك يديها بقلق شديد، لكنني تجاهلتها ودلفت للمخبأ لأرتمي جانباً وأنا أشعر بحاجة ملحة للنوم.. بحاجة لإيقاف سيل الأفكار المتدافعة في عقلي..

عندما نهضت قرب المغيب، رأيت أمجد يجلس في جانب المخبأ ونظراته إليّ لا تخلو من مرارة واضحة.. لكنني

تجاهلته وأنا أغسل وجهي ببعض الماء، ثم أتناول بعض الطعام القليل الذي نملكه، والذي لا يتعدى بعض الموز وعدد من الفواكة التي وجدناها في مواقع متفرقة من الغابة..

شاهدت أدهم ينهض قائلاً "سأذهب لمراقبة الموقع الليلة.."

سارعت لأنهض وأرافقه، فلم تكن بي رغبة للبقاء في ذات الموقع مع ذلك الرجل، لكني سمعته يقول "لا داعي لهذا بعد الآن.."

نظر له أدهم بتعجب، فسحب أمجد نفساً عميقاً قبل أن يقول "يجب أن نضع خطتنا الليلة ونحاول تنفيذها في أقرب وقت ممكن.. لقد تأخرنا بما فيه الكفاية.."

رغم أن خيراً مثل هذا يسعدني عادة، إلا أنني ضقت باضطراري البقاء هنا، لذلك عدت لموقعي السابق ورميت جسدي على الأرض وأنا أزرع عاقدة ذراعي على صدري ومتطلعة لسقف المخبأ.. لم أنو الانضمام إليهما أثناء التخطيط للعملية.. فليفعلا ما يريدانه، وإن أرادا معاونتي فلن أتردد في ذلك.. أهم ما في الأمر ألا أضطر للجلوس مع ذلك الرجل..

الفصل الحادي والعشرون

[خطة فاشلة؟؟]

بعد وقت كافٍ من مراقبة جهاز الجاذبية، وبعد أن خطط أمجد للعملية بشكل كامل، انطلق هو وأدهم لأداء تلك العملية بينما بقيت مع بسمة في المخبأ متسلحة بالسلاح الذي كان تقريباً فارغاً من الرصاص.. كانت خطة أمجد لا تحتاج لتنفيذها إلا اثنين، لذلك كنت أكثر راحة بالبقاء هنا مع بسمة عوضاً عن اضطراري الذهاب مع أمجد لأي مكان.. شاهدت بسمة تدور قلقة في الكهف كعادتها وهي تفرك يديها قبل أن تغمغم "أتظنين أنهما سينجحان؟"

أجبتها بهدوء "لم لا تتفائلين خيراً؟ كفي عن التحرك فأنت تسببين لي التوتر" لكنها لم تتوقف وهي تكاد تحفر الأرض بخطواتها المتواصلة.. في تلك الأثناء، كان أمجد وأدهم قد وصلا للجانب الثاني من الجبال حيث موقعنا المعتاد للمراقبة، فقبعا هناك وأمجد يراقب الوضع قرب الجهاز بالمنظار، ثم قال "علينا التسلل دون أن يرانا الحراس والاختباء حتى قدوم المروحية.. حاول ألا تصدر أصواتاً عندما نصل" هز أدهم رأسه موافقاً، فبدأ نزول الجبل محاولين الاختباء خلف صخوره بعيداً عن الأعين رغم أن الظلام كان غطاء ممتازاً لهما.. وفي الأسفل، شرعا بالسير الحثيث نحو موقع الجهاز محنني الظهر محاولين ألا يلفتا الانتباه بسيرهما على الأعشاب، فاضطرا لأخذ دورة واسعة حول المنطقة قبل الاقتراب.. كان الجهاز بعد أن اقتربا منه يصدر دويّاً منخفض المدى بشكل يسبب الازعاج باستمراريته وانخفاضه، لكن الاثنان لم يهتما بالأمر وهما يربضان في موقع اختاراه بحيث تخفيهما الصخور عن أعين الحراس وأجهزة المراقبة.. كانت عدة ساعات تفصلهم عن وقت الشروق، مما يستوجب أن ينتهيا من الجزء الأول من الخطة بأسرع وقت.. رأى أمجد أحد الحراس وهو يمشي قريباً من السور ليطرد الملل بعد ليلة قضاها في مراقبة مملّة.. ثم جلس في بقعة قريبة وهو يحاول إشعال سيجارة..

أشار أمجد لأدهم بإشارة صامتة ليستعد، ثم تحرك من موقعه مبتعداً عن نور الكشافات في دائرة واسعة حول السور المحيط بالجهاز ومتفادياً أن تلمحه أجهزة المراقبة حتى وصل لبقعة تخفيه بعض الصخور فيها عن الأعين.. فقبع في موقعه بانتظار أن يبتعد الحارس الذي كان يقف هناك ويزفر متملاً.. وبعد ما يتجاوز النصف ساعة، تحرك الحارس من موقعه متجهاً نحو الآخرين وهو يتحدث بصوت خفيض.. فزفر أمجد وهو يرفع سلاحه ويصوبه نحو باب حديدي صغير في السور، وقد فسّر له وليد أهميته وعمله.. كان أمجد بهذه الحركة يعلنها حرباً مع الحراس، لكن أهم ما في الأمر هو تجاوز هذه العقبة..

وبعد أن أحكم التصوير، أطلق عدة رصاصات نحو ذلك الباب الذي انبجج مع الرصاصة الأولى قبل أن تخرقه

الرصاصات الأخرى لينطلق من قلبه شرر مفاجيء مع فرقعة قوية.. ومع صوت الرصاص فإن الحراس تحفزوا بدهشة قبل أن يفاجئوا بنور الكشافات ينقطع، بالإضافة لأجهزة المراقبة التي توقفت عن العمل مع انقطاع الكهرباء عنها، بينما ظل جهاز الجاذبية يهدر كالمعتاد بسبب اعتماده على مولد كهربائي ضخ يضمه السور بقلبه....

في تلك اللحظة، اندفع أدهم مقترباً بخفة من الحارس الذي تحفز واقفاً، فلكمه بقوة لکمتين متتابعتين وأسقطه أرضاً.. سمع عدة طلقات تصدر من الجانب الآخر من السور، لكنه لم يتوقف وهو يتقدم ليكمل عمله مع حارسين آخرين وقفا ينظران جهة الأصوات بانتظار ما سيسفر عنه تفحص رفاقهم لتلك البقعة.. بعد دقائق معدودة، كان أدهم وأمجد قد تغلبا على الحراس في المنطقة بأقل الخسائر.. فقال أدهم وهو يجذب أحد الحراس بعيداً عن السور "ألا تلاحظ أن مقاومة الحراس ضعيفة حقاً؟ لم أخط بكلمة محترمة منذ جئت لهذا الكويكب"

غمغم أمجد وهو يجذب حارساً آخر "وهل تتمنى ذلك حقاً؟ هؤلاء الحراس ليسوا ذوي خبرة بالعراك الجسدي، إن اعتمادهم الكلي على الأسلحة بأيديهم وعلى الأساور التي تقيد السجناء يغطي هذا الضعف فيهم" تساءل أدهم متعجباً "لكن الغريب أن يسقطوا على يدك رغم أنك تبدو ضعيف الجسد" ابتسم أمجد معلقاً "قد أبدو كذلك، لكن ما أدراك أي ضعيف حقاً؟"

صمت أدهم متعجباً وهما يكملان عملهما، وبعد أن فرغا من تقييد الحراس في جانب المكان، قال أمجد متوتراً "الآن نبدأ الجزء الثاني من الخطة.."

وتناول جهاز الارسال فارثدي الساعة ووضع القطعة الصغيرة في أذنه.. زفر للحظات بتوتر، ثم أجرى الاتصال بأحد المساعدين كما علمه وليد، ولما تلقى استجابة من الطرف الآخر قال بلغة نابو وبصوت جعله يبدو قلقاً "سيدي، لدي تقرير عاجل أريد إيصاله للقائد.."

سأله المساعد "ماذا هناك؟"

قال أمجد بقلق وهو ينظر لبطاقة الحارس الذي استولى على جهازه "أنا تيم من الفريق المناوب على حراسة جهاز الجاذبية.. الجهاز يصدر أصواتاً مزعجة بين فترة وأخرى.. صريراً عالياً يتكرر كل ربع ساعة.. أخشى أن يتعطل فجأة ونقع في المشاكل"

قال المساعد "سأرسل لك مهندسين ممن اختصا بصيانة الجهاز.. هما سيعرفان ما يفعلانه"

أسرع أمجد يقول بذعر "لن يكفي وجودهما يا سيدي.. لقد استشرت أحدهما بالفعل قبل الآن، وهو لا يعرف ما قد يكون سببه واقتراح علي أن أستدعي ذلك العالم لرؤيته بما أنه كان ممن شاركوا في تطويره" كان أمجد يعتمد على غياب المهندسين في هذا الوقت من الليل مما لن يمكن المساعد من التأكد من أقواله، فيما قال المساعد بحدة "أنت تعلم أن إرسال ذلك العالم مستحيل.. ليس قبل أن يحضر المهندس ويتفحصا الوضع.."

وبعدها يقرر ماك إن كان من الضروري إرسال العالم أم لا" قال أمجد بعجلة "من يدري أيسعفنا الوقت عندها أم لا؟.. المدة بين تكرار الصوت تتناقص، وقد يكون في هذا التأخير خسارتنا جميعاً" صمت المساعد مفكراً، فاندفع أمجد يقول "لم لا يحضر العالم مع المهندسين توفيراً للوقت؟ اطرح الفكرة على القائد وانظر ماذا يرى" فقال المساعد بصرامة "سأطرحها عليه وأعود بالجواب.. انتظر اتصالي" أنهى أمجد الاتصال ونظر لأدهم الذي علق "أرجو أن يكون قد اقتنع بأدائك" صمما وهما يجلسان جانباً بعد أن جمعا أسلحة بقية الحراس وخبأها بعيداً لحين وقت حاجتهما لها.. بينما أبقوا الحراس فاقدى الوعي في موقع تغطيتهم الصخور عن بصر قائد المروحية ومن معه.. طال الزمن بهما وهما ينتظران بقلة صبر، وعندما سمعا الهدير المتعالي يقترب منهما هباً واقفين وأمجد يقول بتوتر "الآن وقت الجد" قال أدهم وهو يراقب المروحية "لست بحاجة لتذكيري.."

ابتعد أدهم قبل أن تقترب المروحية بحيث يراه راكبوها واختبأ خلف صخرة كبيرة تبعد أمتاراً عدة عن الجهاز.. بينما وقف أمجد في موقعه مطمئناً لارتدائه زي الحراس وهو ينظر لنور المروحية الذي سطع في البقعة.. بدأت الأعشاب بالتمايل بعنف مع ازدياد قوة الرياح والمروحية تبدأ رحلة هبوطها.. فتمسك أمجد بسلاحه بقوة وهو يزفر من جديد ويغمغم "من يدري.. أتفشل هذه الخطة أيضاً أم لا.."

ظللت أهرزّ قدمي بعصبية وأنا أتمسك بسلاحي وأزفر بضيق.. البقاء هنا والانتظار أصعب من المشاركة في تلك الخطة الخطرة.. على الأقل عندها لن يستسلم عقلي لخيالات عما قد يجري هناك.. خاصة أن المرة الأولى انتهت بأمجد مصاباً بشدة.. سمعت بسمه تغمغم "الآن أنت تثيرين توتري بحركتك هذه" ابتسمت ابتسامه متوترة وقلت "لقد تأخرا كثيراً.. المشكلة أننا لا نملك أي وسيلة للتواصل معهما" قالت بسمه "لكن موقعهما يبعد كثيراً عنا.. سيستغرق هذا منهم وقتاً طويلاً أثناء ذهابهم وعودتهم.."

تنهدت وأنا أقف لأنظر من مدخل المخبأ، ونظرت للأفق بانتظار أن تبدو منه ملامح النهار الوشيك.. رأيت بسمه تخرج من المخبأ بدورها حاملة إحدى الحاويات، فسألته "إلى أين؟"

ابتسمت مغممة "كل هذا التوتر أصابني بعطش شديد.. سأحضر بعض الماء من الموقع القريب ولن أتأخر" لم يعجبني رحيلها وحيدة الآن، لكن لم أرد ترك المخبأ أيضاً دون مراقبة.. فظللت في موقعي وأنا أصمت وأنفوس هواء الكويكب بعمق، عندما سمعت شهقة خافتة في الموقع الذي اختفت فيه بسمه.. اعتراني القلق وأنا أتشبث

بسلاحي أكثر، ورفعته وأنا أندفع للموقع الذي غابت فيه قبل قليل.. ولم أكد أتجاوز ما يفصلني عنها من صخور، حتى رأيتها تقف مكتوفة اليدين ومكمنة الفم بواسطة أحد الحراس، بينما ظهر آخران قربي وسلاحيهما يرتفع في وجهي..

تمالكت نفسي بسرعة ورفعت سلاحي لأضرب به أقرب الحراس مني.. تفادى الضربة الأولى لكن أصابت الضربة الثانية سلاحه فأبعدته عني لتلحقها أخرى أصابت بطنه بقوة.. لكن لم أكد ألتفت للحارس الثاني حتى وجدت ضربة قوية تصيب يدي لأفلت السلاح فيسقط بعيداً، بينما قام حارس آخر ظهر من خلفي وهو يلوي ذراعي بعنف خلف ظهري وهو يقول "هذه ليلة سعيدة.. قبضنا على نصف الهاربين، وبقي النصف..".

أشار لاثنتين من الحراس اللذين انطلقا بخفة نحو مخبأنا، بينما قام الحارس بتقييدي وبسمة بقيد حديدي، ولم يلبث الاثنان أن عادا وأحدهما يقول "الموقع فارغ تماماً.. ولا يبدو لهما أثر في البقعة حوله"

فسألني الحارس "أين رفيقك؟ أين ذهبنا في هذا الوقت؟"

قلت بحدة "لا أعلم.. لقد غادرا وقد لا يعودان أبداً"

قال عاقداً حاجبيه "أتظنين أننا حمقى لنصدق هذا؟"

وقال لأحد الحراس "سأعود بهما للمباني الإدارية، استدع عدداً من الرفاق وجهزوا كميناً للرجلين حال عودتهما.."

نظرت لبسمة التي بادلتني نظرات القلق والفرع.. لو عادا، أمجد وأدهم، فسيجدان مفاجأة غير سارة تنتظرهما في المخبأ.. هذا طبعاً لو عادا..

عندما استقرت المروحية أرضاً، فتح بابها ليهبط منها حارس جذب خلفه رجلاً طويلاً على شيء من الضعف بشعر أسود غزير مبعثر ووجه بدا الإرهاق عليه وإن لم يُخفِ الذكاء في عينيه السوداوين.. فكاد أمجد يفلت تنهيدة ارتياح وهو يرى عمه قادماً مع ثلاث حراس ويصحبها مهندس بالإضافة لقائد الطائرة.. فقط كان يخشى أن يفضح العم معرفته بأمجد للحراس.. لكن خالد اكتفى بأن ألقى نظرة سريعة على أمجد قبل أن يقطب ويدير بصره نحو الجهاز بصمت..

لم يفكر أمجد في مغزى تلك النظرة وهو يشير لخالد ليتبعه قائلاً "من هنا يا سيدي.. سيظهر الصوت في أي لحظة الآن"

تساءل خالد "ما طبيعة ذلك الصوت؟ هل يبدو كصيرير مزعج وتصحبه فرقة بين وقت وآخر؟"

قال أمجد بسرعة "أجل.. هذا هو.. كان الصوت من الإزعاج بمكان حتى ظننت أنه قد يتعطل في أي لحظة"

تساءل أحد الحراس الذي تبعهما "أين بقية الحراس؟ كيف يتركون الموقع دون حراسة؟" أشار أمجد بإشارة مبهمه وهو يقول "إنهم هناك.. يأخذون قسطاً من الراحة وسيعودون حالاً" قطب الحارس مدمماً "قسطاً من الراحة في هذا الموقع الذي لا يتطلب أي عمل؟" في تلك الأثناء، كان أدهم يتسلل بدورة واسعة قليلاً ليتقدم من المروحية حيث ربضت وقائدها جالس فيها باسترخاء.. ولما صعد أدهم من بابها المفتوح التفت القائد إليه متسائلاً "هل انتهى العمل هنا؟" فاجأه أدهم بضربة قوية بالسلاح في فكه جعلته يرتطم بالنافذة الزجاجية خلفه.. وأتبعها بأخرى تفادها القائد بصعوبة وهو يركل أدهم بقوة في صدره.. لكن أدهم تشبث بالكروسي القريب لئلا تسقطه الركلة خارج المروحية، وعاد يضرب القائد بقوة على وجهه أسقطته فاقد الوعي.. عندها أخرجه أدهم من باب المروحية المعاكس لموقع الجهاز وجذبه بعيداً شيئاً ما وقيده مستخدماً أكمام معطفه..

بعدها عاد يتسلل لموقع قريب من الجهاز بعد أن تأكد أن أحداً من الحارسين الذين وقفا يتحدثان بعيداً عن موقع المروحية لم يريا ما حدث لقائد المروحية.. بينما كان أمجد وخالد والمهندس مع أحد الحراس قد عبروا السور الحجري المحيط بالجهاز وغابوا بعيداً عن الآخرين.. بعد أن تأكد أمجد من ابتعادهم عن جانب السور المقارب لموقع الحارسين الآخرين، ترك عمه والمهندس يقومان بفحص الجهاز الذي كان يحوي على أجهزة تحكم في صندوق مغلق بإحكام ومحمي بكلمة سر من عدة أرقام حرصاً عليه من عبث العابثين.. بينما تأخر أمجد خلفهم ليقف قريباً من الحارس المرافق لهما، ووقف هناك بصبر متوتر.. بعد فترة من الوقت، سمع الجميع طلقة شقت الأجواء تبعتها صيحة ألم، فاستدارت الرؤوس لتلك الجهة بتعجب وقلق، لكن أمجد قام بدفع سلاحه بقوة في وجه الحارس القريب منه بحيث أصابته الضربة في أنفه لينثني على نفسه متألماً، فعاجله أمجد بضربة على مؤخرة رأسه أسقطته أرضاً وهو يستولي على سلاحه، ثم أداره بسرعة نحو المهندس الذي وقف يراقب ما يجري بصدمة.. صاح به أمجد "لا تحاول أن تقوم بأي حركة مشبوهة أو تجري اتصالاً بالإدارة.. لن أتردد في إصابتك برصاص سلاحي"

رفع المهندس يديه عالياً بذعر، فاقترب منه أمجد لينزع عن ذراعه جهاز اتصال كالذي يملكه الجنود، ثم عاد للحارس وفعل المثل خوفاً من استيقاظه فجأة.. ولما التفت لخالد وجده ينظر له بدهشة، وقبل أن يتفوه أمجد بكلمة قال خالد "عندما رأيتك عند وصولي غالطت عيناى وشككت في سلامتهما.. لكني الآن منصدم يا فتى" ابتسم أمجد معلقاً "ليس هذا هو المهم.. اتبعني بسرعة"

تقدمه خالد بتعجب وأمجد يتبعه دون أن يغفل عن المهندس والحارس خلفه خوفاً من مباغتتهما له.. وبعد ابتعادهما قال له خالد "ما الذي جاء بك إلى هذا المكان يا أحمق؟ لقد طلبت منك صراحة ألا تتدخل ورجوت أن تطيعني لمرة واحدة على الأقل"

أجاب أمجد "أظنني كنت سأفعل ذلك حقاً؟ دع هذا الحديث لما بعد، ولننته من هذا الموقف الآن"

غمغم خالد وهو يتبعه متقدمين من البوابة "حظك عاثر يا فتى.."
لما وصلا بوابة السور المحيط بالجهاز، نظر أمجد من خلفها بحرص ليرى أحد الحارسين ساقطاً أرضاً يتألم من ضربة برأسه، بينما أدهم يشتبك مع الآخر في عراك محدود، فلم يكن من أمجد إلا أن تسلل خلف الحارس وضربه بدوره على رأسه ليسقطه مع رفاقه.. فيما بقي خالد يراقب بما يجري قرب البوابة بتعجب أكبر..
بعد أن تخلص أدهم وأمجد من جهازي الاتصال الخاصين بالحارسين، سأله أمجد "ماذا عن قائد الطائرة؟ هل تخلصت منه؟"

قال أدهم "أجل.. بدأت به لأنه في بقعة متطرفة.. وربطته بإحكام"
تساءل أمجد "وهل أخذت جهاز الاتصال منه؟"
قطن أدهم محبباً "لم أفعل.. إنه مقيد جيداً"
قال أمجد بقلق "مهما يكن الأمر، لا نريد أي مفاجآت.. اذهب وأحضر الجهاز منه"
لم يكدهم يتحرك من موقعه مع مرأى قائد الطائرة الذي ظهر من خلف طائرته رافعاً سلاحاً في وجهيهما وهو يصيح "لا داعي للمقاومة.. ليس هذا في مصلحتكما"
رفعا سلاحيهما بدوريهما في وجهه وأدهم يقول بسخط "كيف تخلصت من قيودك؟"
لكن قائد الطائرة هتف "قلت لا داعي لذلك.. سيفوتكما أمر مهم كثيراً"
تبادلا نظرات تعجب وتوجس، عندما رأيا القائد يعيثر بجهاز اتصاله فيفتح الاتصال على مكبر الصوت، وأمجد يقف مع أدهم وخالد القريب ينظرون له باستغراب، فسمعوا صوت قائد الحرس يقول بصرامة بصوت عالٍ "اسمعوا أيها الأوغاد.. الأفضل لكم رمي أسلحتكم وإعادة خالد إلى الحراس.. وطبعاً عليكم تسليم أنفسكم للحراس كذلك"

غمغم أدهم عاقداً حاجبيه "هذا الرجل مجنون.."
بعد صمت قصير فهم القائد مغزاه، قال بحدة "يبدو أنكم لا تقدرتون عواقب كل ما تفعلونه.. حسناً، خذوا هذا.."
تبادل أمجد وأدهم النظرات المندهشة، عندما سمعوا فجأة صراخ بسملة المذعور "حمراء.. لاااااا.. اتركوها.."
صدم الاثنان بما سمعاه وأدهم يصيح "أيها الوغد.. ما الذي فعلته؟"
جاءهم صوت القائد قائلاً "الآن، سلموا أنفسكم دون مقاومة.. وستحضركم المروحية لتجتمعوا بهاتين الجميلتين دون ضرر.. اتفقنا؟"

قال أدهم بغیظ "لن يفلت هذا الرجل مني.."
زفر أمجد بقلق متزايد وهو يقول "وما الذي نستطيع فعله؟ يمكننا الآن أن نفرّ بأنفسنا دون ضرر كبير، لكن ماذا عن حمراء وبسملة؟"
قال أدهم بحدة "لن نتخلى عنهما.."

قال أمجد وهو ينظر لعمه الذي كان يتأمل ما يجري بفضول "بالطبع لن نفعل.. لكننا بإطاعتهم سنعود لنقطة الصفر من جديد.."

قال أدهم "هذا لا يهم.. سنعيد كل ما فعلناه من جديد.."

ورمى سلاحه عند قدم أقرب حارس إليه بعد أن استعاد الأخير توازنه، قبل أن يرفع ذراعيه باستسلام.. فتنهد أمجد وهو يقول لخالد "يجب أن نستسلم.. هذا هو الحلّ الوحيد"

قال خالد بتعجب "أيهمكما أمر هاتين الفتاتين؟"

قال أمجد مقطباً وهو يتخلى عن سلاحه "أجل.. يجب أن نعود لئلا يؤذونهما"

ورفع ذراعيه بدوره، بينما تنهد خالد مغمغماً "كان حلماً أجمل من أن يتحقق.."

رأى الحراس يسرعون إليهم فيقبضون عليه بحرص بينما نال أمجد لكمة قوية أسقطته أرضاً.. وبالفعل كانت لكمة أخرى من نصيب أدهم الذي لم يتأثر كثيراً وهو يقول بصرامة "لم العنف الآن؟ لقد استسلمنا لكم، فخذونا لقائدكم دون تأخير"

قال أحد الحراس وهو يدفع السلاح في ظهره "أأنت متلهف لهذا؟ تقدم وخذار من المقاومة"

لم يعترض أدهم وهو يتقدم من المروحية مع أمجد وخالد ليضمهم قلبها مع أربعة من الحراس دون جهد، بعد أن تولى الحراس إيقاظ رفاقهم وفك قيودهم ليعودوا لمواقعهم في حراسة الجهاز..

لحسن حظهم لم يكن الحراس يملكون أي قيود يقيدون أيديهم بها.. وعندما ارتفعت المروحية بكل سلاسة وطارت عائدة للمباني الإدارية، فإن خالد تنهد مغمغماً "ها نحن نعود لذلك السجن من جديد"

غمغم أمجد بالعربية التي لا يفهمها البقية "سنخرجك منه بإذن الله تعالى يا عمي.."

لم تستغرق المروحية الكثير من الوقت لتهبط وسط المباني الإدارية كما طلب منها قائد الحراس، ولم تكذب تفعل حتى نزل منها الثلاثة يحيط بهم الحراس الذين قدموا معهم، وتقدموا وسط الساحة حيث جماعة أخرى من الحراس مع قائدهم واقفين بتأهب.. ووسطهم، رأوني مع بسمة والأسلحة مشهورة في وجوهنا.. كنت قد تلقيت ضربة بسلاح أحدهم أسقطتني أرضاً دافعة بسمة للصراخ المذعور حتى يصل صوتها لأمجد وأدهم عبر جهاز الاتصال.. يبدو أنه قد كتب على وجهي لافتة تقول "قابل للضرب..". أو شيء من هذا القبيل، فالكل يستهدفني هنا..

عندما اقتربوا منا سألنا أدهم بالعربية "هل أنتما بخير؟"

هزرت رأسي إيجاباً بينما كانت الدموع تغرق وجه بسمة بسخاء، لذعرها على ما يجري ولصدمتها بالضربة

التي تلقيتها.. فقال القائد بصرامة "كفوا عن هذا العبث.. يبدو أنكم لا تقدرون الموقف الذي أنتم فيه"
اجتمعنا كلنا وسط الحراس المشهرين سلاحهم، فقال القائد بابتسامة "مرحى.. هذه هي المرة الأولى التي
تجتمعون فيها في ضيافتي.. حقاً إنني سعيد برؤيتكم"
ثم قال لخالد "ألم تتوانَ عن استغلال أول فرصة أتتكَ لتهرب منا يا خالد؟ إنك تجرح مشاعري حقاً"
قال خالد بتهكم "ادخر مشاعرك لحراسك فأنا قد شبعت منها حقاً"
لم يعبأ القائد بتهكمه وهو يستدير قائلاً "أحضروهم واحرصوا عليهم بشدة.. سيراهم ماك شخصياً الآن"
بدأ سيره تجاه المباني الإدارية، فدفعنا الحراس للحاق به.. لكن لم نكد نخطو خطوتين حتى سمعنا أدهم يقول
بالعربية "عندما أعدّ لثلاثة.. لنهجم في وقت واحد"
كنا محاطين بأربع حراس مع القائد، بالإضافة للأربعة الذين هبطوا من المروحية.. فهمس أمجد "أنت مجنون..
لا تفعل.."
لكزه أحد الحراس ليصمت، لكن أدهم قال "سنستولي على سلاحهم ونشق طريقنا بالقوة.. هناك مركبة قريبة
سنستولي عليها"
صاح أحد الحراس وهو يضرب أدهم بسلاحه "قلت لك اصمت.."
نظر له أدهم بغیظ، ثم قال بصوت عالٍ فجأةً "واحد.. اثنان.. ثلاثة"
وانقض على ذلك الحارس ليلكمه بقوة ألقته للوراء، وقد أمسك سلاحه ليجبره على التخلي عنه مع عنف اللكمة..
صدم الحراس لهذا لثوان استغلها أمجد الذي لم يجد بداً من التحرك رغم كرهه لاندفاع أدهم غير المتعقل.. فلکم
الحارس القريب واستولي على سلاحه، وتفادى لكمة حارس آخر قبل أن تصيبه ضربة من حارس من الخلف..
فاندفعت أنا وارتطمت بذلك الحارس بكل قوتي حتى سقط أرضاً، ولما رفع السلاح في وجهي أمسكته بسرعة
وأنا مدركة أنه لن يحاول إصابتي أبداً، ودفعته بقوة ليضربه في أنفه بقوة جعلته يفلت السلاح..
أمسكت السلاح بقوة وعدت للمعمعة التي دارت بين رفاقي والحراس وسط صراخ القائد الحانق، بحثت عن
بسمه فوجدتها تقف مذعورة في جانب المكان بعد أن انشغل الحراس عنها مع أمجد وأدهم، بينما تراجع خالد
قليلاً وهو يراقب ما يجري دون أن يرفع إصبعاً..
رأيت القائد يتحدث عبر جهاز الاتصال، لابد أن يستدعي المزيد من الحراس للقبض علينا، فهتفت ببسمة
"اهربي نحو المركبة.."
واندفعت نحو العالم الذي كان يشبه أمجد في ملامحه بشكل كبير، ودفعته أمامي قائلةً "لنبتعد.. سيحضر المزيد
منهم قريباً.."
رأيت أحد الحراس يندفع نحو خالد بغية القبض عليه، فاندفعت نحوه وضربتته بكتفي بقوة لأدفعه جانباً، ورفعت
السلاح بغية ضربه على رأسه، لكنني تلقيت لكمة على أنفي كادت تسقطني أرضاً لولا أن أمسك أدهم ذراعي

وهو يوجه لكلمة للحارس أسقطته بعيداً وهتف بي "اهربي نحو المركبة.."

أسرع خالد أمامي نحو المركبة وأنا خلفه، وتبعنا أدهم وهو يضرب من يقترب منه بسلاحه، ولما نظرت خلفي رأيت أمجد قد تملص من الحراس بدوره بعد أن نجح هو وأدهم في إسقاط ثلاث حراس وبقي خمسة لاحقونا بإصرار وإن لم يحاول أدهم إطلاق الرصاص خوفاً على خالد الذي كان معنا..

عندما وصلت للمركبة نظرت حولي قبل أن أقول بقلق "أين بسمه؟"

سمعنا صوت طلقة عالية صمت أذاننا، فتجمد الجميع ونحن نلتفت للخلف لنجد بسمه في قبضة القائد الذي رفع سلاحه عالياً وأطلق رصاصة التحذير تلك.. ثم قال بهدوء "أخبركم أن تكفوا عن هذا العبث.. حياة هذه الفتاة لا تهمني في شيء لو كنتم تتساءلون عن هذا"

وقفنا بقلق ونحن نرى عيناها المذعورتان بصمت بليغ، وسمعناه يضيف "أعيدوا خالداً واستسلموا بصمت تام رجاء"

فقلت لأدهم بهمس "يجب أن ننقذها منه.. أخشى أن يقتلها مهما فعلنا"

غمغم أدهم بحنق "أعلم هذا.."

حاولت بسمه مقاومة القائد بذعر وهلع، لكن قبضته كانت أقوى منها.. رأيت أدهم يشهر سلاحه نحو قائد الحرس، فصحت فيه "لا تفعل.. قد تصيبها معه"

كفّ عن هذا وهو يرى بسمه تقاوم باستماتة ودموعها تهطل بفرع شديد.. ودمدم بغیظ "تياً له.. سأقتله"

بدأ الحراس يقتربون منا بتهديد بينما قال القائد "أحذركم.. لا تأتوا بأي حركة لا تعجبني.."

قال أمجد "يبدو أننا مضطرون للاستسلام من جديد"

قال أدهم بحدة وهو يتقدم خطوة "مستحيل.."

ورفع سلاحه نحو القائد بتهديد، لكن القائد أسرع يجذب بسمه إليه ويلصق فوهة سلاحه لرأسها بحركة معبرة، فشهقت بسمه وهي تصيح "لا.. حمراء!"

مدت يدها إلينا وهي تصيح ودموعها تسيل على خديها بغزارة "حمراء.. ساعديني أرجوك"

بينما قال القائد مبتسماً "لا داعي لكل هذا.. لن أتردد أبداً في إطلاق النار على رأسها.."

فوجئنا في تلك اللحظة، بحركة سريعة خاطفة، بتلك اليد التي قبضت على يد القائد بسلاحه لتبعدها عن رأس بسمه، وفي نفس اللحظة ارتطم عقب سلاح صاحبها بوجه القائد بقوة.. فتلقى القائد الضربة بدهشة ليسقط أرضاً متألماً، بينما نظرنا نحن لوليد الذي انتهى من القائد والتفت لأحد الحراس القريبين منه ليعاجله بضربة أخرى في بطنه أتبعها بثانية في فكة قبل أن يستوعب الأمر.. سقط الحارس فاقد الوعي بينما رفع أحد الحراس سلاحه بسرعة وهو يصيح "ماذا تفعل أيها الخائن؟"

لكنه لم يفلح في إصابة وليد الذي ضرب فوهة سلاح الحارس بسلاحه لتطيش الطلقة، ثم عاجله بضربة قوية في

بطنه بمؤخرة السلاح وضربة أخرى جردته من سلاحه.. كانت بسمه قد استغلت الموقف لتجري تجاهنا، فلحقها وليد فور أن تخلص من الحارس، بينما رفع أدهم سلاحه نحو الحراس وبدأ إطلاق نيرانه بغزارة ليبعدهم ويؤخر تقدمهم..

صاح القائد بحق "أوقفوهم.. امنعوهم من الرحيل بأي شكل كان"

كان هذا إيذاناً ببداية وابل الرصاصات التي تطايرت قربنا وحولنا من الحراس القريبين ومن غيرهم الذين تقدموا من جهات الساحة المختلفة.. فأسرع أمجد يدفع عمه خلف المركبة القريبة ليحتميا من الرصاص وأمجد يبادل الحراس الإطلاق من موقعه، وسمعه يصيح بي "حمراء.. اختبئي"

لكنني لم أتحرك من مكاني وأنا أنتظر بسمه التي اقتربت مني راکضة مذعورة تحمي رأسها بيديها، ولما وصلت إليّ دفعتها أمامي وأنا أركض معها وكأني أحميها بجسدي حتى اختبأنا خلف المركبة بدورنا، بينما قبع أدهم قربنا وهو يطلق رصاصاته بعشوائية وقد قارب سلاحه على أن يفرغ من رصاصاته.. كانت رصاصات الحراس تصطدم بجسم المركبة بدوي عالٍ وانفجرت إطاراتها وهي واقفة، مما يعني أن استخدامها قد غدا مستحيلًا.. وقبل أن نياس، قبل أن يفرغ سلاح أدهم من رصاصاته، سمعنا صوت مركبة من المركبات القريبة تبدأ التشغيل فجأة، ثم تنطلق بقوة مثيرة غباراً كثيفاً في الساحة قبل أن تقف قربنا ووليد الذي كان يقودها يصيح "اقفروا في المركبة.."

أطعناه بسرعة كبيرة ونحن نقفز في المركبة بعشوائية، بينما بقي أدهم يطلق رصاصاته بغزارة ليبعد الحراس عنا حتى فرغ سلاحه، عندها استدار وقفز في المركبة بجواري لينطلق بها وليد بسرعة والرصاصات ترتطم بجسمها المدرع مصدره صوتاً مزعجاً.. تلقائياً أحنينا رؤوسنا لتفادي الطلقات المتناثرة فيما قاد وليد المركبة بتهور ليتجاوز بها البوابة محطماً أحد طرفي الباب الذي كاد يسدّ طريقنا وانطلق بها في المساحات الصخرية الواسعة بعيداً عن المباني الإدارية.. ألقيت نظرة خلفي أتأمل الحراس الذين تراكضوا بحثاً عن مركبة تصلح للحاق بنا، ثم عدت ببصري إلى بسمه المنكمشة جواري ودموعها تسيل بصمت بينما لا يكفّ جسدها عن الارتجاج.. لاحظت عندها الدماء تغرق ساق أدهم، فسألته بقلق "أنت مصاب.."

قال أدهم وهو يرمي سلاحه الفارغ عند قدميه "هذا لا يهم الآن.. نحن لم ننجُ بعد.."

سمعت أمجد يقول لوليد "شكراً لك لمساعدتنا.. لكنك قد كشفت نفسك بهذا وعودتك قد أضحت مستحيلة، فلم فعلت ذلك؟"

قال وليد مقطباً "عندما علمت بخبر القبض عليكم هرعت لأستطلع الأمر.. أنا واثق أن قائد الحرس سيمنعكم من الهرب مجدداً بكل قوته.. وعندما رأيته يقبض على بسمه لم أشك للحظة أنه قد يسعى لقتلها ليتأكد أنكم لن تفكروا بالهرب مرة أخرى"

انتفضت بسمه برعب، فضممتها وأنا أعلق "لكنك قد أصبحت هارباً مثلنا الآن.."

تنهد وليد معلقاً "أرجو ألا أندم على هذا.."

لم نكد نبتعد مسافة قصيرة من المباني الإدارية حتى سمعنا صوت مركبة تلحقنا بإصرار.. نظرنا خلفنا للمركبة التي تحمل ثلاث حراس وهم يقتربون منا شيئاً فشيئاً وأمجد يقول "ألا يمكننا الإسراع أكثر؟" قال وليد مقطباً "لا.. لكن من أين جاءت هذه المركبة؟ لقد تأكدت من تفجير إطارات جميع المركبات في ساحة الإدارة"

قال أدهم "إن تمكنوا من الاقتراب فسيصيبوننا بأسلحتهم بسهولة"

قال وليد "هل يمكنك التصويب بدقة؟"

غمغم أدهم "أست ضليعاً في هذا"

فقال وليد لأمجد الجالس جواره "تول القيادة عني"

أمسك أمجد المقود، فقفز وليد للمقعد الخلفي تاركاً مقعده لأمجد الذي هتف "ليس بهذه الطريقة الفجة أيها المجنون"

انحرفت المركبة بعنف بعدما اختل سيرها، لكن أمجد سيطر عليها بسرعة ليعيدها لطريقها قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.. بينما استند وليد بقدمه على المقعد الخلفي وأسند ذراعه الممسكة بالسلاح على ركبته وهو يصوب على المركبة الملاحقة لنا.. غمغمت وأنا أرى الحراس يستعدون بأسلحتهم بعد رؤية وليد "علام ستطلق من هذه المسافة؟ بإمكانهم إصابتنا كما يمكننا أن نصيبهم"

غمغم "يمكنني إصابة قائد المركبة.. وهم لا يملكون هذه الميزة.."

وبعد أن أحكم التصويب أطلق عدة رصاصات أصابت زجاج المركبة فحطمتها كما ضربت أجزاء متفرقة من واجهتها.. ورغم أن الحراس الآخرين أطلقوا نيرانهم علينا بعشوائية إلا أن استهداف قائد المركبة كان موفقاً إذ ارتبك في قيادته وحاول حماية رأسه فانحرفت المركبة بقوة وطلقاتهم تطيش بعيداً، وكادت المركبة تصطدم بصخرة كبيرة تفادها القائد بصعوبة.. لكن عاجله وليد برصاصات أخرى أصابت الإطار الأمامي فانفجر بقوة لتتحرف المركبة عن مسارها قبل أن تنقلب بعنف بعد أن عجز قائدها عن السيطرة عليها بسرعتها تلك..

نظرت بقلق للحادث وغمغمت "أتظنهم نجوا من الحادث؟"

قال أدهم مقطباً "ادخري مشاعرك تلك لما بعد.. فمازلنا في خطر"

وافق كلامه هدير يقترب منا بسرعة.. رفعنا أبصارنا لنواجه تلك المروحية التي اقتربت منا بسرعة حثيثة..

فصرخت بسمة "ماذا سنفعل؟ سيقتلونا الآن.."

قال وليد وهو يرفع سلاحه مواجهاً المروحية "لا يمكن أن يفعلوا مادام خالد معنا.. لكن سيسعون لإيقافنا بأي شكل كان"

قلت له "ما الذي ستفعله أيها المجنون؟"

لم يعلق وهو يطلق رصاصات سلاحه بغزارة لتصيب زجاج المروحية الأمامي.. لكنها كانت محصنة ضد الرصاص فارتدت الرصاصات كلها دون أن تخدشه.. بينما بدأ قائدها إطلاق رصاصاته على مركبتنا بشكل متواصل..

علا صراخ بسملة المذعور وهي تحمي رأسها بذراعيها بينما صاح وليد بأمجد "إنه يسعى لتفجير إطاراتنا.. ناور بالمركبة بعيداً عن مرمى رصاصاته"

غمغم أمجد وهو يناور بالمركبة "القول سهل.. هذه المنطقة تعج بالصخور والحفر.. قد نقلب لو اندفعنا بتهور" بينما قال العم وهو يحمي رأسه بذراعيه بدوره "هذه خطة فاشلة"

لم يحاول وليد الاختباء وهو يطلق رصاصاته على مختلف مناطق المروحية محاولاً إيجاد نقطة ضعف تمكنه من التغلب عليها.. لكن ذلك بدا مستحيلًا.. فقال وهو يستخرج عبوة رصاصات جديدة من جيبه ويستبدل القديمة بسرعة "هذا مستحيل.. الطريقة الوحيدة هي أن أصيب ذيلها فقد أتمكن من إسقاط المروحة المسؤولة عن توازنها"

ثم هتف بأمجد "اضغط على المكابح.."

أطاعه أمجد على الفور فضغط على المكابح بقوة لتتخفض سرعة المركبة فجأة حتى كادت أن تسقطنا من فوقها بينما استمرت المروحية في سيرها وعبرت فوق رؤوسنا.. عندها قام وليد الذي وقف متأهباً بسلاحه بإطلاق رصاصاته على مروحة الذيل فور أن تبدت له.. في البدء لم يبدُ لفعله أي أثر والمروحية تستدير لتواجهنا، لكن سرعان ما ظهر دخان خفيف من الذيل قبل أن تبدأ المروحية في الدوران حول نفسها بقوة وقائدها عاجز عن السيطرة عليها وهي تميل جانباً بعنف.. عندها قال وليد "انطلق بنا بسرعة يا أمجد قبل وصول المزيد منهم.. سيكون قائد المروحية حسن الحظ لو تمكن من الهبوط بها دون أضرار"

انطلق أمجد بالمركبة بسرعة عائداً تجاه الجبال التي تشكل بالنسبة لنا الغطاء المثالي ومخبأً آمناً من أعين المؤسسة..

الفصل الثاني والعشرون

[عمي خالد]

استقر بنا المقام في مغارة جديدة بعيداً عن الأولى في جانب آخر من الجبال، قبل أن تمر عدة ساعات على شروق الشمس.. ورغم ذلك شعرت أن هذا تصرف غير حكيم منا بعد انكشاف موقعنا الأخير.. لا بد أن المؤسسة ستسعى لنبش الجبال كلها عما قريب بحثاً عن هذا المخبأ.. كما أننا اضطررنا للتخلي عن المركبة في موقع بعيد شيئاً ما لئلا تستدل المؤسسة علينا عبرها..

كان أدهم يسير بشيء من العسر نحو المخبأ.. فقد كانت إصابة ساقه على شيء من السوء حيث بدت الدماء واضحة وهي تغرق ثيابه، فقال أمد لأدهم “ها قد وصلنا.. اصبر قليلاً بعد..”
غمغم أدهم “وهل سمعتني أتذمر؟”

وأضاف “أرجو فقط ألا يكونوا قد تبعونا واستدلوا على مخبأنا هذا..”
دلفنا المخبأ فجلس أدهم جانباً بعسر بينما قلت وأنا أتأمل المخبأ “ألا تخشون من انكشاف أمرنا من جديد في هذه الجبال؟”

قال وليد “سنبقى هنا الليلة فقط حتى نتمكن من العثور على موقع آخر أكثر أمناً.. خروجنا كجماعة أكثر خطراً من بقائنا هنا”

لم يعلق أحدنا بكلمة بينما كشف أمد عن جرح أدهم الذي سببته رصاصة، فاستخدم قطعة من القماش لتنظيفه قبل أن يتفحصه جيداً.. ثم تنهد وهو يقول “الرصاصة لم تستقر في ساقك.. لقد جرحتك بشكل جانبي فقط وإن لم يكن سطحياً.. هذا من حسن حظك”

وأسرع يضغط على الجرح ليوقف تدفق الدماء التي استمرت تغرق ساقه وقال “لو كان وليد لا يزال على رأس عمله لطلبنا منه بعض العدة لمعالجة جرحك..”

سمعنا وليد من خلفنا يقول “ومن قال إنني أعجز عن هذا؟”

وغادر بصمت وسط الدهشة التي ظللتنا، بينما اقتربت بسمة من أدهم وهي تسأله بقلق شديد “هل أنت بخير؟”
هز أدهم كتفيه وهو يقول متجنباً النظر إليها كما أضحت العادة مؤخراً “هذا ليس بالجرح الخطير.. ليس شيئاً مقلقاً..”

لست أدري لم توترت بسمة أكثر قبل أن تسرع بالابتعاد، بينما اقتربت أنا من أدهم لأطمئن عليه بدوري.. وبعد فترة خلناها طالت أكثر من اللازم، دلف وليد المخبأ وهو يحمل حقيبة صغيرة وقال “المركبات عادة تحمل مثل هذه العدة لمواجهة الطوارئ.. إنها لك أيها العنيف..”

غمغم أدهم مقطباً “ألن تكف عن استخدام هذا اللقب؟”

قال وليد مبتسماً “أنا لن أنسى لكمثك لي ذلك اليوم الذي كدت تقتلني فيه.. ولم أسامحك عليها بعد”

قال أدهم باستتكار “أنت من هاجمنا.. أكنت تريدي أن أستسلم دون مقاومة؟..”

لم يعلق وليد وهو يرمى الحقيبة الصغيرة تجاهي فالتقطتها قبل سقوطها.. وفتحتها لأجدها تحتوي على زجاجات أدوية وأربطة وغيرها ثم قلت له “شكراً لك.. وإن كنت أتمنى لو تعاملت معها بحرص أكثر”

لم يعلق وليد على قولي وهو يتعد ليتحدث مع أمجد، فجلست قريبة من أدهم وتناولت ما في الحقيبة قائلة “استعد لبعض التعذيب أيها العنيف”

قال أدهم باستتكار “أنت أيضاً؟”

ابتسمت معلقة “لقد أعجبنى اللقب..”

أما وليد، فقد اقترب من أمجد قائلاً “إذن.. ما الخطة الآن؟ يجب أن نتحرك سريعاً قبل أن نقع في قبضة المؤسسة من جديد”

تنهد أمجد مجيباً “لم يبق أمامنا إلا التسلل إلى إحدى السفن الفضائية.. لكن هذا عسير الآن إن لم يكن مستحيلاً.. خاصة بعد انكشاف أمرنا جميعاً وهربك من الإدارة.. خسرتنا معاونتك لنا، وعلينا التخطيط جيداً قبل الإتيان بأي خطوة”

نظر خالد لأمجد باهتمام متسائلاً “هل تنوون الهرب؟”

أجاب أمجد “أجل.. كنا ننوي الرحيل فور تمكننا من تحريرك من قبضة المؤسسة”

عاد خالد يتساءل “وماذا عن البقية؟ ماذا عن بقية السجناء على الكويكب؟”

جذب تساؤله انتباهنا، فنظرنا لبعضنا البعض بحيرة، ثم قال أمجد “وما الذي نستطيع فعله لهم؟ أتتوقع أن نتمكن من تهريبهم معنا دون أن يشعر المسؤولون في المؤسسة؟”

قال خالد بابتسامة “ولم لا نجبر المسؤولين أنفسهم على ترحيل من في الكويكب وإعادتهم للأرض؟”

اعترض وليد قائلاً “هذا تفكير خيالي.. ما الذي سيجبر المؤسسة على فعل ذلك؟ والمناجم؟ والعمل الذي لا توقفه المؤسسة ليوم واحد أبداً؟”

قال خالد بصرامة “ومن يهتم؟ المهم عندي أن ننفذ هؤلاء السجناء من قبضة المؤسسة ونعيدهم للأمان على الأرض، حتى لو كان ذلك في سجونها”

تساءل أمجد بدهشة “لكن ما الذي سنفعله؟ هذا مستحيل يا عمي.. دعنا نغادر وبعدها سنسعى لفضح ممارسات المؤسسة لدى مجلس الأمن الدولي ونسعى لإنقاذ من بقي على الكويكب”

نظر له خالد بنظرة ساخرة قائلاً “حقاً؟ وأنت تصدق أن مجلس الأمن والمجتمع الدولي سيصدق حديث بضع

سجناء هربوا من سجنهم دون سبب مقنع؟ أنا لن أغادر، ليس قبل أن أنفذ ما خطت له منذ البدء بقدمي هنا”

نظر له أمجد مصعوقاً وتساءل “هل خططت لقدمك هنا حقاً؟”
هز خالد رأسه إيجاباً وقال “أجل.. لقد منعوني من القدوم للكويكب بعد أن لاحظوا أنني أحاول جمع دلائل ضدهم، فسعيت لتهديدهم ومحاولة تأليب بعض المؤسسات المساهمة ضدهم.. فكان التصرف الطبيعي أن يتهموني زوراً ويسعوا لنفيي على الكويكب.. لكن لم أتوقع البتة أن يسجنوني في المباني الإدارية ولم أتمكن من الفرار مهما حاولت..”
فقال أمجد بصدمة “إذن كل ما جرى كان بتخطيط منك أنت؟ وتركتني بحيرتي وذعري أبحث عنك بلا انقطاع.. لم أخفيت عني هذا الأمر؟”
زفر خالد مجيباً “لأجذبك عواقب تدخلك في أموري، لكنك سقطت في ما حاولت تجنبك إياه”
ظللنا نتبادل النظرات المندهشة والحيرة تغمرنا، ثم زفر أمجد وقال “مادمت ستبقى يا عمي فأنا سأبقى بالطبع.. لم آت هنا لأعود خالي الوفاض”
فعلق وليد “أنا أيضاً لا يمكنني السكوت على ما تركبه المؤسسة في الكويكب.. ولا يمكنني الفرار متحملاً ذنب كل من سيبقى هنا”
سمعنا أدهم يغمغم “أنتم حمقى..”
أما أنا وبسمة فقد تبادلنا النظرات الحائرة والصمت يظللنا، فقال لنا خالد “الأمر راجع لكم في الانضمام إلينا من عدمه.. لكنني أحذركم أن التسلل للسفن الفضائية شبه مستحيل.. إنهم ينتظرونكم، وعقابكم لن يكون هيناً هذه المرة..”
كنت أدرك هذا، كما ولا بد قد أدركه أدهم وبسمة أيضاً.. وبعد لحظة صمت قلت وقد شددت عزمي “أنا معكم إذاً.. البقاء مع الجماعة خير من التصرف منفردة.. أتمنى فقط ألا يطول بقاؤنا هنا كثيراً”
قال أدهم من خلفي “وأنا معكم بالطبع.. لست جباناً لأهرب الآن بعد كل ما جرى..”
أما بسمة فقد خفضت بصرها وذعرها يبدو جلياً على وجهها، لكنها مجبرة على الموافقة.. لا يمكنها أن ترحل وحيدة، ولا يمكنها أن تتصرف بمفردها بأي حال.. عندها قال خالد بابتسامة منشرحة “رائع.. فريقتنا سيظل متلاحماً للنهائية.. نعيش معاً أو نموت معاً.. ما رأيكم بهذا الشعار؟”
نظر له أمجد ووليد باستنكار، بينما غمغت وأنا أبتعد “يا للسخافة..”
أما أدهم فقد أطلق ضحكة عالية وهو يعلق “أنا أفضل الجزء الأول فقط منه.. من يُرد الموت فليمت بمفرده وليعُفني من مشاركته”
بدا الإحباط على وجه خالد، لكنه سرعان ما استعاد جديته وهو يقول لوليد “أريد منك الكثير من المعلومات بخصوص المباني الإدارية، ما تعرفه عنها على الأقل.. حديثنا سيطول الليلة فكن متأهباً”
تبعه وليد بصمت وانضم لهما أمجد، فجلست جانباً وكالعادة جلست بسمة قربي بصمت وهي تخفي وجهها بين

ذراعيها المستندتين على ركبتيها، فقلت وأنا أضع يدي على شعرها “لا داعي لكل هذا الذعر يا بسمة.. أنت ستبقيين كل الوقت هنا.. سأؤكد أنك لن تتعرضي للأذى أبداً حتى تنتهي”
همست دون أن ترفع رأسها “القول سهل..”
لم أستطع الاعتراض على هذا.. فصمتُ وأنا أدرك أن الصمت أفضل من كلمات جوفاء لا معنى لها..

تلك الليلة، اقتربت من وليد الذي جلس يراقب مدخل المخبأ وهمّ كبير مرتسم على وجهه، وجلست قريباً متسائلة
“أنت نادم على ما فعلته اليوم؟”
ابتسم بجانب فمه مجيباً “رغم أن ذلك التصرف كان حماقة كبيرة مني، لكنني لست نادماً البتة.. أنا حانق لأنني الآن لا أستطيع إفادتكم وإفادة هذه القضية بشيء.. بالعكس قد يكون وجودي عبئاً أكبر عليكم”
ابتسمت معلقة “أنت؟ أنت من أنقذ حياة بسمة وساعدتنا على الهرب وتخلصت من كل ملاحقينا اليوم، فكيف تكون عبئاً علينا بهذا؟”
وأضفت وأنا أتأمل الظلام خارج المخبأ الذي تنيرة بضع مصابيح ضعيفة “الآن جلّ همنا هو الهرب من هذا الكويكب المشؤوم.. وخيراً لك أن تغادر معنا أيضاً”
غمغم وليد “من يدري متى سيتحقق هذا.. وهل سيتحقق لكل الموجودين هنا الآن؟”
قلت بضيق “ولم التشاؤم؟ لقد تجاوزنا العديد من المحن معاً.. بانضمامك إلينا، وبوجود خالد أيضاً، فأنا أثق أن مهمتنا قد تكون أيسر من السابق”
قال وليد بهزء “هذه أحلام مبالغ فيها..”
سمعت أمجد من خلفي يقول “من قال ذلك؟”
التفتنا لنجد خلفنا وهو يحدجنا بنظراته المبهمة، بينما أضاف أمجد بهدوء “المفترض أن ترفع معنويات الفريق بدلاً من تحبيطها بكلمات كهذه..”
غمغم وليد “أجئت لتقول هذا فقط؟”
ابتسم أمجد ابتسامة لا معنى لها وهو يقول “عمي يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة..”
قال وليد “أنا قادم حالياً..”
نهضت لأغادر بصمت، فقال أمجد لي قبل أن أبتعد “يمكنك أن تنضمي إلينا لو رغبت يا حمراء..”
فعلقت بسخرية “لا شكراً.. لقد تعكر مزاجي بما فيه الكفاية اليوم..”
وغادرت تلحقتي نظرات الضيق من أمجد والتعجب من وليد.. وما لم أسمع، هو قول وليد الذي رافق ابتسامته

تعجب ارتسمت على شفثيه "أتدخلك هذا غيرة منك؟"

نظر له أمجد بشيء من الحدة، وقال "لا داعي لهذه الاستنتاجات.. لقد أرسلني عمي لأنه بحاجة إليك" قال وليد هازماً كتفيه "لم الآن دوناً عن كل الأوقات؟.. كل شيء واضح أمامي.. نظراتك الحانقة التي غمرتني فور اقتراب حمراء مني، وتدخلك الذي لا معنى له بعد أن طال الحديث بيننا.. كما أنها ليست المرة الأولى التي تتدخل فيها بالحديث بيننا.. لا يجب على المرء أن يكون عبقرياً ليعرف أنك تغار عليها مني.."

فقال أمجد مقطباً "أظن أنك تستحق الغيرة منك؟"

قال وليد بهدوء "ليس إن كنت لا تملك الثقة بمشاعرها تجاهك.."

عندها قال أمجد بغضب "اسمع يا هذا.. لو كنت تحاول استمالتها أو كسب مشاعرها فاصرف النظر.. لأنني لن أقف صامتاً أنظر دون تدخل"

ضحك وليد وعلق "لم أتوقعك انفعالياً لهذه الدرجة.. ألهذه الدرجة تحبها؟"

ألقى عليه أمجد نظرة حنق قبل أن يغادر دون تعليق.. لم أسمع حوارهما هذا من موقعي، لكنني لاحظت انفعال أمجد وقد بدا واضحاً أن وليد يتلاعب بأعصابه.. ولم تفتني نظرة الحنق التي ألقاها أمجد عليه وعليّ وهو يبتعد عنه.. ترى، ما الذي أحققه لهذه الدرجة؟..

في الصباح، انشغل أمجد مع عمه دون أن يشركا أحداً منا، بينما ظللت جالسة في جانب المخبأ أتشغل بأي شيء، ولقد لاحظت اختفاء وليد منذ نهوضي.. إلى أين ذهب وحيداً يا ترى؟..

انتبهت لجلوس بسمة جواري والقلق يبدو على وجهها وهي تفرك يديها بصمت، ثم التفتت إليّ متسائلة بصوت خافت "أأنت متأكدة أن أدهم سيكون على ما يرام؟"

نظرت لها متعجبة وقلت "سيكون كذلك بإذن الله.. لم السؤال؟"

خفضت بصرها وهي تضغط على يديها قبل أن تقول "لا أدري.. رؤيته مصاباً بهذا الشكل تقلقتني.. أخشى أن تتطور إصابته أو يصاب بتعب جراء فقدان كل هذه الدماء.. ونحن لا نملك وسيلة لعلاجها بشكل صحيح"

قلت وأنا أنظر بعيداً "لا تقلقي.. سيكون بخير.."

وبعد مدة من الوقت قضيتها بصمت، وقفت واقتربت من خالد وأمجد قائلة "ألن تخبرنا بما تخطط لفعله منذ الآن؟ كيف تنوي إجبار المؤسسة على إيقاف عملها هنا وترحيل السجناء للأرض؟"

لوح خالد بيده مجيباً "ليس الآن.. دعيني أفكر قليلاً.."

قطبت وأنا أراه ينشغل بأوراق في يده يخط عليها بقلم خطوطاً غير مفهومة.. يبدو أنه حصل على هذه الأوراق

من وليد ولست أدري لم كان يحتفظ وليد بها.. لكن ساءني تجاهل خالد لي فعدت أقول بشيء من الحدة "ومتى تنوي فعل ذلك؟ أنت لم تقرر البقاء هنا دون خطة محددة، أليس كذلك؟"

قال لي أمجد "مهلاً يا حمراء.. سيخبرنا بما قرره بعد أن ينتهي"

تجاهلت أمجد بدوري وأنا أقول لخالد "وجودنا هنا فيه خطورة كبيرة علينا.. بعد هروبك، لن تصمت الإدارة وتنتظر محاولتنا التسلل للسفينة، بل ستبحث عنك جاهدة لتعيدك إليها.. إن لم نتحرك بسرعة فقد نخاطر بكشف أنفسنا قبل أن نبدأ"

قال خالد "وأنا أخبرتك أن تنتظري.. لا يمكنني أن أفصح عن خطتي قبل أن أتأكد منها.."

قلت بحدة "لماذا؟ هل نحن حمقى لهذه الدرجة لكي لا تضعنا في الصورة؟"

نظر لي خالد مقطباً دون أن يجيب، فيما وجدت بسمه تجذبي وهي تقول بخفوت "حمراء.. لا داعي للعصبية.."

بدا أن خالد لم يكن ينوي إجابتي بأي حال، فاستدرت وتركتهما وأنا حانقة، ووجدت نفسي أقترّب من أدهم

وأجلس قريباً وأنا أسأله بضيق "هل يعجبك ما يجري هنا؟"

سألني بدوره وهو يبذل ضماد ساقه "عن أي شيء تتحدثين؟"

قلت بحدة من جديد "عن تهميشنا للجوانب بواسطة أمجد وعمه.. ألسنت مستاء من ذلك؟"

هز أدهم كتفيه قائلاً "لا أريد إتعاب عقلي بمزيد من الخطط.. فليفعل ما يريدانه، المهم أن تؤدي النتيجة لخروجنا

من هذا الكويكب قطعة واحدة"

زفرت بحدة وأنا أصمت، فسألني أدهم وهو يبتسم بتعجب "أراك قد أصبحت متحاملة كثيراً على أمجد.. ما الذي

فعله ذلك الوغد ليحنقك بهذه الطريقة؟"

غمغمت بضيق "لم يفعل شيئاً.."

عاد يتساءل "إذن أهو أمر راجع لشيء حدث قبل قدومنا للكويكب؟"

نظرت له بدهشة، فقال مضيفاً "لست أحمقاً كما قد تعتقدون.. وقد لاحظت الكثير من الأمور التي أيدت فكرتي

هذه"

عدت أزفر بضيق، قبل أن أقول "بالفعل كنت أعرف أمجد في الماضي.. لقد استغلني للحصول على معلومات

عن المؤسسة حيث كنت أعمل، وقد تسبب هذا في توريطي بمشاكل معها ونفبي بالتبعية للكويكب.."

فعلق قائلاً "رغم أن هذا تفسير مقتضب جداً، لكنه كاف لأفهم سبب هذا العداء منك تجاهه.. لكن أنصحك بأن

تهدي، فلا ذنب لخالد فيما جرى بينكما سابقاً"

قلت متنهدة "أعلم ذلك.. لكني أكره تهميشي لأي سبب كان.."

قال مبتسماً "عليك التعود على ذلك.. فيبدو أن هذا أسلوب خالد في التعامل مع الآخرين"

زفرت بضيق ربما للمرة العاشرة هذه الساعة..

لم يكن النهار قد انتصف عندما دلف وليد المخبأ وهو يقول "أخبار سارة.. هناك فرقة كاملة من الحراس تجوب الجبال بحثاً عنا.. لكنها في بقعة بعيدة جداً عن هذا الموقع.."

نظرنا لبعضنا البعض بنظرات القلق، فعلق أدهم "يجب أن نغادر بأسرع ما نستطيع.."

تساءلت بسمة بذعر "إلى أين نذهب؟ سيعثرون علينا في كل حال"

ربت على كتفها لتهدئتها، بينما قال خالد موجهاً حديثه لوليد "هل بحثت عن مخبأ جديد لنا؟"

قال وليد "لا.. لقد ذهبت للقيام بأمر أهم.. سأذهب الآن للبحث عن موقع جديد، لكن أعتقد أن علينا تجنب هذه الجبال"

قطب خالد متسائلاً "إذن ما الذي كنت تفعله منذ الصباح؟"

أجاب وليد مبتسماً "سأخبرك فيما بعد.. سأذهب الآن، لكن كونوا على حذر.. لا ندرى متى سيصل الحراس لهذه البقعة"

وجدت نفسي أنهض وأنا أقول "سأذهب معك.."

وقف وليد متسائلاً "لم؟ انتظريني في المخبأ مع البقية فالبحث سيكون طويلاً ومتعباً"

قلت هازة رأسي "لا يهمني.. لا أحب الجلوس بدون عمل، ولا أستطيع البقاء في المخبأ أكثر من هذا.."

اقترب أمجد مني وقال "لا تذهبي يا حمراء.. خروجك الآن فيه خطر كبير عليك.. وليد سيتدبر أمره، أما أنت...."

قلت بجفاء "لا يهمني رأيك.. سأتدبر أمري أنا أيضاً.."

وغادرت المخبأ والضيق يبدو ظاهراً على وجه أمجد لقولي الجارح.. بينما تساءل وليد بدهشة "ما بالها؟ تبدو غاضبة منك.."

زفر أمجد معلقاً "لقد استعادت ذكرياتها"

عاد وليد يتساءل "وما شأن هذا بك؟"

أجاب أمجد بضيق "لقد كنا نعرف بعضنا البعض قبل قدومنا للكويكب.. وهي تكررني لما كان بيننا في السابق.."

فقال وليد بتعجب "يبدو أن ما بينكما كان شنيعاً.. فكراهيتها لك تبدو بلا حدود"

غمغم أمجد بضيق "لست أفهم كيف استعادت ذكرياتها.. أهو بسبب دواء استعادة الذاكرة الذي أحضرته أنت؟ لكنها لم..."

قاطعته وليد بدهشة "من قال إن الدواء الذي أحضرته لاستعادة الذاكرة؟"

نظر له أمجد بتعجب وقال "أنت لم تتفِ الأمر عندما سألتك عنه"

قال وليد مقطباً "كنت مشغول الفكر فالشكوك كانت تدور حولي وخشيت من رؤية الحراس لي معك.. هل تأكدت أن الجميع قد حصلوا على جرعتهم الخاصة؟ الأمر جد خطير ولا يمكن التساهل فيه.."

نظر له أمجد بدهشة، ثم حول بصره إلي وأنا أبتعد وفكرة تتبلور في رأسه مع كمية لا بأس بها من القلق..

بعد مسافة قصيرة قطعنها وحيدة، وجدت وليد يلحقني فيسألني وهو يسير إلى جوارتي "ألاحظ أنك غدوت أكثر كآبة من السابق.. ما الذي حدث؟ أهنالك ما يسبب لك الضيق؟"

قلت بعد لحظة صمت "بالطبع سيصيبني الضيق عندما أدرك أنني قد ظلمت بالقدوم هنا.. أن معاناتي طوال تلك الأيام الماضية كانت بحكم جائر أسقط علي"

قال بفضول "جيد أنك استعدت ذاكرتك.. وهل عرفت من أنت حقاً؟"

نظرت له مقطبة وقلت "لقد تحولت هذه لجلسة استجواب كما أرى..!"

ابتسم معلقاً "لست مجبرة على الإجابة.. لكن يهمني معرفة من تكونين.."

قلت بعد تردد بسيط "اسمي لمياء.. كنت أعمل في فرع المؤسسة في الشرق الأوسط، ولم يكن يتجاوز العمل ك مترجمة لإجادتي اللغة الفرنسية.. ثم، بسبب ظرف خاص، بدأت أشك في الممارسات التي تدور في المؤسسة بعيداً عن الواجهة البراقة التي تملكها.. حاولت تقصي بعض الحقائق، واستدراج بعض العاملين لمنحي فرصة الاطلاع على ملفات العاملين على الكويكب.. لكن يبدو أن بحثي كان مكشوفاً أكثر مما أبغي.. حاولوا تهديدي بشكل ضمنى عن الاستمرار في نبش قضايا لا تخصني، لكنني اندفعت لاتهامهم بالكذب وهددتهم بكشف التجاوزات التي تقوم بها المؤسسة إن لم يمنحوني ما أبحث عنه من معلومات.. لست أدري ما الثقة التي استولت علي لأفعل ذلك، وكان ذلك حمقاً كبيراً مني.."

بعد تهديدي فهم تركوني وشأني، مما استغربته.. لكن تلقيت بعد فترة دعوة لمقابلة أحد المدراء المهمين في المؤسسة، وذلك كما ادعوا رغبة منهم في نقلي لموقع أهم وأكثر حساسية.. فقبلت الدعوة ظناً مني أنهم يريدون إسكاتي ببعض العلاوات، والتقيت بذلك الرجل في منزله، كما ألح علي.. وبعد أن التقيت به في مكتب منزله، واحتسيت العصير الذي قدم لي، غفوت في مجلسي دون سابق إنذار.."

رفع وليد حاجبيه معلقاً "لقد قاموا بتخديرك.. لكن لماذا؟"

تنهدت وأنا أستعيد الذكرى البشعة التي تلته، وقلت "استيقظت من غفوتي على هدوء تام.. كنت في ذات المكتب، والذي كان مظلماً للغرابة.. ورأيت المدير الذي كنت قد قابلته ملقى على الأرض جثة هامدة والدماء تنزف من رأسه.. وفي يدي، مسدس صغير أقبض عليه بأصابعي بشدة.."

بعد أن ذعرت وحاولت استيعاب الأمر، مسحت بصماتي من المسدس، وخرجت عبر الشرفة والحديقة محاولة الهرب.. لكن تلقيت عضة من كلب حراسة، وقبض علي حارس من الحراس الخاصين بقصر المدير.. ثم تم

تسليمي للشرطة بعد اكتشاف الجريمة.. وكما توقعت، لم تكن بصماتي على المسدس فقط، بل تغمر المكان كله.. كما أنني آخر من جاء لمقابلة المدير قبل موته.. ومهما حاولت إثبات براءتي باءت جهودي بالفشل الذريع.. ظل وليد يستمع لي بصمت واهتمام، فقلت "تم إيداعي السجن، وهناك أجبرت على الاعتراف بارتكابي الجريمة.. وبعد أن حكم عليّ بالإعدام، تم تسليمي لسجن المؤسسة التي قامت بإجباري بدورها بالتوقيع على العديد العديد من الأوراق.. ما فهمته منها أنها تبيح للمؤسسة استعبادي مدى الحياة مقابل الإعفاء عني والاكتفاء بسجني على هذا الكويكب.. وهكذا جنّت هنا.."

قال وليد مفكراً "يبدو أنهم كانوا يرغبون بالتخلص من ذلك المدير لسبب ما، فوجدوها فرصة للتخلص منك في الآن ذاته.."

قلت معلقة "هذا يدلّ على أن الأمر يتجاوز المؤسسة ليشمل جهات أخرى مستفيدة منها ولاشك.. لقد رفضوا بإصرار غريب إجراء تحليل لدمي عندما طالبت بذلك ليجدوا المادة المخدرة فيه.. هذا دليل أن عناصر من الشرطة قد تم سراؤها أيضاً.."

فعلق وليد قائلاً "هذا مؤكد.. لكن كيف سنثبت ذلك؟"

قلت متتهدة "لا يهمني إثبات أي شيء.. أريد مغادرة هذا الكويكب بأي شكل من الأشكال"

فقال وليد بحزم "سنفعل ذلك بإذن الله.. حتى لو طال الأمر"

لم يعجبني الجزء الأخير من جملته.. حتى متى سيطول بنا البقاء على هذا الكويكب البيغيز؟..

تقدم أمجد من أدهم قائلاً "كيف حالك الآن يا أدهم؟ هل أصبحت سائق أفضل حالاً؟"

قال أدهم "لا يمكنني قول ذلك.. لكنني لن أموت من جرح كهذا.. فلا تقلق.."

ابتسم أمجد لقوله وعلق "كن بخير يا رجل.. أمامنا أوقات عصيبة تحتاج لطاقتنا كاملة.. وأرجو أن تمضي دون

خسائر كبيرة"

نظر له أدهم بصمت للحظات، ثم قال مقطباً "رغم أنني رأيتك منذ البداية مزعجاً باهتمامك بالآخرين وطيبتك اللا

محدودة، إلا أنني لم أعرف أنك كنت وغداً في السابق"

نظر له أمجد بدهشة وهو لا يعلم إن كان أدهم يسخر أم هو جاد في قوله، لكن أدهم أضاف بجدية "لقد أخبرتني

حمراء عما كان بينكما في السابق بشكل مبهم.. والمفترض أن ألكمك على وجهك على هذا.. لكن يبدو لي أنك

لست كما كنت قبل قدومك للكويكب"

لم يعلق أمجد بكلمة وإن تبدى الضيق على وجهه، فأضاف أدهم "لكنني أحذرك.. إياك أن تؤذيها من جديد.. إن لم

تكن تحمل اهتماماً حقيقياً بها، فابتعد عنها.. هذا أفضل لك ولي كي لا أحمل ذنب ما قد أفعله بك طوال عمري”
ابتسم أمجد ابتسامة باهتة وهو يقول “لا تقلق.. لن أؤذيها أبداً.. أتمنى لو أنني لم أفعل ما فعلته في السابق، لكن
فات الأوان على هذا”

ظل أدهم ينظر لوجهه ليتأكد من صدقه، فأضاف أمجد بجدية “اهتم ببسمة وعمي في غيابي.. أعلم أنك متعب،
لكن لا يوجد غيرك لحمايتهما إن تعرضتم لمكروه في غيابي وغياب وليد”
سأله أدهم “إلى أين أنت ذاهب؟”

أجاب أمجد “أرسلني عمي لمراقبة السفينة التي ستصل اليوم.. إنه يريد التأكد مما ستحضره في قلبها، ويبدو أن
وليد قد أخبره بقدم حمولة مهمة في وقت قريب”
تساءل أدهم باستغراب “أي حمولة هذه؟ وما أهميتها؟”
هز أمجد كتفيه قائلاً “لا أعلم حقاً.. عمي لا يفصح عما لا يرغب في معرفتنا له مهما حاولت.. لذلك لا أريد
مجادلته كثيراً”

غمغم أدهم “أنت تطيعه طاعة عمياء”
ابتسم أمجد معلقاً “لأنني أثق به.. هذا كل ما في الأمر..”
لم ينبس أدهم بأي حرف فيما وقف أمجد وغادر المخبأ تاركاً أدهم وبسمة وخالد فيه كل منشغل في جانب بعيد
عن الآخرين، والصمت التام يسودهم..

أبعدت ورقة شجر ضخمة من طريقي وأنا أتساءل “لماذا نبحت في الغابة؟ رغم أنها مترامية الأطراف، لكن
أشك أن نعثر فيها على مخبأ صالح لنا جميعاً”
قال وليد وهو يتقدمني بعدة خطوات ويتلفت حوله “هناك موقع أذكره في هذه الغابة.. لكني لا أعلم أين هو
بالتحديد..”

والتفت إليّ مضيفاً “ومن الأفضل مغادرة الجبال بعد انكشاف أمركم في المرة السابقة.. أليس كذلك؟”
هزرت رأسي موافقة، وتلفت حولي بتعجب من هذا الموقع الذي ذكره وليد.. كيف يمكن أن نجد مخبأ كهذا هنا؟..
تنهدت وأنا ألحق بوليد عندما وجدته يقف فجأة، ثم رمى بسلاحه لي قائلاً “هناك وسيلة أسرع لمعرفة ما حولنا”
أمسكت السلاح بدهشة، فوجدته يسرع لشجرة كبيرة وعلى شيء من الطول قربنا ويشرع بارتقائها بسرعة..
تلفت حولي منصتة للصمت الذي لم يكسر شيء عدا عن حفيف بعض الأوراق بفعل الرياح، ثم عدت ببصري
للأعلى لأجد وليد قد وصل لأعلى فرع في الشجرة بسهولة ووقف عليه يتأمل الغابة الشاسعة لمدة طالت.. ولم

تمض مدة طويلة حتى رأيت يهبط من الشجرة حتى فرعها الأخير ويقفز منه للأرض، ثم تقدم مني واستعاد سلاحه قائلاً “يبدو أنني أخطأت الموقع.. لم أر له أثراً من بين بحر الأشجار هذا.. يجب أن نبحت في موقع آخر من هذه الغابة”

سألته وأنا أتبعه “ما هذا الموقع الذي تتحدث عنه؟”

أجابني وهو يسرع في خطوه “هناك هضبة كبيرة في موقع ما من هذه الغابة.. لا بد أن تحوي مثل هذه الهضبة بعض المخابيء..”

وزفر وهو يضيف “رغم أن هذا اليوم بدأ بداية موفقة، لكن يبدو أن الحظ سيخونني هذه المرة”

ضيق عيني وأنا أتساءل “أين اختفيت هذا الصباح وما الذي فعلته في غيابك؟”

أجابني “ستعلمون قريباً.. فقط اصبروا..”

قلت بصرامة “أنت أثرت شكوك الجميع بتصرفاتك هذه.. من الأفضل أن توضح أهدافك قبل أن تتزايد الشكوك حولك”

التفت إليّ متسائلاً “هل بدأت تشكين بي أنت أيضاً؟”

قلت مقطبة “لو بدا منك تصرف يثير شكّي وأنت تمتنع عن الاستجابة لأسئلتني.. فنعم، يمكنني أن أشك بك”

تنهد وليد قبل أن يقول “لا تقلقي.. أنا الآن معكم في كل الأحوال.. ما سيوقع بكم سيوقع بي أيضاً..”

قلت معلقة “ومع ذلك، نريد أن نعرف ما تنوي فعله حقاً”

صمت للحظات، ثم نظر لي قائلاً “لقد سعيت للحديث مع أحد الحراس ممن كنت أعرفهم وأثق بهم ثقة كبيرة من قبل”

نظرت له بصدمة قبل أن أهتف “أأنت مجنون؟ ماذا لو أوقع بك وبنا بالتبعية؟ كيف تتصرف تصرفاً أحمق كهذا بمفردك؟”

قال وليد “لهذا لم أرد إخباركم بالأمر فوراً.. ولقد اتخذت احتياطاتي.. لقد كنت أعرف أن ذلك الحارس كان يشعر بضيق من معاملة المؤسسة الغير عادلة للسجناء ويشك بنواياها الحقيقية بالنسبة لهم.. لكن لم يكن بيده حيلة لفعل شيء.. لذلك توجهت له وأخبرته بكل ما أعرفه عن المؤسسة، وهو قد أيدني بما أفعله وأبدى رغبته بمساعدتنا..”

نظرت له بدهشة تامة، ثم قطبت قائلة “ألا يمكن أن يكون في الأمر خدعة؟ ربما أراد تتبعك لمعرفة موقعنا”

هز وليد رأسه نفيًا وقال “أنا أثق به تماماً.. ثم إنني، بعد مغادرتي، تأكدت أنني غير ملاحق بأي شكل كان..”

وأضاف مبتسماً “ويبدو أنه ليس الوحيد الذي يشعر بهذا.. هناك عدة حراس آخرين قد ينضمون إلينا.. وهو

سيسعى لاستمالتهم وجمعني بهم الليلة”

فتساءلت بدهشة “لماذا يفعلون ذلك؟”

أجاب وليد "أسباب كثيرة.. أغلب الحراس لا يوافقون على المعاملة التي يعاملها الإداريون للسجناء.. ولما عرف ذلك الحارس أن الكثير منكم قد ألبس تهمة ظالمة أبدى عدم رغبته في المشاركة في هذا الظلم.. كما أن معاملة القائد ومساعديه لهم قد سببت لهم الضيق، إذ إن القائد يشعرهم ألا أهمية لحياتهم ووجودهم بالنسبة للمؤسسة.. رغم أنهم ليسوا سجناء، بل موظفين عاديين تعاقبت معهم المؤسسة، إلا أن معاملتها لهم لا تختلف كثيراً عن معاملة السجناء.."

ظللت أفكر في هذه الصدفة العجيبة، ثم قلت له "يحسن ألا تقودهم إلينا في الوقت الحالي وتوَّخ الحذر.. قد تكون هذه خدعة منهم للإيقاع بنا رغم كل شيء"

هز وليد رأسه موافقاً وقال "طبعاً لم يرغب هذا عن ذهني.. لن أندفع لفعل قبل أن أتأكد منه تماماً" وعاد يستمر في سيره وأنا أتبعه بشكل حثيث.. هل حقاً سينضم أولئك الحراس إلينا؟.. هل ستتقلب الأمور لصالحنا أخيراً؟ أم أنها فقاعة أمل سرعان ما تنفجر كما حدث كثيراً من قبل؟..

الفصل الثالث والعشرون

[اختناق]

لم يكن النهار قد انقضى عندما عدت للمخبأ بقدمين منهكتين.. كنت قد تركت ووليد يواصل بحثه عن مخبأ جديد لنا وعدت بعد أن أنهكت تماماً.. لحسن الحظ لم يكن بحث الحراس قد بلغ هذا الجزء من الجبال بعد، لكن لا نعم متى سيحدث هذا.. لذلك التزمت جانب الحذر أثناء عودتي حتى دلفت المخبأ وأنا أتهد بعد ذلك السير الطويل.. لاحظت على الفور اختفاء أمجد، لكنني لم أعلق على ذلك وتوجهت لجانب المكان لأريح جسدي قليلاً.. لكنني لم أخط خطوتين حتى سمعت خالد يقول لي “جيد.. أتيت في الوقت الملائم.. اذهبي واستدعي أمجد بسرعة” تساءلت مقطبة “وأين هو الآن؟”

أجابني خالد “قرب المباني الإدارية.. أرسلته ليراقب الوضع لي قليلاً، لكنه تأخر ولم يعد.. اذهبي إليه ولا تتأخري أنت أيضاً”

قلت بشيء من الاستنكار “ولماذا يجب أن أذهب أنا؟”

قال خالد ببساطة “لأن بسمه لن تذهب وحيدة بأي حال.. ووليد ليس هنا أيضاً..”

كدت أقول له لم لا تذهب أنت، لكنه قول خالد من أي تهذيب.. بينما قال أدهم وهو ينهض بعد أن رأى ملامح التعب مرتسمة على وجهي “سأذهب أنا عوضاً عنها..”

لم تكن ساقه قد تحسنت بعد، فقلت بسرعة “لا تفعل.. ستسوء حالتك أكثر مع السير عليها.. سأذهب أنا وأعود سريعاً”

لم يعلق خالد بكلمة وهو يعود لأوراقه.. بودي أن أعرف كيف يعمل عقل هذا الرجل؟.. إن تصرفاته وانفعالاته غير طبيعية بالمرّة.. ولما سألته عن موقع أمجد بالضبط، فإنه قد شرح لي الموقع بكلمات موجزة قبل أن ينشغل عني من جديد..

اتخذت طريقي نازلة من الجبال وعبر الغابة إلى الموقع الذي حدده لي خالد.. كنت بضيق شديد من اضطراري مخاطبة أمجد بأي شكل من الأشكال، وهو كان يدرك ذلك فقد أصبح يتجنبني ما استطاع في الأونة الأخيرة..

تقدم وليد بخفة من ذلك الموقع الذي حدده مسبقاً، فتأمل الحارسين الواقفين وسط الأشجار وحيدتين يتلفتان حولهما.. نظر وليد حوله بحذر، ثم أسرع يتسلق الشجرة القريبة بهدوء دون أن يصدر أي صوت.. ارتفع عالياً

ليتمكن من إلقاء نظرة على المنطقة حولهما..

نظر بحذر لما حوله وتفحص المنطقة جيداً ليتأكد من عدم وجود أي كمين قريب قد جهز له.. ولما تأكد من خلو المكان لأمتار عديدة من أي بشر، عاد للأرض بهدوء، وأمسك سلاحه بتأهب، قبل أن يشق طريقه نحو الحارسين.. ولم يكادا يريانه حتى رفع سلاحه في وجهيهما وهو يقول بصرامة بلغة نايبو “اخلعا أجهزة اتصالاتكما وارمياها إليّ مع أسلحتكما..”

نظرا له بدهشة وأحدهما يقول “ما الأمر يا وليد؟ ألم نتفق على الالتقاء هنا اليوم؟”

قال وليد “افعلا ما أطلبه منكما بصمت..”

نظرا لبعضهما بدهشة، ثم خلعا جهاز الاتصال ورمياه مع السلاح عند قدمي وليد.. فانحنى وليد ليحمل الجهازين دون أن يغفل عن الحارسين، ثم تأكد من أنهما مغلقين ولا يرسلان أي إشارة للإدارة، فيم قال الحارس “ما بالك؟ ألا زلت تشك بنا؟”

أجاب وليد وهو يضع الجهازين والأسلحة جانباً “أنتما تعلمان ما ستكون عقوبتي لو تم القبض عليّ بعد خيانتني.. وأنا لا أريد أن أفقد حياتي بسبب حسن الظن”

بعد هذا اقترب منهما وهو يخفض سلاحه ومد يده لأولهما قائلاً “اعذرنى على هذا يا مارك.. هذه مسألة حياة أو موت”

صافحه مارك وهو يقول “لو لم أكن أعرفك حقاً لما غفرت لك شكك هذا”

نظر وليد للحارس الثاني بتساؤل، فأسرع مارك يقول “هذا إيريك.. لقد تحمس كثيراً لمساعدتنا.. وهو شاب جيد عرفته منذ حضوره للكويكب قبل شهر”

فصافح وليد إيريك قائلاً “شكراً لك لانضمامك إلينا.. رغم مخاطر هذا عليك”

ابتسم إيريك قائلاً “لا داعي لشكري يا رجل.. لا أريد أن أحاكم لمعاونتي في الإجرام الذي يدور في الكويكب جهلاً مني”

قال وليد وهو يرفع حاجبيه “أنت واثق أننا سننجح في أن نسوق المؤسسة للمحاكمة؟ يعجبني هذا..”

قال إيريك بحماس “طبعاً واثق من هذا.. يكفي أنكم على حق”

كان هذا قولاً مبالغاً فيه لم يعلق عليه وليد وهو يلتفت لمارك متسائلاً “ما الذي فعلته؟”

قال مارك باهتمام “لقد تحدثت مع ثلاثة آخرين بشكل عام دون أن أكتشف تعاوني معك.. وهم قد أوضحوا صراحة عدم رغبتهم في مشاركة المؤسسة ظلمها لكم.. بعضهم يفكر جدياً في العودة للأرض والاعتذار عن هذا العمل.. لكنني أفتعتهم بالتريث وأن بقاءهم هنا أفضل من الرحيل الآن..”

قال وليد “هذا جيد.. لكن لا تحضرهم لكي لا نكشف أنفسنا أكثر من اللازم.. ستكون أنت حلقة الوصل بيني وبينهم..”

اندفع إيريك يقول باهتمام “من هم أولئك الحراس؟ ظننت أنني الوحيد الذي معك”
نظر له مارك مجيباً “وجود أشخاص أكثر معنا أفضل بالتأكيد.. فنحن نواجه مؤسسة ضخمة بأعداد كبيرة من
الحراس.. من حسن حظنا أن أغلبهم يتمركزون في المناجم وقلة فقط هم المتواجدون في المباني الرئيسية”
رغم أن إيريك لاحظ أن مارك يتفادى الإجابة على سؤاله، إلا أنه لم يعلق ووليد يضيف “وماذا عن الحمولة
المفترض وصولها قريباً؟ هل من أخبار عنها؟”

قال مارك هازأ رأسه “لم تصل بعد.. عندما يحدث ذلك، سأبلغك به بالتأكيد”
هز ووليد رأسه موافقاً، ثم قال لإيريك “يمكنك استعادة جهازي الاتصال والأسلحة.. لم يعد هناك داع لتجريدكما
منها”

اتجه إيريك لموقع الأجهزة خلف ووليد، فانحنى ووليد هامساً لمارك فور ابتعاد “أنتق بهذا الفتى حقاً؟ تصرفاته لا
توحي لي بالثقة”

قال مارك بصوت خفيض “لا تقلق.. لم أحضره معي إلا بعد أن تأكدت من أمره..”
فالتفت ووليد ليجد إيريك قادماً نحوهما ليناول مارك سلاحه وجهاز الاتصال، عندها قال ووليد “سأذهب الآن..
وسنلتقي غداً في نفس الوقت ونفس المكان..”

هزا رأسيهما موافقين، فاستدار ووليد مبتعداً.. لكن إيريك أوقفه بنداؤه، ولما التفت إليه ووليد باستفهام اقترب منه
إيريك قائلاً “أنا أعلم أنني قد لا أكون محل ثقتك.. لكن أرجو ألا تتردد في طلب أي شيء مني.. وسأحاول أن
أثبت لك أنني أهل للثقة”

ابتسم ووليد قائلاً “لا بأس.. ابذل جهدك لهذا”

ربت إيريك على كتف ووليد وهو يبتسم بدوره، فاستدار ووليد وغادر بسرعة تاركاً الرجلين خلفه.. فقال مارك وهو
يستدير بدوره “لنعد قبل أن نثير شكوكاً باختفائنا”

لاحظ أن إيريك لم يتبعه، فالتفت إليه ليجده يحدق في الموقع الذي اختفى ووليد عنده، قبل أن يستدير لمارك ويقول
بابتسامة “عد أنت.. أنا لذي مناوبة في موقع قريب من هنا.. ويجب أن أنطلق فوراً لئلا أعاقب على تأخري”
لم يعلق مارك بكلمة وهو يبتعد، بينما عاد إيريك ببصره للطريق الذي اتخذه ووليد وهو يبتسم ابتسامة صغيرة،
قبل أن يشدّ عزمه وينطلق بسرعة وبأقل صوت ممكن..

وصلت لموقع المراقبة الذي حدده لي خالد بعد مدة، وهو في جانب من المباني الإدارية محمي بصخور على
شيء من الضخامة، ويمكن الوصول إليه عبر طريق منخفض يمتد من الغابة شاقاً المساحات الصخرية، وهو

بانخفاضه يخفيها عن أجهزة المراقبة على السور بنجاح تام.. تعجبت من أمر هذا الطريق المنخفض الذي لم نلاحظه من قبل وأنا أسير عبره خافضة رأسي ما استطعت.. وبعد مسافة طويلة، رأيت أمجد يجلس خلف إحدى الصخور ويراقب بالمنظار الذي منحنا إياه وليد سابقاً، فقلت له عندما اقتربت منه "لقد أرسلني خالد لاستدعائك.. إنه يريدك الآن دون تأخير"

نظر لي أمجد لوهلة بصمت، ثم نهض ليلحق بي.. فاستدرت على الفور لأعود للمخبأ عبر الطريق المنخفض عندما استوقفني قائلاً "حمراء.."

نظرت له بصبر نافذ، فتردد قليلاً قبل أن يقترب مني قائلاً "حتى متى ستعامليني بهذه الطريقة؟ أدرك أنك تكرهيني الآن، لكن لم لا تمنحني فرصة لأثبت لك حسن نيتي؟"

قلت بسخرية "أي حسن نية تقصد؟ أشك بهذا حقاً.."

قطب بضيق ثم أمسك يدي قائلاً "لم هذا التجريح؟ كم مرة يجب أن أعترف لك بحبي حتى تصدقيني؟"

قلت بحدة وأنا أجدب يدي "لا أصدقك.. أنت كاذب.. واستعادتك لذكرياتك يؤكد أنك عدت للشخصية التي كنتها سابقاً.. ذلك الشخص البغيض الذي وصفني بالضعف والأنانية لأنني لم أنقذ له بالشكل الكافي، ورماني دون أدنى قدر من الندم"

فقال مقطباً "لماذا تصرين على تكذبي مهما قلت لك؟ ألا يمكنك الاقتناع أنني تغيرت؟"

قلت بسخرية "هل تريد إقناعي أن فقدان الذاكرة يمكن أن يغير شخصيتك؟"

قال بحدة "هل تنكرين أنك تغيرت بعد أن فقدت ذاكرتك؟ لا أرى أمامي أي صفات مما كانت فيك قبل فقدانك ذاكرتك.. ألا يقتنعك هذا؟"

قطبتُ بغيظ لأنه كان محقاً، وساءني ذلك.. بالفعل أنا لا أشبه لمياء الضعيفة التي كانت تجري وراء حبها لرجل وسيم متغاضية عن سوء معاملته لها حتى لو مرَّغ كرامتها في التراب.. أنا الآن شخص مختلف تماماً، لكن هل هذا يعني أنه أيضاً كذلك؟..

قلت بجفاء "من يدريني أنك لا تستغلي الآن كما حدث في المرة الأولى؟ سيظلّ الاتهام محلقاً فوق رأسك ما حييت.."

وابتعدت لئلا يجد الفرصة للرد، كنت أشعر بانفعال جارف وكراهية عارمة لذلك الشخص الذي كان الأحب لقلبي.. لم تتغير صفاتي فقط، بل تحول حبي له لبغض شديد وكره عارم..

شعرت بضيق في صدري ولده انفعالي الشديد، بالإضافة لأنني كنت أشعر بنفسي يضيق منذ الصباح.. أهو راجع للتعب الذي أمر به أم لضعف التغذية ونحن لم نحصل على طعام محترم منذ فترة طويلة؟..

توقفت عن السير أحاول التقاط أنفاسي.. مرت لحظات حاولت فيها دفع قدمي للسير مجدداً دون فائدة.. يبدو أن لهما إرادة خاصة وقد قررت تلك الإرادة أن تعصيني بطريقة فجأة..

بعد دقيقة كان أمجد قد اقترب مني قائلاً بقلق ظاهر على وجهه وقد تناسى شجارنا "ما الأمر يا حمراء؟ هل هناك ما يؤلمك؟.."

حاولت أن أجيبه، لكن تطلب هذا مجهوداً لم أعد بقادرة عليه وأنا أشعر بالاختناق لو توقفت ولو لثوانٍ عن عبّ الهواء عباً.. ظل أمجد ينظر لي بقلق، فيما حاولت أنا أن أخطو بضع خطوات، لكن ساقِيّ غدتا لينتان ولم تحملاني لأكثر من خطوتين قبل أن أتعثر.. ومع سقوطي، أدركت حقيقة مروعة..

الهواء يتناقص.. رنتاي لا تحصلان على ما يكفيهما من أكسجين.. ولست أدري سبباً لهذا.. بدأ لهائي يتحول لشهيق وعينا يتحملان ذعراً في رسالة صامته لأمجد الذي وقف بغير فهم.. ثم أدرك الأمر فجأة وهو يراني أكاد أمزق رقبتي بأصابعي بعنف وكأني بفعلتي هذا قد أجد حلاً لحلقي الذي بدا لي شبه مغلق.. اتسعت عينا أمجد بذعر وهو يصيح "يا إلهي.."

ووجدته يحملني ويركض بأسرع ما يستطيع عائداً بي نحو السور القريب.. رغم الألم والذعر، غمرني خوف جديد.. إلى أين أنت عائد يا أمجد؟ إلى أين ستأخذني أيها الأحمق؟.. لكن أسئلتني هذه لم تجد طريقها عبر حلقي المغلق تقريباً، بل لم أعد بقادرة على رؤية الطريق الذي نسلكه وغمامة مظلمة تغطي عينا ويوعيني رغم أنني لم أفقد الوعي بعد..

بعد لحظات معدودة، سمعت أمجد يصيح بصوت بدا لي بعيداً جداً ومتهاوياً "أرجوكم.. أنقذوها.. إنها تموت..". سمعت صياحاً غاضباً لعدد من الرجال يقترب منا، وبدا أن أمجد تعرض لضربة دفعته ليسقطني أرضاً.. حاولت الوقوف من جديد والتشبث بأي شيء وأنا شبه عمياء لا أرى إلا ظلالاً خافتة.. ولا أسمع الكثير من بين شهيقي.. سمعت أمجد يعود ليصيح بصوت كالصدى "أرجوكم.. أسر عوا بمعالجتها.. ستموت لو لم تتلقى الجرعة حالاً.. أرجوكم لا تدعوها تموت.."

تهاوى وعيي أكثر فأكثر، وشعرت حقاً أنني على شفير هاوية مظلمة.. ومهما حاولت أن أحتفظ بوعيي، مهما حاولت أن أملاً رنتي بالهواء النقي.. باءت محاولاتي بالفشل وأنا أسقط فاقدة للوعي..

في تلك الأثناء، كان الحراس يكتفون أمجد وهو يقاومهم ويصيح "أرجوكم.. أنقذوها الآن.."

تلقي ضربة على رأسه وأحد الحراس يقول بحدة "كف عن الصراخ والمقاومة.."

رأى حارسين آخرين يحملاني بعيداً وأنا كجثة هامدة.. بينما تم تقييده هو بقيد حديدي، واقتيد لجهة أخرى دون أن يبدي كثير مقاومة.. وبعد أن اختفيت مع الحراس عن ناظره، أطرق وهو يسير مثقل الخطى حيث اقتاده الحراس إلى أحد المباني.. حيث لن يكون هذا أول متاعبه..

عندما اقترب وليد من المخبأ بمسافة قصيرة فوجيء برؤية أدهم يجلس خارج الموقع وصخرة تخفيه فلم يكذب يراه حتى اقترب منه.. فتساءل وهو يخطو نحوه "ما الذي تفعله خارجاً؟"

قال أدهم "أردت مراقبة الموقع قليلاً.. سيكون من السيء أن يداهنا الحراس ونحن غافلون.."
ثم تساءل "هل وفقت في العثور على مخبأ جديد؟"

أجاب وليد "أجل.. لقد استغرق هذا مني وقتاً لكنني نجحت بالعثور على واحد وسط غابة متطرفة.. سنكون بمأمن هناك بشكل مؤقت...."

رأى أدهم يشير له ليصمت، ثم نهض من موقعه وسار بخفة رغم ضخامته عائداً من الطريق الذي أتى منه وليد.. ظل وليد يراقبه بتعجب ثم رآه يندفع خلف إحدى الصخور الكبيرة التي تقف في المكان، فسمع وليد صيحة مذعورة لم تكن تنتمي لأدهم.. عندها أسرع خلفه بقلق ونظر خلف الصخرة ليجد أدهم يقبض على أحد الحراس فيلوي ذراعيه خلف ظهره والحارس يقاوم بشدة.. ولما رأى وجهه هتف بذهول "إيريك؟ ما الذي تفعله هنا؟" قاوم إيريك قبضة أدهم وهو يقول "لا شيء.. كنت أريد أن أرى إن كنت تحتاج مني أمراً.. فأنا مستعد لفعل أي شيء لكم.."

قال وليد بحدة "أتظنني أحمقاً؟ هل وشيت بنا لدى الإدارة؟"

علت شفتي إيريك ابتسامة وهو يعلق "بل أنت أحمق بالفعل.."

قطب وليد بغيظ شديد، ثم تذكر أمراً جعله يمد يده ويفتش ملابسه، عندها عثر على ذلك الجهاز الصغير جداً والذي ألصق على كتفه من الخلف.. تزايد حنق وليد وهو يرمي الجهاز ويدوسه ليتحطم تماماً وقال "أنت وضعت جهاز تعقب في ملابسي؟ كان حمقاً مني بالفعل الوثوق بك"
تساءل أدهم "ما الذي سنفعله الآن؟"

اقترب وليد من إيريك ونزع عنه جهاز الاتصال وقام بتعطيمه تماماً قبل أن يقول "يجب أن نغادر هذا الموقع بأسرع ما نستطيع.. راقبه جيداً حتى أستدعي البقية"

تناول أدهم سلاح الحارس ووجهه إلى إيريك قائلاً "إياك والإتيان بأي حركة.."

وفي المخبأ، كانت بسمة تجلس متوترة في جانب المكان بعد خروج أدهم بصمت ليتركها مع خالد.. نظرت لخالد الذي انشغل بخطه في جانب بعيد عنها وقلقها يتزايد.. لم تجرؤ على سؤال أدهم عن سبب خروجه، وهي قلقة من خطر هجوم الحراس عليهما في غيابه.. ما الذي سيفعله خالد وهو كما يبدو لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟..

فوجئاً في تلك اللحظة بوليد يندفع للمخبأ قائلاً بعجلة "خالد.. يجب أن نغادر هذا الموقع حالاً"

وتلفت حوله فلم يرَ إلا بسمة وخالد الذي قال له وهو يقف "ما الذي جرى؟"

لم يجب وليد سؤاله وهو يقول بقلق "أين أمجد وحمراء؟"

قال خالد مقطباً "ذهبا وسعودان قريباً.. أخبرني ما الذي جرى لنغادر الآن" زفر وليد وقال بضيق "هذه كارثة.. فلو عادا فسيقبض عليهما الحراس بالتأكيد" وواجه عيني خالد المتسائلتين قائلاً "لقد نجح أحد الحراس في معرفة موقعنا، ولقد قبضت عليه قبل وصولي للمخبأ بقليل.. لا بد أن المؤسسة كلها تعلم بموقعنا هذا وهي سترسل فرقة كاملة من الحراس للقبض علينا" وفتت بسمه بذعر وهي تنظر لهما، بينما قال خالد "كيف؟ هل لحق بك؟" قال وليد "سأخبرك بالأمر كله فيما بعد.. الآن لنرحل قبل قدومهم.."

أسرع خالد خلفه مع بسمه التي ضمت قبضتيها عند صدرها وهي تتساءل بصوت مرتجف "ماذا عن حمراء وأمجد؟"

قال وليد مقطباً "عليّ الذهاب لتحذيرهما.. لكن ليس قبل أن آخذكم بعيداً عن هذا الموقع.."

بعد مسافة قصيرة من المخبأ، رأوا أدهم الذي كان يقف موجهاً سلاحه لإيريك الذي كان يجلس أرضاً رافعاً ذراعيه فوق رأسه.. ولما اقتربوا منه قال إيريك "ما الذي ستفعلونه بي؟"

قال وليد مقطباً "أنت تستحق الموت لخيانتك هذه.. لكني لست قاسياً كأصحاب المؤسسة الذين تدين لهم بالولاء"

قال إيريك بسخرية "ألا ترى أن لقب خائن يليق بك أنت أكثر؟"

لم يعلق وليد وهو يقول لأدهم "هل يمكنك السير معنا بسرعة؟ يجب أن نقطع أطول مسافة ممكنة قبل قدومهم، فهم يدركون الآن أننا سنحاول الهرب"

قال أدهم "لا تقلق.. لكن ماذا عن هذا الحارس؟ هل سنأخذه معنا؟"

قال وليد "هذا هو الحل الوحيد.. سأؤكد أولاً أنه لا يملك أي جهاز تتبع مخفي في ملابسه، ثم نغادر بأسرع ما نستطيع"

وقام بتفتيش إيريك تفتيشاً دقيقاً، بينما غمغم أدهم "نحن لا نملك أي حبل لنقيده به.. ماذا لو باغتتنا بالهرب؟"

قال وليد وهو يستخرج قيده من جيب إيريك "هذا حل أفضل"

وقيد يديه خلف ظهره وإيريك يقول بحنق "أنت تخسر بفعلك هذا.. ما الذي تستفيده حقاً من معاونة هؤلاء؟"

لم يجبه وليد وهو يجذبه ليقف، ودفعه أمامه ليتخذ طريقه نازلاً من الجبل نحو الغابة والبقية خلفه.. فعادت بسمه تقول بالباح "ماذا عن حمراء؟"

قطب وليد وهو يجيبها "لنأمل فقط ألا يعودا بعد رحيلنا.. أين ذهبا بالضبط؟"

قال خالد "لقد أرسلت أمجد لمراقبة المباني الإدارية.. وحمراء تبعته قبل وقت قصير"

قال وليد بدهشة "لماذا؟ وفي هذا الوقت الحرج؟ قد يقبضون عليهما مع كل الاستنفار الذي يحكم الظروف الآن"

لم يوضح خالد السبب بل التزم الصمت، فقطب وليد وهو يشعر بحنق امتزج بتوتره الشديد.. بينما ازداد زعر بسمه الدائم وهي تتخيل ما قد يحدث لو عاد أمجد وحمراء لهذا الموقع الذي من المفترض أن يكون آمناً.. وما

المفاجأة الصغيرة التي قد يجدها عندما يعودان..

تلك الليلة، يبدو أن أمجد قد تلقى الكثير من اللكمات والركلات.. لقد تلقى تعذيباً مناسباً للجرم الذي ارتكبهنا، وبهربه هو مرتين.. وللحرج الذي وقع فيه الإداريون في الكويكب أمام رؤسائهم على الأرض.. حاولوا معرفة موقع مخابئنا، وأين اختفى خالد.. تحايلوا لمعرفة ما اكتشفه من معلومات عن المؤسسة وممارساتها، أو عن الطريقة التي هرب بها من قبضتهم في المرة الأولى.. لكن كل ما حصلوا عليه هو تساؤلات أمجد عني.. كان يكرر بلا انقطاع "هل هي بخير؟ هل أعطيتموها الجرعة قبل أن تموت؟ هل ستكون بخير؟" تلقى لكمة جديدة على أنفه وأحد الحراس يقول بغضب "يحسن بك أن تفكر في وضعك بدل القلق على الآخرين.. أنت في وضع سيء، ما حصل لك حتى الآن هو أيسر الأمر.."

قال أمجد بصوت قلق "فقط طمئنوني أنها بخير.. أنها لا تزال حية.. أرجوكم.."

لم تجاوبه إلا اللكمات التي أصابت بطنه بشكل مؤلم.. وبعد جلسة طويلة من التعذيب المستمر، تركوه منهكاً في غرفة العزل مقيد اليدين والقدمين.. لم يكن بقادراً حتى على الجلوس لكثرة ما لاقى من تعذيب وحشي.. ويبدو أنهم كانوا يحاولون الحصول منه على أي معلومات يسترضون بها رؤسائهم..

كان مغمضاً عينيه وبقوة.. يحاول تهدئة أفكاره المضطربة.. يفكر في بلا انقطاع.. ثم نفض رأسه بقوة وغمغم بمرارة "تباً لي.. لماذا تغاضيت عن هذا الأمر؟ لماذا أرجأته مع ما فيه من خطورة عليها؟.. تباً تباً.. ماذا لو ماتت؟ كيف سأحتمل هذه الفكرة؟.. رباه.. لا يمكن أن يكون هذا قد حدث.."

لم يستطع تهدئة أفكاره.. فزفر بحرقة وهو يتجاهل صرخات جسده المتألمة.. ومسح الدماء التي سالت من أنفه وفمه وهو يكرر "سينقذونها.. لن يتركوها تموت.. لا يمكن أن يتركوها تموت.."

الفصل الرابع والعشرون

[الألم]

عندما فتحت عينيّ، بعد مدة الله وحده يعلمها، لم أدرك أين أنا.. ولم أدرك إن كنت حية أم لا.. لكن جاؤني الألم الذي يعتصر صدري بقوة معيداً إياي للواقع بسرعة..

حاولت استيعاب مكاني، والأحداث التي جرت لي، ثم تلفت حولي في الغرفة.. كانت صغيرة جداً، ربما بحجم غرف العزل، وإن كانت لا تحمل ذات الكآبة مع تلك النافذة التي تسمح للنور بالتغلغل من خلف الستائر.. اعتدلت جالسة وأنا أشعر بتعب في أطرافي، ولازلت أشعر بالألم في ذراعي كلها، مما ذكرني بأول مرة داهمني الألم ذاته.. كان ذلك عندما حقنت بذلك العقار على الأرض، وإن كنت لا أذكر ملابس ذلك الوقت، والسبب الذي لأجله حقنوني به..

دفعت تلك الذكرى بعيداً وأنا أركز على الحادثة التي أدت لفقداني وعيي.. ما الذي حدث؟ أين يمكن أن أجد تفسيراً لذلك الموقف البشع الذي مررت به؟ كانت تجربة عنيفة.. وكان رثائي غدتا عاجزتين عن سحب نفّس واحد.. أو كأنهما تمردتا عليّ ورفضتا الانصياع لأبسط أمر مني.. ربا.. هل يمكن أن يتكرر ذلك؟ لو كنت أعرف ما أصابني، لعرفت كيف أتجنبه مستقبلاً.. أو على الأقل لبحثت عن وسيلة ما.. أما شعور العجز ذاك.. فشيء لا أطيقه البتة..

حانت مني التفاتة ليدي اليسرى، لأجد ذلك السوار البغيض ملتصقاً بها.. زفرت بضيق.. ها قد عدنا لنقطة الصفر.. ذهب كل جهودنا السابقة هباءً، وهم قطعاً لن يمنحونا فرصة ثانية لتكراره.. فتح باب الغرفة في تلك اللحظة ودف منها حارس مع أحد المساعدين، والذي تقدم مني قائلاً “انهضي.. سنقوم بنفلك الآن”

لم أعترض بكلمة وأنا أنزل من السرير ورجفة تعتري أطرافي، لكن لم يبذُ عليهما اهتمام بضعفي البادي والحارس يقيد يديّ بقيد حديدي ويقادني خلف المساعد عبر ممرات المبنى إلى الساحة خارجه، ومنها إلى مبنى العزل المتطرف.. ظللت أنظر للمبنى الكئيب بيأس.. ها قد عدنا من حيث بدأنا.. وأنا قد بتّ أكره مجرد النظر إلى هذا المبنى فما بالك بالبقاء فيه؟ وطبعاً لا أحلم بأن أقضي ليلة واحدة فقط فيه بعد كل ما فعلته بهروبي.. يبدو أن أيامي ستطول هنا لأمد لا أعلمه..

دخلت المبنى وتم تسجيل رقمي بجهازهم، ثم اقتادوني عبر الممرات وأنا أتعجب من اهتمام المساعد باصطحابي إلى غرفتي عوضاً عن تسليمي للمسؤول عن المبنى ككل مرة.. لكن تعجبي زال دفعة واحدة وأنا ألج خلفهم إحدى الغرف، لأجد أمجد مقيد اليدين والقدمين بحالٍ يرثى لها.. كتمت شهقتي وأنا أنظر له بهلع.. لا أعلم كم

طالت غيوبتي، لكنه قاسى فيها الكثير كما يبدو.. بوجهه ذو الكدمات مختلفة الأحجام والألوان.. وبجراح وحروق على أصابعه وسائر جسده.. لقد تلقى تعذيباً قاسياً ولا أستغرب هذا من أصحاب المؤسسة مع كل ما يرتكبونه بالأبرياء..

فتح أمجد عينيه مع النور بشيء من الصعوبة وهو ينظر لنا بغير فهم دام ثوان.. ثم اتسعت عيناه وهو ينظر لي، قبل أن يهبط واقفاً ويقترّب وهو يقول بصوت فيه لهفة ممزوجة برجفة خفيفة “حمراء.. أنت بخير؟ أنت حية حقاً؟”

لطمه أحد الحراس ليوقف تقدمه ويعيده أرساً، فكسرتُ صدمتي وأنا أصبح بالمساعد بثورة “أيها الحقير.. ماذا فعلتم به؟ لماذا تعذبونه هكذا؟”

لكنني الحارس بقوة بسلاحه لأصمت، فيما لم يهتم المساعد بي وهو يقول لأمجد “والآن.. هل ستخبرنا عن مخبئكم وموقع بقية الهاربين؟ أم نلجأ لاستجوابها هي؟”

هتف أمجد “لا.. أرجوكم لا تقفلوا.. سأخبركم بكل ما تريدونه”

ظللت أنظر لأمجد بغير تصديق.. هل سيخون أدهم وبسمة حقاً؟ وماذا عن عمه.. هل سيتركهم يقبضون عليه من جديد؟.. كدت أطالبه بالصمت، لكنني عضضت شفتي لأمنع نفسي من هذا.. ليس لي الحق بمطالبته بذلك بعد كل ما عاناه من تعذيب.. ليس لي الحق بمطالبته بتحمل المزيد..

شعرت بالحارس يجذبني خارج الغرفة، فلم أعترض وأنا أرى أمجد يطرق متجنباً عيني، عندها غادرت بصمت والحارس يجرنى إلى الغرفة المحددة لي.. ثم تركني فيها دون حتى أن يفك قيد يدي وأغلق الباب ليعمّ الظلام كالعادة..

جلست في موقعي بصمت وأنا أدفن وجهي في ذراعيّ ودموعي تسيل على خديّ دون إرادة مني.. لمنظر أمجد الذي صدمني وأثار حزني عليه.. ولمصير أدهم وبسمة الذي لن يكون أفضل حالاً بالتأكيد بعد أن يقبضوا عليهما.. ولمصيري الذي لا أعلم أين سيقودني..

هبت بسمة واقفة لدى رؤية وليد يدلف المخبأ، وتساءلت بقلق “أين هما؟ هل هما بخير؟”

قال وليد زافراً “أجل.. إنهما في المباني الإدارية، لكنهما بخير حالياً”

قالت بسمة بذعر أكبر “كنت أعلم أنهما سيقعان في قبضة المؤسسة.. لا بد أن الحراس قبضوا عليهما عند محاولتهما العودة للمخبأ القديم”

هز وليد رأسه نفيماً وقال “بل قبضوا عليهما قرب المباني الإدارية.. بالأحرى سمعت أن أمجد قد سلّم نفسه ومعه

حمراء قبل أن ينكشف أمر المخبأ القديم”
قال أدهم بحدة “مستحيل.. لم قد يفعل ذلك؟”
أجاب وليد “يبدو أن حمراء كانت مصابة بنوبة اختناق حادة دفعته لأن يأخذها للمباني الإدارية كي يعالجوها..”
تساءلت بسمة بصوت مرتجف “وهل هي بخير؟ ما الذي حدث لها حقاً؟”
قال وليد وهو يجلس جانباً “إنها بخير.. لقد عالجوها قبل أن يتفاقم وضعها.. لكن حال أمجد لا يبشر بخير”
علق أدهم مقطباً “لابد أنهم استجوبوه بعنف..”
هز وليد رأسه إيجاباً، بينما علق خالد “لابد سيفعلون.. خاصة عندما يعلمون أننا هربنا من المخبأ السابق..”
فنهض أدهم قائلاً “لابد أن ننقذهما من الأسر..”
أسرع وليد يقول “لا تستعجل الأمر”
قال أدهم بحق “ماذا تعني؟ هل سنتركهما هناك أكثر من هذا؟ مستحيل.. سأحاول إنقاذهما بمفردي لو لم ترغب بمساعدتي”
فقال وليد بصرامة “أخبرتك ألا تستعجل.. سننقذهما في أسرع وقت.. لكن ليس أنت بجرحك هذا”
ظل أدهم ينظر له مقطباً بانتظار تفسير لقوله، لكن وليد اتجه لخالد قائلاً “أخبرني ما هي خطتك القادمة.. يجب أن ننفذها بأسرع ما نستطيع.. المؤسسة لن تدخر وسعاً للإطاحة بنا أكثر من أي وقت مضى”
تقدم أدهم بدوره وهو يقول بسخط “هل تتجاهلني يا هذا؟”
التفت وليد إليه وقال “لا.. لم أنت قصير الفتيل هكذا؟”
فقال أدهم بحدة “إذن فسّر لي كيف سننقذهم.. يغيبظني تكتمك للأمر بغير داع..”
زفر وليد بضيق، ثم شرع يشرح خطته لأدهم وخالد القريب منهما.. بينما جلس إيريك في جانب المكان مقيد اليدين وهو يستمع إليهم محاولاً فهم كلمة مما يقولونه بالعربية.. قبل أن يقول لنفسه بسخط “تياً لكم.. لم لا تتحدثون بلغة نايبو؟”

مر يومان وأنا لا أعرف شيئاً مما حلّ ببسمة وأدهم.. ولا أعرف مصير أمجد بين أيديهم.. ورغماً عني، رغماً عن الكره الذي وطنته في نفسي، كنت قلقة عليه.. متوترة وأنا أفكر في حاله، ومذعورة لما قد يلاقيه من عذاب على أيديهم..
تضافر حبي السابق قبل فقدانني ذاكرتي، وحبي الذي تبرعم من جديد في الكويكب العاشر، ليغلبا كرهني له قبل مجيئي هنا.. وما كان لكره واحد أن يغلب حبين عارمين..

تتهددت وأنا أفكر في وضعنا.. ما كان عليّ أن أكون قاسية معه.. بدت مشاعره صادقة عندما رأيته آخر مرة في غرفة العزل.. لم يعبأ بالآلامه وعذابه بل فكر بي وبحمائتي.. فكيف لي أن أكذب له الآن؟ كيف لي أن أصفه بالوغد الكاذب؟ هل يطاوعني قلبي بأن أؤذيه بكلمة أو لفظة أو حتى عبوس ملامحي؟ لا أظنني أقدر على ذلك..

سمعت صوتاً خافتاً يتردد خارجاً، فلم أعبأ مع كل الإزعاج الدائر في المكان.. لقد خضعت لتحقيق مطول من أحد المساعدين، ولم يتركني إلا بعد أن أتعبني، مع وعد بعودته إليّ قريباً.. لذلك لست بمزاج يسمح بالانتباه لأي شيء حولي.. بعد فترة قصيرة رأيت الباب يفتح فيدخل منه أحد الحراس بوجهه الصارم مشهوراً سلاحه.. رمشت بعيني وأنا أشعر بصداغ للنور الذي صفع عيني من الباب.. عندما وجدت الحارس يقترب مني ويفك قيد يدي، ثم رمي عليّ ببعض الملابس وقال لي “استبدلي ملابسك بهذه بسرعة..”

لم أستوعب الأمر وأنا أنظر للملابس في يدي دون أن أميزها، ثم نظرت له وتساءلت “لماذا؟”

نظر خلفه بشيء من العصبية وقال “نفذي الأمر.. أمامك دقائق معدودة.. هيا”

نهضت واقفة ولاحظت أنه لا ينوي الخروج، فقلت مقطبة “لن أستبدلها وأنت واقف هنا”

رأيته يضغط على السلاح بيديه بقوة وكأنه ينوي ضربي به، لكنه زفر وقال “حسناً.. لكن أسرع..”

وخرج موارباً الباب خلفه دون أن يغلقه، فوقفت خلف الباب حيث لا يمكن لأحد رؤيتي واستبدلت ملابسني بالملابس الجديدة وأنا أعجز عن فهم شيء.. ولما انتهيت، فتحت الباب ووقفت أمام الحارس قائلة “هي أكبر من مقاسي قليلاً..”

نظر الحارس لي وقال “لا يهم.. أمسكي هذا واتبعيني..”

أصابنتي دهشة عميقة عندما رأيته يناولني سلاحاً آخر كان يعلقه على كتفه، ولما دقت النظر في ملابسني اكتشفت أنني ارتدي ملابس الحراس.. ما الذي يجري هنا؟..

سمعت الحارس يقول بشيء من العصبية “تأكدي من تغطية وجهك جيداً بهذه القبعة، واتبعيني بصمت دون أن تتقوي بكلمة.. أفهمت؟”

نظرت له بتعجب وغمغت “لماذا تفعل هذا؟”

لم يجبني وهو يتقدمني بخطواته الصارمة، فلاحظت أنه لم يغلق باب غرفتي بعد خروجنا بل أبقاها مفتوحة.. تبعته وأنا أعلق السلاح على كتفي وإن قبضت عليه بيدي استعداداً للحظة التي قد اضطر فيها لاستخدامه.. لكن، لماذا قام هذا الحارس بمعاونتي على الهرب؟ ما هدفه من هذا يا ترى؟..

كانت غرفتي في الطابق الثاني، ولما مررنا بالطابق الأول ونحن ننزل على السلم وقفت وقلت له بخفوت “أحد رفاقي في غرفة هنا.. يجب أن أساعده”

سارع ليقول “لا تفعلي.. لقد أخرجوه من الغرفة منذ ساعة ولم يعودوا به..”

سألته بقلق “إلى أين؟ ماذا سيفعلون به؟”

أشار لي لألتزم الصمت وهو مستمر بسيره، فتبعته وقلقي يتزايد على أمدٍ.. لا بد أنهم حصلوا على المعلومات التي يبغونها منه، فما الذي سيفعلونه به عندها؟ هل سيؤذونه؟ أو ربما يفقدونه ذاكرته؟ أتمنى أن يكون بخير.. وأن ينجو معي من هذا المأزق..

عندما اجتزنا الطابق الأول، فوجئت بالحارس يدفع سلاحه بقوة في النافذة الموجودة في الحائط المجاور للسلام.. فهمست بقلق "سيسمك المسؤول عن المبنى.. ما الذي تفعله؟"

ونظرت من النافذة للمسافة الفاصلة عن الأرض مضيئة "ولا يمكنني قفز كل هذه المسافة أبداً.."

قال الحارس وهو مستمر في النزول "لن تفعلي، لكننا سنوحي لهم أنك فعلت.."

علقت قائلة "لا توجد آثار أقدام في الموقع الذي من المفترض أني هبطت فيه"

فقال بعصبية "سأصنع الآثار بنفسي فيما بعد.. فقط اصمتي"

وصلنا للطابق السفلي، فرأينا المسؤول واقفاً عند طاولته يتلفت.. وقبل أن أتقوه بكلمة وجدت الحارس يسرع إليه

قائلاً "هل يمكننا الخروج الآن؟ لا أريد أن نلتقي بأحد الحراس هنا ونثير شك أحد"

ازداد تعجبي لمعرفة أن المسؤول متعاون معه لتهريبي.. ما الذي يجري هنا حقاً؟.. سمعت المسؤول يقول بقلق

متزايد "قد تلتقون بمن هو أخطر من الحراس.."

تتبعنا إشارته لنرى من النافذة الصغيرة التي تتوسط الباب أحد مساعدي قائد الحرس يتقدم مع حارس آخر..

فوجدت الحارس يدفعني وهو يقول بذعر "اختبئي"

اندفعت أقول بتوتر "أين؟"

وجدته يدفعني لأختبيء وراء طاولة المسؤول التي تملك حاجزاً عرضياً يصل للأرض أخفاني تماماً.. من حسن

الحظ أن الطاولة كبيرة تسعني تحتها دون خطر.. سمعت في تلك اللحظة الباب يفتح قبل أن يتعالى صوت

المساعد قائلاً "أين دانييل؟ ألم يكن هنا؟"

أجاب المسؤول "لقد خرج منذ فترة قصيرة.. ولا أعلم أين ذهب"

سمعت المساعد يسأل الحارس الذي أنقذني "وأنت.. ما الذي تفعله هنا؟"

أجاب الحارس بسرعة "أنا ذاهب الآن.. لقد سقطت مني بطاقة العمل عندما جئت هذا الصباح لإيصال أحد

السجناء.. فعدت لأستعيدها"

كان التوتر قد بلغ مني مبلغه وأنا أشعر بصوت المساعد قريباً جداً مني.. شعرت أنني في موقف حرج يكفيني

صوت واحد لينكشف أمري تماماً.. شعرت أن أمراً لا بد سيجري.. لا بد أنني سأعطس الآن وأكشف أمري كما

يحدث عادة في مثل هذه المواقف.. لا بد أن المساعد سيقدر الجلوس على كرسي المسؤول ليراني عندها.. انساب

العرق على صدغي وأنا أمسك سلاحني باستعداد، لكن هدأ كل شيء مع الصمت الذي ساد وصوت باب المبنى

يغلق بقوة.. عندها وجدت الحارس ينهضني وهو يقول بتوتر "لقد نجونا هذه المرة.. لنغادر قبل أن يأتي أحد

غيره”

راقب الساحة من النافذة الصغيرة، ثم فتح الباب وهو يقول لي “حاولي أن تتصرفي بطبيعية ولا تثيري الانتباه أو تكثري التلفت..”

أرخيت القبعة على وجهي وحملت السلاح على كتفي، ثم سرت خلفه محاولة إكساب خطواتي بعض الصرامة.. سرنا في الساحة التي لم تكن تحوي على العديد من الحراس، بل بضعة منهم في أنحاء متفرقة.. ورأيت مركبة تقف وسط الساحة والحارس يتجه إليها.. لم يحاول أي أحد إيقافنا ولم نثر انتباه أحد، ورغم ذلك كان توتري شديداً بحيث شعرت بحرارة شديدة في رأسي وببيدي تعرق وهي ممسكة بالسلاح..

عندما وصلنا للمركبة، أشار لي الحارس لأصعد وهو يركب بدوره ويقوم بتشغيلها.. لكنني همست بقلق “وماذا عن أمجد؟ ألن نساعدته؟”

همس بشيء من الضيق “لا يمكنني أن أجول في المباني الإدارية وأنت معي.. هناك شخص آخر سيحاول مساعدته الآن، وأتمنى ألا يتأخر فلا نستطيع الانتظار كثيراً”

صمتُ وأنا أراه ينشغل بالمركبة بانتظار أمجد، فدرت ببصري في الساحة وأنا أبحث عن أي لمحة منه لأطمئن قبل أن ينكشف هروبنا.. دام انتظارنا دقائق طويلة، لكن قبل أن أرى أمجد، فوجئت بالحارس يهمس “تياً.. القائد يتجه لمبنى العزل”

رأيت القائد يخرج من أحد المباني وهو يسير إلى مبنى العزل بخطوات واسعة وغضب ظاهر على وجهه.. أهو قادم بحثاً عني؟..

فوجئت بالحارس يقود المركبة وهو يتجه للبوابة، فقلت بقلق “لم لا تنتظر بعد؟ لا بد أن يأتي عما قريب..” قال الحارس مقطباً “مستحيل.. قدوم القائد لمبنى العزل ليس خيراً جيداً.. سينكشف هروبك بسرعة.. ثم إن الاتفاق كان أن نلتقي خلال عشر دقائق، وهي أكثر مدة أستطيع الانتظار فيها..” نظرت خلفي عاقدة حاجبي.. لماذا تأخر أمجد؟ إن اكتشفوا رحيلي فسيلاقني أمجد صعوبة بالهروب، فما الذي يفعلانه الآن؟..

عندما اقتربنا من البوابة أرخيت القبعة وأدرت رأسي بعيداً عن الحارس الذي لم يوقفنا لحسن الحظ، فتجاوزنا البوابة بسرعة لنسير في الطريق الذي يعبر المساحات الصخرية والحارس يتنهد قائلاً “لم يكشف أمرنا حتى الآن..”

سألته بتعجب “لم تفعل ذلك؟ ما هدفك من مساعدتي؟”

أجابني “ألم يخبركم وليد؟ لقد اتفقت مع حارسين آخرين على مساعدته بعد أن تبيننا حقيقة المؤسسة.. سنحاول مساعدتكم ما استطعنا دون كشف أنفسنا.. أو هذا ما أرجوه”

قلت بتعجب أكبر “لكن هروبي من مبنى العزل مستحيل.. لا بد أن يقع المسؤول في مشاكل عندما يكتشفون

رحيلي”

هز الحارس رأسه نفيماً مجيباً “لقد استغللنا قدوم أحد المساعدين لغرفتك هذا اليوم، وعندما يكتشفون رحيلك سيدعي المسؤول أن المساعد ربما لم يغلّق باب غرفتك بشكل تام وأنك استغللت هذا للهرب.. لذلك حطمت النافذة لإيهامهم أنك قفزت عبرها..”

غمغمت مقطبة “تبدو لي خطة ضعيفة.. وماذا عن أجهزة المراقبة؟ لا بد أن المبنى مرصّع بالكثير منها؟” قال الحارس “لقد قمنا بإفساد النظام قبل قدومي إليك بساعة على الأقل.. وعندما يتم إصلاحه لن تحمل الأجهزة أي تصوير لما حدث هناك”

عدت ببصري للخلف أنظر لما يجري في المباني التي تبعد عنا بشكل حثيث.. ثم نظرت للأمام وأنا أزفر بقلق متزايد.. حظي كان حسناً حتى الآن، فهل سيحظى أمجد بحظ مماثل؟..

كان أمجد يجلس بتعب بالغ في إحدى غرف مبنى الإدارة، بعد كل ذلك التعذيب الذي لاقاه، لم يتركوه ليرتاح طويلاً.. نظر لقائد الحرس الواقف أمامه يتحدث عبر جهاز الاتصال، وللحارس الواقف بصرامة في جانب الغرفة، ثم خفض رأسه بإنهاك.. بعد دقائق، سمع القائد يقول بابتسامة “أنت محظوظ، لازلنا نملك كمية وفيرة من عقار (O12)، وتكفيك جرة لتتغير حياتك هذه تماماً”

حدجه أمجد بنظرة صامته للحظات قبل أن يقول بصوت متعب “ستفقدونني ذاكرتي؟” نظر له القائد بشيء من الدهشة ثم أطلق ضحكة عالية وقال “لست غيباً أبداً.. رغم أن أحداً من السجناء لا يعرف هوية هذا العقار، إلا أن ذكائك يعجبني.. بالفعل.. هذا هو الحل الوحيد لكي لا تعاود محاولة الهرب من جديد.. ستفقد الذاكرة لتتخلص من كل هذا العذاب الذي أنت فيه”

قال أمجد بجفاء “تقصد أن أعود للعذاب الذي اخترتموه لي..”

هز القائد كتفيه مجيباً “تلك مسألة نسبية.. المهم الآن، استمتع بلحظات صحتك الأخيرة.. أنتظر إجابة من رجالي الذين ذهبوا لمداهمة مخبئكم، وبعدها، أنت رجل جديد..”

صمت أمجد وهو يخفض بصره.. يرجو فقط أن يكون خبر ما حدث لهم قد وصل لمن بقي في المخبأ.. هل سيقبضون عليهم حقاً؟..

ظل القائد يطرق بإصبعه على الطاولة أمامه وهو يدندن مستمتعاً بكل ما يحدث.. بينما الحارس خلفه صامت متجمد في وقفته.. طال انتظارهم وقلق أمجد على رفاقه يشغله عن حاله لو أعطوه ذلك العقار.. وبعد مدة طويلة، ربما تجاوزت نصف الساعة، تلقى القائد اتصالاً جعله يعتدل باهتمام وهو يجيب المتصل.. ظل يستمع عبر

الجهاز للحظات قبل أن يصرخ فجأة "ماذا تعني بأنه فارغ؟ أي قول هذا؟ أنت متأكد أنك لم تخطيء المكان؟..
أهو ذاته الموقع الذي دلنا عليه إيريك قبل أن يختفي؟"
عاد يستمع لما يقال وهو يحرج أمجد بنظرة غاضبة ثم قال "ابحثوا في الجوار.. فتشوا كل المخابيء والكهوف
في ذلك الجبل.. لا تعودوا قبل أن تعثروا عليهم.. وبالأمم خالد"
وأنتهى الاتصال قبل أن يقف متقدماً من أمجد.. فقبض عليه من مجمع ثيابه ليوقفه بحدة ويهزه قائلاً بغضب "هل
خدعتني يا هذا؟ أظننت أن أمراً كهذا سيجعلني أعلن فشلي؟"
قال أمجد بهدوء "لقد غيروا مخابئهم بعد غيابنا.. من الطبيعي أن يفعلوا وهم يعلمون أنكم لا بد ستستجوبوني
بعنف"

رماه القائد أرضاً بقوة وهو يقول بسخط "أيها الأحمق، جنيت على نفسك وعلى تلك الفتاة"
هبّ أمجد قائلاً بقلق "لا شأن لك بها.. ستدلكم على ذات الموقع فهو حقاً كان مخابئاً"
قال القائد بسخرية "حقاً؟ سنرى ذلك"
وركله ليسقط أرضاً من جديد، قبل أن يبتعد خارجاً من الغرفة تاركاً الحارس فيها يحرس أمجد الذي اعتدل
جالساً بألم وهو يتمتم بغضب "اللعنة.. سيستجوبها بعنف بالتأكيد"
رأى الحارس ينظر من النافذة باهتمام لدقائق طالت، فراودته فكرة أن ينقض عليه من الخلف ويفقده وعيه..
صحيح أن خروجه من المبنى سيكون صعباً، لكن هذه أول خطوة.. فوقف وهو عازم على تنفيذ قراره، لكنه
فوجيء بالحارس يلتفت إليه من جديد قائلاً بصوت خافت "الآن فرصتنا الوحيدة.."
وأسرع إليه ليفك قيد يديه وأمجد ينظر له بدهشة، ثم قال الحارس وهو يفتح الباب وينظر للممر أمام الغرفة
"أسرع.. يجب أن نخرج قبل أن يعود القائد"
تساءل أمجد بدهشة "لم تفعل ذلك؟.."

أجاب الحارس قائلاً "قبل القبض عليكما كنت مع اثنين من رفاقي قد التقينا بوليد وأخبرناه بعزمنا على معاونته..
والآن هو قد طلب مني إنقاذكما قبل أن يحقنوك بذلك العقار.. ولم يعد لدينا وقت فالقائد غاضب ولن يتورع عن
عقابك"

سأل أمجد بلهفة "وحمراء؟ أين هي؟ كيف هي؟"

أجاب الحارس بسرعة "بخير.. لا بد أن رفقنا الثاني قد قام بتهريبها الآن وهما ينتظراننا في الساحة.. فلنغادر"
وخرج عبر الممر متلفتاً حوله، ثم أسرع لمخرج الطواريء الكامن آخر الممر وأمجد معه.. وهناك، ناول أمجد
رداء الحراس قائلاً "استبدل ملابسك بهذه.. حتى لا يثير منظر الشبهات"
أسرع أمجد يطيعه، فهو عند وصوله قد وجدهم يجردونه من ملابس الحراس التي كانت عليه ويجعلونه يعود
لارتداء لباس سجين.. بعد أن انتهى قال الحارس وهو يناوله سلاحاً "حاول ألا تستخدم هذا هنا إلا لو تفجر

الوضع، وأتمنى ألا يحدث هذا"

استوقفه أمجد قبل أن ينزل السلالم قائلاً باهتمام "مهلاً.. هناك أمر مهم أريد إنجازه.. فهل تساعدني؟"

قطب الحارس معلقاً "ألا تريد الهرب؟ فرصتنا تتضاءل مع كل لحظة تمضي"

قال أمجد "بل يجب أن أنجز هذا الأمر قبل رحيلي.."

وافق الحارس بعد تردد قصير.. وهكذا، بناء على طلب أمجد، كان الاثنان يغادران المبنى هذا ويتجهان لمبنى

آخر عابرين الساحة محاولين ألا يلفتا الانتباه.. وقد علق الحارس أثناء ذلك "المركبة التي من المفترض أن تقلنا

قد غادرت برفيقتك.. يبدو أنه لم يستطع الصبر مع رؤية القائد.."

غمر الارتياح أمجد قبل أن يسمع الحارس يضيف "أو أن خطتنا قد فشلت.. لن نعلم ما جرى حتى نخرج من

هنا"

عاد القلق لأمجد وهو يقول "ألا يمكنك الاتصال به للاطمئنان عليها؟"

هز الحارس رأسه نفيماً وهو يقول "لا.. سيتم التقاط الإشارة وقد تثير الشبهات.. لا نريد المخاطرة"

وصلا لمبنى آخر يتكون من طابق واحد أصغر من البقية، فدخلاه من الباب الخلفي وسارا عبر الممر الذي

يقطعه وأمجد يرخي قبعته لتخفي وجهه وهما يمران بعدد من الحراس.. وبعد عدة غرف مروا بها، وقف

الحارس قرب أحد الأبواب وهو يهمس "الجهاز يقع هنا.. لكن من المستحيل الاقتراب منه مع وجود حارسين

بشكل دائم في المكان، بالإضافة لأحد المساعدين المسؤولين عن الجهاز"

نظر أمجد عبر الباب للغرفة التي كانت تحوي عدة أجهزة موزعة فيها، ومع إشارة الحارس، نظر لجهاز

اتصالات يبدو أضخم من المعتاد، بشاشة كبيرة في جانبه والعديد من التوصيلات تخرج منه وإليه.. رأى في

الشاشة خارطة جيولوجية تحوي بضع نقاط خضر اللون تتحرك باستمرار.. وبين وقت وآخر كان المساعد يقوم

بتغيير الموقع لتتغير عليه النقاط وهو يتحدث بين وقت وآخر عبر سماعات أذن كبيرة على رأسه..

عاد أمجد للحارس وقال بهمس "ألا يمكن تعطيل الجهاز دون دخول الغرفة؟ ألا تعرف أين نجد توصيلات

الطاقة الخاصة به؟"

هز الحارس رأسه نفيماً وقال "لا أعرف.. فلننه هذا الأمر بسرعة أو لنغادر قبل أن يسوء الوضع"

عاد أمجد من حيث أتى وتأمل المبنى من الخارج لثوان قبل أن يسرع لجزء معدني من الجدار ويفتح باباً صغيراً

مرتفعاً بعض الشيء فيه لتظهر منه كل التوصيلات الخاصة التي تغذي المبنى بالطاقة.. فقال أمجد وهو ينظر

للحارس جواره "هل تستطيع قطع هذه التوصيلات؟"

تساءل الحارس وهو يتلفت "وما أدراك أنها ستقطع الطاقة عن ذلك الجهاز؟"

قال أمجد "لنأمل ذلك.. سأنتظر في الداخل حتى يخرجوا من الغرفة ثم أعود لك"

عاد أمجد لموقع قريب من الغرفة وبقي مندساً عند زاوية لا تظهره للأعين ساعده في ذلك قلة من يمرون في هذه

الممرات.. بعد دقيقة وجد النور ينقطع فجأة من المبنى كله، تعالى بعده صياح المساعد الذي قال "ما الذي حدث هنا؟ اذهب وانظر ما جرى؟"

رأى أحد الحراس يغادر الغرفة نحو مؤخرة المبنى، بينما تعالى صوت الحارس الآخر يقول "ربما هذا انقطاع كهرباء عادي"

قال المساعد بحدة "ليس من المفترض أن يحدث هذا.. الكهرباء لا تنقطع عن المباني أبداً إلا لو قمنا بتفجير موزع الكهرباء.. والآن كل الأجهزة قد أغلقت"

سمع أمجد الحارس الأول يركض عائداً للغرفة ليقول بعد أن دخلها "هناك من قطع التوصيلات في مجمع الطاقة في الخلف.."

صاح المساعد "ماذا؟ ولم يفعل أحد هذا؟"

خرج المساعد بعدها والحارسين يتبعانه بشكل حثيث متجهين لمؤخرة المبنى، فانتظرهم أمجد حتى ابتعدوا مسافة طويلة، ثم تحرك من موقعه ودلف الغرفة ليغلق بابها خلفه.. وأسرع للجهاز الرابض في موقعه وهو يتأمل شاشته التي لطالما استعبدتهم.. رفع سلاحه مقلوباً، وبكل قوته هوى على الشاشة وعلى أجزاء الجهاز بضربات حملها عنقه كله.. دامت الفوضى لحظات قليلة وأمجد لا يدخر جهداً في تحطيم كل ما أمامه، عندما أوقفته يد قبضت على سلاحه بقوة وصوت خلفه يقول "ما الذي تفعله أيها المجنون؟"

نظر خلفه ليجد المساعد قد عاد ووجهه غاضب لما يراه، ولما لمح وجه أمجد اتسعت عيناه وهو يقول "أنت؟ كيف وصلت إلى هنا؟"

لم ينتظر أمجد وهو يوجه لكمة قوية لوجه المساعد ألقته أرضاً.. ومع صوت الخطوات التي ترددت خارج الغرفة، لم ينتظر أمجد أكثر من هذا وهو يغادر مرخياً القبعة على وجهه.. رأى الحارسين يعودان للغرفة، ولم يكادا يدخلانها حتى أسلم أمجد قدميه للريح وهو يركض عبر الممر وعبر الباب الخلفي للمبنى.. وهناك، وقف قليلاً ينظر حوله قبل أن يرى الحارس الذي قام بتهريبه يهرع إليه متسائلاً "هل أنجزت مهمتك؟" هز أمجد رأسه إيجاباً وهو يقول بسرعة "أجل.. لكن المساعد رأني.. لا بد أن نغادر الآن"

قال الحارس بقلق "هذا معناه أن أمري قد كشف.. لنذهب"

قبل أن يتحركا سمعا صياح الحارسين وهما يركضان نحوهما، فتحرك الحارس بسرعة وهو يركض حول المبنى وأمجد خلفه.. سمعه أمجد يقول "نجاتنا ستكون بالوصول لإحدى المركبات قبل أن يعوقنا شيء"

ظهر أمامهما فجأة أحد الحراس وهو يرفع سلاحه صائحاً "توقفا.."

ومن خلفهم تقدم الحارسين الآخرين بسلاحيهما، فلم يكن من أمجد والحارس معه إلا أن قفزا خلف صناديق قريبة منهما والحارس أمامهما يطلق رصاصاته بغية تخويفهما.. كانت الصناديق قريبة من السور الحديدي مما منحهما تغطية جيدة والرصاصات تصيب الصناديق للحظات قبل أن تتوقف.. غمغم الحارس وهو ينظر من فوق

الصناديق "لا تلمس السور خلفك.. إنه مكهرب"

نظر أمجد للسور خلفه والذي يكاد يلمس ملابسه، ثم نظر بدوره من فوق الصناديق ليرى بعض الحراس يتقدمون منهما، ولم يلبث قائد الحراس أن خرج من مبنى العزل وهو يصرخ بغضب.. فغمغم الحارس "الأمور تزداد صعوبة.. لو أمسكوا بنا فقد يتخلصون مني لأنني لن أفيدهم بأي معلومة"

قال أمجد بشيء من الثقة "لن ندعهم يمسكون بنا"

رفعا سلاحيهما وبدءا يطلقان النار على الحراس القريبين ليمنعا تقدمهم.. لكن لم يكن الحال ليديم للأبد والحراس يعلق "سيجعلوننا نفرغ رصاصاتنا ثم سيقبضون علينا بعدها بكل سهولة"

نظر أمجد حوله محاولاً إيجاد ثغرة لهروبهم.. كان موقفهم ضعيفاً جداً، وعقابهم سيكون أشد من السابق.. فما الذي يمكنهما فعله؟ عاد يطلق رصاصاته على بعض الحراس الذين تقدموا منهما، وهذه المرة أصابهم إصابات متفرقة في الساق واليد دون أن تكون الإصابة قاتلة، ثم صاح بالحارس "لنهرب الآن"

أوقفه الحارس قبل أن يخرج من خلف الصناديق وقال بلهفة "كلا.. ليس بعد"

نظر له أمجد بدهشة والحارس يضيف "يبدو أن القدر لم يرد لنا الفشل بعد"

نظر أمجد خلف الصناديق بدهشة وهو يرى المزيد من الحراس يتقدمون منهما.. موقفهما يسوء تدريجياً، والقائد بنفسه يقف على مبعده يراقب الموقف.. فما الذي تغير في هذا الوضع ليكتسب الحارس كل هذه الثقة؟..

سمع صوت إحدى المركبات وقائدها يقودها بتهور وسط الساحة نحوهما، فيما استدار إليه الحراس وهم يتدافعون من طريقه والغيط يبدو شديداً على قائد الحرس وهو يصرخ على رجاله ليوقفوه..

توقفت المركبة بين الصناديق وبين بقية الحراس بقوة مثيرة سحابة من الغبار، فصاح الحارس قرب أمجد "لنذهب"

تبعه أمجد تلقائياً وهما يقفزان في المركبة قرب قائدها بينما بدأت الرصاصات تتناثر من حولهما دون أن تصيبهم بسبب الغبار الذي أغشى الأعين.. فقال الحارس لقائد المركبة "انطلق قبل أن يغلقوا البوابة"

قال القائد بتوتر "لقد أغلقوها بالفعل.."

خفضوا رؤوسهم لدى تزايد الرصاص من حولهم وانقشاع سحابة الغبار، وقال أمجد مقطباً "ما الحل إذن؟ سيصيبوننا بالتأكيد فهم أكثر"

رأوا قائد المركبة ينظر للسور الحديدي من خلفهم، فهتف الحارس "لا تحاول.."

قام القائد بقيادة مركبته في دورة واسعة في الساحة وهو يقول "هذا هو المخرج الوحيد.."

تراكض الحراس مبتعدين وهو يكمل دورته حتى وقف مقابل السور.. فدفع إطارات مركبته لتدور بأقصى سرعتها دون أن يفلت المكابح وهو يهتف لهما "انخفضا"

ثم رفع قدمه عن المكابح لتندفع السيارة بسرعة نحو السور الحديدي فترطم به بقوة وتحطم جزءاً كبيراً منه مع

فرقة عالية دوّت فوق رؤوسهم وهم يخفضونها ويتشبثون بالمركبة التي اهتزت بعنف قبل أن تكمل طريقها خارج الساحة والرصاصات تلاحقها بغزارة.. نظر الحارس وأمجد خلفهما للبليلة التي حدثت قبل أن يلتفت الحارس لقائد المركبة قائلاً "كيف تخليت عن موقعك في مبنى العزل؟ لو لم تكشف نفسك لبقيت في عمالك دون أن تثير الشبهات"

قال القائد الذي لم يكن إلا المسؤول عن مبنى العزل "لابد أن تعود الشبهات إليّ بعد هروب الفتاة.. الآن يجب أن نحذر دان من العودة للمباني.."

سأله أمجد بلهفة "حمراء هربت؟ أنت متأكد؟"

علق القائد "حمراء؟ إن كنت تقصد الفتاة فقد هرب بها دان قبل المعمة التي أثمرتها بوقت قصير.."
أسرع الحارس يجري اتصاله بالحارس الآخر قائلاً "دان.. لقد نجحت العملية لكن كشف أمرنا جميعاً.. لا تعد.. سنلتقي في الموقع المحدد سلفاً"

ثم قام كل من الرجلين بنزع جهاز الاتصال المكون من ساعة في اليد وقطعة صغيرة في الأذن رمياها من المركبة.. فعلق أمجد "قلت إنك لا تستطيع إجراء اتصال دون أن تكشف أمرك"
علق الحارس "ولقد كشف أمرنا بالفعل"

فور وصولهم للغابة التي غطتهم عن الأنظار، وجدهم أمجد يوقفون المركبة وينزلون منها والحارس يقول "يجب أن نبتعد.. لا بد أن عدة مركبات ستحاول اللحاق بنا.. هروبا في الغابة بعيداً عن هذا الطريق هو أفضل لنا فسيستغرقون وقتاً للحاق بنا على الأقدام"

أطاعهم أمجد وهم يتخلون عن المركبة ويبدأون الركض بين أشجار الغابة محاولين التوغل فيها قبل قدوم بقية الحراس خلفهم..

الفصل الخامس والعشرون

[حقائق]

عندما تلقى الحارس ذلك الاتصال وأنهاء بجبين عابس، سألته بقلق "هل أنقذوا أمجد؟ أهو بخير؟" هز الحارس رأسه إيجاباً وقال "أجل.. لكن أمرنا جميعاً قد كشف.. ويجب أن نتخلى عن هذه المركبة الآن" كان يقود المركبة بشكل محاذٍ للغابة باتجاه المنجم الذي كنا نعمل فيه سابقاً، وقد قال لي إن نقطة التقائنا لن تكون بعيدة عنه.. لكنه الآن قد اقترب من الغابة وأوقف المركبة لينزل منها.. فعلت المثل وأنا أراه يتخلى عن جهاز الاتصال ويتركه في المركبة قبل أن يحمل سلاحه ويقول لي "لنسرع قبل أن نواجه أي مصاعب أخرى" تبعته بصمت ونحن ندخل الغابة ونركض بأسرع ما نقدر.. سألته ونحن نتجاوز الأشجار في طريق متعرج "أتعرف وجهتنا بالتحديد؟"

أجابني "أجل.. لا تقلقي"

لم أكن بقادرة على نبذ القلق تماماً.. فموقفنا كله مقلق من جميع النواحي.. سرنا لمسافة طويلة وقد بلغ مني التعب مبلغه.. رغم أنني قضيت أياماً لا بأس بها أقطع هذه الغابة جيئة وإياباً، إلا أن الحالة التي مرت بي قبل أن يقبضوا عليّ لازالت أثارها واضحة في.. صدري يضيق لأقل مجهود، وأشعر بعسر في التنفس يجعلني متعبة بشكل دائم..

رأيت الحارس يخفف سرعته ففعلت المثل بدوري وأنا أنظر لما ينظر له.. فتوقفت فجأة عن السير وأنا أرى أمجد أمامي.. كان وليد يقف على مبعدة، يتجادل بحدة مع أمجد الذي كان مطرقاً والضيق يبدو شديداً على ملامحه.. ولما لمَحْنَا أمجد اتسعت عيناه وهو ينظر لي.. كان شكلي مزريراً، بدوائر سوداء تحت العينين وشحوب الوجه وشعر غير مهنم.. أعدت خصلات شعري للوراء وأنا حائرة فيما أقول.. كنت سعيدة برؤيته بخير.. وفي الوقت نفسه حانقة لأنه أعادنا لنقطة الصفر، ولأنه عرض أدهم وبسمة والآخرين للخطر بغير سبب مفهوم كما أرى.. لكنه لم يدع لي فرصة لقول شيء وهو يدفع وليد من طريقه ويندفع نحوي غير مبالٍ بالآخرين.. وفي ثانية كان قربي وأحاطني بذراعيه وضممني إليه بقوة شديدة.. فوجئت بهذا، فدفعته بقوة بردّ فعل تلقائي لأبعده عني ووقفت أنظر له بعينين متسعيتين.. نظر لي بصدمة للحظات تحولت لشيء من المرارة قبل أن يخفض بصره بصمت، ورأيت وليد وبقية الحراس يبتعدون عنا مما أخرجني أكثر..

غمرني حرج شديد وضيق لم أرى مرارته.. ولم أستطع التفوه بكلمة وأنا أخفض بصري بدوري، وقد ضاع عتابي بين ثنايا خلجي.. ثم سمعت أمجد يقول بصوت بدا متهدجاً "الحمد لله أنك بخير يا حمراء.. سامحيني.. كدت تموتين بسببي.. سامحيني أرجوك"

تساءلت بحيرة تغلبت بها على حرجي "لماذا تقول ذلك؟ أتعلم ما الذي أصابني يومها؟"
نظر لوجهي بنظرة حزينة، ثم عاد يخفض بصره مجيباً "لم أدرك ما قد يحدث إلا متأخراً، ولم أعلم أنه سيحدث
بهذه السرعة.. ولو حدث لك شيء.. لو أصابك أي ضرر.. لما سامحت نفسي أبداً.."
قلت بالحاح "ما الذي جرى لي؟ اشرح لي الأمر ولا تدعني أتخبط في الظلام"
فأمسك يدي وجذبي قائلاً "لنبتعد عن هذا المكان أولاً.. ثم سأشرح لك كل شيء.. ولبسمة وأدهم أيضاً فهما لا
يعلمان شيئاً مما يجري هنا"
ظللت بدهشة من أمري وإن لم أعترض وأنا أتبعه بشيء من العسر.. مازلت أشعر بتعب وبضعف في أطرافي..
لكني دست على تعبي ولم أظهره، وتبعته بصمت، حتى رأينا وليد والحراس يجلسون في بقعة غير بعيدة عنا،
فجذبت يدي من يده بحرج، لكنه استعادهما من جديد وضغط عليها بقوة قائلاً لوليد "هيا بنا قبل أن يحضر المزيد
من الحراس.."

فقال وليد مقطباً "حسناً.. لكني لن أعفك من مسؤولية ما فعلته.. لنذهب"
ونظر نحوي مضيفاً "حمداً لله على سلامتك يا حمراء"

فقلت له "شكراً لكم على إنقاذنا.. لن أنسى لكم هذا"

لم يعلق أحدهم بكلمة ونحن ننطلق في طريقنا للمخبأ الجديد، فوجهت حديثي لوليد متسائلة "كيف نجوتم من
الحراس؟ لقد أخبرهم أمجد عن مخبئنا عندما قبضوا علينا.."

قال وليد "لقد قمنا بتغيير موقعنا في اليوم الذي تغيبنا فيه بعد أن كشفنا أحد الحراس.. وبحثت عنكما بعدها ولم
أعثر لكما على أثر.. شككت بأن تكونا قد سقطتما في الأسر.. وبالفعل جاء دان في اليوم التالي وأخبرنا
بخبركما.."

عندها أسفت لأنني حنقت على أمجد رغم العذاب الذي ناله على أيديهم رغم عدم جدوى ذلك.. حتى يده التي
تمسك بيدي قد تورمت أصابعها وغزتها كدمات متباينة الألوان..

وددت لو أعتذر.. لو أبدي أسفي لأنني جرحته مرات ومرات.. لكن الكلمات لا تتجاوز حلقي ولساني لا يطاوعني
في أي أمر.. لكني آسفة..... آسفة..

وصلنا للمخبأ الجديد بعد سير طويل ومناورة كبيرة مع فرق الحراس التي انطلقت تبحث عنا.. كان المخبأ هذه
المررة وسط غابة متطرفة.. وهو يقع وسط هضبة كبيرة تحيط بها الغابة من كل اتجاه، وفي جانب من الهضبة يقع
هذا الكهف ذو المدخل الضيق ولكن قلبه على اتساع مناسب ليضمنا جميعاً..

عندما وصلنا، هبت بسمه تعانقتي كالعادة بعينين محمرتين من البكاء.. بينما استقبلنا خالد استقبالا حافلا، إذ كان جالسا في جانب المخبأ يحمل أوراقا في يده، فرفع رأسه عند دخولنا وقال "أوه.. هل حضرتم أخيرا؟" لم يبذ أمجد مندهشا من تصرف عمه، بينما ظللنا نحن ننظر له بدهشة.. أهذا كل ما يستطيع قوله لدى نجاته ابن أخيه من الخطر؟.. اقترب أمجد من خالد قائلاً وهو يفر "لقد قمت بعمل متهور، لكن الأمور سارت كما نبغي.."

نظر له خالد بتساؤل، فقال أمجد "لقد نجحت بتحطيم الجهاز المسؤول عن التحكم بالأساور" نظرننا له بدهشة كبيرة بينما هتف خالد "رائع"

تساءل أدهم مقطبا "هذا أمر خطير.. أتعلم معناه؟ لو أدرك السجناء أن الأساور لا تعمل كما يجب، وهم لا بد سيدركونه عاجلا، فسيثورون على الفور ولن يترددوا في استخدام العنف.. ستحدث مذبحة عندها" قال وليد بشيء من العصبية "هذا كان رأيي تماما.. لكنه لم يستشر أحداً قبل الإقدام على فعل خطير كهذا" قال خالد "لقد كان تدمير هذا الجهاز ضمن خطتي، ورغم أنه حدث أبكر مما توقعته، إلا أننا لن نتراجع.. الآن علينا أن نمضي في الجزء الثاني من الخطة"

وعاد ينشغل بأوراقه وكأنه قد أنهى كل ما لديه، بينما زفر وليد وهو يتعد ليجلس مع الحراس الثلاثة في جانب المخبأ يسألهم عما حدث في المباني الإدارية.. فالتفت لأمجد قائلة "أنت مازلت مديناً لنا بتفسير ما حدث لي.."

زفر أمجد قائلاً "عمي هو الأصلح لتفسير الأمر.."

رفع خالد رأسه وهو يتساءل "عمّ تسألون؟"

قال أمجد وهو يجلس قريباً منه "عن العقار الذي حقنونا به عند قدومنا.. عن سبب اختناق حمراء دون سابق إنذار.."

ترك خالد الأوراق التي بيده والتي كما يبدو تحوي بعض خطته وقال "أتعني عقار آريا؟"

أجاب أمجد بالإيجاب والتفت إلينا قائلاً "أتذكرون ذلك العقار الذي أحضره وليد لنا؟ ذلك لم يكن عقار استعادة الذاكرة.."

غلبتنا الدهشة وأدهم يتساءل "إذاً ما كان ذلك؟"

نظر أمجد لخالد الذي قال "عقار آريا هو عقار يستخدمونه عند إحضار أي بشري للكويكب لأول مرة، ومن المفترض أن يُحقن به بشكل دوري.."

ظللنا ننظر له بعدم فهم، فاعتدل مكملاً "ذلك العقار تم تطويره في بعض المختبرات السرية التابعة للمؤسسة.. وهو يؤقلم أجسادنا على العيش في هذا الكويكب غير الصالح لسكنى البشر.."

صعقنا جميعاً لهذه المعلومة الغريبة، فكنت أول من نطق وأنا أهتف "غير صالح للبشر؟ لكننا.."

قاطعني خالد قائلاً "تتنفسين بشكل عادي.. لقد أخبرتك للتو.. هذا العقار يؤقلم جسدك للعيش هنا.."

واعتدل مضيفاً "هذا الكويكب يحوي غلظاً جويّاً، لكنه خلافاً للأرض، لا يحتوي على الكثير من الأكسجين، بل نسبة ضئيلة منه ستسبب الاختناق لمن يعيش على ظهره.. حاولوا تجاوز هذه الأزمة بعدة طرق، لكنها كانت غير مجدية أبداً.. لذلك كانت الحاجة لاختراع هذا العقار.."

قلت بغير تصديق "لكن هذا مستحيل.. ماذا عن الأشجار؟"

قال خالد "هذه كانت إحدى الوسائل للتغلب على نقص الأكسجين.. هذه الأشجار معدلة جينياً بحيث تتأقلم مع جو الكويكب وفي الآن ذاته تضح له كميات كبيرة من الأكسجين كما تفعل على الأرض، لكنها أيضاً كانت محاولة فاشلة"

صمتنا ونحن نحاول هضم هذه المعلومات الصادمة، ثم التفت لأمجد وأنا أتساءل باتهام "أكنت تعلم بذلك عندما أحضرت العقار لنا؟"

قال بسرعة "قطعاً لا.. أتظنني أنني كنت سأحرمك إياه لو علمت بأهميته لحياتك؟"

لم ينتبه أمجد أن ما قاله كان اعترافاً منه بما فعله، لكني لم أعلق فيما قال أدهم باعتراض "كيف ذلك؟ أليس في هذا أي ضرر لنا ولأجسادنا؟"

هز خالد كتفيه معلقاً "لا أهمية لكم لو كان هذا يدور بخلدك.. لكن مما علمته فإن الجسد عادة يتأقلم مع هواء الكويكب ومع العقار لمدة زمنية تتفاوت من شخص لآخر، وبعدها تبدأ أعراض أخرى تظهر عليه لم أعرفها جيداً.. يبدو أن الجسد بعد مدة معينة يتوقف عن الاستجابة للعقار وما يتبع ذلك من مخاطر.. لذلك فإن عمل الإداريين والحراس لا يتجاوز عدة أشهر يتم تغييرهم بعدها.."

تساءلت بسمة بصوت مرتجف "والسجناء؟ ماذا يحلّ بهم بعد ذلك؟"

هز خالد كتفيه دون أن يجيبها، وتلك كانت إجابة بليغة لا تحتاج لسؤال.. فشهقت بسمة وهي ترفع يدها لتغطي فمها وجسدها ينتفض، بينما قلت أنا مقطبة "أنت واثق من هذه المعلومة؟ كيف تعرف كل هذا وأنت مسؤول عن تطوير جهاز الجاذبية فقط؟"

قال خالد بصرامة وكأنه أهين بهذا السؤال "أنا لست أحمقاً بالطبع.. لقد لاحظت الكثير من التصرفات الغريبة التي تثير أسئلة بلا أجوبة.. وكثير من العلماء الذين شاركوا في تطوير الكويكب وتطوير العقار الذي يستخدم هنا هم أصدقائي.. ولقد اشتكى لي أحد أولئك العلماء عن حيرته بسبب عدم قدرتهم على تجاوز هذه النقطة.. أخبرني أنهم بحيرة لسبب عجز العقار عن التأثير على الجسد لمدة طويلة، وما يتبع ذلك من عواقب.. ولهذا السبب بدأت أجمع معلومات عن المؤسسة بغية فضحها.. ولهذا السبب أيضاً قبضوا عليّ واتهموني باطلاً وسجنوني في الكويكب دون وجه حق.."

فصاح أدهم وهو يقف "بأي حق يفعلون هذا بنا؟ ماذا يعتبروننا؟ عبيداً أم جماداً لا يحس ولا يشعر؟"

قلت وأنا مطرقة "أتظن أنهم يهتمون؟ جلّ اهتمامهم هو حصول الإدارة على ما في المناجم، حتى لو تسبب ذلك

في موت بضع عشرات منا.. أتظنهم يعيؤون بك؟ أتظنهم يهتمون لموتك أو حياتك؟"
قال أدهم بحنق "ليس معنى هذا أن يستعبدوننا كمتاع لا قيمة به.."
وقفت وأنا أصيح "لقد استعبدونا منذ البداية.. منذ قرروا تغييب ذكرياتنا وكأنها شيء لا يخصنا.. منذ قرروا
التدخل في أجسادنا والعبث فيها لمصالحهم.. الله وحده يعلم ما فعلوا بنا غير ذلك.."
وأضفت بغیظ "وأنتم ارتكبتكم لما أملوه عليكم دون اعتراض.. لقد اتهمونا ظلماً وأوقعوا علينا أحكاماً قاسية على
ذنب لم نرتكبه، وأنتم رضيتم بذلك والتزمتم جانب الصمت.."
وقف أمجد بيننا وقال "لا داعي لهذا الجدل.. كوننا مصدومون لمدى حقارتهم لن يجعلهم يتوسلون لنا لنسامحهم..
يجب أن نغير واقعنا بأيدينا.. ولا نستسلم لهذا الذل من جديد.."
قالت بسمة بارتجافاً من بين دموعها "وكيف نعمل ذلك وكل جهودنا تبوء بالفشل؟ نحن لم نتقدم خطوة واحدة منذ
هروبنا.. كل ما نفعله هو إنقاذ أعناقنا منهم باستمرار.. فحتى متى نستمر بفعل ذلك؟"
قال أمجد بحزم "بل هناك تقدم كبير.. لقد عرفنا جوانب كنا نجهلها من المؤسسة.. وكسبنا وليد وبعض الحراس
لصفنا.. كما أن عمي هنا"
اعتدل خالد عند هذا القول قائلاً بثقة مطلقة "طبعاً.. مادمت معكم فلا تستسلموا لليأس وتوكلوا على الله تعالى..
وسنريهم من نكون.."
كان هذا قولاً كبيراً ومبالغاً فيه.. لكن من يحق له الاعتراض على ذلك؟.. سادنا الصمت التام بعد هذا الحديث
وكل منا يتجرع صدمته وغصته من كل ما جرى لنا.. ومن كل ما قد يجري من الآن فصاعداً..

ذلك اليوم، ولم يكن قد انتصف بعد، انتبه أحد السجناء أثناء عمله في المناجم انطفاء شاشة سواره تماماً.. نظر له
بعدم فهم طال دقائق طويلة، ثم سأل أحد الرجال حوله "هل شاشة سوارك مطفأة؟"
نظر السجين الآخر لسواره للحظات قبل أن يغمغم بعدم فهم "أجل.. ما معنى هذا؟"
قال الأول بحاجبين مرتفعين "أتظن.. أيمن أن يكون قد..."
قاطعته الآخر مجيباً قبل أن يطرح السؤال "لا يمكن.. لا بد أن الإدارة تنوي لنا أمراً.. لا بد أنها تختبرنا"
قال الأول بلهفة "لكنه لم يحدث من قبل.."
والتفت للسجناء من حوله الذين انهمكوا بأعمالهم الشاقة دون تذمر وصاح "السوار معطل يا رجال.. السوار
معطل تماماً"
ارتفعت الرؤوس إليه بدهشة قبل أن تنتقل الأبصار للأساور بسرعة، بينما اقترب منه أحد الحراس وهو يقول

بصرامة "اخرس وتابع عملك بصمت"

قال السجين متحدياً "وماذا ستفعل لو لم أضع الأمر؟ هل ستصعقتي بشحناتك تلك؟"

ضربه الحارس بمؤخرة سلاحه قائلاً "ليس بعد.. سلاحى هذا يكفىك"

سقط السجين أرضاً والحارس يصيح بمن حوله "عودوا لأعمالكم دون شغب"

صاحت به امرأة من بعيد "وما الذى يجبرنا على ذلك الآن؟"

أضاف رجل آخر وهو ينظر لمن حوله يحثهم على موافقته "أجل.. لقد سئنا استعبادكم لنا.. أنا سأخرج من هنا الآن.."

وافقه الجميع وهم يلقون ما يحملونه من عدة تساعدهم في أعمالهم، لكن لم يتحركوا من مواقعهم خطوات بسيطة

إلا وجدوا أربعاً من الحراس يقفون سادين النفق الذي هم فيه وأسلحتهم مشهورة، وأحدهم يقول بصرامة "عودوا

لمواقعكم.. لن نتردد في إطلاق الرصاص على من يخالف الأوامر"

قال أحد السجناء بسخرية "لا يمكنكم ذلك في هذا المكان الضيق.. ثم إنكم لن تصيبوا إلا شخصاً أو اثنين قبل أن يطيح بكم الآخرون.."

بدا أن حديثه يحفز السجناء الآخرين على التقدم، بينما لم يقيم الحراس بالهجوم مدركين أن الأسلحة لن تكون ذات فائدة مع فارق العدد بينهم وبين السجناء.. وبإشارة من أحدهم، أسرع أحد الحراس للخروج من هذا النفق ليجري اتصاله بالإدارة.. بينما تعالت لهفة وتحدي في وجوه السجناء وهم يتقدمون شيئاً ما إنما بثقة نحو المخرج.. بإرادتهم الحرة هذه المرة..

وفي مبنى الإدارة، لم يكن قائد الحرس مسروراً برؤية الخراب الذي حلّ بجهاز الأساور وزاده غضباً ما ورد إليه من أخبار المنجم وثورة السجناء فيه.. فالتفت لأحد مساعديه قائلاً بحنق "أي غياب هذا الذي جعلك تغادر موقعك وتترك الجهاز في الغرفة الخالية دون مراقبة؟"

قال المساعد بضيق "لكن هذا حدث نادر لم يحدث من قبل.. كيف تتوقع أن أعرف بهرب هذا السجين بمساعدة أحد حراسنا واستهدافه للجهاز قبل هربه؟"

قال القائد بغیظ "لو أنك حاولت الانتباه لما يجري حولك لما حدث هذا.. لمَ قد يعتمد شخص ما لقطع توصيلات الكهرباء إن لم يكن ينوي التسبب بأذى في هذا المبنى.."

وزفر بحدة قبل أن يقول "استبدلوا هذا الجهاز بجهاز جديد بأقصى سرعة"

تردد المساعد للحظات قبل أن يقول "لكن.. الجهاز الآخر بحوزتنا معطل.."

اتسعت عينا القائد وهو يهدر "ماذا؟"

انكمش المساعد قليلاً وهو يقول "ألا تذكر؟ لقد وصل إلينا بعطل بالغ.. وقد طلبتُ من المصنع المسؤول عنه استبداله بآخر جديد، لكن شيئاً من هذا لم يحدث من عدة أشهر"

صاح القائد “وتخبرني بهذا الآن؟..”

انكمش المساعد أكثر وهو يشعر أن لكمة سترطم بوجهه قريباً، لكن القائد استدار وغادر وهو يتحدث عبر جهاز الاتصال قائلاً بحدة “أوقفوهم.. اجعلوهم يطيعون الأوامر حتى لو اضطررتم لاستخدام العنف.. أسمعتموني؟ استخدموا كل ما يلزم لتمنعوهم من الثورة علينا”

خرج وليد والحراس ممن أتوا معنا لينفذوا الجزء الثاني من خطة خالد، والتي كالعادة لم يخبرنا عنها خالد أي شيء.. بينما بقينا نحن نتساءل عما سيحدث الآن بعد أن يدرك السجناء أمر تعطل جهاز الأساور.. لكن لم نكد نهناً بوجودنا في المخبأ إذ قال لنا خالد “يجب أن نرى ما يحدث في المناجم.. لنذهب هناك ولنأمل ألا تكون أسوأ توقعاتنا قد تحققت”

نهض أمجد وأدهم والأول يقول “إذن لنسرع..”

فنهضت بدوري قائلة “سأذهب أنا أيضاً..”

هبت بسمة واقفة بقلق، لكنها لم تجد مفرأ من اللحاق بنا طبعاً مع رفضها البقاء وحيدة في المخبأ.. التفتنا للحارس المقيد في جانب المكان، فتساءلت “ماذا نفعل به؟ هل نتركه هنا؟”

نظر له خالد باهتمام لدقائق، ثم قال ملوحاً بيده “لا يهم.. اتركوه يرحل.. لن يضرنا في شيء بعد الآن، ولا أظن أننا سنعود لهذا المخبأ مجدداً”

عجبت من ثقته الشديدة وكأنه يعلم ما سيجري لنا من أحداث منذ الآن.. لكننا لم نعترض ونحن نخرج خلفه من المخبأ تاركين الحارس وحيداً دون أن نملك ما نفك به قيده.. وهو لم يكذب خبراً إذ سرعان ما رأيناه يخرج بدوره من المخبأ ويجري في اتجاه آخر غير عابيء بقيد يديه..

اجتزنا الغابة بخطوات حثيثة ونحن لا نعلم ما الذي سنراه في الجانب الآخر منها حيث يقع المنجم..

في تلك الأثناء، كان وليد واثنين من الحراس الثلاثة يراقبون في جانب من المباني الإدارية بعد أن داروا خلف سورها متسللين.. كانت الساحة شبه خالية من الحراس وبابها مغلق تماماً بعد نجاح أمجد بالهرب منها، والفتحة التي تسببت بها مركبتهم قد تم ترقيعها ببعض الأسلاك لكي تمنع المتسللين للمباني من المرور مع الشحنة الكهربائية التي تسري عبرها..

غمغم وليد وهو يشير لجانب من المباني “الصناديق المطلوبة موجودة في هذه المخازن.. عادة ما يقومون بتخزينها في الجزء المغلق المكيف منها حفاظاً عليها من الحرارة.. يجب أن نتسلل إلى المخازن وننفذ مهمتنا مادامت الحراسة ضئيلة الآن”

قال أحد الحارسين "لكن كيف؟ هذه الأسلاك مكهربة وقد تقتلنا لو حاولنا تجاوزها.. والبوابة مغلقة ولا يكاد يمر شخص عبرها دون تفحص مكثف.. ثم ما الهدف مما نفعله الآن؟"

قال وليد "ليس الوقت ملائماً لشرح الأهداف.. ولدي الطريقة المناسبة لتجاوز هذه الأسلاك دون مخاطرة.. لكن علينا بعدها التصرف بسرعة لتنفيذ الخطة قبل أن يحكموا حصارهم علينا"

وصل الحارس الثالث في تلك اللحظة وهو يحمل حقيبة صغيرة ناولها لوليد قائلاً "هذا ما أمكنني الحصول عليه من مستودع أقرب المساكن إلينا"

تساءل حارس آخر "ألم يرصدك أحد؟"

أجاب الثالث "لا.. المساكن خالية من السجناء والحراس لأنه وقت العمل في المناجم.. أما أجهزة المراقبة فقد رصدتني بالفعل، لكنني حاولت التصرف بشكل معتاد ولم أظهر وجهي لها أبداً"

غمغم وليد "جيد.. الآن لنتخلص من هذه الأسوار"

بدأ التسلسل بجانب السور وهو يتفحص ما خلفه بإمعان، ثم توقف فجأة وهم خلفه وأعدّ سلاحه قائلاً "كونوا مستعدين ونفذوا الخطة في الآن ذاته.."

استعد حارسان بسلاحيهما وهو يرفع سلاحه ويحكم التصويب، ثم أطلق الحارسان رصاصاتهما على أقرب أربع أجهزة للمراقبة ليحطماها بدقة، بينما أطلق وليد في الآن ذاته بضع رصاصات عبرت من خلال أسلاك السور الحديدية دون أن تلمسها لتصيب هدفها وهو صندوق معدني مخفي خلف أحد المباني.. ومع طلقات الرصاص بدأت شرارة كهربية تخرج منه قبل أن ينفجر بشكل محدود مصدراً فرقة عالية.. عندها هتف وليد "لنسرع.."

تراكضوا نحو السور يتقدمهم وليد الذي لم يتردد بلمسه وهو يرتقيه بسرعة ومهارة.. فلحقه الحراس بعدما رأوا أنه لم يتضرر من ذلك بسبب انفجار مصدر الكهرباء الذي يغذي السور بها.. ثم قفزوا من فوقه مستغلين أحد المباني كغطاء عن أعين الحراس في الساحة..

لما سمع قائد الحراس تلك الفرقة صاح بأحد الحراس "اذهب وانظر لمصدر هذه الضوضاء.. يبدو أن اليوم لن يمرّ على خير أبداً"

ركض حارسان باتجاه الموقع الذي علا منه دخان أسود كثيف.. ولم تمض بضع دقائق حتى عاد أحدهما للقائد يقول "لقد انفجر مولد الكهرباء الذي يتصل بالسور.. الأسوار كلها الآن لا تحمل أي شحنات كهربية.. ولا نعلم سبب انفجاره"

قطب القائد للحظة قبل أن يصيح "وما سبب تلك الرصاصات التي سمعناها قبل قليل؟.. هناك من يحاول التسلسل للمباني الإدارية.. ابحثوا عنه، وإن لم تستطعوا القبض عليه فلا أقلّ من أن تقتلوه قبل أن يهرب"

انطلقت جماعة من الحراس يبحثون عن المتسللين، دون أن يروا وليد ورفاقه الذين نجحوا بدخول المخازن عبر نافذة حطموها في المبنى، قبل أن يتسللوا لقلب المخزن الواسع المليء بصناديق مختلفة الأحجام.. انطلقوا في

طريق يعرفونه جيداً، وقرب باب معدني مغلق بإحكام، قام وليد بضرب القفل بعقب سلاحه بقوة حتى تضعض القفل ثم ركل الباب لِيُفتح مظهرأ الغرفة خلفه.. كانت الغرفة أبرد بكثير عن المخزن خارجه، وفيها عدد من الصناديق الكبيرة المصطفة وعليها علامة تحذير واضحة.. فقال وليد “لننفيذ ما خططنا له ولنسرع بالمغادرة.. لا بد أنهم أدركوا وجودنا الآن ويبحثون عنا”

استغرق منهم تنفيذ عملهم عدة دقائق قبل أن يقوم وليد بتوزيع بضع قنابل يدوية صغيرة في الغرفة صنعها من المواد التي أحضرها له الحارس من المستودع وأشعلها.. وخرجوا من الغرفة بعدها ليغلقوا الباب بإحكام باستخدام عارضة خشبية لتمسك طرفي الباب فلا يفتح بسهولة.. ثم ركضوا مبتعدين عن الموقع واختبأوا في جانب المخزن..

مرت لحظات انتظار طويلة، قبل أن يدوي انفجار محدود في المكان أطار العارضة الخشبية والباب يفتح بقوة وأحد طرفيه يميل جانباً بعد أن انفصل من موقعه.. ومن الباب المفتوح، كان الدمار واضحاً لأعينهم جعل الحارس يغمغم “أتظن هذا التصرف عقلائي؟” قال وليد وهو يغادر “هذه خطة خالد.. ولنأمل أن يكون مدركاً لما يفعله حقاً..”

عندما انتشر أمر السوار المعطل في أرجاء المنجم (أ)، بدأ السجناء في ترك مواقعهم بشيء من التردد سرعان ما تحول لثقة وعدوانية وهم يندفعون خارجين ومتجاوزين الحراس الذين قاموا بتهديدهم بكل الطرق الممكنة.. لكن لا التهديد ولا الطلقات التي أطلقت في الهواء خارج المنجم نجحت في ردع السجناء.. وسرعان ما تجمع السبعون سجيناً تقريباً في ساحة المنجم يتصايحون بمزيج من اللهفة والظفر وكأنهم نالوا حريتهم أخيراً.. وكما يحتم مثل هذا الموقف، فقد ارتقى أحد الرجال شديدي المظهر صخرة عالية وصاح في البقية “ما الذي يجبرنا على البقاء في هذا الذل المهين؟ نعم، نحن سجناء.. لكن لا شيء يجبرنا على العمل كعبيد مسخرين.. ولا ننال أي راحة أو حقوق على هذا العمل”

تعالت صيحات السجناء توافقه على هذا، بينما تجمع الحراس الذين لا يتجاوز عددهم العشرون في جانب المكان محاولين الاتصال بالإدارة للحصول على إمدادات.. أما الرجل فقد قال ملوحاً بيده “أنا سأأتجه للمباني الإدارية.. سأغادر هذا الكويكب، ولا يمكن لقوة أن تمنعني.. ليس بعد أن تخلصنا من هذا السوار البغيض”

تحمس الكثيرون لهذا القرار، فنزل الرجل من موقعه وبدأ يصعد خارجاً من المنجم والجمع كله خلفه بحماس منقطع النظير.. لكن لم يكد يصل لحدود المنجم حتى وجد الحراس أمامه شاهرين أسلحتهم وأحدهم يقول بغلظة “هذا هو الإنذار الأخير.. لن نتردد في استعمال العنف معكم لترتدعوا عن هذه الحماقات.. السوار سيعود للعمل

قريباً، فلا تضطرونا لاستخدامه”

تقدم بعض السجناء عدة خطوات والرجل الذي يقودهم يقول بسخرية “نريد أن نراكم تحاولون ذلك.. كم شخصاً ستسقطون منا قبل أن نسقطكم نحن؟ وتأكد أننا لن نتعامل معكم بأي رحمة..”

وتقدم عدة خطوات من مخرج المنجم، لكن الحارس أطلق سلاحه نحو الرجل لتصيبه الرصاصة في ساقه بحيث صرخ متألماً وهو يركع أرضاً.. لكن هذا لم يشعل في قلوب الآخرين إلا الغضب، فتدافعوا وهم يصرخون نحو الحراس الذين أصابهم هذا بالارتباك وهم لم يتلقوا الأوامر بقتل أحد.. أطلق بعضهم عدة رصاصات أصابت السجناء إصابات متفرقة وإن لم تكن خطيرة، لكن هذا زاد من غضب السجناء وجماعة منهم يلتحمون مع الحراس في معركة يدوية قصيرة قبل أن يفقدوهم أسلحتهم.. لكن هذا لم يكن كافياً لتهديئة غضبهم وهم ينقضون على من أمامهم من الحراس بعنف شديد، قبل أن يتدافعوا خارجين من المنجم وقد أسكرتهم الحرية المؤقتة التي حصلوا عليها.. تقدمهم الرجل الذي ربط ساقه المصابة بمساعدة أحد السجناء، وبدأوا طريقهم بعزم نحو جهة محددة.. المباني الإدارية..

عندما وصل القائد لموضع الانفجار الذي أثار الانتباه في المخزن، وتفحص الغرفة ملاحظاً حائطها الذي اسودّ لونه وبقايا الصناديق التي تبعثرت قطعاً صغيرة، يتناثر معها فتات زجاج مبلل بسائل شفاف.. اسودّ وجهه حتى صار ينافس الحائط أمامه، وقال للمساعد الواقف بجواره “ولم تقبضوا على الهاربين بعد؟”

قال المساعد بتوتر بالغ “لا.. لكن الحراس يمشطون الساحة كلها بحثاً عنهم”

غمغم القائد بغیظ “فات الأوان.. لقد هربوا بالتأكيد..”

تساءل المساعد بقلق “ما الذي سنفعله الآن يا سيدي؟ هذه كارثة.. المخزون كله قد دمر ولم تبق نقطة واحدة صالحة من العقار”

قال القائد بصرامة “أول ما سأفعله هو التحقيق في تهاون الحراس في المراقبة.. كيف يستطيع من تسلل للمباني الإدارية إحداث كل هذا الفساد والهرب دون أن يلحظه أحد؟”

كان المساعد منشغلاً بالإنصات لجهاز الاتصال، ثم قال بشيء من التردد “في الواقع، لقد هربوا الآن يا سيدي.. استخدموا إحدى مركباتنا في فتح ثغرة في السور والهرب بها..”

تغلب القائد على صدمته وهو يركل ما أمامه صائحاً “ما هذا الغباء.. لست أدري من أين يحضرون هؤلاء الحراس عديمي القيمة”

غمغم المساعد “لأنهم مجرد حراس أمن يا سيدي.. لا يمتلكون مهارات خاصة وأغلب اعتمادهم على الأسلحة

في أيديهم وركونهم لكون السوار يغنيهم عن أي مجهود..”
فقال القائد بحدة “بعد انتهاء هذه الأزمة، سأفصلهم جميعاً وأطلب من المؤسسة تعيين جنود ذوي خبرة في القتال.. ما عاد الوضع يطاق بهذه الطريقة”
وصله اتصال من أحد الحراس في المنجم (أ)، فتلقى نبأ ما حدث هناك بوجه محتقن غيظاً قبل أن يصيح “لِمَ لَمْ تقتلوا منهم عدة رجال كي يقتنعوا أنكم جادون في تهديدكم؟ هل عليكم الرجوع إليّ في كل أمر؟”
نظر له المساعد بتعجب وهو يسمعه قول بحنق “ماذا تعني أنهم قادمون للمباني الإدارية؟ ما الذي يحاولون فعله أولئك الجبناء؟”
سرعان ما أنهى الاتصال وهو يدمدم بغضب “أولئك الحمقى..”
وأسرع يغادر الموقع، فتبعه المساعد قائلاً بقلق “لكن يا سيدي.. ماذا عن العقار؟”
التفت القائد بحدة وصاح “ماذا عنه؟ لقد دمرت الصناديق تماماً.. فما الذي أستطيع فعله؟”
اندفع المساعد يقول بفرع “لكن.. أنسيت يا سيدي؟ لم يبق على زوال تأثير العقار إلا يومان.. ما الذي سنفعله عندها؟”
قطب القائد قائلاً “وماذا عن الحملة الجديدة؟”
قال المساعد بشحوب “لن تصل قبل أسبوع..”
زفر القائد بحنق وهو غارق في التفكير، ثم نظر للمساعد وقال بأمر “حاولوا تتبع أولئك الهاربين باستخدام المركبة التي هربوا بها.. أنا سأذهب للتحدث مع ماك..”
هز المساعد رأسه وهو يهرع خارجاً.. مادام القائد سيجتمع بماك، وهو الرئيس الفعلي للمؤسسة على الكويكب، فهذا معناه أن قراراً كبيراً سيتخذ بشأن ما جرى..

الفصل السادس والعشرون

[خيانة]

عندما وصلنا لأول وأقرب المناجم وهو المنجم الذي عملنا فيه سابقاً، فوجئنا بالهدوء العارم في الموقع، وهو منظر غريب لم نعهده في وضح النهار.. والمنظر الآخر الذي صدمنا هو رؤية بعض الحراس الذين لا يتجاوز عددهم العشرون يجلسون أرساً بجراح وضربات مختلفة.. يبدو أنهم قد تعرضوا لعنف كبير من السجناء.. وإن كان الأمر لا يتعدى ذلك لحسن الحظ..

بدا الحراس مندهشون من منظرنا بعد خروجنا من الغابة ورأيت أكثر من واحد منهم يتحفز ممسكاً بسلاحه.. لكن خالد، وأمجد يتبعه، قد اقترب منهم وسألهم عما جرى في المنجم.. ثم بدأ يخبرهم بكل ما جرى ويجري من إداريي المؤسسة، وبكل ما يتبع ذلك من عواقب، وطلب منهم مساندة في المرحلة القادمة..

تلفت حولي بعدما علمت برحيل السجناء، فلاحظت أنهم قد تقدموا مسافة بعيدة باتجاه المباني الإدارية.. كانوا يبدوون لعينيّ بوضوح مع عددهم الكبير، فالتفت لأدهم الواقف قربي قائلة "ماذا نفع الآن؟ لن تردع المؤسسة في منعهم من دخول موقعها حتى لو قتلوا عدة أشخاص منهم.. فكيف نمنع ذلك؟"

سمعت خالد الذي اقترب يقول لي "سأذهب للحديث معهم وأحاول إقناعهم بعدم جدوى اقتحام المباني الإدارية.."
قلت مقطبة "وتظنهم سيستمعون لصوت العقل؟ أنت واهم"
قال خالد مبتسماً "لا ضير من المحاولة"

أصابني تعجب كبير منه.. إنه يمتلك ثقة مطلقة تجعلني أندش من منطقه.. لكن ليس بيدنا الآن إلا أن نطيعه بصمت..

رأينا مركبة تقترب منا من مباني الإدارة بعد أن تجاوزت السجناء دون أن تتعرض لهم، فتهلل لها وجه الحراس خلفنا وهم يظنون الإدارة قد أرسلت من يساعدهم بينما توجسنا نحن وعدد من الحراس يبدوون فيها من على مبعده.. لكن مع اقترابها تمكنت من رؤية وليد ورفاقه في المركبة وقد توقفوا قريباً منا ووليد يسرع للهبوط منها مقترباً منا بينما اتجه بقية الحراس لرفاقهم في المنجم ليتفقدوا أحوالهم ويعينوهم.. اقترب وليد من خالد قائلاً "ما الذي جرى هنا؟ هؤلاء هم كل السجناء الذين يعملون في هذا المنجم؟"

أجاب خالد "أجل.. إنهم ينوون اقتحام المباني الإدارية.. وأظنهم ينتوون شق طريقهم للسفينة الفضائية"
قال وليد باستنكار "هذا جنون.. المؤسسة لن تتردد في استخدام العنف لمنعهم من ذلك"
سأله خالد "ماذا فعلت فيما طلبته منك؟"

أجاب وليد "لقد نفذنا ما طلبته بنجاح.. ولقد أثار هذا بلبله في المباني الإدارية"

قال خالد "جيد.. لن يطول الوقت بالإداريين قبل أن يدركوا أن حالهم هنا يسير من سيء لأسوأ، خاصة مع الثورة المحدودة التي هي بداية ثورة السجناء على الكويكب.. ربما عندها قد يرضخون لمطالبنا"

سألت وليد "كيف هربت منهم إذاً وحصلت على هذه المركبة؟"

أجاب وليد مبتسماً "فعلت ذات ما فعله إدوارد من قبل.. حطمت السور مرة أخرى بهذه المركبة"

فسأله أمجد "وما الذي نفذته في المباني الإدارية؟"

قال خالد وهو يراقب السجناء "لقد طلبت منه تفجير مخزون الإدارة من عقار آريا"

نظرنا له مصعوقين، فكان أول من تحدث هو أدهم الذي هتف "لماذا؟ هذا قرار خطير.. خطئك تزداد حماقة بمرور الوقت وتجعلني أشك في ذكائك.."

نظر له خالد وقال بهدوء "أخبرتك أنني سأجبر الإدارة على الرضوخ.."

قطبت وأنا أفكر بعواقب كل ما يجري، بينما اقترب منا أحد الحراس قائلاً "الحراس هنا يحاولون الاتصال بالإدارة.. يريدون إمدادات أكثر ليتمكنوا من احتواء الثورة قبل وصولها للمباني الإدارية"

سأله خالد "وإم أجاب القائد؟"

أجاب الحارس بتعجب "لقد حادثهم القائد سابقاً وأمرهم بإرهاب السجناء حتى لو اضطروا لقتل بعضهم.."

لم يكن هذا مستغرباً من الإدارة حقاً، وقد أضاف الحارس "أما الآن فهم لا يتلقون أي استجابة.. لقد حاولوا الاتصال بفائد الحراس باستخدام قناة خاصة، والآن يستخدمون القناة العامة أملاً في استجابة أحد مساعديه"

تساءلت "أتظنون أمراً ما قد حلّ في الإدارة؟ صمتهم هذا مريب"

غمغم وليد وهو يحك فكه "لست أدري.. الأمور ليست مطمئنة تماماً.. رغم أننا غادرناهم منذ أقل من ساعة.."

فقال خالد "خذونا لموقع السجناء بالمركبة.. يجب أن نوقف تقدمهم قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.."

توزعنا على مركبتين، إحداهما التي أتى بها وليد والأخرى كانت واقفة في جانب المنجم.. وقد رافقنا بعض الحراس من المنجم بينما بقي البعض للعناية برفاقهم ممن أصيبوا قبل قدومنا..

قاد وليد المركبة بسرعة باتجاه الجموع التي تتقدم بشكل حثيث باتجاه المباني الإدارية وقال "لا أنصح بالاقتراب منهم كثيراً.. إنهم مستعدون لفعل أي شيء لتحقيق هدفهم الآن"

غمغم خالد "أعلم ذلك.."

عندما تجاوزت المركبة الجموع المندهشة واعترضت طريقهم تتبعها المركبة الأخرى، أسرع خالد يهبط من المركبة برفقة الآخرين وكل منهم متحفز بسلاحه مع مرأى الوجوه التي تعلن شرستها بوضوح.. فتقدم خالد هاتفاً "أيها السجناء.. استمعوا إلي.. لا داعي لهذا التهور فعواقبه لن تكون حميدة"

صاح أحد الرجال "ومن تكون أنت؟ إنك سجين مثلنا.. ألا تريد الخروج من هذا الكويكب؟"

قال خالد "بالطبع أريد.. لكني لا أريد أن تسكب دماء في سبيل تحقيق ذلك.."

نظر السجناء لبعضهم البعض دون اقتناع، فتقدم أحد الحراس قائلاً "الإدارة قد طلبت من الحراس استخدام أي وسيلة لإيقافكم.. ولا يهمها لو قتلنا منكم عدة أشخاص"

تزايد الغضب في صدور السجناء وأحدهم يقول "شيء متوقع.. هذا يدلّ على خسة أولئك الإداريين" أسرع الحارس يقول بصوت عالٍ ليصل صوته للجميع "لكننا لم نفعل.. لا يريد أي حارس قتل أحد السجناء لأي سبب.. ونحن مقتنعون أن الإدارة ترتكب الكثير من الأخطاء التي يجب أن تعاقب عليها.. لكن ليس بهذه الطريقة ذات العواقب الوخيمة.."

تقدم خالد خطوة وهو يهتف "أريد منكم مساعدتي.. أنا أسعى لإخراجكم من هنا بأسرع ما نستطيع.. أريد إجبار المؤسسة على ترحيل السجناء من الكويكب كله وإعادتهم للأرض.. فهل ستتصرفون بعنف ودون أي تقدير مع مخاطر ذلك؟ أم تعاونوني لنحقق ذلك بأقل الخسائر الممكنة"

رغم التردد الذي غزا الوجوه إلا أن بعض السجناء قد بدأ يصيح مستخفاً الفكرة.. لاقى خالد عدة اعتراضات من مجموعة كبيرة من السجناء، لكنه لم يفقد أعصابه وهو يحاول احتواء ثورتهم بهدوء.. ظللت صامتة أتأمل ما يجري.. رغم سروري بتمكن السجناء من نيل حريتهم، لكنني أتمنى ألا تحدث فوضى في المكان وألا تسيل أي دماء هنا، ويبدو أن الإدارة عازمة على ذلك..

ورغم الأصوات العالية، إلا أن صوتاً أعلى وأكثر إزعاجاً قد هدر مسكناً الجميع والرؤوس تلتفت باتجاه واحد.. نظرت للأعلى بدوري بدهشة وأنا أرى خيط الدخان الذي عبر السماء خلف السفينة الفضائية التي أقلعت كالمعتاد.. لكن مهلاً.... لا يوجد أي اعتياد فيما جرى هنا.. السفينة قد وصلت البارحة ولم يكن من المفترض أن تغادر قبل الغد.. وهي لا تغادر في مثل هذه الساعة من النهار بل لها موعد لا تتأخر عنه كل يوم.. فما الذي جرى؟..

التفت تجاه وليد باستفهام فرأيت عيناه متسعتان وهو يهمس "الأوغاد.. هل فعلوها حقاً؟" سألته بقلق "ماذا تعني؟"

لم يجبني وهو يندفع نحو المركبة المتوقفة جانباً، فتبعته بسرعة تاركة أمجد ينادينا.. يجب أن أفهم ما جرى، ولم تكن النظرة التي تبدت في عيني وليد مطمئنة البتة.. قفزنا في المركبة وسارع وليد بقيادتها عبر طريقها المعتاد عائداً نحو المباني الإدارية.. وخلال أقصر وقت تمكنا من اختصاره كنا ندلف من البوابة التي كانت، للدهشة، خالية من أي حراسة.. أوقف وليد المركبة فجأة وسط الساحة، فوقفنا في المركبة نتأمل ما حولنا.. كانت الفوضى تعم المكان تماماً.. الأغراض مبعثرة، والساحة خالية تماماً من أي بشر.. أبواب المباني مشرعة، حتى باب مبنى العزل كان فارغاً فاه بصمت رغم الصرخات التي تتسرب منه بضعف..

نظرت حولي متسائلة "ما الذي جرى؟"

قال وليد بغیظ "لقد فعلوها.. يبدو أنكم أحسنتم الظن بالمؤسسة أكثر مما تستحق"

سألته بتعجب "ماذا تعني؟"

لم يجبني وهو يغادر المركبة ويندفع نحو أقرب المباني إليه.. فتح الأبواب، وتفحص الغرف، وبحث في أرجاء المكان كله، وأنا خلفه أتأمل المكان وأتأمل تصرفاته بتعجب.. ثم سألته بتوجس "أين ذهب الجميع؟ لا تقل لي....."

قال وليد زافراً "رحلوا في تلك السفينة.."

قلت بذهول "جميعهم؟ لماذا؟ وماذا عن بقية الحراس؟ ماذا عن السجناء؟"

قال بحدة "نبذوهم.. تركوهم لمصيرهم.. أسرعوا ينفذون أعناقهم دون أن يعبؤوا بأي شخص آخر.."

قطبت أحاول ابتلاع تلك الصدمة، بينما أسرع وليد مغمماً "هناك وسيلة وحيدة لمعرفة ما جرى حقاً"

أسرعت خلفه بصمت، فرأيت أنه يتجه لمبنى صغير قريب دلفه بدون عسر مع غياب الحراسة، واتجه لقاعة واسعة بها الكثير من الأجهزة والشاشات، فاقترب من أحد الأجهزة وتفحص جهازاً متوسط الحجم متصلاً بالبقية بعدد من التوصيلات، وتناوله قائلاً "هذا هو وسيلتنا لمعرفة كل ما يجري هنا.. أرجو فقط ألا....."

قاطعته وأنا أشير لصندوق آخر مثبت في زاوية الغرفة قائلة "وهذا ما عمله؟ إنه يصدر إشارة بشكل مستمر.."

نظر له قائلاً "ليس هذا مهماً.. إنه....."

قطع حديثه وعيناه تتسعان لمراى الصندوق.. كان أسود اللون لا يبدو عليه أي شيء، إلا شاشة صغيرة سوداء عليها أرقام بلون أحمر صارخ تبدو كعدّ تنازلي.. فسمعت وليد يقول من بين أنفاسه "إنها قنبلة.."

صدمت لقوله وأنا أرى العد التنازلي مستمراً.. ١٤ .. ١٣ .. ١٢ ..

فصاح وليد "أسرعي.."

لم أدر ما عليّ فعله، بينما تناول هو كرسيّاً وطوحه بقوة في النافذة القريبة منا، والتي تهشمت بعنف مع ارتطام الكرسي الذي سقط خارجاً.. فعاد وليد يصيح بي "اقفزي بسرعة.."

ركضت نحو النافذة التي كانت منخفضة وقفزت دون إبطاء رغم أنني استندت بيدي على إفريزها ذو الزجاج المتكسر.. وتبعني وليد خلال ثمانية ففقر بسهولة ليستقر خارجاً على قدميه ويدفع بي أمامه ونحن نركض مبتعدين عن المبنى وعن المباني كلها..

٢ .. ١ .. ٠ ..

وصمّ أذنيننا انفجار قويّ هز المبنى خلفنا كله.. تتابعت معه عدة انفجارات في أجزاء متفرقة من المباني الإدارية.. ورغم أننا حاولنا الابتعاد عن مرمى الانفجار إلا أن قوته قد دفعتنا لنسقط أرضاً.. فور سقوطي ربضت بموقعي حامية رأسي بذراعي من الصخور والأخشاب المتطايرة، وشعرت بوليد يركع قربي ويحميني بجسده رغم كثرة الحطام المتطاير وبعضه لم يكن صغير الحجم.. دام الانفجار والفوضى أبداً طويلة بالنسبة لنا لا لحظات معدودة كما حدث بالفعل.. ولما هدأ كل شيء، بعد الفوضى العارمة، اعتدلنا والتفتنا خلفنا لنرى مقدار الدمار الذي أصاب

كل شيء.. كانت المباني الإدارية كلها دون استثناء قد تحطمت ولم يبق منها إلا بقايا جدران آيلة للسقوط، والنار بدأت تأكل ما تبقى منها.. نظرت لوليد بقلق وسألته “أنت بخير؟ ألم تصب بأذى؟”
نظر لي متسائلاً بدوره “وأنت؟ هل تأذيت؟”

نظرت ليدي التي جرحت بسبب الزجاج المتحطم، مغممة “عدا عن هذه الجروح، فأنا بخير.. شكراً لك
لحمائتي..”

غمغم وهو يرفع يده بما تحمله “أتمنى فقط ألا نكون خسرنا ما جننا لأجله..”

نظرت ليده فرأيت الجهاز الأسود الصغير وقد نزع من توصيلاته قبل هربه كما يبدو.. وسمعتة يضيف “هذا هو قرص خارجي يحتوي على كل المعلومات التي نحتاجها لنعرف ما جرى.. فهو يحتوي على كل تسجيلات أجهزة المراقبة في المباني الإدارية، وعلى مدار أسبوع واحد.. المعضلة الآن في وجود جهاز يمكننا من استخراج ما به من معلومات..”

نظرنا للدمار من حولنا بصمت.. من المستحيل أن نعثر على جهاز كمبيوتر بحالة سليمة.. ثم فوجئت بوليد يقفز واقفاً وهو يهتف “اللعة.. نسينا مبنى العزل..”

وجرى نحو المبنى الذي يقع في زاوية منعزلة من الساحة، وأنا خلفه متعجبة من ركضه.. لاحظت أثناء ذلك أن الانفجار لم يبخل على وليد بالإصابات.. إذا تناسينا الغبار والحجارة التي تركت آثار ضربها على ظهر معطفه، فإن بعض الدماء كانت تبلل شعره من الخلف وتسيل على ياقة معطفه.. وهناك ضربة لا بأس بها على كتفه الأيمن وقد شقت ملبسه التي تلطخت بالدماء بدورها.. لكن وليد لم يبدُ عابئاً بكل ذلك وهو يقترب من مبنى العزل، الذي لحسن الحظ لم يكن قد لَعَم بأي قنابل فلم يلحقه دمار كثير إلا ببعض التهدم الذي أصاب جانبه.. لكن ما أفرعنا هو النيران التي اندلعت حيث تهاوت الجدران وبدأت تأكل الطابق السفلي منه.. كان المبنى مكوناً من طابقين بخلاف السفلي، ولست أعلم بالضبط كم من الغرف يضم بقلبه.. لكن بدا أن عدد السجناء الذين ثرکوا فيه ليس قليلاً.. فصرخاتهم التي تزايدت جعلتنا ندرك أن النيران قد طالت بعض الغرف في المبنى..

شعرت بذعر شديد وأنا أدرك أن السجناء في المبنى قد حبسوا كالفئران في جحرها، تحاصرهم النيران والأبواب المغلقة.. رأيت وليد يهرع لجهة من المبنى حيث رأيت خرطوماً للماء معلقاً على الحائط قام بفتحه وبلل ثيابه بالماء بسرعة.. فقلت له بدهشة “ما الذي ستفعله؟”

أجابني مقطباً “طبعاً سأذهب لأفتح الأبواب.. لا يمكن أن نتركهم ليموتوا اختناقاً أو حرقاً..”

قلت بذعر “لكن الطابق السفلي يحترق بشكل كامل.. وأنت مصاب..”

لم يعبأ بقولي وهو يرمي الخرطوم جانباً ويهرع للبوابة المفتوحة.. فقبضت ذراعه وأنا أهتف “مهلاً.. ساتي معك
لأساعدك”

قال لي بسرعة “لا تفعل.. لن تستطيعي مساعدتي بشيء..”

قلت وأنا أزيد من تشبثي به “بل سأفعل.. أخشى ألا تتمكن من الفرار.. ماذا لو تهدم المبنى على رأسك؟ بل كيف ستجد طريقك وسط هذا الدخان الكثيف؟”

فدفع يدي وهو يقول بحدة “وكيف ستساعديني لو حدث ذلك؟ أنا أحفظ هذا المبنى عن ظهر قلب، ولن يضرني هذا الدخان بشيء.. ابق هنا ولا تزيدي أعبائي..”

ثم ناولني الجهاز الذي كان قد تركه جانباً وأضاف “سأعود.. ثقي بذلك”

واندفع للداخل بعد أن رفع معطفه المبلل ليغطي رأسه.. كان موقفه مستحيلاً، فالدخان الكثيف الذي يخرج من

البوابة يعني أن الحريق متزايد ويلتهم جزءاً كبيراً من المكان.. فحتى لو تمكن من الدخول وإنقاذهم فكيف

سيخرجون؟..

بعد لحظات طالت وأنا أسمع الصراخ المتعالي والذي تزايد الذعر والألم فيه، سمعت خلفي صوت مركبة تقف

قريباً وأقدام كثيرة تهبط منها.. التفت للوراء لأجد أمجد وأدهم مع أربعة من الحراس يقتربون منا والذهول يعلو

وجوههم، بينما اقترب مني أمجد وأمسك ذراعي متسائلاً بقلق شديد “أنت بخير يا حمراء؟ ما الذي جرى لك؟ ما

كان كل ذلك الانفجار؟ لقد شاهدناه من بعد بوضوح..”

قلت بتوتر “أنا بخير.. لكن وليد...”

سألني بقلق أكبر “ما به وليد؟ ما الذي جرى هنا؟”

أشرت للمبنى المحترق قائلة “اندفع لإنقاذ من بقي من السجناء في مبنى العزل قبل أن يحترق المبنى بأكمله..”

وأضفت بتوتر شديد “لقد هرب الإداريون في السفينة التي أقلت قبل وقت قصير.. وقد تركوا لنا قنابل موزعة

في المباني الإدارية.. ولو تأخرنا في الهرب من المباني بلحظات لكانت أشلاؤنا ملقاة في كل مكان..”

تزايد ضغط يديه على ذراعي وهو يتنهد قائلاً “الحمد لله على نجاتك.. لو أنك لم تذهبي معه.... لقد أفلقتني بشدة”

لمحت الضيق في صوته في اللحظة التي تردد فيها عن الحديث، لكنني قلت وأنا أنظر للمبنى المحترق “المهم

الآن أن نساعد ونؤكد من نجاته هو والآخرين..”

قال أحد الحراس وهو يرمي بسلاحه لآخر “سأحاول الدخول خلفه وإنقاذ من بقي من السجناء..”

واندفع بدوره ليغرق نفسه بالماء ليمنع النيران من أن تشب في ملابسه لأقصى وقت ممكن، وتبعه حارس آخر

بصمت.. لكن قبل أن يقتربا من البوابة، سمعنا صوت قرقعة قوية، قبل أن يتهاوى جزء آخر من المبنى بقوة

مثيراً غباراً على مسافة كبيرة أغشى أعيننا ونحن نسعل بقوة.. ولما هدأ كل شيء نظرنا للحطام الذي تخلف عن

ذلك الجزء وقلقتنا يترادف.. هل كان وليد قريباً من ذلك المكان؟ هل أصيب أحد السجناء ممن بقوا هناك؟.. كان

الحطام قد سدّ مدخل المبنى تماماً، والنيران تآكل أي جزء ظاهر من المبنى مما جعل من العسير على الحراس

أن يندفوا من أي بقعة منه..

تساءل أدهم “كيف سيقدر وليد ومن معه على الخروج الآن؟”

نظرت للمبنى الذي لم يكن يحوي على نوافذ من أي نوع.. بدا الموقف يائساً تماماً، وشعرت بضيق وقلق شديدين وأنا أدعو الله أن ينجو وليد والبقية من هذا المبنى.. وبعد مدة طالت، ونحن لا نسمع إلا صوت النيران وهي تلتهم كل ما تقع عليه، تناهى لسمعنا صوت صراخ صادر من جانب المبنى.. اندفعنا لذلك الجانب، فرأينا في أعلى طابق، عند نافذة صغيرة يبدو أنها تطل على الممر الواقع بين الغرف، رأينا عدة وجوه تبدو من النافذة وبعض السجناء ينظرون للأسفل بحثاً عن وسيلة للهروب.. فقال أدهم “يجب أن يقفزوا..”

قال أمجد مقطباً “لن ينجوا من الكسور التي قد تكون مميتة..”

تلفتنا حولنا بحثاً عما يمكن أن نضعه في الأسفل لنخفف سقوطهم، فلم نجد أي شيء في الحطام من حولنا.. ثم شاهدت أدهم يندفع فجأة نحو كومة من الصناديق التي سقطت جانباً ومحتوياتها من المعدات قد تبعثرت أرضاً.. فتناول الغطاء الغليظ الذي كان يغطي الصناديق تلك، وجلبه حيث وقف بقية الحراس قائلاً “لنحمله ونفردته تحت تلك النافذة.. بهذا يمكننا أن نخفف من سقوطهم..”

تعاون الحراس الأربعة مع أدهم وأمجد بحمل الغطاء الذي كان لحسن الحظ كبيراً، وفردوه وهم يقفون قريباً من المبنى تحت النافذة.. وهتف أدهم للسجناء بالأعلى “اقفزوا واحداً تلو الآخر..”

بدا التردد على الوجوه، لكن أحدهم دفع الآخرين ووقف على إفريز النافذة، ثم رمى بنفسه من ذلك الارتفاع دون تردد ليهوي خلال ثوان أرضاً فتلقاه الرجال بالغطاء الذي انثنى بقوة تحت ثقل سقوطه، قبل أن يخفضوا الغطاء والرجل يقف أرضاً ويبتعد وهو يسعل من أثر الدخان ويقول “ما الذي جرى هنا؟ من الذي قام بتفجير المباني تلك؟”

لم يجبه أحدهم بكلمة وهم يستعدون لاستقبال سجين آخر، بينما وقفت أنا متحفزة وقد قاموا بتوليتي أسلحة الحراس خشية أن يحاول أحد السجناء الاستيلاء عليها مني..

تتابع السجناء من رجال ونساء في الهبوط دون أن يصاب أحدهم لحسن الحظ، عدا رجلين بدا أن الحريق قد وصل غرفهما وقد أصيبا بحروق متفرقة في أجسادهما دون أن تكون خطيرة.. وأخيراً قفز وليد الذي كان آخرهم ليهبط أرضاً بسلام ويقف وهو يسعل بقوة..

عندها قمت بتسليم الأسلحة التي أملكها للحراس قبل أن أقرب من وليد بقلق.. كانت ملابسه قد اسود لونها من الدخان والحريق دون أن يبدو أن النار قد أصابته، وعيناه محمرتان دامعتان من أثر الدخان القوي الذي تعرض له.. فسألته “أنت بخير؟”

هز رأسه إيجاباً وهو عاجز عن إيقاف السعال.. وسمعت أحد الحراس يسأله “أهؤلاء هم كل السجناء؟” قال وليد بعد أن تمكن من تمالك نفسه “هؤلاء هم من تمكنت من إنقاذهم..”

اتسعت عيناى بذهول والحارس يسأله “والبقية؟ ماذا حدث لهم؟”

هز وليد رأسه مجيباً “قضى عليهم الانفجار.. بالإضافة إلى التهدم الأخير الذي أصاب ذلك الجانب من المبنى..”

أصابنا الوجوم لتلك الأخبار وضيقني يتزايد من كل ما أراه.. لماذا فعل الإداريون ذلك حقاً؟ كيف تخلوا عن الجميع بهذه الطريقة؟ ولماذا يسعون لتدمير المباني قبل رحيلهم؟..

تعالى تدمر السجناء ومطالبتهم بتفسير لكل ما جرى.. فتولى ذلك أحد الحراس بينما قلت أنا لوليد “يجب أن تعالج جرح رأسك قبل أن يتفاقم أمره..”

وضع وليد يده على مؤخرة رأسه حيث الجرح لا يزال ينزف وقال “إنه جرح سطحي ليس إلا.. المهم الآن ما سنفعله.. ما حدث هنا سيترتب عليه أمور كثيرة ودمار كبير في الكويكب.. فلا يجب أن نستهيئ بكل ذلك”

سأله أمجد مقطباً “ماذا تعني؟”

سمعنا صوت خطوات راکضة خلفنا، ولما التفتنا رأينا ذلك الحارس الذي كان مسجوناً في مخبئنا، وقد اجتاز بوابة المباني الإدارية وهو ينظر للخراب من حوله بعينين متسعيتين.. قبل أن يصيح بصدمة “لا.. مستحيل.. ما الذي جرى هنا؟ أين الجميع؟”

وأسرع إلينا ليهتف بوليد “ما الذي فعلتموه؟ أين قائد الحراس والبقية؟ هل..”

قاطعته وليد وهو يفك قيد يديه “اهدأ.. لقد رحل الجميع”

تزايدت صدمة إيريك وهو يصيح “كذب.. لقد وعدني القائد بترقية.. وعدني أن وضعي سيصبح أفضل بعد أن أقودهم إليكم.. كيف يمكنه فعل ذلك؟..”

قال وليد بصرامة “كي تعلم أنهم خونة.. لم يهتموا بك، وبأي ممن هم على هذا الكويكب.. لقد رحلوا وتركوك لمصيرك.. فهل تنوي معارضتنا أم تضع يدك في أيدينا لننجو من هذا المصير؟”

ظل إيريك ينظر إليه مبهوتاً والصدمة تكاد تفقده وعيه، بينما اقترب حارس آخر وهو يقول “ما الذي سنفعله الآن بهؤلاء السجناء؟”

تنهد وليد قائلاً “علينا أن ننقلهم للمساكن القريبة ونتأكد من أنهم لن يهربوا.. لا نريد أن نضيع وقتنا في البحث عن كل هارب هنا.. ما الذي حدث مع خالد والسجناء؟”

أجاب الحارس “لم يستطع السيطرة عليهم مع حدوث الانفجار.. إنهم قادمون إلى هنا، وغضبهم سيكون عارماً”

قال وليد بحنق “لهذا كنت معارضاً لتحطيم جهاز التحكم بالأساور.. سيفلت الوضع من أيدينا مع مغيب الإداريين فلا سلطة لنا على السجناء الآن”

صمتنا دون تعليق ونحن نفكر في ما علينا فعله منذ الآن.. ولم يكن من السهل تقرير ذلك..

استسلم وليد لي وأنا أضمد رأسه بعد أن ظهرت الجرح الذي كان كما قال سطحياً.. كنا قد عثرنا على حقيبة

إسعافات أولية في حطام المباني، ولحسن الحظ كانت مبطنة جيداً فلم تتحطم زجاجات الأدوية بداخلها.. وقرينا جلس أمجد مقطباً وأدهم إلى جواره.. كان الهدوء يعم المكان بعد أن جلس السجناء جانباً وقربهم الحراس بصمت واستسلام تام..

قال أدهم محطماً الصمت "ماذا عنيت بأن دماراً كبيراً سيحل بالكويكب؟ أتعني ثورة السجناء؟"
قال وليد "ليس هذا فقط.. لقد هرب الجبناء تاركين الكل لمصيرهم.. أخذوا سفينة الفضاء الوحيدة وهربوا مع أذناهم وتخلوا عن الجميع.."

تساءلت "ولم الحاجة للهرب بهذه السرعة؟ أيسبب هذه الثورة الصغيرة؟"
قال وليد نافياً "بل بسبب تفجيرنا لمخزونهم من العقار.. موعد جرعة الإداريين وبعض الحراس ستحين خلال يومين، ولن تأتي دفعة جديدة منها قبل أسبوع.. لذلك هم هربوا لإنقاذ أعناقهم وتركوا المذنب وغير المذنب يواجه الموت.."

قال أمجد "لم المبالغة؟ الموت كلمة كبيرة"

قال وليد بابتسامة ساخرة "أتظن ذلك؟ لا نملك مخزوناً كافياً من عقار آريا.. لو لم تكن تعلم فالسجناء يحقنون بذلك العقار بشكل دوري، ولا يتم ذلك في وقت واحد بل في أوقات متفرقة.. لذلك لا نعلم من ستظهر عليه أعراض انحسار العقار قبل الآخرين.. ثم إنهم حطموا جميع وسائل الاتصالات بخارج الكويكب.. وأشك أن يعلم العالم الخارجي بشيء مما جرى هنا.. لا أشك أنهم ينتظرون موتنا جميعاً اختناقاً قبل العودة للسيطرة على المناجم"

صدمت لهذه الفكرة البشعة، بينما تساءل أمجد "ربما يعود الإداريون بعد فترة بسيطة بقوة أكبر للسيطرة على المناجم دون خسائر بشرية"

علق وليد "هذه عاقبتها أشد على الجميع.."

فتساءل أدهم "ولماذا دمرنا المباني ماداموا يبنون العودة ولو بعد حين؟"

أجاب وليد "أولاً لتدمير كل شبكات الاتصال وعزلنا لئلا نستجد بالخارج، ثانياً لتدمير كل دليل قد يكون موجوداً في ملفاتهم ضدهم.. ربما بعدما يحدث هنا، سواء أعادوا قريباً أم تركونا نواجه مصيرنا، فلا أشك أن يحضر أشخاص من مجلس الأمن الدولي وربما جمعيات حقوق الإنسان للتحقيق في ما حدث على الكويكب.. عندها يستطيع المسؤولون تليفق الأكاذيب دون الخشية من انكشاف أمرهم.. وربما ألقوا بتبعية هذه التفجيرات على السجناء.."

قال أمجد بضيق "هذا تصرف مبالغ فيه.."

علق وليد "هذا ما حدث بالفعل.."

قاطعت حديثهم قائلة "يجب أن تخلع معطفك.."

قال وليد "لماذا؟ ألم تنتهي من الجرح؟"

قلت مشيرة لجرح كتفه "لأعالج هذا الجرح.. أم أنك لا تهتم به؟"

نظر وليد بجانب عينه لجرح كتفه الذي أغرق ملابسه بالدماء، ثم غمغم "لم أدرك أنني مصاب هناك.."

قلت بغير تصديق "أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

غمغم وليد "مع كل الضربات التي أصابت ظهري وقت الانفجار لم أظن أن الألم ناتج عن إصابة فيه"

فقلت بوجوم "من طلب منك أن تتظاهر بالبطولة وتحميني؟ كان يمكن أن تكون إصابتك مميتة"

ضحك وليد بصوت عالٍ معلقاً "ظننت أنني يمكن أن أثير إعجابك بهذا.."

ابتسمت لتعليقه بينما تبدى ضيق شديد في عيني أمجد، وقلت "وقد فشلت.. والآن اخلع معطفك لأتمكن من إنهاء

عملي.."

قال معترضاً "اهتمي بجرح يدك أولاً.."

قفز أمجد واقفاً وأمسك يديّ يتفحصهما بقلق متسائلاً "ما بها يدك؟"

أخرجني قلقه الظاهر فجذبت يدي وغمممت "مجرد جرح بسيط.. سأعالجه بعد أن أفرغ من وليد.."

فقال أمجد بضيق "دعي أمر وليد لي.. بعدها سأتولى أمر يدك...."

تركتهما بصمت دون أن أعترض واتجهت لأدهم الذي ابتعد عنا منذ دقائق.. عندها قال أمجد لوليد بجفاء "اخلع

ملابسك.."

ابتسم وليد بجانب فمه وهو يخلع معطفه ثم قميصه الذي بدأ يلتصق بالجرح بشكل ألمه وهو ينزعه.. ثم تولى

أمجد تطهير الجرح الذي كان على شيء من السوء.. وبعد لحظة صمت قال وليد بابتسامة "أنت مازلت تغار.."

قال أمجد بجفاء أشد "وما الداعي لمثل هذه الملاحظة الآن؟"

ضحك وليد مجيباً "بل ما الداعي لغيرتك في مثل هذه الأوقات؟ أتخشى مني عليها حقاً؟"

كان أمجد قد انتهى من الجرح، فقام بربطه بضماد وشدّ عليه بقوة ألمت وليد أكثر وأمجد يقول "لقد حذرتك من

الاقتراب منها.."

غمغم وليد متألماً وهو يرتدي ملابسه "تباً لك أيها الوغد.."

فقال أمجد ببرود "أنا أحذرك مرة أخرى.. ابتعد عنها.. ألسنت أكبر من أن تفكر بفتاة مثلها؟"

ضحك وليد بشكل دهش له أمجد، ثم ربت على كتفه قائلاً "أيها الأحمق.. أنا لست نداءً لك ولم أفكر بها في يوم من

الأيام.. فكف عن معاداتي بلا سبب مقنع.."

وابتعد تاركاً أمجد يقف مبليبل الفكر.. أعني ما قاله حقاً أم أنه ينوي خداعه؟..

أما أنا، فقد اقتربت من أدهم الذي كان يقف قرب المركبة متسائلة "أين بسمة؟ هل بقيت مع خالد والحراس"

أجابني "لم نستطع إحضارها معنا فاهتمامنا كان منصّباً بالانفجار وما قد تكون عواقبه.. أتظنين أنها قد تصاب

بذعر وهي معه؟"

فقلت "لا أعلم.. لكن هذا متوقع.."

رأينا وليد يقترب، وخلفه أمجد حاملاً حقيبة الإسعافات الأولية.. وقد قال وليد "أريد فحص هذه المباني أملاً في

العثور على ما يمكننا الاستفادة منه.. هل تعاونوني؟"

وافقتنا كلنا على ذلك، ثم قال أمجد "دعيني أعالج جرحك أولاً يا حمراء"

سلمته يدي فقام بتطهيرها بعد أن تأكد من عدم وجود بقايا زجاج فيها ثم ضمدها جيداً.. انشغلنا بعدها في تفحص

الحطام المتفحم ورائحة الدخان تكاد تخنقنا دون أن نستطيع التذمر من ذلك..

لم يمض وقت طويل على بقائنا في الساحة حتى سمعنا صياحاً خلفنا، فنظرنا لموقعه لنجد السجناء قد وصلوا للمباني الإدارية وبعضهم يركض وسط الساحة يتفقد المباني، بينما وقف الرجل الذي يبدو شرس المنظر بالساق المجروحة وهو يصيح بمن حوله "لقد هرب الجبناء وتركونا هنا نواجه مصيرنا.. لطالما عاملونا كالحيوانات..

وحتى الآن نبذونا بلا اهتمام.. يجب أن نحدد مصيرنا بأنفسنا، ولا نسمح لأحد بالتحكم بنا أكثر من هذا"

قال خالد الذي تبعهم بصوت عالٍ "وما الذي تنتنون فعله؟ هل ستهيمون في الكويكب دون هدف محدد؟"

قال الرجل بحدة "لا شأن لك.. أنت معهم بالتأكيد.. لقد حاولت تأخيرنا لئلا نصل للمباني الإدارية قبل هربهم"

قال خالد بحدة بدوره "وما الذي سأستفيدة من البقاء هنا بعد رحيلهم؟ بأي منطق تتحدث يا رجل؟.. حالي هو

حالكم، كنت سجيناً لديهم، والآن أنا أواجه مصيراً كمصيركم.. لكني أعرف ما لا تعرفونه عن هذا الكويكب.. إن

تفرقتم في الكويكب، أو إن تمردتم ورفضتم معاونتنا، فلا تعلمون كم يوماً ستبقون أحياء على ظهر الكويكب"

قال الرجل بسرعة "أنت تهذي.."

فقال خالد بصوت أعلى "هذا الكويكب غير صالح للحياة عليه.. لم يكن كذلك منذ البدء.. كل ما في الأمر أنكم

تحقنون بعقار يمنح أجسادكم القدرة على العيش في هذا الكويكب.. ومتى ما نفذت المادة من أجسادكم، فالموت

اختناقاً هو مصيركم الوحيد.. أهدأ ما تريدونه؟"

نظر السجناء لبعضهم البعض بقلق وهو يضيف "أنا سأسعى لإخراج الجميع من هذا الكويكب.. لكن إن تمرد كل

شخص على من حوله ورفض الانصياع لأحد فلن نتمكن من تحقيق أي شيء وسنقضي نحننا اختناقاً.."

قال أحد السجناء بتردد "وما الذي يمكننا فعله حقاً؟"

أجاب خالد "لدي خطة محددة سنتمكن بها من الحفاظ على حياتنا والفرار من هنا بإذن الله.. كل ما أريده منكم هو

التزام الهدوء والبقاء في المساكن دون بلبله أو مشاكل"

صاح الرجل شرس المظهر وقد ساءه أن يفقد مكانته "ومن سيسمح لك بالتحكم بنا؟" قال خالد للجميع من حوله "هل ستطيعونه وهو لا يملك أدنى فكرة عن كيفية إنقاذكم، أم تطيعوني وأنا أعدكم أنني سأبذل جهدي لذلك؟"

تلقت السجناء ينظرون لبعضهم البعض، قبل أن يقول أحدهم "أنا أرى أن ما اقترحتة علينا هو الأفضل.. أليس كذلك؟"

بدت الموافقة على وجوه الجميع وغضبهم السابق قد بدأ يهدأ، فقال خالد لهم "إذن، عودوا لمساكنكم في الوقت الحالي وخذوا قسطاً من الراحة.. ولا تقلقوا، لن أهدأ براحة حتى نخرج جميعاً من هنا" بدا حديثه كالعادة شديد الثقة بشكل خيالي، لكن السجناء قد بدأوا تصديقه وهم يستديرون بصمت ليخرجوا من المباني الإدارية يتبعهم الرجل الشرس رغم الغيظ الواضح على وجهه.. فقال خالد لبعض الحراس من حوله "الأفضل لكم أن تكونوا معهم وتتأكدوا أن ذلك الرجل أو غيره لن يبدأ بليلة في المساكن.."

تقدم أمجد من خالد قائلاً بضيق "أرأيت ما حل بنا بسبب خطتك هذه؟ لقد هرب الإداريون، وتركوا السجناء يواجهون الموت اختناقاً.. فكيف يمكننا التصرف الآن؟"

قال خالد بابتسامة "ألست منفعلاً أكثر من اللازم؟ أين اختفى هدوؤك الشهير؟"

قال أمجد بحنق "ماذا ستفعل إزاء كل ما حدث؟ أخبرني قبل أن يجنّ جنوني"

ضحك خالد معلماً "أتمنى رؤية ذلك"

وإزاء النظرة الغاضبة التي رماه بها أمجد قال بجدية "لا تقلق.. لم يحدث شيء لم أتوقعه"

نظرنا له بدهشة شديدة وأنا أقول "هل توقعت هروبهم حقاً؟"

هز رأسه مجيباً "طبعاً.. لا تنكروا أن العمل الآن مريح أكثر من السابق"

قال أدهم مقطباً "والسجناء؟ والدواء الذي فجره وليد؟"

قال خالد مبتسماً "من قال إنه فعل؟"

اتسعت أعيننا بدهشة متزايدة وهو يقول "تلك كانت خدعة.. أردت أن أعرف المدى الذي ستصل إليه صفاقتهم..

والآن مع رحيلهم، يمكننا الحركة بحرية أكبر.. لقد اتفقت مع وليد ومن كان معه على تهريب ثلثي كمية الدواء،

لأن تهريبه كله لن يخفى عن أعين الإداريين.. والآن، يمكننا البدء بحقن السجناء بما نملكه من عقار.."

قال أمجد محتدماً "فقط؟ هل أنت واثق أنه سيكفي الجميع؟"

قال خالد ببساطة "قطعاً لا.."

نظرنا له جميعاً بدهشة، فأضاف "لا تنسوا أن الكثير منكم قد حصلوا على الجرعة منذ وقت قريب.. الجرعة

تكفي لتسعين يوماً تقريباً، ونحن سنستخدم نصفها لكل شخص، أي خمس وأربعون يوماً وهذه مدة طويلة.. لن

ننتظر حتى تمر كل هذه الأيام.. سنعطي الجرعة لمن حان وقتها بالنسبة لهم، وسنعمل جاهدين للخروج من هذا الكويكب قبل أن ينقصنا الدواء.. لذلك ابدلوا جهدكم في معاونتي..”

تساءل أمجد مقطباً "وماذا عن السفينة الفضائية التي غادرت؟ لا نملك وسيلة سفر غيرها ولا نملك وسيلة تواصل مع العالم الخارجي.. فكيف تنوي المغادرة؟.. أنت بتحطيمك نصف الكمية تجعلنا في موقف حرج، وفي سياق مع الزمن..”

علق أحد الحراس "ستأتي سفينة أخرى في موعدها المحدد”

علق خالد "لن نعول على هذا.. سنتصرف بدون أخذ هذا في اعتبارنا..”

لم نفهم سبب ذلك لكن لم يعترض أحدنا بكلمة، بينما التقت خالد إلى وليد ومن معه من الحراس الذين وقفوا جانباً بصمت، فسألهم "كم مضى على أول من تلقوا الجرعات الجديدة من الدواء؟”

أجاب أحد الحراس "للأسف، بعض المساكن لم يحصلوا على الجرعة المقررة لهم.. ولذلك يجب أن نبدأ بهم.. والحراس يجب أن يتلقوا الجرعة خلال يوم أو يومين فهذا هو موعد جرعتهم..”

فقال خالد "أريد حصرأ سريعاً بالأوقات التي حصل فيها السجناء، والحراس، على جرعات الدواء.. يجب أن نجدول توزيع الدواء عليهم ونختار المعرضين للخطر منهم أولاً.. الدواء لن يكفي الجميع على ظهر الكويكب..”

علق وليد "أنت تعلم أننا قد نواجه مقاومة شرسة من الحراس في المساكن.. أليس كذلك؟”

قال خالد "طبعاً هذا مفهوم.. لا يعلم الجميع بأمر رحيل الإداريين بعد.. لذلك يجب أن نضعهم في الصورة.. أتملك جهاز اتصال؟”

هز وليد رأسه إيجاباً، فقال خالد "افتحه على قناة الاتصال العامة وخاطب جميع الحراس.. أخبرهم بخيانة الإداريين لهم وبسعيينا لإنقاذ الجميع من الكويكب.. اشرح لهم الوضع كاملاً ودع لهم تقرير ما سيفعلونه بعد ذلك.. وأنا واثق أن الخيار الوحيد هو في معاونتنا”

أخذ وليد جهاز اتصال من أحد الحراس، وابتعد قليلاً ليحظى بهدوء أكثر.. فبقينا ننتظره بتوتر، على الأقل هذا ما كنت عليه.. انصياع الحراس لنا ومعاونتهم ستخفف الكثير من العقبات التي تنتظرنا.. مللت من حياة الهرب هذه، ولا أريد أن أبقى في قلق من انكشاف أمرنا ليوم آخر..

بعد مدة خلناها طويلة، عاد إلينا وليد وضيق يبدو على وجهه، فسأله خالد باهتمام "ما الذي انتهت إليه مع الحراس؟”

تنهد وليد مجيباً "لم يرضخوا لنا بشكل تام.. لقد فوجئوا، وهم شكوا بأن أمراً جرى مع صمت الإدارة غير المعهود، لكنهم رفضوا تصديقي تماماً.. أخبرتهم بمخاطر اختناق السجناء، فرضي أغلبهم بالتعاون معنا حتى نحصر السجناء ونعطي الجرعة لمن يحتاجها منهم.. ولن يتعاونوا معنا بشكل كامل حتى يتأكدوا من أمر الإدارة”

فقال خالد "رائع.. هذا يكفيننا.."

فأضاف وليد بضيق "الأهم من كل هذا.. السجناء في أغلب المساكن قد بدأوا ثورة محدودة.. إنهم يريدون مغادرة المكان ويرفضون الانصياع للحراس.. لو تفرقوا في هذا الكويكب، فلن نستطيع جمعهم مرة أخرى والتأكد أنهم سيأخذون جرعته في الوقت المحدد"

غمغم خالد "هذا أمر خطير بالفعل.."

ثم نظر للحراس قائلاً "خذوني لتلك المساكن.. سأحاول التحدث مع السجناء ليبقوا في مساكنهم حفاظاً على حياتهم.. وهم سيستمعون لي كوني من السجناء ولن يرضخوا للحراس"

علق وليد "هذا سيستغرق منك وقتاً طويلاً.. تفصل المساكن عن بعضها البعض عدة ساعات.."

فقال خالد "لا بأس.. لا نملك وسيلة أخرى.. أنت قد فجرت المروحية في السابق، أتذكر؟"

واتجه للمركبة المتوقفة قريباً مع من أربعة من الحراس، فقلت لأمجد "ألن تذهب معه؟"

قال "لا.. ليس هذه المرة"

رأينا خالد يحدث وليد لفترة طالت قبل أن تغادر المركبة الموقع تاركينا في تلك البقعة الخربة التي تعبق برائحة الدخان والحريق.. ولما عاد إلينا وليد سأله أمجد "ما الذي أراده منك عمي؟"

قال متنهداً "طلب مني استرجاع العقار الذي أخفيناه سابقاً والتأكد من سلامته.. وبعدها يجب أن نذهب في مجموعات للمساكن التي سيمر بها ونقوم بحصر السجناء وإعطاء من حان وقته الجرعة المناسبة قبل أن تحدث مضاعفات نندم عليها"

وهكذا، بعد أن استعاد وليد وأحد الحراس كمية العقار الذي أخفوه في صناديق أخرى من مخازن الإدارة، التي لم يطالها أي ضرر ولم يزرع الإداريون فيها أي قنابل متفجرة، توزعنا على مركبتين إحداها التي أتينا بها من المنجم، وأخرى ظلت سليمة في ساحة المباني الإدارية.. ركبت أنا ومعني أدهم وبسمة بالإضافة لأحد الحراس في إحداها.. ووليد مع أمجد وحارسين آخرين في مركبة أخرى.. وقد أحضر كل فريق صندوقاً من الأدوية معه مع تنبيه وليد لنا بالمحافظة عليه لندرته وأهميته..

وهكذا، انطلقنا في مهمتنا التي يعلم الله على ماذا سنتطوي..

الفصل السابع والعشرون

[عواقب الخيانة]

كان أول مسكن في خطتنا هو مسكننا القديم.. نزلنا من المركبة وتوجه الحارس لرفاقه في المسكن والذين كانوا متحفزين بسبب خوفهم من ثورة السجناء من جديد، رغم أن أغلب السجناء قد فضل اللجوء لمسكنه بانتظار ما سيحل بهم..

تقدمت وسط المساكن أتأمل الموقع الذي ضمنا لفترة طويلة.. ورغم أنني كرهت هذا المكان وكرهت كل زاوية فيه، إلا أنني لم أملك ابتسامة ارتسمت على شفتي وأنا أتذكر كل ما مرّ بي هنا.. وقد قال أدهم الذي اقترب مني معلقاً عليها "لم هذه الابتسامة؟ أهدأ حنين لأيام السجن السعيدة؟" التفت إليه قائلة "ربما.. من يدري.."

نظر لي أدهم بتعجب كبير، وإن لم يضيف كلمة أخرى وهو يدور بعينه في المكان.. ولم تمض لحظات حتى وجدنا تلك العينان الحادتان تكادان تحرقاننا حيث وقفنا.. ورغم أننا نسيناه، إلا أن صقراً كان ينتظر هنا في المساكن وينظر لنا بذهول شديد.. لم أرغب برؤيته بعدما حدث بيننا وبينه، لكنه كان مصراً على هذه المواجهة.. إذ اقترب منا وهو يثبت نظراته الحاقدة على أدهم الواقف قربي.. فقال أدهم بسخرية "أما زلت حياً أيها الأحمق؟"

أجابه صقر بسخرية مماثلة "أما زلت حياً أيها الوغد؟ لقد قضيت ليالي أتمنى لك الموت من كل قلبي"

فعلق أدهم مبتسماً "ويبدو أن أمانيك غير مستجابة لحسن حظي"

وجدت صقر يندفع فجأة حيث وقف أدهم قربي وقام بأغرب شيء يمكن تخيله.. إذ ارتفعت يده المضمومة ووجهه لكمة أحسبها بأقوى ما عنده لوجه أدهم.. ورغم ما بدا على لکمته من قوة فإن أدهم لم يتحرك من موقعه، ولم يبد أنه تأثر بها إلا بالتفاتة بسيطة من رأسه.. عندها، لم أملك إلا أن أضحك من القلب لهذا المنظر ولجراً صقر وأدهم ينظر لصقر بنظرة ساخرة امتزجت باستغراب متفاجيء، بينما شهقت بسمة التي كانت قريبة وهي تنظر لوجه أدهم بقلق.. ثم دفع أدهم صقراً في صدره بقوة قائلاً "ابتعد يا هذا.. لست في قائمة مهامي لهذا اليوم.."

ترجع صقر للخلف حتى كاد يسقط أرضاً وهو يتبادل نظرات كره عارمة مع أدهم.. ثم ابتعد عنا بصمت دون أن ينسى أن تبدو تعابير وجهه بأقصى كره واشمئزاز يمكن أن تظهره، فقلت لأدهم بتعجب "لماذا لم ترد على لکمته رغم أنك لست طيب القلب عادة؟"

قال أدهم مشيراً لفكه "عندما ضربني بقوته الهزيلة تلك، أشفقت عليه.. لا بد أن يده تؤلمه الآن بأكثر من فكي، ولم أرد أن أزيد عذابه.."

ضحكت من جديد وقد بدا لي الأمر طريفاً، مما كما يبدو قد ساء الحارس الذي سمعناه يقول بضيق من خلفنا "لا تنشغلوا بأمر تافهة.. أمامنا عمل مهم ومدة محدودة، ولا يجب أن نتأخر عنها"
سأله أدهم "وما الذي أنجزته؟"

أجابه "لقد تفاهمت مع الحراس في هذه المساكن على ما يجب فعله.. الآن يجب أن نحصر السجناء ونتأكد من الوقت الذي مر منذ حصلوا على العقار.. لكن في البدء، يجب أن يحصل الحراس على جرعتهم الآن.. إذ أن موعدهم في غضون يومين تقريباً.."

انطلقنا لأداء ما اتفقنا عليه في المساكن.. فجمع الحراس السجناء في الساحة التي تتوسط المساكن، وتولى أدهم حصرهم وسؤالهم عن الفترة التي مضت منذ تلقوا تلك الحقنة المهمة..

أما أنا والحارس الذي قدم معنا فقد تولينا حقن الحراس في هذه المساكن بنصف جرعة من العقار.. في تلك الأثناء، كان خالد يقول لأحد الحراس ممن كانوا معه أثناء انتقالهم من منجم لآخر "أنظن أن ذلك المهبط الموجود في المباني الإدارية هو الوحيد على الكويكب؟"
قال الحارس "أجل.. هذا ما أعلمه"
هتف خالد "خطأ.."

نظر الحارس له بدهشة، فأضاف خالد "لا يمكن لهذا الكويكب أن يحوي مهبطاً واحداً فقط.. لا بد من وجود مهابط أخرى في مكان ما.."

فغمغم الحارس "لست أدري حقاً.. أنا جديد هنا ولم يمض شهر على قدومي.."
فقال خالد باهتمام "اتصل بالحراس على القناة العامة.. لتخرج مجموعة منهم للبحث عن أي مهابط للسفن.. لا بد أن نجد قريبا محطة مراقبة وبالتأكيد سنجد فيها أجهزة اتصالات.. وربما لو كنا محظوظين سنجد سفينة فضاء"
تساءل الحارس "ستأتي سفينة فضاء غداً بالتأكيد فهذا هو موعدها"
قال خالد بثقة "لن تأتي.. لا بد أن الإداريون قد أجروا اتصالاتهم وألغوا الرحلات القادمة للكويكب.."
قال الحارس باستغراب "بأي حجة؟"

أجاب خالد "لا علم لي حتى الآن.. لكنني واثق أن هذا ما حدث.. عثورنا على سفينة في الكويكب هي وسيلتنا الوحيدة"

غمغم الحارس وهو يفتح قناة الاتصال العامة في جهازه "أنت متفائل"
ابتسم خالد مجيباً "لا بأس ببعض التفاؤل.."

في أحد المساكن البعيدة شيئاً ما، تولى وليد وأمجد حصر السجناء وسؤالهم عن موعد آخر جرعة أخذوها من العقار.. فاكتشفوا أن موعد أخذهم للجرعة قريب جداً ويجب حقنهم به قبل أن تظهر عليهم أعراض الاختناق ويخسروا أي أرواح هنا..

تولى وليد أمر حصر السجناء بينما قام أمجد مع حارسين آخرين بإعطاء نصف الجرعة لمن يتم حصرهم.. كان أغلب السجناء في هذه المساكن من القدماء تقريباً.. وبعضهم يعرف هوية العقار وأهميته.. فوجد أمجد أحد الرجال يتساءل قبل أن يتلقى الجرعة “لقد قالوا إن الإداريين قد هربوا بسفينة الفضاء.. أهذا صحيح؟” لم يجبه أمجد لئلا تثير مثل هذه المعلومة بلبله جديدة في هذه المساكن، فعاد الرجل يسأل بشيء من الضيق “أحق أن مخزون الأدوية قد دمر ولم يبق منه إلا هذه الجرعات؟” تجاهله أمجد من جديد، فقال الرجل بحدة “أجيني..” قال أمجد بصرامة “هل يريحك أن تعرف أن الجواب هو نعم؟ لم لا تصمت لأنهي عملي وينال من خلفك جرعتهم بهدوء؟”

صمت الرجل بمضض وهو يمد ذراعه المكشوفة لأمجد.. فقام أمجد بحقن نصف كمية الدواء في جسد الرجل قبل أن يشير إليه ليرحل.. سار الرجل بخطوات متمهلة قبل أن يفاجأ به أمجد يلكمه بقوة على وجهه ليزيحه جانباً ثم ينفض على الصندوق ويسرق بضع علب منه بما تحويه من إبر.. ثم تراجع بسرعة قبل أن تصله يد بقية الحراس.. صاح فيه أحد الحراس وهو يتقدم منه بحدة “كف عن هذه الألاعيب وأعد العقار.. هناك من سيُحرم من جرعته باستيلائك عليها”

صاح الرجل بصوت متوتر “لا يهمني.. لقد هربوا وتركونا هنا.. وهذه هي الجرعات الأخيرة على الكويكب.. فهل ستكفينا كلنا؟ كم سيطول بنا الوقت قبل أن تنفذ هذه الجرعة الهزيلة من أجسادنا؟” قال أمجد مقطباً وهو يفرك فكه متألماً “أهذا يعني أنك ستضحي بالآخرين لتعيش أنت مدة أطول؟ ثم إن بقاؤنا هنا لن يطول.. سنغادر عما قريب.. فأعد العلب بهدوء”

قال الرجل بعصبية وهو يتراجع “لا يهمني.. لا أهتم بأحد البتة.. لكن لا أريد أن أموت مختنقاً.. أنتم واهمون فلن يسأل شخص عنا هنا ولن يحاول أحد إنقاذنا.. أنا لا أريد أن أموت..”

بدأ بقية السجناء يتململون بضيق وبعضهم ينظر لصندوق الأدوية بنية لا تخفى على أحد.. لكن الحراس أحاطوا بالصندوق مشهرين أسلحتهم بتوتر، بينما قال أمجد وهو يقترب من الرجل “أعد العلب بهدوء وكف عن هذه الأنانية.. من تكون أنت لتحرص على حياتك وتتسبب بموت الآخرين بدلاً عنك؟” صرخ الرجل بغضب “قلت لك لا يهمني أي أحد.. المهم أن أعيش أنا.. المهم ألا...”

باغنته ضربة قوية على رأسه أفقدته الوعي فتهوى جسده أرضاً، لكن وليد الذي كان خلفه سارع ليسنده ويتأكد

من سلامة العلب الثمينة بين يديه.. وبعد أن أسرع أمجد باستعادتها منه ترك وليد جسد الرجل يسقط أرضاً وقال لأحد الحراس "راقبوه جيداً حتى ننتهي من بقية السجناء فقد يستيقظ في أي لحظة.. لدينا من الهموم ما يكفيننا للآن.."

وصاح ببقية السجناء "اسمعوا.. الموقف الذي نحن فيه لا يتحمل أي أنانية منكم.. من يُبدي أي تصرف كهذا الذي رأيناه فلن أتردد في إطلاق النيران عليه.. خسارة رجل واحد خير من خسارة العشرات.. فكونوا حذرين" غمغم أمجد وهو يعود لعمله "لم يكن هناك داع لهذه التهديدات.."
قال وليد وهو يدور بعينه بين السجناء "لكني أعنيها حقاً.."
استعاد السجناء هدوءهم وهم يطيعون أوامر أمجد والحراس بصمت تام.. فزفر وليد وهو يعود لعمله بدوره وضيق شديد لا يكاد يغادره..

مضى علينا وقت غير قصير في هذه المساكن، قبل أن ينتهي الحراس من عملهم ويعطوننا حصراً شاملاً للسجناء وكل المعلومات التي طلبها خالد منا.. كان الظلام قد حلّ وأنيرت المساكن بمصابيح متفرقة على الأعمدة المحيطة بها.. تناولت الأوراق التي سلموني إياها واتجهت للمركبة حيث وقف أدهم يتحدث في جهاز الاتصال.. ولما انتهى ناولته الأوراق قائلة "هل من جديد؟"

قال أدهم متتهماً "ليس بعد.. لقد استطاع خالد احتواء الثورة في المساكن التي مرّ بها، لحسن حظنا.. ولكن الأمر لا يتعدى ذلك.."

جلست جانباً وهو يقول مقطباً "ما الذي سنفعله الآن بعد أن ننتهي من حصر السجناء وضمان حصولهم على العقار؟ هل سننتظر قديم سفينة فضاء أخرى وأنا أشك بذلك؟ كيف سنغادر ونحن لا نملك وسيلة اتصالات بالعالم الخارجي بعد أن حطمها أولئك الأوغاد؟"

قلت معلقة "لا تتعب عقلك بكل هذه الأسئلة الآن.. ربما نسي الإداريون أمر الرحلات المعتادة للكويكب.. سيكون من حسن حظنا لو قدمت سفينة فضاء غداً في موعدها"

لم يبد على أدهم أنه مقتنع بهذه الفكرة وهو يزفر، بينما اقتربت بسمة وجلست قربي صامتة لثوان، قبل أن تغمغم "أنا متعبة.."

التفت إلى أدهم متسائلة "هل سننتقل للمساكن التالية الآن أم نبقي هنا الليلة؟"

أجابني أدهم "بقاؤنا هنا أفضل.. لن نجد السجناء في المساكن الأخرى مستيقظين بعد يوم عمل شاق.. ونحن بحاجة للراحة أيضاً"

وعاد لجهاز الاتصال في المركبة مضيفاً “سأبلغ خالدأ بهذا.. لا أريد أن يؤنبني على التأخير فيما بعد..”
فالتفت لبسمة قائلة بابتسامة “يبدو أنه مقدر علينا أن نقضي ليلة أخرى في مسكننا القديم”
ابتسمت ابتسامة صغيرة قبل أن نعود بأبصارنا للساحة التي لطالما ضمتنا في زاويتها.. والتي ستضمنا ربما
للمرة الأخيرة..

“وجدتها..”

صاح أحد الحراس بهذه الكلمة بصوت عالٍ كاد يصيب خالدأ بصمم وهو يبعد جهاز الاتصال عن أذنه، ثم قرب
الجهاز مجدداً وهو يقول “كف عن الصراخ.. ماذا وجدت؟”
قال الحارس بلهفة “سفينة فضاء.. لقد وجدنا واحدة رابضة في إحدى الحظائر الموجودة قريباً من المنجم (ج)..
لم نكن نعلم بوجودها سابقاً فهذا المهبط مهجور تماماً ومحاط بسور يمنع الفضوليين من الدخول إليه”
تساءل خالد باهتمام “وهل هي صالحة للسفر؟”
أجاب الحارس “لست أدري.. إنها تبدو لي على أتم ما يرام.. لكن يجب أن نجرب تشغيلها لنعرف وأنا لا خبرة
لدي في ذلك”

فقال خالد “تفحصوا السفينة والمكان جيداً.. سأتي إليكم فور أن أنتهي من هذه المساكن”
وافق الحارس وهو ينهي الاتصال، ثم تأمل السفينة الضخمة الرابضة في حظيرة ذات سقف عالٍ يحتويها دون
مشقة.. وذلك ضمن أربع حظائر أخرى فارغة من أي أثر لسفن أخرى.. بعد ليلة كاملة قضوها في بحث مستمر،
ها قد كللت جهودهم بالنجاح مع أول خيوط النور التي تسالت للكويكب.. تساءل أحد الحراس بتعجب “لماذا
أقاموا الحظائر هنا بعيداً عن المباني الإدارية؟ وهناك مهبط للسفن أيضاً قريباً..”
قال الحارس الأول وهو يدور متأملاً السفينة “ما هذا الذكاء؟ هذا مهبط احتياطي في حال تعرض الأول للهجوم
لأي سبب من الأسباب.. لا تنسى أن العديد من الدول كانت تتنافس على الكويكب، ولا زالت هذه المنافسة كامنة
في صدور الكثيرين..”

لم يعلق الحارس الآخر وهو يرى زميله يقترب من بوابة السفينة فيجذب رافعة صغيرة فيها بانتظار أن يفتح بابها
تلقائياً، لكنها ظلت صامتة تماماً كالقبر.. عاد الحارس يجذب الرافعة عدة مرات قبل أن يقول بقلق “إنه لا يعمل
وهذا شيء غريب.. أيمكن أن تكون معطلة؟”

قال الحارس الآخر “ستكون هذه مصيبة.. هذه السفينة هي وسيلتنا الوحيدة للمغادرة من هذا القبر الكبير..”
غمغم الأول بسخط “اللعة على المؤسسة وكل من فيها..”

وأخذ يبحث عن وسيلة أخرى لفتح الباب قد لا تكون ظاهرة للعيان.. لم تكن لدى الحراس أي خبرة بخبايا السفن الفضائية فهذا كان عمل المهندسين المسؤولين عنها.. لذلك لم تكن مهمة الحارس سهلة وهو يحاول مئات المرات دون يأس.. لا يمكن فعل أي شيء من خارج السفينة، فالمحركات لا يمكن الوصول إليها إلا من داخل السفينة، حيث وضعت في غرفة خاصة واسعة ذات تجهيزات مناسبة لها.. وبعد مرور ما يزيد على الساعة من المحاولات الفاشلة، جلس الحارس أرضاً وهو يتصبب عرقاً للحر الشديد في الحظيرة وهو يقول “مستحيل.. جربت الأمور كلها.. إنها تستعصي علينا تماماً”

تساءل الحارس الآخر الذي كان معه طوال الوقت “وماذا لو حاولنا فتحه بالقوة؟” نظر له الأول باستنكار قائلاً “أأنت أحمق؟ وكيف سنعبّر بها الفضاء الخارجي بباب مفتوح؟ استعمل عقلك قليلاً يا رجل”

ظل الآخر صامتاً بحيرة وهو يتأمل الباب، ثم تقدم منه فجأة وهو يتساءل “ما وظيفة هذا برأيك؟” نظر الأول لجزء معدني من السفينة أسود اللون بحجم الكف، وغمغم “لست أدري.. لقد ضغطته عدة مرات دون فائدة.. ثم إنه بعيد عن الباب كثيراً، فلا يبدو أن له شأن به”

تفحصه الحارس الآخر لثوان بصمت، ثم نزع القفاز الذي يرتديه الحراس عادة من يده مغمغماً “ماذا لو كان..” وضع يده على الجزء المعدني بخفة، وعلى الفور أضاءت شاشة في ذلك الجزء وسرعان ما التمعت بضع كلمات فوق يده باللون الأحمر.. عندها قال الحارس الآخر وهو يبعد يده “يقول إن الدخول ممنوع.. يبدو أنه مخول لفتح الباب لأشخاص محددين فقط..”

سارع الحارس الأول يدفعه بلهفة وهو يقول “ابتعد.. أعرف طريقة أخرى للتغلب على هذا” واستخرج من جيبه سكيناً صغيرة، فقام بحرص بدفعها بين الجزء المعدني وبين جدار السفينة.. ثم قام بدفع الجزء للخارج برفق شديد حتى سقط في يده الأخرى.. ومن خلفه ظهرت عدة أسلاك متصلة بفتحة في جدار السفينة، وفي ظهر ذلك الجزء المعدني ظهرت لوحة صغيرة مكونة من عدة أزرار تحمل أرقاماً.. فقال الحارس الأول “يمكن في حال تعطل هذا الجزء استخدام هذه اللوحة الصغيرة لإدخال رقم سري يخولنا فتح باب السفينة” نظر الحارس الآخر للوحة بشيء من الإحباط قائلاً “لكننا لا نعرف ذلك الرقم السري أبداً” قال الأول بلهفة “سنعرفه بالتأكيد أو نتحايل عليه.. المهم الآن أن نخبر ذلك العالم بكل ما وجدناه.. لا بد سنجد طريقة”

أعاد الجزء المعدني برفق لموقعه السابق، ثم أسرع يجري اتصالاً من جديد بخالد ليعلمه بأخر ما وصل إليه.. وهذه خطوة صغيرة خطونهاها في سبيل حريتنا المنشودة..

وقفت وسط ساحة المساكن أتأمل ما ظهر من السماء من بين الأشجار.. بينما انشغل أدهم خلفي بتناول بعض الطعام الذي أحضره الحراس من مخازن المباني الإدارية.. طال وقوفي كثيراً حتى سمعت أدهم يقول “هلا كففت عن هذا؟ لقد مضت ساعة على موعد قدوم السفينة الفضائية ولا أثر لها.. ألن تستسلمي؟” غمغت “لا بأس من بعض الرجاء.. من يدري..”

رأينا الحارس الذي رافقنا في قدومنا يقترب من أدهم ويقول له “هيا بنا.. لا يجب أن نتأخر أكثر من هذا فعدة ساعات تفصلنا عن المساكن التالية”

نهض أدهم بعد أن أنهى طعامه بسرعة، ونهضت بسمة التي كانت تجلس جانباً بصمت.. فتوجهنا للمركبة القريبة والحارس يقول “لقد وصلتني أخبار جديدة.. يبدو أنهم عثروا على سفينة فضائية في حظيرة مهجورة” اتسعت أعيننا بدهشة وقلت أنا بابتسامة “مرحي..”

أضاف الحارس ونحن نصعد المركبة وننطلق بها “لكنهم لازالوا يبحثون عن جهاز اتصالات.. كما تعرفون لقد تعطلت أجهزة الاتصالات تماماً مع المباني التي دمرت.. لا يمكننا استقبال أو إرسال أي رسالة أو حتى إشارة نداء لأي مكان خارج الكويكب..”

فقلت بتعجب “ولم إرسال أي نداء للخارج مادامنا نملك السفينة؟”

قال الحارس بضيق “لكنها معطلة”

ابتسمت وقلت “سفينة معطلة أفضل من لا شيء”

فقال الحارس رافعاً حاجبيه “وما الفائدة؟ لا يملك أحدنا أي خبرة ليقوم بإصلاحها.. وأشك أن يملك الحراس خبرة كهذه.. ورغم أن خالد عالم لكنه أبدى عدم معرفته بالسفن الفضائية ونظامها..” فقلت “ألا يوجد أي مهندس هنا؟”

قال الحارس بضيق “أنت تعلمين أنهم جميعاً قد غادروا.. لم يبق إلا السجناء وبعض الحراس عديمي الأهمية بالنسبة لـ..”

قاطعته قائلة “أعني بين السجناء.. ألا يمكن أن يكون أحد السجناء مهندساً من أي نوع؟”

غمغم بدهشة “أظنن أننا قد نجد مهندساً بين السجناء؟”

قلت “ما الذي يمنع أن نجد واحداً بين المئات على الكويكب؟”

فقال الحارس “سأتصل بوليد فوراً وأطلب منه البحث بين السجناء.. فقط أتمنى ألا يكون المهندس الذي نعثر عليه فاقداً للذاكرة”

لم أعلق وأنا أدور ببصري حولي.. رغم كل شيء، أشعر أننا محظوظون كثيراً.. رحيل الإداريين قد سهل علينا أموراً كثيرة لا يمكن أن تتم بوجودهم.. وأهم شيء هو تحركنا بحرية في أرجاء الكويكب دون خوف أو ترقب..

وهو شعور افتقدناه منذ زمن طويل..

عندما وصل خالد للمهبط القديم، ورأى السفينة الفضائية الضخمة، لم يعلق بكلمة بل غادر الحظيرة واتجه من فوره لمبنى صغير قرب الحظائر كان في السابق يعمل كمركز مراقبة للمهبط.. وعند المبنى، ساعده أحد الحراس في تحطيم الباب الذي كان مقفلاً بطلاقات من رصاص سلاحه، ثم ركل الباب لينفتح بقوة مثيراً غباراً في المكان الذي يبدو أنه لم يستخدم منذ مدة طويلة..

دلف خالد المبنى غير عابئ بسحابة الغبار التي غطته، وتفحص القاعة الصغيرة التي يقف فيها.. كانت آثار الإهمال واضحة فيها والعديد من الكراسي محطمة وبعض الأجهزة مدمرة تماماً.. تفحص خالد الأجهزة بحثاً عن جهاز اتصالات دون أن يعثر على أحدها، ثم سارع يرتقي السلم الجانبي ليصعد لغرفة علوية واسعة ذات نوافذ تغطيها من جميع الاتجاهات وتصنع رؤية شاملة للمنطقة حولها.. كان الإهمال قد لحقها أيضاً بينما خلت تقريباً من الأجهزة التي يبدو أن شخصاً ما نقلها من موقعها.. وبعد بحث شامل تنهد خالد وهو يقف مغطى بالغبار وقال "يبدو أنهم أدخلوا المكان تماماً من أجهزة الاتصالات"

علق الحارس الذي ساعده في البحث "ربما نقلوها للمباني الإدارية"

فقال خالد "معنى هذا أن وسيلتنا الوحيدة تكمن في سفينة الفضاء.."

وأسرع يغادر المكان بعد أن ألقى عليه نظرة شاملة، وفي الخارج، قال خالد وهو يتجه لحظيرة السفينة الفضائية "هل أخبرتم الحراس أن ينقلوا السجناء لهذا الموقع؟"

هز الحارس رأسه نفيًا، فقال خالد "اطلبوا منهم إحضار جميع السجناء لهذا الموقع.. هذه السفينة هي وسيلتنا الوحيدة للخروج من الكويكب.."

ثم أضاف باهتمام "اطلب منهم أن يبحثوا بين السجناء عن مهندس ومبرمج"

تطلع الحارس إليه بتعجب معلقاً "مبرمج؟"

استحته خالد قائلاً "نفذ هيا.. لا نملك وقتاً نضيعه.."

أسرع الحارس ينفذ أمره دون اعتراض، بينما وقف خالد عند باب الحظيرة يدور بعينه في المكان يتأمل السفينة الضخمة والتي كانت تستعصي عليهم ولم يتمكنوا حتى من فتح بابها بعد.. فغمغم خالد "هيا أيتها الجميلة.. آمالنا معلقة بك.. فلا تخذلينا.."

عندما وصلنا للمنجم الثاني، كانت الشمس قد توسطت السماء.. فلم نتأخر كثيراً في عملنا بغية الانتهاء ونقل السجناء لموقع السفينة قبل حلول الظلام.. كان الحراس متعاونون بعد أن تلقوا اتصال وليد وفهموا الوضع جيداً، فلم يسببوا لنا أي مشاكل ولم يعطلوا عملنا.. بدأ أدهم وبعض الحراس باستجواب بعض السجناء الذين تجمعوا في وسط الساحة، بينما فضل آخرون البقاء في مساكنهم حتى يأتي دورهم..

وقفت في جانب الساحة مع بسمة بانتظار أن ينتهي أدهم ممن عنده لنبدأ عملنا في إعطائهم الجرعة المطلوبة وتجميع بقية السجناء في الساحة.. وبينما نحن في صمت مترقب، تناهى لسمني صوت خافت يتخلله شهيق قوي.. نظرت حولي بدهشة، ثم اقتربت من أقرب باب لي ودلفت المسكن بسرعة لأجد تلك المرأة قد وقعت عن سريرها، متشبثة بكل ما تطاله يدها، وهي تشهق بقوة وعيناها المتسعان تحملان لي رسالة صامته أدركتها على الفور..

ورغم أن ما رأيته لم يكن غير متوقع، إلا أنه جاء كصدمة لي وأعاد لي ذكريات بغیضة تمنيت أن أنساها.. لم أنتظر ثانية بعد رؤيتها، وهرعت لأقرب صندوق يحوي علب الإبر المليئة بالعقار الشفاف، وسط دهشة الحراس وأدهم الذي سألني "ما بك؟"

صحت به "هناك من فقد القدرة على التنفس.. أعراض نفاذ العقار قد بدأت في السجناء هنا.."

حملت إحدى الإبر وركضت عائدة للمسكن، فاندفعت للمرأة التي تكاد تمزق عنقها لشدة الألم، ورفعت كمها للأعلى وأنا أقول "صبراً.. ستكونين بخير.."

وأسرعت أضربها بالإبرة وأدفع جزءاً من العقار في جسدها.. استمر شهيقها المتلاحق لمدة بسيطة قبل أن تهدأ قليلاً والعرق يتصبب على وجهها.. وتراخت يداها عن عنقها وهي تسعل قليلاً..

اطمأننت لنجاتها، ثم تركتها وهرعت للخارج حيث وقف أدهم ينظر لنا متعجباً، فقلت له ولبسمة التي وقفت خلفه ترتجف رعباً "لقد بدأت الأعراض في السجناء هنا.. أخشى ألا تكون تلك المرأة هي الوحيدة.. ابحثوا عن أي شخص يواجه عسراً في التنفس وابدأوا به"

انطلق أدهم بالفعل بينما وقفت بسمة تغطي فمها بيديها وهي ترتجف، فربت على كتفها وأنا أقول "بسمة.. يجب أن تساعدنا.. تجاوزي ذعرك هذا وابدلي جهدك لئلا نخسر أي روح هنا.."

هزت رأسها إيجاباً وأسرعت للصندوق وتناولت علبة تحتوي عدداً من الإبر، فتناولت أخرى بدوري واتجهت لأقرب مسكن.. كنا نبحث بين السجناء عن يعاني من اختناق وضيق في التنفس ونبدأ به.. ووفقاً لوصية خالد فقد كنا نستخدم نصف الجرعة لكل شخص.. هذا يمنحهم نصف المدة المعتادة، لكن هذا ضروري إذ ما بقي من الجرعات لا يكفي لهذا الكم الهائل من السجناء..

كانت الأعراض قد بدأت بشكل متفاوت بالفعل في هذه المساكن.. البعض من السجناء قد هرع إلينا يشتكي ضيق

تنفسه.. والبعض منهم قد تهاوى أرضاً وهو عاجز عن الحركة وعن التنفس.. فكنا نسرع بحقنه بالدواء قبل أن تتفاقم حالته.. ولم نكن نعلم بالضبط كم من الوقت لدينا منذ بدء الأعراض حتى يصبح الشخص في مرحلة خطيرة.. لكنها لا تتجاوز دقائق معدودة بحال..

انشغلت مع إحدى النساء في المساكن والتي سقطت أمام باب مسكنها وهي تشهق بقوة.. فدفعت الإبرة في جسدها وأنا أرى الزرقة تشتد في شفثتها وهي تتشبث بملابسي بقوة.. وما إن بدأ السائل يعمل عمله في جسدها، بدأت تسترخي أكثر وإن ظلت متشبثة بي.. فظللت معها لدقيقة أطمئن على نجاتها، عندما سمعت ارتطاماً خلفي.. التفتُ بدهشة لأرى ذلك الشاب الذي لم يكن يتجاوز العشرين بحال، وقد غدت قدماه عاجزتان عن حمله فسقط أرضاً وهو يشهق بقوة ويحاول الزحف بوجه محتقن وعينان متسعتان..

تخلصت من قبضة المرأة وتناولت آخر إبرة أملكها واندفعت نحوه.. لكن عندما وصلت إليه وحاولت رفع كم ثوبه، وجدته يتشبث بي ويعيق حركتي وعيناه الصامتان ترجواني أن أنقذه.. دفعت يده بعيداً وأنا أرى احمرار عينيه وزرقة شفثيه مما دلني على سوء حالته.. فمزقت كم ثوبه بسرعة وتناولت الإبرة.. لكنه لوح بيده بقوة ولطمني على يدي بغير وعي مما ألقى الإبرة بعيداً..

اتسعت عيناى ذعراً وأنا أرى الإبرة الزجاجية محطمة بعد ارتطامها ببعض الصخور، وبجهد، تخلصت من قبضة الشاب وركضت بأسرع ما عندي نحو الصندوق الذي ربض وسط الساحة.. كان الصندوق خالياً إلا من بعض الإبر الفارغة.. فهمست بذعر "لا.. لا يمكن"

وأسرعت عائدة لبسمة القرية والتي كانت تعتنى بفتاة لا تتجاوزها كثيراً في العمر.. فتناولت العلبة التي تملكها ويبد مرتجفة أخذت آخر إبرة لديها، وعدت بسرعة لذلك الشاب الذي استلقى على ظهره ويدها تخذشان عنقه بقوة.. كانت شهقاته قد خفنت وتحشرجت كثيراً، وامتألت عيناه بالدموع وهو ينظر لي بيأس ورجاء هزّ أعماقي بشدة.. تناولت الإبرة ودفعتها بأقوى ما أستطيع في ذراعه، ودفعت السائل الذي فيها كله في جسده وأنا أهمس "هيا.. ستكون بخير.. ستغدو بخير بالتأكيد.."

شعرت بصوته يتحشرج ويخفت كثيراً، قبل أن تتراخي يده عن عنقه الدامي، وتسيل دمعة كانت معلقة بعينه التي شخصت بعيداً.. نظرت له بذعر وصدمة، ثم همست بارتجافة "لا.. مستحيل.. لقد حقنتك بالعقار.. لم أتأخر.. أليس كذلك؟"

حاولت أن أضربه بقوة على صدره علّ رثتيه تبدء أن بالعمل من جديد.. علّ دفعة من الهواء تملأهما وتعيد له الحياة من جديد..

سمعت صياح بسمة من خلفي "لقد نفذ الدواء.. ما الذي سنفعله الآن؟"

شعرت بارتباك أدهم والحراس، وسمعت الحشرجات المتفرقة في المكان، لكنني ذهلت عن هذا كله ودمعتين تسقطان من عيني وأنا أرى المنظر الذي تمنيت ألا أشهده أبداً.. تأملت ملامح الألم والرعب على وجهه، وتأملت

الدماء التي لطخت أصابعه والزرقة التي زحفت على شفثيه.. تأملت الدمعة التي سألت على خده كرجاء أخير لم أستطع تحقيقه.. ثم أغمضت عينيّ بألم شديد وأنا أهمس "اللعة.. ذنب من هذا؟ بأي حق تركوه لهذا المصير؟ بأي حق قرروا أنه لا يستحق الحياة؟ تبا لهم.. تبا لهم جميعاً.."

الفصل الثامن والعشرون

[من يستحق الحياة؟]

ساد صمت تام الموقع الذي جلست فيه، حيث المساحات العشبية الواسعة تحيط بي وغروب الشمس مائل بكل روعته أمامي.. ظللت في موقعي ساهمة الفكر، أحاول شغل نفسي عن الساعات القليلة التي مرت بي والتي قد لا أتمكن من محوها من ذاكرتي.. لو أنهم عرضوا عليّ إفقادي ذاكرتي، لقبّلت ذلك بسرور الآن.. فما الذي يستحق أن أستبقيه في عقلي وأسترجعه مراراً؟.. أي سعادة قد أرجوها من ذكريات تملأ حلقي بالمرارة وتزخم صدري باليأس؟..

يبدو أن الكل استكان في المساكن القريبة، وإن بدأ الحراس في ترحيل من بقي من السجناء إلى موقع السفينة الفضائية.. لكنني لم أعبأ بكل هذا في موقعي وأنا أعجز حتى عن التنهّد لأزّيح شيئاً مما تعاضم في صدري.. سمعت خطوات خافتة خلفي، ثم رأيت بسمّة تجلس قريبة مني تكاد تلتصق بي.. كانت عيناها متورمتان لشدة بكاءها الذي سمعته سابقاً، وأنا في الواقع أحسدها على قدرتها على البكاء دون رادع.. ثم رأيت أدهم يقترب بدوره فيجلس على صخرة قريبة متنهّداً وقال "كانت تلك كارثة.. من يتحمل ذنب أولئك الذين لم يحالفهم الحظ بالحصول على الجرعة في الوقت المناسب؟"

همست بسمّة بصوت مرتجف "ليتني لم أرَ ذلك أبداً.. لن أنسى تلك المناظر ما حييت"
لم أعلق على أيهما وأدهم يضيف "ما جلبناه معنا من أدوية لم يكفِ إلا أربعين شخصاً ممن حالفهم الحظ.. بينما عدد السجناء في هذه المساكن يتجاوز السبعين.. فما ذنب البقية؟"
غمغمت بشيء من الجمود "ذلك كان ذنبنا نحن.."

نظرا لي بصدمة شديدة، وقالت بسمّة "لكن نحن بذلنا جهدنا لمساعدتهم.. فكيف..."
قلت لها بنظرة باردة "أنسيت أن فكرة تدمير مخزون الأدوية لخالداً؟ ونحن قد ساندناه في خطئه تلك.. لو لم نفعل، لوجد كل أولئك السجناء ما يكفيهم ليعيشوا زمناً طويلاً.. لكننا بحمق شديد دمرنا وسيلتهم للنجاة.. واثقين أن المؤسسة ستطيعنا دون قيد أو شرط"

قال أدهم بحدة "وهل كنا نعرف أن المؤسسة ستخون الجميع بهذه الطريقة؟"
قلت بشدة "كان يجب أن نعرف.. كان يجب أن نتوقع كل شيء.. لا أن نتحمل ذنب كل أولئك الذين قضوا نحبهم لا يدرون لِمَ وكيف.. نحن المسؤولون عن كل ذلك.."

ورميت وجهي على ذراعي وأنا أشعر بدمعة ساخنة تسيل على وجنتي رغم أنني قاومتها طويلاً.. شعرت ببسمّة تربت على كتفي، بينما قال أدهم بضيق "لا داعي لتأنيبنا بهذه الطريقة.. أتظنين أننا سعداء بكل ما جرى هنا؟"

وسمعت خطواته تبتعد.. قد أكون أدبته بقولي هذا، لكن لِمَ ندفن الحقائق في التراب ونبفض المسؤولية عن كواهلنا؟.. لماذا نفخر بالعمل الذي أنجزناه ونرمي الذنب على المؤسسة وبتناسي نصيبنا من ذلك الذنب؟.. وآه يا له من ذنب..

انهمك خالد بتفحص باب السفينة بحثاً عن أي طريقة قد يستطيعون بها فتحه مع عدم معرفتهم بالرقم السري.. كانت الحظيرة قد أضيئت بكشافات عملاقة موزعة على سقفها، بينما غرقت الساحة خارجها في الظلام.. لم ينتبه خالد مما في يده حتى اقترب منه أحد الحراس قائلاً "لقد وجدنا هذا الشاب في المنجم (ب).. أياصلح لما تطلبه؟" التفت خالد باهتمام لشاب لا يتجاوز العشرين بحال، على شيء من الطول ببشرة بيضاء وشعر بني قصير جداً.. والقلق يبدو في عينيه الزرقاوين وهو يدور بهما في الموقع.. فتساءل خالد بتعجب "أنت مهندس؟" قال الحارس بتعجب أكبر "بل يملك خبرة بالبرمجة.. أنسيت أنك طلبت واحداً؟" ارتفع حاجبا خالد وهو يقول "لم أتوقع أن تحضروا لي شاباً صغير العمر مثله.. حسناً، سفي بالغرض" ازداد توتر الشاب وهو يتساءل "ما الذي تريده مني؟ أنا لم أفعل شيئاً" قال خالد وهو يقترب منه "لا تقلق.. نريد مساعدة منك.. أترى هذه السفينة؟ إنها معطلة لا يمكننا الرحيل بها.. لكن أجهزة التحكم في غرفة القيادة تعمل ولا شك، ونريد منك أن تقتحم نظامها لنتمكن من التحكم بها.. أنظن نفسك قادراً على هذا؟"

قال الشاب بعد تردد "أظن ذلك.."

فربت خالد على كتفه قائلاً "ما اسمك أيها الشاب؟"

قال الشاب "روي.. اسمي روي"

عاد خالد يربت على كتفه معلقاً "وأنا خالد.. سنعتمد عليك فلا تخذلنا.. في البدء نريد منك أن تجد لنا طريقة

لمعرفة الرقم السري الخاص بباب السفينة.. هل يمكنك ذلك؟"

نظر روي للوحة ذات الأرقام قائلاً بتردد "لكنني أحتاج لجهاز كمبيوتر محمول.. يجب أن أصله بهذه اللوحة دون فصلها عن الباب"

هز خالد رأسه موافقاً وقال "حالياً لا نملك أي جهاز كمبيوتر في المباني الإدارية.. لكن قد تعثر على واحد لو

بحثت في مبنى المراقبة الموجود هنا.."

أسرع روي يخرج من الحظيرة متجهاً لمبنى المراقبة ليبدأ بحثه بعد أن زوده أحد الحراس بمصباح يدوي صغير، بينما جلس خالد جانباً يتلقى اتصالات من بعض الحراس الذين أنهوا عملهم في مختلف المساكن

الموزعة في الكويكب.. مضى وقت غير قصير قبل أن يعود روي راکضاً وهو يحمل جهاز كمبيوتر محمول صغير الحجم وقد غطاه الغبار.. فعلق خالد على مرآه “أظنه يعمل؟”

هز روي رأسه إيجاباً وقال “إنه يعمل بالفعل.. لقد جربته هناك”

وفتحه لتضيء شاشته على الفور، عندها طلب روي من أحد الحراس أن يحمله له بينما قام هو بنزع الجزء المعدني من موقعه في جدار السفينة بحرص، ثم نزع إحدى التوصيلات التي تخرج من اللوحة ذات الأرقام ليوصلها بجهاز الكمبيوتر.. فقال خالد الذي كان يراقبه “هل يملك هذا الكمبيوتر برنامجاً لفك الشفرة؟”

قال روي بسرعة “طبعاً لا.. لكن يمكنني تصميم برنامج صغير لفك شفرة السفينة في وقت قصير..”

نظر له خالد بإعجاب لثقته المطلقة، ثم قال فجأة بغير لياقة “قل لي، ما هي التهمة التي جاءت بك إلى هنا؟”

نظر له روي بتوتر وتعجب من تقلبات خالد في الحديث.. في تلك الأثناء بدأ الحراس ترحيل السجناء من كافة أرجاء الكويكب لموقع قريب من الحظيرة.. كان الكويكب، كما أوضح لنا خالد، يحتوي على خمس مناجم رئيسية.. وبعد الحصر كان عدد السجناء مع الحراس الباقين على الكويكب يناهز الأربعمئة رجل وامرأة..

وبعد مرور ساعة منذ بدأ الترحيل، ومنذ قدوم روي الذي انهمك بمحاولة اختراق نظام قفل باب السفينة دون نجاح كبير، تلقى خالد اتصالاً من أحد الحراس وهو يقول بشيء من الحماس “سيدي.. لقد عثرنا على مهندس يملك خبرة مناسبة.. هل نحضره؟”

قال خالد “أهذا سؤال؟ طبعاً أحضره”

سمع صوتاً قرب الحارس يقول عبر جهاز الاتصال “لكني لا أملك خبرة في السفن الفضائية البتة.. كنت أعمل في إصلاح بعض الطائرات المدنية على الأرض”

سارع خالد ليقول قبل أن يصله تعليق من الحارس “أخبره ألا فارق هناك بين الاثنين.. عليه أن يبذل جهده في إصلاح السفينة إن كان يرغب بالنجاة من هذا الكويكب”

وأسرع ينهي الاتصال وهو يغمغم بلهفة “رائع.. رائع جداً”

فتساءل روي بتردد “تبدو شديد التمس للأمر يا سيدي.. رغم أن الأمور كلها لا تبشر بخير”

هتف خالد “من قال ذلك؟ كل الأمور تسير في صالحنا، فلم التشاؤم؟ وجدنا السفينة الفضائية، وعثرنا على المبرمج والمهندس المطلوب لتسييرها بناء على رغبتنا.. وسيطرنا على كل المساكن دون مشاكل.. فأني خير لا تراه في كل هذا؟”

غمغم روي “السفينة معطلة.. والمهندس لا يملك أي خبرة في إصلاحها.. والمبرمج عاجز عن اختراق نظامها وفتح بابها.. ألا يكفي هذا؟”

قال خالد ملوحاً بيده “ستتجحون.. أنا واثق من هذا”

ثم أضاف بسرعة “واسمي خالد.. وليس سيدي.. أفهمت؟”

هز روي رأسه موافقاً دون تعليق، فنهض خالد ليغادر الغرفة قائلاً بحماس “سأذهب لأرى ما جرى بكل الأمور خارجاً..”

عاد روي يتطلع لشاشة الكمبيوتر أمامه زافراً بضيق.. كل جهوده حتى الآن تبوء بالفشل.. ورغم أن الاستسلام ليس من عادته، لكنه يشعر أن هذه المهمة قد تكون أكبر منه هذه المرة..

مرت عدة ساعات عليّ وأنا جالسة في موقعي لا أعيره بعيداً عن المساكن التي بدأت تهدأ تماماً، وقربي جلست بسمه منكشمة على نفسها وهي تنظر لي بين فينة وأخرى بتردد.. بدا أن كل من في المساكن قد رحل لموقع السفينة الفضائية، لكني لم أهتم برؤية إن نسوْنَا هنا أم لا.. تنهدت وأنا أتطلع حولي محاولة تجاوز الضيق الذي اعتصر صدري بقوة..

سمعت خطوات أدهم من خلفي تقترب قبل أن يقول “هيا بنا.. الجميع قد غادر ويجب أن نذهب نحن أيضاً..” نهضت بعد صمت قصير ونفضت ملابسي، فنهضت بسمه بدورها بينما أضاف أدهم “يجب أن ننتقل للمنجم التالي.. أترغبان بالقدوم أم أنكما اكتفيتما؟”

نظرت لوجه أدهم الهاديء، وشعرت بشيء من تأنيب الضمير لما قلته له في السابق.. تنهدت قائلة “لا أرب بفعل أي شيء.. سأذهب لموقع السفينة الفضائية فهذا أفضل لي..”

وبالطبع فبسمه ستلحقني لأي مكان، عندها استدار أدهم قائلاً “إركبا في المركبة الثانية مع من بقي من السجناء.. أنا سأرحل في الأولى فلا يمكن أن أعود قبل أن أنجز ما طلب مني”

أسرعت أقول قبل أن يبتعد “أدهم.. أنا آسفة لما تفوهت به منذ ساعات.. كنت غاضبة ومصدومة.. لكن ما كان عليّ إفراغ غضبي بك ولا ذنب لك في هذا”

نظر لي أدهم قائلاً بابتسامة “لا يمكنني لومك على هذا.. يكفي ما قاسيناه جميعاً منذ قدومنا للكويكب.. من الطبيعي أن تنفجر مشاعرك بعد كل هذا..”

غمغمت قبل أن أبتعد “شكراً لك..”

وأسرعت أركب، وبسمه خلفي، في المركبة الثانية التي كانت تحمل بضع سجناء مع ثلاث حراس، والتي سارعت للتحرك بإشارة من أدهم.. بينما ركب أدهم في المركبة الثانية مع بقية الحراس ليتجهوا لوجهتهم الثانية.. ويعلم الله أي مصائب سيرونها قبل أن تنتهي مهمتهم تلك..

عندما وصل الحارس المكلف بإحضار المهندس للسفينة، فوجيء خالد بوجود رجلين معه، أحدهما على شيء من السمنة قصير القامة، والثاني عريض المنكبين وطويلاً بغير مبالغة.. نظر خالد للرجلين بغير فهم وقال للحارس “أيهما هو المهندس الذي وعدتني به؟”

رفع الاثنان يديهما استجابة لسؤاله، بينما قال الحارس بلهفة “لقد وجدنا الثاني في أحد المساكن الأخرى.. فأحضرته معي أيضاً.. وجود اثنين خير من واحد.. أليس كذلك؟”
رفع خالد حاجبيه وقال “طبعاً..”

ثم توجه للرجلين قائلاً “أعلم أنكما لا تملكان أي خبرة بالسفن الفضائية.. سيكون من الغريب حقاً أن نعثر على مهندس مختص بالسفن في هذا الكويكب.. لكن لا تجعلنا هذه السفينة بضامتها ترفعكم.. تعاملنا معها كما تتعاملان مع أي محرك عادي.. لكن أرجو أن تلتزما بالحذر الشديد.. هذه السفينة هي وسيلتنا الوحيدة للنجاة.. لو دُمر محركها أو تعطل بشكل تام فسنبقى مسجونين هنا بشكل دائم”
هز الرجلين رأسيهما بتفهم وأحدهما يقول “لا تقلق.. سنبدل جهدنا لنتمكن من الخروج من هذا المكان المشؤوم”
غمغم خالد “ليس المكان هو المشؤوم بل أصحابه من المؤسسة..”
قال الرجل الثاني بتحمس “إذن.. متى نبدأ؟”

قال خالد وهو يلقي نظرة على روي خلفه “ليس قبل أن نتأكد من فتح بابها”
غمغم الحارس بإحباط “لم تفتحوه حتى الآن؟”

لم يعلق خالد وهو يتقدم من روي الذي كان يحك رأسه بحيرة وهو يتأمل جهاز الكمبيوتر أمامه والذي وضع على صندوق مرتفع شيئاً ما ليتمكن من توصيله بالوصلات خلف الجزء المعدني.. ولما اقترب منه خالد بادره قائلاً “هل وصلت لطريق مسدود؟”

قال روي “أرجو ألا يكون ذلك.. هذا القفل يستعصي عليّ حتى الآن.. ولست أدري ما الخطأ الذي ارتكبته في عملي..”

نظر خالد للشاشة ملاحظاً البرنامج الصغير الذي قام روي بإعداده لهذا الغرض.. بدا الفتى ماهراً جداً رغم صغر سنه، ثم سمعه يقول وهو يعود للعمل “ربما عليّ أن أبدأ من جديد”

علق خالد قائلاً “ماذا عن شاشة فحص اليد؟ ألا يمكن جعلها تقبل بصمات أي يد دون تحديد؟”

نظر له روي بدهشة، ثم قال بشيء من الحماس “بالفعل.. يمكننا العمل في هذا الاتجاه.. لو جعلت النظام يتجاوز هوية صاحب البصمة ويقبل بأي بصمة توضع على الشاشة، فلربما تمكنا من تجاوز هذا النظام الأمني السخيف..”

عاد يعمل بكل حماسة وخالد يتأمله بإعجاب لمثابرتة.. ثم رأى أحد الحراس يتقدم منه قائلاً “سيدي.. ماذا نفعل

—...”

قاطعته خالد قائلاً “اسمي خالد.. لا تتنادني بسيدي..”

أسرع الحارس يقول “حسناً.. ماذا نفعل بالسجناء الذين قدوموا من المساكن يا خالد؟”

قال خالد ملوحاً بيده “لديهم الساحات الشاسعة هذه كلها ليختاروا البقعة التي تروق لهم ويجلسوا فيها.. حاولوا تدبير الأمور الثانوية هذه بأنفسكم دون الحاجة للرجوع إليّ..”

هز الحارس رأسه إيجاباً وابتعد ليتصرف مع السجناء الذين بدؤوا يتوافدون على الموقع بالمركبات الخاصة بالمؤسسة.. فالتفت خالد لروي ليحده يتأمل شاشة فحص البصمات باهتمام شديد، ثم نظر له قائلاً “يبدو أنني قد تمكنت من تجاوز هذه النقطة.. هل تريد أن تحاول؟”

أشار له خالد قائلاً “سأتريك لك هذا الشرف..”

فالتفت روي للشاشة للحظات، بعدها نزع الوصلات التي تصلها بجهاز الكمبيوتر وأعاد الجزء المعدني للجدار بحرص.. وبعد تردد قليل، وضع راحة يده على الشاشة وانتظر بلهفة لثوان.. ولما أضاءت الشاشة، وظهر أعلاها ضوء أخضر، صاح روي بحماس “لقد فعلتها..”

رأيا تلك اللحظة الباب الكبير القريب منهما يفتح بهدوء لينزلق جانباً، وخلفه ظهر ممر السفينة العريض وضوء هاديء ينييره.. فربت خالد على كتف روي قائلاً “مرحى لك أيها الشاب.. أحسنت صنعاً..”

وتقدم نحو الباب ليرتقي سلباً صغيراً قبل أن يضع قدمه في الممر ذو الأرض المعدنية.. وقيل أن يغيب في قلب السفينة التفت لروي قائلاً “أنت مدرك أن هذا أقل متاعبك القادمة، أليس كذلك؟” تنهد روي هازأً رأسه إيجاباً، ثم سارع ليلحق به حاملاً جهاز الكمبيوتر في يده..

عندما عدت، مع آخر دفعة من السجناء من المنجم الثاني، وجدت أن مساحة واسعة حول الحظيرة قد امتلأت بالسجناء الذين جلسوا متفرقين أو جماعات دون اعتراض أو أي شغب.. فهمُّ الجميع الآن هو في مغادرة هذا الكويكب قبل نفاذ العقار من أجسادهم واختناقهم بهواء الكويكب الذي لا يناسب أجسادنا.. لذلك فقد أبدى الجميع طاعة غريبة ولم يتذمر أحدهم بكلمة.. كل ما كان يدور من تساؤلات هو وضعهم بعد مغادرة الكويكب.. هل سيتركون ليذهبوا أينما شاؤوا؟ أم أنهم سيعودون للسجن من جديد.. وهذا التساؤل كان يدور في ذهني أيضاً، فتوجهت به لخالد الذي دلني الحارس عليه في السفينة الفضائية..

كان تلك هي المرة الأولى التي أجول فيها في سفينة كهذه، ولم تكن بسمة أفضل حالاً مني.. كدنا نضيع عدة مرات لولا أن وجدنا أحد الحراس قادماً من غرفة القيادة فدلنا على موقعها.. وهناك، رأيت قاعة على شيء من

الاتساع تحوي أجهزة عديدة تشغل ثلثي جوانبها، وفي جانب منها جلس خالد مع شاب يصغرنى شيئاً ما ويبدو منهمكاً بالعمل في أحد أجهزة السفينة.. اقتربت منهما وقلت لخالد "هل علمت بما جرى في المساكن التي كنا فيها؟"

نظر لي خالد مجيباً ببساطة "أجل.."

قطبت متسائلة "ألا يهكم ما جرى لكل أولئك الذين قضوا نحبهم دون ذنب؟"

فقال خالد بهدوء "لم أقل إنني لا أهتم.. هل يجب أن أبكي وألطم كي يبدو تأثري واضحاً؟"

ساءني رده لكني لم أملك تعليقاً عليه، فقلت له زافرة "السجناء في الخارج يتساءلون عن حالهم بعد الخروج من الكويكب.. ما الذي سنفعله عندها؟ هل سيتركون ليذهبوا حيث أرادوا أم أنهم سيعودون للسجن من جديد؟"

قال خالد "لا أقدر على إجابة هذا السؤال، فقد تسوؤهم الإجابة"

نظرت له بسمة بقلق شديد، فقطبت قائلة "ماذا تعني؟"

قال بهدوء "أنت تعلمين معنى قولي تماماً"

قلت بحدة "لست بمزاج للألعاب اللفظية هذه.. فسر ما تقول كي أفهمك.."

قاطعنا صوت روي الذي هتف بارتياح "لقد اخترقتها أخيراً"

جذبنا هتافه فصرفنا عن الموضوع الذي كنا نخوض فيه.. اقتربنا منه وهو يشير للشاشة الكبيرة أمامه قائلاً "نجحت في التغلب على تحصينات الحماية الخاصة بالنظام، ففككت الشفرة وغيرتها ليمكنني التحكم بها دون مخاطر طوال الرحلة.."

تساءل خالد باهتمام "والآن؟"

قال روي "الآن سأفقد النظام والقيادة الآلية المسجلة فيه.. نحن لا نملك خبرة بقيادة هذا الشيء لذلك أملنا هو في وجود نظام قيادة آلية يتكفل بكل شيء كالإقلاع والضغط والجاذبية والتنفس وغيره.."

قال خالد "ابحث عن نظام التنفس الخاص بالسفينة.. هل يناسبنا ونحن بحالتنا هذه أم أنه لا يوجد إلا النظام المشابه لجو الأرض؟"

أجاب روي "سأفعل.."

فالتفت خالد لي مضيئاً "استدعي وليد أو أي حارس آخر بالإحصاءات الخاصة بالسجناء.. لا نعلم كم سيطول بقاؤنا هنا ولا نريد المخاطرة بمزيد من الأشخاص.."

كدت أبتعد لأنفذ طلبه، لكنني التفت إليه من جديد وقلت مقطبة "وكانك تتهرب من إجابة سؤالي.."

ابتسم خالد وقال "لا تقلقي يا حمراء.. سيكون كل شيء على ما يرام"

دمدمت وأنا أبتعد "هذه إجابة مبهمة.."

وغادرت وأنا في حيرة أشد مما كنت عليه.. ما الذي ستحملة لنا الأيام؟ يخيفني هذا أكثر مما يريحني.. خرجت

من السفينة بحثاً عن وليد، فوجدته مع بعض الحراس يتحدثون كما يبدو بشأن السجناء، فاقتربت منه وقلت "وليد.. خالد يرغب بالحصول على إحصائيات السجناء التي تملكونها"
سألني "هل جد جديد؟"

هزرت رأسي إيجاباً وقلت "تخطى خالد نظام الحماية في السفينة بمساعدة أحد السجناء"
فقال وليد باهتمام "جيد.. سأرى إن كان يمكنني استرجاع ما تحويه الذاكرة الاحتياطية عبر أجهزة السفينة"
وتناول عدداً من الأوراق من أحد الحراس قبل أن يعود لقلب السفينة، فسألت وليد وأنا أتبعه "أين أمجد.. ألم يعد معك؟"

قال وليد وهو يتقدمني "ينتظر إخلاء المساكن الأخيرة تماماً.. سيعود مع آخر دفعة منها"
ثم نظر لي قائلاً بابتسامة جانبية "ألا زلت غضبي منه؟"
عقدت حاجبي لسؤاله، فأنا أكره من يتدخل في شؤني.. لكنه لم ينتظر إجابتي وهو يدير وجهه بعيداً قائلاً "أمجد شاب طيب حقاً.. أنا متأكد أنه يحبك بصدق.. فلا تفس عليه كثيراً"
غمرني حرج من قوله ووجهي يحمر قليلاً، ثم قلت بعد صمت قصير "هناك أمور كثيرة تحول بيننا.. ومن يدري أتزول حقاً أما لا.."

لم يعلق وليد على قولي أو يطرح مزيداً من الأسئلة.. وعندما وصلنا لغرفة القيادة، سلم وليد كل الأوراق التي يملكها لخالد وهو يقول "لقد تفحصنا السجناء في المناجم كلها.. وللأسف لم يبق الكثير من الوقت قبل أن يبدأ العقار في النفاذ من مجموعة كبيرة منهم.."

تناول خالد الأوراق متسائلاً "كم من الوقت بقي لهم؟"

أجاب وليد زافراً "ثلاث أيام على الأكثر"

نظرت له بقلق شديد، لكن خالد قال دون أن يبدو الاهتمام على وجهه "إذن، سنرحل من الكويكب قبل انقضاء يومين.. أسمعت يا روي؟"

بدا التوتر على روي بعدما سمع الحديث الذي دار كله بلغة نايبو.. إذ أن هذا معناه مزيداً من الضغط عليه.. لكنني قلت معترضة "كيف تثق بذلك؟"

ابتسم خالد وهو ينظر لي مجيباً "لأنني أثق بكم.."

كان يمكن لجملته التشجيعية تلك أن تمدنا بحماس غير محدود، لكنها بدت لي جملة غارقة في فلسفة لا معنى لها.. نقلُ السجناء الذي لم يتم بعد، والسفينة المعطلة والتي لا يعرف أحدنا الطريقة الصحيحة للتحكم بها.. هل هو مقتنع فعلاً أننا سننجز كل ذلك دون مشاكل في فترة يومين؟..

سمعت وليد يسأل "هل من وسيلة لتشغيل هذا؟"

رأيت الجهاز الأسود في يده، فقال روي وهو يتناول الجهاز من يده "لا بد من وصلة لتشغيله، أمهلني عدة دقائق"

وقام بكل نشاط يتفحص جوانب غرفة القيادة وأجهزتها المتعددة بحثاً عن وصلة تصلح لتوصيل الذاكرة الاحتياطية بجهاز الكمبيوتر وتشغيلها.. وأثناء مراقبتنا له سمعنا خطوات أدهم تهز المكان قبل أن يذلف الغرفة قائلاً "لقد انتهينا.."

قال له خالد "أوضح.. ما الذي أنجزتموه؟"

أجاب أدهم وهو يجلس جانباً "بخلاف المنجم الذي كنا نعمل فيه، انتهينا من إحضار السجناء العاملين في منجمين آخرين بالكامل.. بقي آخر منجمين وقد تولى أمرهما أمجد"

فعلق خالد "لماذا استغرقتم كل ذلك الوقت؟"

استشاط أدهم غضباً وهو يقول "أهذا ما تكرمت بقوله؟ بدل الإشادة بالمجهود الذي بذلناه لنقل ما يتجاوز المائة وخمسين شخصاً، تحاسبني على وقت لم أتعمد تضييعه؟"

قال خالد بهدوء "لأن رقاب الجميع معلقة بي، لذلك من الطبيعي أن أهتم بالوقت"

بدا أن أدهم سيستمر في صراخه، لكنه زفر وهو يفرك جبينه قائلاً "الموقعان يبعدان عدة ساعات عن الإدارة.. والمركبات التي نملكها لا تسع إلا لأقل من خمسين شخصاً.. لذلك قمنا بعدة رحلات من المناجم إلى هنا.. وهذا ما قام بتأخيرنا"

صمت خالد بدون تعليق على قوله وهو منشغل بالأوراق بين يديه، ثم رفع رأسه فجأة وقال لأدهم "أحسنتم صنعاً"

نظر أدهم له بتعجب بينما أطلقت أنا ضحكة صغيرة.. بدا أن تعليق أدهم قد دفع خالد لإطلاق تلك الجملة التشجيعية التي لا يتكرم بها عادة على أحد..

في تلك اللحظة قال روي "هاقد وجدته.."

اقتربنا منه باهتمام وهو يصل الذاكرة الاحتياطية بجهاز كمبيوتر موضوع جانباً بعد أن عثر على التوصيلة المناسبة، وبعد أن فتح الملفات الموجودة في الذاكرة، نظر لوليد باستفهام.. نظرنا للشاشة فرأينا عشرات عشرات الملفات.. وكلما فتح وليد ملفاً وجد به مئات من مقاطع الفيديو من جوانب مختلفة من الإدارة والمسكن المختلفة، فقال وليد بضيق "يتطلب البحث عن الموقع المطلوب شهوراً وسط هذه المقاطع"

دفعه روي برفق وهو يستقر أمام الجهاز قائلاً "اسمح لي.. يمكنني اختصار البحث بموقع محدد إن استطعت تزويدي برقم جهاز المراقبة التسلسلي بالضبط أو موقعها في المباني الإدارية.."

غمغم وليد "طبعاً لا أملك مثل هذه المعلومة.. أما بالنسبة لموقعها، فيمكنني تحديد الغرفة المطلوبة بدقة.."

بحث روي قليلاً، ثم استخرج من ذاكرة الكمبيوتر خارطة للمباني الإدارية بكل غرفها وملحقاتها.. فحدد وليد الغرفة المطلوبة، وهي كما قال لرئيس المؤسسة على الكويكب.. وخلال لحظات كان الملف المطلوب بكل المقاطع فيه أمامنا.. عندها تخلى روي عن مقعده لوليد الذي جلس وبدأ يطالع المقاطع كلها باهتمام..

أما أدهم، فقد توجه لخالد قائلاً: “وماذا عن مسألة التنفس؟ لازلنا حتى الآن نتنفس هواء الكويكب.. فهل سيبقى الوضع هكذا بعد مغادرتنا إياه؟ أم أن السفينة لا تحمل إلا نظام تهوية مشابه للأرض؟ لا نريد أن نواجه مخاطر الاختناق بعد رحيلنا من هنا”

قال خالد بثقة: “لن يحدث هذا.. أنا واثق منه”

قطب أدهم متساءلاً: “وكيف تكون واثقاً من أمر لا تعرفه؟”

التفت خالد لروي قائلاً: “ماذا وجدت عندما بحثت عن نظام التهوية في السفينة؟”

قال روي: “السفينة لا تحمل إلا نظاماً واحداً هو بتركيبة مشابهة لهواء الأرض.. وفور أن تبدأ عملية الإقلاع

سيقوم النظام بشكل آلي باستبدال الهواء في السفينة ليطابق ذلك المخزن في النظام”

فقال أدهم بحدة: “هل تريدون قتلنا؟”

قال خالد بهدوء: “لم العصبية هذه؟ ألم تأت بنفسك باستخدام مثل هذه السفينة؟ لست أظنك واجهت فيها أي اختناقات أو أعراض مشابهة.. وعند وصولكم للكويكب نزلتم من السفينة دون أن يحقنكم الإداريون بعقار أرياء.. أليس كذلك؟”

نظر له أدهم بحيرة وأنا أقول: “أتعني أننا رغم وجود العقار في أجسادنا نقدر على تنفس هواء الأرض دون مشاكل؟”

هز خالد رأسه إيجاباً وقال: “العقار يهيء أجسادكم لاستهلاك هواء الكويكب الذي يخلو من الأكسجين تقريباً إلا من نسب ضئيلة ويعجّ بالهيدروجين وغازات أخرى.. لكن هذا لا يعني أنه قام بتغيير نظام الجسد التنفسي بالكامل.. بل يجعله يستبدل الأكسجين بغاز آخر لاستمرارية عمله.. ولكن عند توفر الأكسجين فإنه تلقائياً يقوم باستخدامه دون فرق يذكر”

قال أدهم بعناد: “هذا كلام نظري.. كيف تثبت لنا ذلك؟”

نهض خالد على الفور قائلاً لروي: “أتري غرفة المعدات القريبة من هذه الغرفة؟ سأدخل لها وحدي وفور إغلاق الباب قم بتغيير نظام التهوية فيها ولا تنس تشغيل جهاز المراقبة”

وغادر دون أي تعليق آخر، فسارع روي لتشغيل جهاز المراقبة على الغرفة المطلوبة ونحن نتابع معه ما يجري وأدهم يغمغم: “إنه مجنون..”

لم يعلق أحدنا بكلمة ونحن نرى خالداً يذلف الغرفة فيقف وسطها بصمت بعد أن أغلق بابها.. وعلى الفور عبث روي ببضع أزرار أمامه قائلاً بتوتر: “ها قد بدأنا..”

ظللنا ننتظر وخالد يتلفت حوله منتظراً بدوره.. وخلال نصف دقيقة كان النظام قد أتم عمله فقال روي عبر جهاز اتصال داخلي في الغرفة: “لقد تم تغيير نظام التهوية بالكامل يا سيد خالد.. بم تشعر؟”

جذب خالد نفساً عميقاً ونحن نراقبه بتوتر، ولم يلبث أن سعل بقوة حتى احمر وجهه وهو يمسك رقبتة بيده، فهبّ

أدهم صائحاً “غادر الغرفة أيها الأحمق..”

لكن خالد قال بعد أن استرد هدوءه “لا بأس.. أنا على ما يرام”

فتساءلتُ بشك “حقاً؟ لكنك بدوت كمن يختنق..”

مطّ خالد شفّتيه معلقاً “لا.. لكن الهواء غير منعش البتة.. إنه يحمل رائحة معدنية لم تُرُق لي أبداً”

ضحك وليد الذي كان يستمع لما يدور وقال “عليك التعود عليه فلن تجد غير هذه الرائحة لأسبوع كامل..”

غادر خالد الغرفة بينما ارتمى أدهم على كرسيه قائلاً بحنق “إنه يجد الأمر ممتعاً؟ لقد ظننته سيقضي نحبه

بالفعل..”

سمعنا خالد الذي دلف غرفة القيادة يقول لأدهم “والآن، أرجو أن تتفقدوا المساكن مرة أخرى.. لا أريد أن ننسى

أي أحد قبل رحيلنا..”

خرج أدهم لينفذ أمره، فأسرعت خلفه لمساعدته.. لم أتعود البقاء دون عمل.. ولا أظنني سأتعود على ذلك البتة..

أما بسمه، فقد بقيت في غرفة القيادة جالسة في زاوية منها بصمت تام كعادتها مؤخراً..

عندما علا الهدير القوي من الحظيرة الضخمة ببيابها المفتوح، قفز السجناء وقوفاً وهم يتأملون السفينة بذهول

ولهفة.. ثم علا صياحهم وهتافهم الصاخب والسعادة تتفجر من ملامحهم لرؤية وسيلة نجاتهم الوحيدة تعمل

وبكفاءة.. وفي غرفة المحركات، نظر خالد للمحركات التي صمّت آذانهم بصوتها جاعلة من العسير عليهم تبادل

حديث عادي فيما اقترب أحد المهندسين منه صارخاً وهو يمسح عرقه المتصيب على وجهه “لقد نجحنا أخيراً..

كانت المحركات تعاني من عدة مشاكل لكننا تمكنا من إصلاحها بأقل معدات ممكنة”

فتنهد خالد وهو يغمغم “الحمد لله.. حقاً هذه معجزة”

قال المهندس وهو يشير للآخر “لا زالت هناك عدة جوانب علينا التأكد منها في المحركات قبل أن نضمن عملها

تماماً.. لكن لن يطول الوقت قبل أن نقوم بتجهيزها تماماً”

هدأت المحركات بعد أن قام المهندس الآخر بإيقاف تشغيلها، فترك المهندس الأول خالداً ليعود لزميله ويبدأ عمله

الذي لم ينته بعد..

أما في غرفة القيادة، فقد غمغم روي وهو يتطلع لوليد الذي لم يفارق شاشة الكمبيوتر منذ نصف ساعة “ألم تملّ

رؤية هذه المقاطع؟ لقد حفظتها كلمة كلمة”

تنهد وليد وهو يتراجع في كرسيه قائلاً “لأنني في كل مرة أراها لا أصدق أذناي فيما تسمعه.. فأشاهدها مرة

أخرى لعلّي أكون متوهماً..”

قال روي "وما الذي لا تصدقه بعد كل ما جرى؟ لو لم يغادروا لما كنا في ما نحن فيه الآن"

قال وليد مقطباً "لا يمكنني تصديق الوقاحة والبرود الذي يتحلّى به رؤساؤنا.. كيف تخلّو عما يناهز الأربعمئة شخص دون أي إحساس بالذنب؟ كيف قرروا أن هؤلاء جميعهم يجب أن يقضوا نحبهم بهذه البساطة؟"

قال روي معقّباً "لم كل هذه الانفعالات الدرامية؟ البشر لا يدهشونني أبداً"

التفت إليه وليد قائلاً "ألا تملك أي عمل تقوم به غير مراقبتي؟"

قال روي "لقد أنجزت ما عليّ.. أنا بانتظار ذلك العالم ليحدد لي ما يريده من نظام السفينة"

غمغم وليد "ذلك العالم له اسم لو لم تكن تعلم"

لم يعقب روي بكلمة وهو يتابع معه اللقطات مجدداً.. ثم سمعا صوت خالد من خلفهم يقول "أولئك السجناء يتمتعون بحس الفكاهة كما يبدو.. تخيلوا لقد سألوني متى سنغادر الكويكب.. ولما أخبرتهم أن الوقت قد يطول حتى نتمكن من التحكم بالسفينة سألوني ما الذي أفعله أنا إذا؟ وكأن مهمة العالم أن يقود سفينة فضاء عبر الكون كأي سائق حافلة محترم"

قال روي وهو يقف "سيدي.. لقد أنجزت ما طلبته مني.. بقي أن تختار نظام من النظم المخزنة في السفينة"

وقال وليد "انظر لهذا"

التفت العالم لوليد متجاهلاً روي الذي سرعان ما تأفف بضيق، بينما منح خالد انتباهه لوليد الذي قام بتشغيل الشاشة معيداً اللقطة ذاتها.. كانت اللقطة لإحدى غرف المباني الإدارية الفخمة يجلس فيها رجل أشقر الشعر يرتدي ملابس عادية، ولم يلبث قائد الحرس أن دلف عليه قائلاً "احزم أغراضك يا ماك.. سنغادر"

رفع ماك رأسه عن أوراقه متسائلاً "إلى أين؟ لا أذكر أن لدي موعداً في أي وقت قريب"

قال القائد وهو يرمي جسده على كرسي "ألم تسمع ما قلته؟ قلت احزم أغراضك.. هذا ليس موعداً.. إنما رحيل بدون عودة على الأغلب"

قطب ماك قائلاً "ماذا تعني؟ لأين؟ ولماذا؟ فسر الأمر"

قال القائد "ألم تجذبك كل تلك الانفجارات والإزعاج الدائر في المكان؟ أولئك الأوغاد بقيادة خالد قد فجرنا مخزوننا من عقار أريا تماماً ولم نعد نملك قطرة منه"

تساءل ماك بدهشة "كيف؟ ومتى حدث ذلك؟ بل كيف تسمح لهؤلاء الشرذمة بالوصول لهذا العقار المهم بهذه السهولة؟"

قال القائد بضيق "ليس هذا تساهلاً مني.. بل هم غافلوننا ونحن نجعل ما يملكونه من معلومات.. لا تنس أن بعض حراسنا قد غدروا بنا وانضموا لهم لسبب مجهول.. والآن هم يملكون مصدراً مهماً للمعلومات لا يمكننا تجاوزه.."

قال ماك بصرامة "هذا ليس عذراً.. كان عليك أن....."

اعتدل القائد مقاطعاً إياه "ألا تعتقد أنك تتجاوز النقطة الأهم هنا؟ لم نعد نملك العقار.. وأمامنا ما يقل عن يومان قبل أن تبدأ الأعراض بالظهور.. أنسيت تلك المرة التي فقدنا فيها عمال منجم كامل بسبب نقص العقار؟ ألا تذكر ذلك المنظر؟"

غمغم ماك بضيق "وهل نسيته؟ وما العمل الآن؟"

قال القائد بسرعة "أن نغادر.."

نظر له ماك بدهشة وهو يسمعه يضيف "في السفينة يمكننا أن نتنفس حتى بعد نزوب العقار من أجسادنا فلن تكون هناك مشكلة.."

قال ماك "مستحيل.. هل تريد من الإداريين والحراس كلهم المغادرة في السفينة حتى نحصل على العقار الذي لن يصل قبل أسبوع؟ أتعلم أي فوضى سنسبب بها في الكويكب بعد أن يجد السجناء أنهم بدون مراقبة؟ وما ردة فعل الإدارة الرئيسية للمؤسسة بعد أن يصلها خبر ما جرى هنا برأيك؟ نحن لازلنا متكتمين على نجاح هؤلاء الشرذمة بالهرب طوال تلك المدة.."

قال القائد ضارباً الطاولة بيده "ومن تحدث عن العودة؟ سنغادر، وسنترك هؤلاء هنا لمصيرهم.. سنعود للأرض ولن نرجع هنا إلا بعد أن يستتب الأمن في الكويكب"

قال ماك بسخرية "وهل تتوقع من السجناء أن ينتظموا في العمل بصمت واستسلام حتى نعود؟ عن أي أمن تتحدث؟"

قال القائد وهو يميل تجاهه بصرامة "بل بعد أن ينفذ العقار من أجسادهم، أو أجساد أغلبهم.. عندها سيدرك الباقون أن الاستسلام خير لهم من الموت اختناقاً.."

ارتد ماك للوراء بصدمة، فقال القائد بعصبية "لا تنظر لي هكذا وكأنني شيطان مريد.. فكر بالأمر.. هذه هي الطريقة الوحيدة لاستعادة السيطرة على الكويكب بدون استخدام القوة بشكل علني وما يتبعها من اتهامات من جميعات حقوق الإنسان.. لا نستطيع طلب قوات لإعادة الأمن على الكويكب، والحراس لن يكفوا لذلك"

قال ماك بحدة "وما سنفعله لن يلاحظه أحد؟ أنت مجنون؟"

قال القائد وهو يقف ليدور في الغرفة "دعني أرسم لك الصورة كاملة.. بعض المساكن في حالة بلبلة كبيرة الآن، ونحن مضطرون للرحيل للحفاظ على حياتنا.. على الأقل الإداريين وقدماء الحراس.. من سيتبقى من الحراس ممن تلقوا الجرعة لن يستطيعوا السيطرة على السجناء وقد تحدث فوضى عارمة بعد أن يكتشف الجميع رحيلنا وغياب القوة المسيطرة على الوضع في الكويكب.. فلو فكرنا بالعودة بعد الحصول على العقار، فما الذي سنجده؟ لست أشك أن السجناء بعد رحيلنا سيثورون وسيدور قتال بينهم وبين الحراس.. ورغم امتلاكهم للأسلحة فإن الحراس لا يشكلون ثمن سكان الكويكب.. وقد ينتج عن هذه الثورة قتل بعض الحراس والاستيلاء على أسلحتهم.. فهل سيستقبلنا السجناء بأذرع مفتوحة؟ ولقد حطموا جهاز التحكم بالأساور.. فكيف تنوي استعادة السيطرة على

الكويكب عند عودتك؟”

تردد ماك وهو عاجز عن الإجابة، فأسرع القائد بالجلوس قائلاً باهتمام “بعد أن نغادر ونعود للأرض، لا بد سيقام تحقيق لنا في الإدارة الرئيسية للمؤسسة عن سبب رحيلنا.. فيجب أن تكون لدينا قصة واحدة عن سبب رحيلنا.. يمكننا..... يمكننا أن نقول إن مرضاً غريباً قد أصاب السجناء في هذا الكويكب الغريب وتسبب في عدم تقبلهم لعقار آريا وموتهم السريع.. يمكننا أن نعرض عليهم صوراً من تلك الحادثة القديمة...”

قاطعته ماك بصرامة “التصوير الذي يتم عبر أجهزة المراقبة يحمل التاريخ بدقة.. فكيف...”

قال القائد ملوحاً بيده “عن أي تاريخ نتحدث؟ التوقيت لا يتساوى في الأرض والكويكب.. يمكننا أن نقول إن قصر اليوم على الكويكب يجعل التواريخ غير دقيقة.. لن يستغرق السجناء إلا أسبوعاً أو اثنين حتى ينفذ العقار من أجسادهم، سنحاول تضييع هذه المدة ما استطعنا بأي حجة.. كون المرض معدٍ، أو أي عذر آخر.. يجب أن نقنع الإدارة بهذا العذر، ونمنعها من إرسال لجنات تحقيق للكويكب..”

صمت ماك مفكراً بعمق والقائد ينظر له بترقب، ثم غمغم ماك بتردد “لن يوافق الحراس كلهم على الانضمام لنا في هذه الخديعة”

فقال القائد بسرعة “لذلك لن نأخذ معنا إلا من نثق به وبانضمامه لنا..”

قال ماك بحدة “وتريد التخلي عن الحراس أيضاً؟ أنا لا يمكن أن أوافق على هذا..”

وقف القائد قائلاً بصرامة “اسمع.. أنا سأغادر في السفينة بعد إجراء بعض الترتيبات.. إن كنت ترغب بالانضمام إليّ أنت وإدارييك فمرحباً بكم، وإلا غادرت مع من ينضم لي من الحراس ولست مسؤولاً عن أي أحد” وغادر بخطوات قوية تاركاً ماك وصراع قوي يبدو على ملامحه.. ولم تكن ملامح خالد بأقل صدمة وهو يقول لوليد “ذلك القائد الوغد.. لقد تخلى عن الجميع بكل برود..”

تنهد وليد معلقاً “وهذا ما صدمني.. يجب أن نحفظ بهذا المقطع ونعرضه على من يهمه الأمر لينال أولئك الأوغاد عقابهم..”

فقال خالد “سنفعل.. ثق بهذا..”

وغادر مع روي الذي كاد يفقد صبره تاركاً وليد يزفر بضيق للمرة المليون..

“لماذا؟”

نطق أحد السجناء بهذه الكلمة وهو ينظر بشك للحارسين الواقفين أمامه.. كان الحراس قد بدأوا تسيير السجناء في جماعات للسفينة استعداداً للمغادرة، لكن السجناء قد وقفوا أمام الغرف التي من المفترض أن يبقوا فيها وهم في

شك من نوايا الحراس.. لكن الحارس سارع ليقول “لابد أن تبقى كل مجموعة منكم في غرفة من غرف السفينة أثناء الانطلاق.. الانطلاق عادة يشوبه بعض العنف، وهذا خطر عليكم..”

قال السجين مقطباً “وماذا عنكم؟”

قال الحارس “الكل سيتوزع على غرف السفينة.. الحراس والسجناء على حد سواء.. لن يبقى في غرفة القيادة إلا المسؤولين عن تسييرها.. فلماذا القلق؟”

ظل السجناء ينظرون لهما بتشكك كبير، فقال الحارس مقطباً “اسمعوا.. هذا هو الترتيب الذي اتفقنا عليه وهو الأنسب للحفاظ عليكم من أي ضرر.. لو كنتم تنوون مخالفة هذا فالأفضل لكم النزول حالاً من السفينة.. الوقت يدهمنا ولا وقت لدينا لهذه المجادلات”

قال أحد السجناء بحدة “هذا غير مقنع.. هل تخططون لحبسنا من جديد؟ أريد المسؤول هنا.. من هو المسؤول؟” سمعوا صوت خالد من خلفهم يقول بصرامة “أنا المسؤول.. أليك أي اعتراض على ما نطلبه منك؟” قال السجين بحق “طبعاً.. نحن نشك في نواياكم ولا نظنها لمصلحتنا أبداً.. لماذا لا تنتقل في السفينة كما نشاء؟ أنتم سجناء مثلنا.. أليس كذلك؟”

قال خالد بهدوء “لقد أخبركم الحراس بخطر الانطلاق وأنتم تجولون بحرية في السفينة.. لقد بذلنا الكثير لتحريركم ولضمان حياتكم فما الذي فعلتموه أنتم؟ لو كان لديك غير الشكوك والشكوى فاطرحه أمامنا، وإلا تكرم بالنزول من السفينة وانتظر أن تأتي أخرى لتقلك شخصياً للأرض..”

بدا الضيق على وجه السجين فيما غدت وجوه البقية تحمل تردداً كبيراً، قيل أن يبدؤوا بالدخول للغرفة بصمت وتبعهم السجناء الحانق دون اعتراض.. عندها قال لهم خالد “رجاء لا تخرجوا من الغرفة قبل أن يتم الانطلاق بشكل آمن..”

أغلق الحارس الباب عليهم، فغمغم خالد “تأكد من إقفال الغرفة دون أن تثير انتباه البقية حتى نضمن دخول الجميع للغرف بدون اعتراض..”

أطاعه الحارس بصمت فيما غادر خالد وهو يتأمل الجماعات التي تعبر ممرات السفينة.. منهم من يجادل، ومنهم من التزم الصمت المترقب.. منهم المذنب حقاً، ومنهم البريء الذي ساقه حظه السيء في طريق المؤسسة التي لم تتورع عن الظلم أبداً..

بعد يوم كامل، كنا قد انتهينا من نقل جميع السجناء من أرجاء الكويكب ومن ثم نقلهم لغرف السفينة الفضائية.. والآن بقي عدد قليل منهم قدموا مع أمجد من آخر موقع.. وكان هذا إعلاناً باقتراب رحيلنا من هذا الكويكب

ووداعه للمرة الأخيرة كما أرجو..

وقفت، وقربي بسمه كعادتها، خارج الحظيرة أتأمل ما حولي بصمت تام.. تأملت الغابة القريبة من المهبط.. تأملت كل ورقة تتنثني بفعل الهواء، واستمعت لكل حفيف خافت يصدر عنها.. شممت الهواء المنعش الذي يحمل رائحة مميزة لم يسبق لي شمها على الأرض.. ومررت ببصري على أرجاء المكان كله وكأني لا أريد نسيان أي بقعة فيه..

قد تظنون أنني بلهاء لأهتم بكل هذا، لكنني لا أريد أن أنسى هذا الكويكب الذي أتمنى ألا أعود إليه مرة أخرى.. لا أريد أن أنسى استماتتي لنيل حريتي.. ولا أنسى شخصيتي التي تبلورت في هذا المكان بحيث نسيت الفتاة التي كنتها سابقاً.. لا أريد نسيان كل أحلامي وآمالي ومتاعبي.. ولا كل المآسي التي رأيتها والمصاعب التي قابلتها هنا..

شعرت بالأصوات خلفي تخفت وإن لم ألق بالاً للأمر، ثم شعرت بيد توضع على كتفي برفق.. نظرت خلفي لأجد أمجد ينظر لي بتساؤل وهو يقول "ما الأمر.. أهنالك ما يشغل تفكيرك؟" هزرت رأسي نفيًا وقلت "فقط أحفظ تفاصيل هذا المكان.. فلا أريد أن أنسى أي شيء مر بي هنا" قال بتعجب "وهل يستحق كل ما مررت به من آلام أن تذكره؟" ابتسمت وغمغمت "ألا ترى أنك تستحق أن أتذكرك؟"

ازداد تعجبه، فأضفت "أنت بالنسبة لي جزء من هذا المكان، وكذلك بسمه وأدهم.. ما فاسيناه، وما شاركنا به، كل ذلك هو ما كوّن علاقتنا مع بعضنا البعض.. ولا أريد نسيان ذلك أبداً"

ابتسم ابتسامة صغيرة مغمماً "من يظن أن يصدر هذا القول من الفتاة التي تدّعي أنها لا تهتم؟" وقبل أن أعلق أضاف "هيا.. عمي يهددني أنه سيرحل بدونك إن لم يجدهك أمامه خلال خمس دقائق.. انتبهت إلى أن الجميع قد صعد للسفينة الفضائية، الحراس والسجناء على حد سواء.. وكذلك بسمه وأدهم، ولم يبق سوانا على أرض الكويكب..

نظرت حولي للمرة الأخيرة، ثم أدت ظهري للكويكب كله وأنا أرتقي سلم السفينة الفضائية، وقد فارقت قدمي تراب الكويكب للمرة الأخيرة..

وخلال دقائق معدودة، كانت السفينة قد أتمت استعداداتها وبدأت الإقلاع.. أما أنا فقد وقفت قرب إحدى النوافذ أنظر للكويكب من جديد.. لست أدري إن كان وجود البشر على ظهره نعمة أم نقمة له، لكنه عاد كما كان، وحيداً لا يؤنسه أي كائن حي.. وسيكمل دورته الدائمة حول الشمس غير عابئ بمن غادره، وبمن ضمه في باطنه للأبد..

الفصل التاسع والعشرون

[حرية.. أم لا؟]

بعد مضي ساعة منذ غادرنا الكويكب، مازلت غير مصدقة للأمر وأنا أجلس في جانب غرفة القيادة وجواري بسمة أتأمل المكان بصمت.. مازلت أظنني في حلم قد أصحو منه في أي لحظة.. لقد أمضينا على الكويكب ما يقارب الأربع شهور كانت من أطول الشهور التي مرت عليّ في حياتي.. عانيت فيها الكثير، وحلمت فيها بالكثير الكثير.. لكن هل حقاً نجحنا في مغادرة ذلك الكويكب المشؤوم؟.. غمغمت لبسمة التي جلست جواري بصمت "هل تصدقين أننا غادرنا الكويكب حقاً؟"

قالت بسمة بحزم لم أعتده منها "أريد أن أصدق ذلك"

نظرت لها بعجب مغممة "حقاً؟ أما أنا فأشعر أنني لازلت أحلم.. لكن أتمنى ألا يفيقني شيء من هذا الحلم.."

سمعنا خالد يقول لروي "هل يمكنك الاتصال بمجلس الأمن الآن؟"

توتر جميع من في الغرفة والأعين تلتقي عنده.. كانت الغرفة تضمني مع رفاقي الثلاثة، بالإضافة لخالد وروي والمهندسين، ولا أنسى وليد وبعض الحراس.. فيما بقي بقية الحراس في غرف أخرى.. قال روي "بالطبع.. أخبرتك أنني أستطيع ذلك منذ أصلحنا السفينة على الكويكب"

قال خالد "لم أكن أربح بإجراء هذا الاتصال قبل أن يغادر الكويكب.. أردت في البداية الاطمئنان برحيلنا منه، والآن يمكننا محادثة مجلس الأمن وإبراز كل الحقائق التي نملكها"

فالتفت روي لأجهزته قائلاً "سأحاول الآن.."

ظللنا صامتين جميعاً بانتظار ما سيجري أمامنا والقلق يعتمر الأنفوس بدون استثناء.. وبعد دقائق عدة مرت وروي يجري محاولاته، قال بعد صمت طويل بتوتر ملحوظ "لقد طلبت محادثة أحد قادة مجلس الأمن، وطبعاً لا يمكن أن يتم هذا بسهولة، لكن وعدوني بتحويللي على أحد النواب المهمين في المجلس، وهو السيد مايك إليوت"

بعد لحظات اعتدل روي قائلاً "هاقد تم الاتصال.. هل أعرضه على شاشة الغرفة أم تحدثه بشكل شخصي؟"

قال خالد "بل اعرضه على الشاشة"

قام روي بذلك بالفعل ليروا في جانب من الشاشة المواجهة لهم وجه رجل صارم أشقر الشعر بلامح هادئة وهو ينظر لهم بفضول كبير.. وفور أن رأهم قال "عندما أخبروني أن الاتصال من سفينة فضاء قادمة من الكويكب لم أصدق الأمر.. لقد وصلتنا معلومات أن سفينة الفضاء الوحيدة قادمة من الكويكب منذ أيام تحمل فيها كل المسؤولين عن إدارته.. فمن تكونون أنتم؟"

قال خالد بهدوء "أنا خالد إبراهيم عالم وفيزيائي ذو شهرة محدودة في هذا المجال.. لا بد أنكم تملكون ملفي بما أن

المؤسسة استعانت بي في تطوير الكويكب العاشر " نظر له الرجل باهتمام وقال "وما هو تفسيرك لما يحدث أمامي يا خالد؟ أغلب من أراه أمامي يرتدي زي السجناء، فما الذي جمعك بهم على هذه السفينة؟" قال خالد بحزم "ليكن في علمك يا سيد مايك أن السفينة هذه تحمل كل شخص كان على الكويكب.. كلهم بلا استثناء، وذلك بعد أن خانتنا المؤسسة وإداريها وغادروا الكويكب مزعمين تركنا حتى نموت اختناقاً بعد نفاذ العقار من أجسادنا"

قال مايك "هذا قول خطير يا سيد خالد.. الإداريين قالوا إن مرضاً انتشر بين السجناء وبعض الحراس وتسبب في مقتل العديد منهم.. وأنت تقول إنهم هربوا؟ هذا القول له عواقبه"

فقال خالد "وأنا أملك الدليل على ما أقول.. سأرسل لك مقطعاً تسجيلياً استخلصناه من أجهزة المراقبة بعد هرب الإداريين، وقبل أن يقوموا بتفجير المباني عن بكرة أبيها.. وفيه إثبات لكل ما أقوله"

ظل مايك يفكر مقطباً وهم ينتظرون رأيه، ثم قال "أشرح لي ما جرى منذ البداية"

استغرق خالد معه في حديث طويل لخص فيه كل ما جرى بينهم وبين المؤسسة.. بينما ساد صمت تام البقية في غرفة القيادة وهم ينتظرون نتيجة الحوار.. وفي النهاية قال مايك بلهجة مصدومة "لم أتوقع أن تكون هذه هي الحكاية.. لكن أمهلوني بعض الوقت لأجتمع بالمسؤول عن هذه القضية وأعرض عليه ما لديكم من إثبات.. ثم سأبلغكم بالنتيجة"

أسرع خالد يقول "والأفضل ألا تعلم المؤسسة بأي شيء مما جرى بيننا.."

قال مايك "هذا مؤكد..."

وأنهى الاتصال تاركاً خالد يزفر بقوة.. فتساءل روي بعد تردد "هل سيصدقون براءتنا؟"

قال خالد بعد صمت قصير "لنأمل خيراً.."

قبل أن ينقضي يومنا، إن أمكنني عده يوماً مع غياب النهار في هذا الفضاء المظلم، رأيت أدهم جالساً في أحد الممرات قرب نافذة تحتل جانباً منه، وذلك عندما خرجت لأسير في الممرات بلا هدف بحثاً عن حلّ لضيق احتل صدري وأنا في غرفة القيادة.. كان أدهم يجلس بصمت خافضاً وجهه وهو يريح يديه على ركبتيه.. بدا لي مهموماً، فلم أجد بداً من الاقتراب منه وسؤاله "ما الأمر؟ هل أنت قلق أيضاً مما قد يقرره مجلس الأمن؟"

رفع أدهم بصره وأجاب "ومن ليس كذلك؟ لست أثق بأحد.. المؤسسة قادرة على إدانتنا من جديد، وأخشى أن يخضع لها مجلس الأمن"

جلست بدوري مستندة على الحائط خلفي وقلت “لا نملك إلا الانتظار.. ولنأمل خيراً كما يقول خالد”
سادنا الصمت للحظات قبل أن أتذكر أمراً، فالتفت إليه متسائلة “أنت لم تخبرنا، هل استعدت ذاكرتك؟ نحن كلنا
استعدناها في أوقات متفرقة، لكنك لم تذكر لنا شيئاً عنك أبداً”
قال أدهم “لقد استعدتها بالطبع.. ربما بعد أخذنا العقار بفترة وجيزة، لكني لم أجد فيها ما يستوجب إخباركم به”
فقلت بإلحاح “لكني أريد أن أعرف من كنت في الماضي..”
نظر لي بتعجب معلقاً “أتظنين أنني كنت رئيس دولة أو شخصية مهمة؟”
قلت مصرة “أريد أن أعرف”

هز كتفيه قائلاً “كنت ملاكماً.. لم أكمل تعليمي وانضمت لنادي ملاكمة شبه محترم، وبدأت أتدرب على يد
ملاكم متقاعد.. عندما بلغت الثامنة عشر كنت قد حصلت على شهرة محدودة بعد نجاحي في عدد من المباريات،
وبدأت ألفت الأنظار.. ومع الوقت، أصبحت مرشحاً وبقوة لنيل جائزة إحدى البطولات المحلية..”
فقلت مبتسمة “ماضيك مشرق وبهيج.. فما الذي رمى بك إلى هذا المستنقع؟”

تنهد قائلاً “لم تكن المباريات تعود عليّ إلا بريح ضئيل.. وكنت قد سقطت في عدد من الديون مع بعض
المرابين.. ولما كادوا يوقعون بي في السجن، تطوع رجل أعمال معروف بإسقاط الدين عني كاملاً، وطبعاً
جعلني أوقع على عدد من الأوراق ليضمن أنني سأعيد له ماله.. وبعد عدة أشهر، ومحاولات عديدة مني لتسديد
دينه، عاد الرجل لي يحمل عرضاً بإشراكي في بعض المباريات المشبوهة والتي تحتوي على العديد من
المخالفات.. حاولت الرفض، لكن مع تهديده لي بالسجن بسبب دينه الضخم، رضخت للأمر الواقع وشاركت في
بعض تلك المباريات.. حصلت على بعض النجاح ومنيت ببعض الخسائر، وهذا أمر معتاد في أي رياضة
كانت.. لكن لم يعجبه ذلك، تعرضت لعدة هجمات من رجاله بعد بعض المباريات الخاسرة، وكأنه يعاقبني
عليها.. وقد صرّح بأنه سيفضح اسمي لدى اتحاد الملاكمة والصحافة المهتمة بهذه الرياضة.. كان يريد إجباري
على الفوز بأي ثمن حتى استخدام حيل غير مشروعة، ليضمن ألا تتوقف الأموال التي تدرّ عليه من المباريات..
وبعد أن هددته بأنني سأفضحه وأفصح كل الممارسات التي تقام في تلك المباريات، أضمر في نفسه شراً لي..
فوجئت بمداهمة من رجال الأمن لمنزلي بتهمة ظالمة، وقد عثروا على أكياس وأكياس من المخدرات مخبأة فيه،
فاتهموني بأنني تاجر مخدرات.. ورغم إنكاري وعدم معرفتي بكيفية وصولها لمنزلي، فإن عدداً لا بأس به من
جيراني قد شهدوا ضدي لتثبت التهمة عليّ، ويبدو أن رجل الأعمال لم يدخر أمواله في شراء ضمائرهم.. وهكذا
ثبتت التهمة عليّ وحوكمت بصرامة، لأجد أنني متوجه للكويكب العاشر لذنب لم أرتكبه..”
وابتسم بسخرية قائلاً “ذنبني أنني احتجت للمال ولم أجد من يسدّ حاجتي إلا رجل حقير..”
فقلت معلقة على قصته “إذن يمكنك إثبات براءتك وفضح ذلك الرجل وما يفعله في تلك المباريات غير
الشرعية.. الأمور لن تكون سيئة جداً بالنسبة لك”

غمغم "لست متأكداً من هذا.."

ثم نظر إليّ قائلاً "وماذا عن بسمه؟ من سيصدق أنها لم ترتكب تلك الجريمة إلا دفاعاً عن نفسها؟" نظرت له بدهشة وتساءلت "أكنت تعرف بالأمر؟"

هز رأسه إيجاباً وقال "أخبرني به أمجد.. إذ أنني لم أطق صبراً لأعرف سبب دموعها ذلك اليوم" ابتسمت معلقة "أنت لازلت مهتماً بها.. رغم ادعائك أنك رميت كل ذلك خلف ظهرك" تنهد قائلاً "أعتقدين أن شيئاً كهذا يمكن نبذه بكل بساطة؟ لكنني أعرف متى عليّ الانسحاب من قضية خاسرة.. وقد فعلت"

لم أجد ما أقوله تعقيباً على هذا، لقد تزايد إعجابي بأدهم وبقناعاته التي رغم بساطتها فإنها مؤثرة جداً.. كم أتمنى أن يجد سعادته بعد انتهاء ما نحن فيه.. فهو يستحق ذلك ولاشك.. تذكرت شيئاً فسألته "وما هو اسمك قبل قدومك للكويكب؟" فتح فمه ليحجب لكنني أسرعت أقول "لا تقل إنه وسيم..". أطلق ضحكة عالية وهو يعلق "لازلت تذكرين ذلك؟" بدا شيء من الانشراح على وجهه مما أراحني، رغم أنه رفض بإصرار الإجابة على سؤالي محتفظاً باسم أدهم.. فتركته وأنا أعود لتجوالي بلا هدف..

"ماذا؟"

لفتت انتباهي تلك الصيحة التي صدرت من أدهم فور دخولي لغرفة القيادة.. مرّ علينا يوم بانتظار رد من مجلس الأمن، وكنت قد خرجت أتفقد الأوضاع في السفينة في الغرف التي تضم السجناء بقلبها، فعدت لأجد الجو متوتراً بشدة.. نظرت بدهشة لما جرى لأجد أدهم يواجه خالد بغضب وبسمة تقف جانباً مصدومة بشدة.. بينما قطب أمجد مطرقاً بصمت.. وخالد ينظر لأدهم بهدوء دون انفعال.. فعاد أدهم يقول "ماذا قلت؟ أنت جاد؟" قال خالد "بالطبع.. لقد تحدثت مع مجلس الأمن الدولي وهو قد أبلغني بذلك..". فقال أدهم بحنق "كيف رضيت بذلك؟" أجاب خالد "وهل أملك خياراً؟ لاحظ أي بلا سلطة في العالم الخارجي ويمكن أن يزجوا بي في السجن بدوري إن رفضت الانصياع لهم" اقتربت من أمجد تاركة أدهم وخالد يتجادلان بشدة، أو أن هذا ما يفعله أدهم يقابله هدوء خالد الشهير.. فسألته أمجد "ما الذي جرى؟"

زفر أمجد بضيق ظاهر، ثم قال "مجلس الأمن قد أقرّ بتصديقه لنا وقبوله الدعاوي التي ننوي رفعها ضد المؤسسة بعد أن شاهدوا الإثبات.."
قلت بدهشة "ذلك خبر رائع.. فما باله أدهم؟"
قال أمجد "لقد طلبوا منا الهبوط في إحدى قبب القمر.."
ظللت أنظر له بحثاً عن الخبر الذي أزعج أدهم، فقال أمجد بعد تردد "إنهم يصرون على قرارهم إعادة السجناء جميعاً للسجن حتى تفتح ملفاتهم من جديد ويبت في قضاياهم مرة أخرى"
هتفت بعدم تصديق "مستحيل.. سيحكمون علينا بأننا مذنبين مرة أخرى"
قال أمجد بسرعة "هم وعدونا بتحري الصدق هذه المرة، لكن لا تنسي أن بيننا من كان مجرمًا حقًا.. ومن الخطر الإفراج عن الجميع دون تدقيق"
فنظرت لبسمة التي جلست جانباً مطرقة وقلت "وماذا عن بسمة؟ هل سيحكمون عليها بأنها مذنبية؟"
وعدت ببصري نحو أمجد مضيفة بقلق أشد "وماذا عني أنا؟ لا أملك دليلاً واحداً على براءتي وأخشى من حكمهم علي"
قال أمجد مهدئاً إياي "لكنك بريئة بالفعل، والحقيقة يجب أن تظهر يوماً.."
قلت بإلحاح "وبسمة؟"
تنهد أمجد بصمت وأنا أنتظر رده وكأنه حكم فاصل لقضية بسمة، ثم قال لي "نأمل أن يأخذوا بعين الاعتبار كونها كانت تدافع عن نفسها.."
انتفضت واقفة وهتفت "تأمل؟"
نظر لي بضيق وصمت، فاتجهت من فوري لأقف قرب أدهم مواجهة خالد وأنا أقول "لماذا تصرفتم بمفردك دون استشارة أحد؟ كيف تخوّل لنفسك التحكم بمصائرنا جميعاً دون سبب مقنع؟"
كان قولي خالياً من أي لياقة أو لمحة احترام، لكن خالد قال لي بهدوء "أتجدين إطلاق الجميع على الأرض أكثر إقناعاً؟ ما الغريب في أن تخضعوا لحكم عادل مادمتم واثقين من براءتكم؟"
قلت بحدة "سيلفون لنا التهم كما فعلوا أول مرة.. مازالت المؤسسة ذات نفوذ في العالم ويمكنها أن تثبت أن الأحكام التي صدرت بحق الجميع لم تكن مغلوطة.."
فقال خالد بصرامة "هل تتحملين مسؤولية المئات الذين نحملهم معنا؟ منهم المجرم، والقاتل، والسارق، والمغتصب.. من سيتحمل ذنب ما سيقتر فونه بعد أن نطلقهم في المجتمع بعيداً عن عين القانون؟"
سأني الموقف الذي وجدت نفسي فيه، وسأني الخوف الذي بدأ يستعمر نفوسنا، وأنا واثقة أن بسمة على الأقل مرتعبة أشد ما يكون الآن.. لكن بم أحاجهم؟ بم أقنعهم؟..
كففت عن مجادلته في حوار خاسر، فاستدرت مغادرة غرفة القيادة بصمت غاضب، وسرت في ممرات السفينة

المتشابكة بغير هدف وبغير معنى.. رغم ثقتي السابقة بأنني سأتجاوز أي مصاعب تعترض طريقي، رغم ثقتي بقدرتي على النجاة في كل مرة، إلا أنني اليوم مزعزعة الفكر وأنا أرى أمامي جداراً صلباً أكاد أصطدم به.. جدار يتلخص في أحكام وقوانين البشر التي لا تخضع للرحمة.. ووقفت قرب نافذة تطل على الفضاء الخارجي الشاسع..

تنهدت وأنا أشعر بعقلي يدور في دوامة قوية.. مصيري مجهول، وحياتي معلقة بأهواء أشخاص آخرين قد لا يراعون ما مررنا به ولا يرحموننا.. فماذا نستطيع أن نفعل؟..

شعرت بتربيتة خفيفة على كتفي.. فالتفت خلفي لأرى وليد يقف متسائلاً "ما بال كل تلك الكآبة المتبدية عليك؟ أكاد أشم رائحة الدخان المتكاثف فوق رأسك.."

قلت بابتسامة هازئة "يحق لك التعليق بسخرية، فأنت على الأقل لا تخشى مما قد يحصل لك عند وصولنا.."
قال بابتسامة جانبية "ولماذا تخشين ذلك؟ ألسنت مقتنعة ببراءتك؟"
قلت بوجوم "وهل سيقتنعون هم؟"

قال بلهجة درامية "نظرة لعينيك الجميلتين ستجعل القاضي يجزم ببراءتك على الفور.. فلم القلق؟"
قلت بضيق "بل ربما شكلي هذا هو ما سيجعله مقتنعاً بذنبي.. بكل تلك الكدمات والجراح التي تركت آثارها على جسدي ووجهي، وبمظهري الخشن، لا أبدو بريئة بأي حال.."
تنهد وليد وهو يستند على الجدار قرب النافذة قائلاً "أتعلمين.. لقد توجهت باعتراضي لخالد بدوري ما إن علمت بالخبر، قبل أن تعلموا به.. خشيت أن ينقلب كل ما حدث عليكم، وأن يحملكم مجلس الأمن ذنب كل من مات من السجناء في الكويكب العاشر.."
قطبت قائلة "وماذا قال؟"

أجاب وليد "صارحني بأنه يخشى ذلك أيضاً.. وأنه، بعد أن يحكي الحكاية كلها للمسؤولين هناك، سيعلن عن تحمله مسؤولية من مات بسبب نقص عفار آريا لأنها كانت خطته بالأساس.. بينما من مات في مبنى العزل، فهو سيتهم إدارة المؤسسة بالتعمد في قتلهم.."

خففت بصري بضيق بعد أن أدركت أنني قد تسرعت بالحكم عليه، رغم أن هذا لن يخفف من سوء موقفنا بحال.. سمعت وليد يضيف "إنه يخفي مشاعره خلف بروده هذا، لكنه قلق عليكم بشدة.. لا تنسي أن أمجد هو ابن أخيه ولن يسلمه للسجن دون ضمانات.. وأنتم قد تعاونتم معه على الكويكب، ولا تختلفون في أهميتكم عنده عن أمجد.. هو فقط مضطر لتحكيم ضميره في هذه المسألة وعدم الاندفاع خلف أهوائه للأسباب التي ذكرها لك سابقاً.."

سادنا الصمت لوقت قصير، قبل أن أنظر له قائلة بتردد "أتظننا قد نحصل على براءتنا؟"
ابتسم مجيئاً "أرجو ذلك.. كوني على ثقة أن الله تعالى لن يظلمكم أبداً.. وأنتم قد تعذبتم بما فيه الكفاية في الأسابيع

الماضية.."

وربت على كتفي قبل أن يغادر بصمت تاركاً إياي أستسلم لأفكاري من جديد.. ورغم حديثه الذي حاول تهدئة قلقي به، إلا أن الخوف الذي استعمرني لم يكن بقليل..

لم يكد وليد يغادرني بدقائق بسيطة، حتى سمعت صرخاً صادراً عن إحدى الغرف التي تحوي السجناء.. أصخت السمع للحظات محاولة تقدير خطورة الأمر ووجوب تدخلنا فيه من عدمه.. ولما بدا لي الصوت مذعوراً متألماً وطرقات قوية تضرب الباب، توجهت من فوري لتلك الغرفة فوجدت وليد قد سبقني عندها وأخذ يضرب الباب صائحاً "الزموا الهدوء ولا تضطرونا لاستخدام العنف.."

لم يخفت الصراخ والضربات تتزايد على الباب، عندها قال لي وليد "انطلي إلى غرفة القيادة وليستخدما شاشة الرصد لمعرفة ما يحدث هنا.. أخشى أن يكون أحد السجناء قد تعرض لمن معه بسوء.."

أسرعت لتنفيذ طلبه دون إبطاء.. وحالما شرحت للبقية في غرفة القيادة ما يحدث، وهي لبعدها لا يصلها أي صوت من الضجيج الدائر، قام أحد الحراس بتشغيل شاشة المراقبة وبحث بين الغرف حتى عثر على الغرفة المنشودة.. وعندها شاهدنا المعمة التي حصلت.. كان أحد الرجال ضخام الجثة يركع أرضاً ويمسك بخناق رجل آخر.. كان يحيط رقبتة بذراعه القوية واضحة العضلات ويضغط عليها بقوة بحيث بدا وجه الرجل الآخر محتقناً وهو يجاهد لإفلات نفسه، وبقية السجناء يقفون متفرجين بهدوء دون رغبة بالتدخل، عدا عن أحدهم الذي كان يطرق باب الغرفة بقوة صارخاً طلباً للنجدة.. عندها قال الحارس عبر الشاشة "أنت أيها الوغد.. اترك ذلك الرجل ولا تضطرونا للتدخل"

قال الرجل بسخرية "بل أتمنى أن تفعلوا"

ثم أضاف بصرامة "افتحوا الأبواب كلها وإلا قتلت الرجل.. صدقتي لن أتوانى عن فعل ذلك.."

نظر الحارس لخالد بتساؤل، بينما وقف أدهم قائلاً "افتحوا لي الباب.. سألكم على وجهه ولن أطلقه حتى يفقد الوعي.. عندها سنيده بالسلاسل كما فعلوا بنا عند قدومنا حتى نصل لهدفنا ونرتاح منه"

أوقفه خالد بإشارة من يده، وقبل أن يعترض أدهم تقدم خالد من الشاشة قائلاً "اسمع يا هذا.. هل نسيت أنك لازلت تحمل السوار في يدك؟ يمكنني أن أديك بعض الشحنات الكهربائية التي ستفقدك الوعي أسبوعاً كاملاً، أو تتفضل بإراحتنا من هذه المسرحية التي تقوم بها.."

قال الرجل بسرعة "السوار لا يعمل.."

فقال خالد "تأكد بنفسك.. لديك مهلة خمس دقائق لتقرر مصيرك.."

وابتعد بصمت تاركاً الرجل ينظر للسوار في يده، ليفاجأ بشاشته مضيئة بنورها المعتاد.. ظل ينظر له بتردد طال.. لحسن حظنا أن أغلب السجناء قد تناسوا أمر السوار ولم يتخلصوا منه بعد تعطل جهاز التحكم به، والسفينة تحوي جهازاً محدوداً للتحكم به في نطاقها.. بينما غمغم أدهم "دعوني أتولى أمره ولن تندموا على ذلك" دام الصمت في غرفة السجناء وغرفة القيادة لدقائق طالت، قبل أن يتخلى الرجل عن ضحيته بصمت ويتراجع ماطاً شفتيه، عندها أغلق خالد شاشة الرصد معلقاً "سيظلون يحاولون إيجاد سبل للفرار ما استطاعوا..". لم أعلق وأنا أشعر أن التعليق يشملي مع البقية.. لكنني تنهدت وأنا أصرف بصري للنافذة العملاقة أمامنا.. وتمنيت ألا ينتهي هذا الأسبوع الأخير من حريتنا..

بعد مرور يوم، وبعد استقرار الأمور كلها في السفينة، خرجت من الغرفة التي اتخذتها لي واتجهت لغرفة بسممة المجاورة لي.. كنا قد اخترنا لأنفسنا بعض الغرف الخاصة بالإداريين والتي تقع في جانب بعيد عن غرف السجناء.. كنت أريد الاطمئنان عليها فقد حبست نفسها منذ البارحة بصمت تام.. طرقت الباب عدة مرات دون أن أحصل على استجابة.. وقبل أن يتفاقم قلقي، سمعت حديثاً دائراً في إحدى الغرف القريبة والتي كان بابها موارباً.. اقتربت بشيء من الفضول ودفعت الباب قليلاً لأجد أدهم يقف مواجهاً أمجد، وبسممة تجلس في جانب المكان بصمت.. ولما رأوني قال أدهم "ادخلي يا حمراء وأغلق الباب خلفك..". أطعته بصمت وتعجب، وجلست جوار بسممة التي حملت عيناها قلقاً صارخاً اعتدت وجوده في الآونة الأخيرة.. ولم يسعفني الوقت لسؤالهم عن سبب اجتماعهم بهذه الطريقة، إذ قال أمجد "اسمع يا أدهم.. أنت تعرف أن ما فعله عمي هو الصواب.. لا تنس أنني معكم في كل الأحوال وسيلحقني ما يلحقكم.. فلماذا تتهمني بأني متواطئ مع عمي لتسليمكم لمجلس الأمن؟"

قال أدهم مقطباً "أتريد إقناعي أن عمك سيرضى بتسليمك للمحاكمة من جديد مع خطر عودتك للسجن بحكم مشدد؟ أتوقع أن يستخدم نفوذه ووساطته لإعفائك وإخراجك من اليوم الأول.. بينما نغرق نحن في مستنقع المحاكم دون بارقة أمل"

قال أمجد بضيق "ليكن في علمك أن عمي لا يملك أي نفوذ من أي نوع.. هو شخص انعزالي جداً ولا يملك أي وساطة عند أي شخص ذو أهمية كبيرة.. وأنا سأخضع للمحاكمة كالبقية دون قيد أو شرط.. متى ستكف عن وسوساتك هذه؟"

قال أدهم بحدة "كل ما أطلبه هو مركبة فضائية صغيرة تنقلني مع حمراء وبسممة، إن وافقتا على الانضمام إليّ، قبل اقترابنا من الأرض.. أهدأ كثير؟"

بدا الاهتمام على ملامحي لهذا المطلب الذي قد يكون فيه حل لمشاكلنا جميعاً.. بينما قال أمجد "وإلى أين تنوي الذهاب؟ هل ستظل طوال ما تبقى من عمرك تخشى مجلس الأمن وتخشى ما يذكرك به؟"

قال أدهم بشيء من الجفاء "لا دخل لك بوجهتنا ولا أريد منك أن تقلق علينا.. كل ما أطلبه هو تسهيل هربنا قبل اقتراب أي مركبات فضائية تابعة لمجلس الأمن وقبل أن ترصدنا أقمارهم الصناعية.. أهدأ عسير؟"

نظر أمجد في وجوهنا واحداً تلو الآخر وكأنه يقيس ردة فعلنا المحتملة لما سيقوله، وقد كنت أعرفه تمام المعرفة، ثم قال "أرفض ذلك.. لا تجبرني على حبسك في غرفة مع السجناء الآخرين حتى نصل"

فوجدنا بأدهم يندفع نحو أمجد بخطوتين واسعتين فيقبض عليه من مجمع ثيابه ويلصقه بالجدار بقوة قاتلاً بحدة "أود رؤيتك تحاول.. أنت تهمني ولا أنسى ما مررنا به معاً.. لكن لا تجبرني على الإساءة لك بأي شكل كان.."

قال أمجد بتحدٍ "افعل ما يطلو لك.. لن تتمكن من الهرب مهما حاولت.. لا تجعل موقفك أكثر سوءاً مما هو عليه.. وصدقني لن يبخل علينا عمي بجهده لإثبات براءتنا.. فقط كن صبوراً.."

غمغمت بسمة بشيء من الذعر "لا تتشاجرا أرجوكما"

أما أنا فقد قطبت أنتظر ما سيسفر عنه جدالهما.. لو أتاحت لي فرصة الهرب، فهل أفعل؟ هل أمضي بقية عمري خائفة أترقب ما حولي بفزع شديد؟ أم أستسلم لراحة بالي في سجن ضيق إن لم يسوقوني للمشفة مع عدم قدرتي على إثبات براءتي؟.. حقاً لست أدري..

سمعت أدهم يقول من بين أنفاسه الغاضبة "اسمع.. لو أوقعنا عمك في ورطة كبيرة.. لو أصابنا ضرر من البقاء.. لو تم الحكم على بسمة بأنها مذنبية وأوقعوا عليها عقابهم أياً ما كان.. صدقني، لن تسلم من غضبي عندها.. ستندم على أنك قد اعترضت طريقنا في هذا اليوم"

نظرت لوجه أدهم الغاضب بشدة وأنا متأثرة من قوله.. إنه بهذا يفصح بوضوح أنه لا يزال مهتماً ببسمة، رغم كل الادعاءات التي أطلقها أمامي سابقاً.. مازال مهتماً بها ويخشى عليها أكثر من أيّنا وربما أكثر من نفسه..

التفت لبسمة لأرى رد فعلها، فرأيت بصرها معلقاً به بانفعالات متباينة، قبل أن تخفض بصرها وهي صامتة..

لم يعلق أمجد وهو يحدق في عيني أدهم مباشرة.. قبل أن يقول بثقة "عندها ستجديني في انتظارك دون مقاومة"

بدا أن رده قد أخرج غضب أدهم تماماً.. فقد أفلت أمجد وهو ينظر له بحيرة شديدة، قبل أن يضرب الجدار خلفه بقوة ليفرغ غضبه ثم غادر بصمت تام..

مضى هذا الأسبوع كأشد وأثقل ما يكون.. كان أطول أسبوع شهدته في حياتي، وربما كان ذلك بسبب فراغي من كل عمل أو بسبب دوامة الأفكار التي تستعمر عقلي ليل نهار.. لكن في اليوم الذي أعلن لنا فيه خالد بلوغنا حدود

الأرض، ورؤية القمر، أصابني توتر شديد أثار ألاماً في معدتي.. جلست في جانب المكان منثنية على نفسي أقاوم الألم وأحاول ألا أظهر شيئاً مما يعتمل في أعماقي على الملاء.. ولما عجزت عن ذلك وقفت لأغادر غرفة القيادة.. فسألنتي بسمة بقلق "إلى أين؟"

قلت لها "سأذهب للتجوال في أرجاء السفينة.. لا تقلقي.."

غمغمت "هل آتي معك؟"

دمدمت "بل أفضل البقاء وحيدة قليلاً.."

وتركتها بقلق أشد فخرجت من الغرفة وسرت في ممرات السفينة محاولة تناسي آلام معدتي المتزايدة.. حاولت إيجاد بصيص أمل في موقفنا، أو إقناع نفسي بوجوده، دون فائدة.. فزفرت بضيق وكآبة وأنا أضغط بيدي على بطني لتهدئة الألم.. بعد لحظات سمعت صوت خطوات خلفي، ثم شعرت بأمجد يمسك ذراعي برفق قائلاً بقلق "هل أنت بخير يا حمراء؟ ممّ تشنكين؟"

غمغمت "لاشيء.. مجرد توتر.."

فنظر لي برفق وهو يقول "أمازلت قلقة مما سيحدث لنا بعد وصولنا؟"

سألته "ألسّت كذلك؟"

أجابني بهدوء "بلى.. لكنني واثق أن هذه ليست النهاية.. لا يمكن أن تكمل جهودنا طوال تلك الأيام بالفشل.. ثم إنني أثق بعود عمي رغم أنه شخص مستفز.. إلا أنه لا يخلف وعداً أبداً.."

صمتُ وأنا أستند على جدار قريب مطرقة، فوقف أمجد قربي صامتاً للحظات، قبل أن تمتد يده كالعادة نحو خصلات شعري الخلفية تعبت بها دون أن أعترض مما أدهشني أنا نفسي.. وسمعته يهمس "حمراء.. ما زلت حائراً لا أعرف أي شيء مما أبغي معرفته منك.. ما زلت غامضة تصدين محاولاتي في كل مرة، رغم أنك تعلمين أنني أحبك"

نظرت له بدهشة لتكراره ذلك الاعتراف بكل بساطة، فانسعت ابتسامته وهو يقول "لو كنت تتعجبين من تكراري هذا القول دون ملل، فأجل، لا يهمني تكراره دائماً مادمت أملك أملاً في استجابتك له.. لكن.. ماذا عنك؟ هل ستجعليني بحيرتي طويلاً؟ لو كنت تكرهيني حقاً فلا تتركيني معلقاً بأمالٍ وهمية"

خفضت بصري بصمت للحظات، ثم غمغمت "أنت تعلم أنني لا أكرهك.."

غمغم "كنت كذلك عندما استعدت ذاكرتك"

نظرت له وقلت "لكني أيقنت بعدها من حبك لي وأنت لا يمكن أن تخدعني.. رأيتك تضحى بنفسك لأجلي، فلا يمكن أن أكرهك بعدها أبداً"

قال بتعجب "فقط؟"

عدت أخفض بصري من جديد وأهمس "الموقف الذي نحن فيه لا يجعل قلبي خالياً لأحب من أشاء.. لا يمكن أن

أجعلك تربط نفسك بي وأنا لا أدري أنجو من حبل المشنقة أم لا"
قال وهو يعتدل "من قال إنك مهددة بهذا فعلاً؟ لا يمكن أن أسمح بذلك أبداً"
قلت بمرارة "وهل تملك من أمرك أو أمري شيئاً؟"

أمسك يديّ الاثنتين وهمس "حمراء.. فقط طمئنيني.. أريحي عقلي وقلبي وصارحيني بمشاعرك مهما كانت..
وبعدها، ثقي أنني سأعمل ما بوسعي لأجلك.. لن أدخر وسعاً لإنقاذك ولألتقي بك من جديد.. فقط... لا تتركيني
بحيرتي.."

ساحت نظراتي في عينيه.. لو أنه يفهم.. لو أنه يقرأ دخيلتي دون الحاجة لكلمات.. لو أنه فقط.....
همس مقاطعاً أفكاري "لو أنك تخشين ضعفك معي.. لو أنك تخشين استسلامك لحبي.. لو أن أياً من المخاوف
التي دارت برأسك سابقاً لازالت تجعلك مترددة، فأخبريني بها لعلني أستطيع إزالة مخاوفك.. لكن لا تدعي شيئاً
صغيراً يبعدها ويفرق بيننا فيما قد نندم عليه فيما بعد"
غمغمت "كل مخاوفي السابقة تجاهك قد تبخرت فلا تقلق.. ما يشغل فكري الآن هو مصيرنا بعد إعادة
محاكمتنا.."

فغمغم "وأنا؟ ماذا أعني لك؟"

مرة أخرى يضطرنى لقول ما لا أريد قوله.. بعدما كنت أرددها على مسامعه ليل نهار بكل بساطة وهو غير
عابيء بها، الآن وأنا ألمح الاهتمام واللهفة في عينيه فإن غصة تسدّ حلقي وتمنعني من التفوه بأي شيء.. رغم
إدراكي أن أمجد الذي يقف أمامي يختلف تمام الاختلاف عن أمجد الذي كرهته سابقاً..
عاد يلح عليّ "وأنا يا حمراء؟"

قلت وأنا أشيح ببصري بعيداً "أنت مهم بالنسبة لي.. لطالما كنت مهماً منذ عرفتك.. رغم كل كلمات الكره التي
رميتها في وجهك، إلا أن قلبي لم يعترف بذلك الكره وظل يحبك"
وابتسمت بمرارة بجانب فمي مضيئة "حتى عندما فقدت ذاكرتي، فإن قلبي لم يُسكّ أبداً واختارك أنت من جديد..
لكن ما فائدة كل هذا الآن؟"

لم ألتفت لأرى وقع كلماتي عليه، لكنني وجدته يحيطني بذراعيه ويضمني ل صدره بقوة.. وهذه المرة استكنت له
دون أن أدفعه بعيداً كالسابق.. سمعته يقول بصوت لا يخلو من انفعال "لماذا اليأس الآن؟.. ثقي أن وضعنا هذا
مؤقت.. ثقي أننا سنلتقي.. لا بد سنلتقي وسننسى كل الذي مضى ونسعد بالقادم.."

تمالكت رجة شفتي والمرارة في حلقي بصمت دون أن أعلق، فأبعدني قليلاً وأضاف "لا تجعلي هذا اليأس
يغطي شخصيتك القوية ويظهرك بمظهر الضعيفة.."

فقلت بشيء من السخرية "هل ستكرهني لو كنت كذلك؟"

بدا العتاب في عينيه وهو يواجه عيني مما جعلني أخجل مما قلته وأخفض بصري، فقال "ما مضى لن يعود.. هل

سيظل ما فعلته محلّقاً فوق رأسي ما حبيت؟ مهما فعلت ومهما كنت، سأظل أحبك للأبد يا حمراء..”
رفعت بصري وسألته “هل لي أن أسألك سؤالاً؟”

قال بابتسامة “بالطبع، إن لم يكن في هذا السؤال أي شبهة اتهام..”
غمغمت وأنا أخفض بصري من جديد “ما الذي تغير على هذا الكويكب؟ أنت لم تكن تحبني في السابق.. كنت في الواقع تكرهني وتكره ضعفي.. فما الذي سبب تغير مشاعرك بهذا الشكل؟”
غمغم وهو يمسك يدي بقوة “أعلم أنك تستعربين ذلك، وأنت لا ترين في نفسك استحقاقاً لحب أحد.. لكني أحببت كل ما لم تريه في نفسك.. أحببتك منذ رأيتك تتخلين عن راحتك لأجل بسمة وتدافعين عنها.. أحببت اهتمامك بما يعانیه أدهم وغضبك لأجله..”

ثم أضاف وابتسامة ترتسم على شفثيه “فوق كل ذلك، أحببتك لما وجدتك لا تتوانين عن تلقي اللكمات دفاعاً عن شخص لا يعني لك شيئاً.. في الليلة التي أخذوك فيها إلى العزل، لم يقارني النوم وأنا متعجب من حالك.. كيف لفتاة أن تفعل هذا بنفسها لأجل غريب عنها؟ كان يمكنك أن تتجاهلي الأمر برمته.. أو تقومي بتحذيري على الأقل.. لكن أن تقفي في مواجهة رجال يخساهم البقية، بل وتتوعدنيهم بكلمات تفوقك حجماً.. لا أدري، بدوت كشخص آخر ذلك اليوم.. شعرت أن حبك قد تسلل إليّ وأنا أرى وجهك بالكدمة فيه والدماء تسيل من جانب فكك..”

تزايد تعجبي من قوله، فأضاف بهمس “قد تقولين إنني إنسان غير طبيعي.. لكني لست أكثر الأشياء غرابية في هذا المكان.. وأنت أكثر ما أثار تعجبي واستغرابي هنا.. بل وإعجابي أيضاً”

منحته ابتسامة مضطربة وأنا أشعر بثقل أزاحته كلماته من على صدري، فابتسم بصمت وهو يضغط على يدي.. لكن الطريق أمام عيني لم يغدُ أكثر إشراقاً وبهجة.. فرغم نجاتنا من كل ما واجهناه، إلا أن ما ينتظرنا من تحقيقات مكثفة واستجوابات قد يطول لأمد غير معلوم، بالإضافة إلى أن نتائجها مجهولة بالنسبة لنا.. هل سنحظى بحريتنا؟ هل سنُتهم بتخريب الكويكب؟ هل سنُتهم بمحاولة الهرب من السجن رغم براءتنا؟.. تنهدت والقلق يغمرني.. بالنسبة لي فتهمتي السابقة ثابتة عليّ ولا يمكنني إثبات براءتي مهما فعلت.. فهل سيحكمون عليّ بالإعدام مرة أخرى؟..

أن أترك مصيري بيد الآخرين هو أكثر ما يخيفني.. ألا أملك من أمر نفسي شيئاً يقلقني.. ولا أدري عما سيسفر عنه هذا المجهول..

لم يكن هبوطنا على القمر صعباً فالتحكم الآلي قد تولى كل شيء بعد أن زوده روي بموقع الهبوط بالتحديد..

رأينا القبة الضخمة التي تحوي إحدى مدن القمر ماثلة أمامنا بمبانيها الشاهقة ومساحات خضراء موزعة بتناسق بين أحيائها.. ولها عدة مداخل ومخارج عبارة عن مهبط للسفن متصل به أنبوب زجاجي متوسط الطول يلتحم بالسفينة ليسمح لراكبيها النزول في القبة مباشرة دون تسرب للهواء أو الحاجة لارتداء أي لباس خاص.. بدأ التوتر يعلو في الصدور والقلق يتبدى في العيون بشكل ظاهر، خاصة مع مرأى بعض السفن الفضائية الصغيرة التابعة لمجلس الأمن تطلع من القبة لتقترب من سفينتنا وتحيط بنا إحاطة تامة وكأنها تتأكد أن أحداً منا لن يحاول الهرب.. لكننا جميعاً، في غرفة القيادة، التزمنا الصمت التام دون اعتراض أو شكوى.. يكفي الأيام التي مضت والتي امتصت كل شكاوينا وثوراتنا..

هبطت السفينة على المهبط الخاص والمهيأ لها، والتحمت بالممر الزجاجي الذي التصق ببابها المغلق.. عندها ظللنا صمت تام في غرفة القيادة دون أن يجرؤ أحدنا على قول حرف أو الإتيان بحركة، حتى نهض خالد فجأة ونظر لنا جميعاً نظرة هادئة وإن تبدى فيها الاهتمام.. ثم قال لنا بدون انفعال “إذن.. وصلنا أخيراً.. أحب أن أحييكم على تعاونكم معي وشجاعتكم في مواجهة أنفسكم بالأساس.. وثقوا أنني لن أذخر وسعاً في إثبات براءة البريء منكم”

غمغم روي بعد لحظة صمت “ومن لم يكن بريئاً؟”

قال خالد بابتسامة “هيا يا روي.. ما فعلته في سنك لا يعد جريمة حقاً إنما طيشاً، الذنب ذنبهم لأنهم يستخدمون استحكامات أمنية ضعيفة لمواقع معلوماتهم المهمة.. لا تخف، فمع كل المساعدة التي بذلتها هنا، ومع تسليمك لنفسك دون محاولة الهرب، فإني واثق أنك لن تفتقد حريتك طويلاً”

لم يعلق أي شخص آخر بكلمة وخالد يتحرك تجاه المخرج ماراً بأمجده.. فربت على كتفه بقوة وقال “لا تقلق..” لم يقل أمجد كلمة وإنما منحه ابتسامة هادئة.. فخرج خالد والحراس يتبعونه بصمت.. اقترب وليد منا وربت بدوره على كتف أمجد قائلاً “أتمنى ألا يطول بقاؤك في السجن يا أمجد.. وأرجو ألا أرى النظرات الحاقدة هذه في عينيك مرة أخرى”

اتسعت ابتسامة أمجد بينما نظرتُ لهما بعدم فهم.. فالتفت وليد نحوي وقال “أتمنى أن أراك مرة أخرى في يوم ما يا حمراء.. وشكراً على كل شيء”

غمغمت “ما قدمته أنت لي يفوق ما فعلته لك”

قال بابتسامة “لو لم تنقذي حياتي، لما استطعت تقديم شيء لكم.. أنا واثق أنكم ستحصلون على براءتكم فلا تقلقي”

لم أعلق بكلمة.. هل حقاً يمكنني أن أرجو ذلك؟.. خرج وليد خلف بقية الحراس ولم يبق إلا السجناء في الغرفة.. تبادلنا نظرات القلق والتوجس، ثم بدأ أدهم سيره نحو المخرج، ولم تلبث بسمة أن تبعته بخطوات مترددة.. وتتابع الآخرون خارجين والصمت يحوطهم كسحابة سوداء.. خطوط خطوتين خلفهم وقلبي واجف، وأنا أشعر أن

قدماي تقودانني نحو سجن جديد، لكني وجدت أمجد يجذبني من يدي يستبقيني، ولما خلت الغرفة من الجميع التفت إليه متسائلة "ما الأمر؟ ألن نتبعهم؟"

لم يجب أمجد وهو يحيطني بذراعيه ويضمني بقوة كبيرة.. استنكنت له بصمت رغم غرابة تصرفه.. وشعرت بغصة تكاد تسد حلقي.. منذ هذه اللحظة، سنفترق ولا أعلم متى سأراه مرة أخرى.. هل سأبقى على قيد الحياة لأراه من جديد؟ هل سيمنحوني حريتي لأجتمع بمن أحب وأقضي بقية عمري بعيداً عن كل ما يذكرني بذلك الكويكب البائس؟.. لست أدري..

بعد لحظة صمت غرقتُ فيها في أفكاري، سمعت أمجد يقول بصوت خافت "حمراء.. كوني على ثقة بأننا سنلتقي يوماً ما.. قد نفترق الآن.. وقد يطول فراقنا حتى يزول كل الالتباس المحيط بنا والاتهامات الظالمة التي لقت لنا.. لكن ثقي بأننا لا بد سنلتقي.."

غمغمت بصوت مرتجف "يبدو أنك سمعت كل التساؤلات التي دارت في أعماقي منذ قليل.."

نظر لوجهي وقال "بالطبع سمعتها.. أخبرتك أن كل ما يخصك يهمني وبشدة.. وأستطيع قراءة ما يدور في ذهنك بمجرد النظر في عينيك.."

خضت بصري وكأني لا أتمنى أن يقرأ ضعفي في عيني.. ألا يرى خوفي ورعبي من الفراق، ومن المستقبل المجهول.. لكنه رفع وجهي وقال محاولاً طمأنتي "ثقي أنني لن أنساك أبداً.. ستظلين معي مهما طال ابتعادنا.. وستظلين محتلة فكري مادمت حياً.. انتظريني.. فسأتي إليك أينما كنت فور خروجي.."

همست بصوت متهدج "هذا إن كنت على قيد الحياة.."

قال بحزم "ستكونين كذلك.. لقد وعدني عمي بأنه سيوكل أكفاً المحامين لإثبات براءتنا نحن الأربعة.. ولا أشك أنه سينجح في ذلك.. كوني على ثقة بأننا سنخرج، وبأننا سنلتقي.. حتماً سنلتقي يا حمراء"

انسابت دموعي بصمت وقد عجزت عن السيطرة عليها، فمسحتها بأصابعه وهو يقول بضيق "لا تجعليني أراك باكية قبل رحيلنا.. لا أريد أن أتذكرك إلا باسمه واثقة كما عرفتك دائماً.."

قلت بصوت متهدج "هذا أقوى من قدرتي يا أمجد.."

قاطعنا صوت صارم يقول بلغة نايبو "ما الذي أحركما عن الرحيل مع البقية؟"

التفتنا لنرى جندياً يشير لنا بسلاحه، وأظنه جاء ليتفحص أرجاء السفينة بحثاً عن تأخر من السجناء فيها.. فغادرنا بصمت وأمجد يمسك يدي بيده.. تجاوزنا ممرات السفينة دون أن يتركها، والتقينا بالبقية قرب البوابة دون أن يتركها، وغادرنا السفينة معاً مواجهين الجموع التي أنت لتري الناجين من الكويكب دون أن يتركها أيضاً..

ثم اجتمعنا مع راكبي السفينة جميعهم في الساحة الواسعة للمهابط في سجن القمر، والجنود بأسلحتهم المتطورة يحيطون بنا من كل جانب خشية أن نثور أو نحاول الهرب من مصيرنا المحتوم.. وهناك، قاموا بدفعنا لركوب

الحافلات كبيرة الحجم التي سنتقلنا للسجن الذي سيضمننا في قلبه حتى يتم الحكم علينا.. عندها قاموا بفصلنا حيث ركب الرجال في حافلات خاصة بسجن الرجال، ونحن قادونا للحافلات التي ستأخذنا لسجن النساء الذي يقع في منطقة أخرى من القبة السكنية..

عندها، ضغطت أمد على يدي بقوة قبل أن يتركها وكأنه يحاول بث الثقة في نفسي لأمد أطول.. وارتسمت ابتسامة على شفثيه قبل أن يهمس لي “سنتقي..”

ابتسمت له بدوري وأنا أحاول منع دموعي من الانحدار من جديد.. وظلت عيناى معلقتان به حتى ابتعد وغاب بين الجموع.. وقبل أن أستدير رأيت أدهم الذي كان قريباً يقول “إذن.. حتى نلتقي يا حمراء..”
ابتسمت بمرارة وغمغمت “إن كنا سنفعل..”
قال بتأكيد “سنفعل..”

تردد قليلاً، قبل أن يقول “حمراء.. هل يكون سخفاً مني أن أطلب منك الاهتمام ببسمة؟”

قلت بابتسامة “بالطبع هذا طلب سخيف.. أنا سأحميها ما استطعت بدون أن تفعل ذلك”
نظر لي بامتنان شديد، ثم أضاف فجأة باهتمام “عندما نلتقي.. أعتقد أني يمكنني مناداتك بحمراء؟ أم أنك تريدين استخدام اسمك الأصلي؟”

ضحكت والدموع تلتصق في عيني، ثم قلت مبتسمة “سأظل دائماً حمراء..”

ابتسم بدوره ولوح لي بيده، فلوحت له بيدي بدوري وأنا أعجز عن السيطرة على دموعي أكثر من ذلك.. فراق أمد كان صعباً، ولم يكن فراق أدهم بأقل صعوبة.. فقد أحببت حقاً ذاك الرجل بطيبته وصفاء نيته وضحكته العالية..

أدرت وجهي لأخفي دموعي، عندما رأيت بسمة تندفع من خلفي متجهة لأدهم وهي تناديه بصوت خافت.. فاستدار وعلى وجهه ملامح دهشة شديدة لم تكن بأقل مما في.. لكنني استدرت واتجهت مع البقية إلى الحافلة الخاصة بنا تاركة لها حرية الحديث معه، ولو للحظات معدودة قبل الرحيل..

لكن بسمة خفضت بصرها وهي تعض شفثها السفلى بصمت طال، فقال أدهم ليكسر الصمت “ستكونين بخير يا بسمة.. كوني واثقة من هذا..”

رفعت وجهها إليه ودموعها تتحدر على خديها، لكن كانت عيناها تحملان عزمًا لم ير مثله من قبل وهي تقول بصوت فيه رجفة خفيفة “أتمنى ذلك.. على الأقل حتى لا تضيق جهودك في حمايتي سدى..”
ابتسم أدهم بابتسامة صغيرة، فخفضت رأسها وهي تضيف “وأنت أيضاً.. ستكون بخير.. لا بد أن تكون بخير.. لا بد أن أراك عند خروجي..”

ورفعت وجهها لترى ملامح التعجب على وجهه وهي تضيف “سأراك.. أليس كذلك؟”

اتسعت ابتسامة أدهم وهو يقول بلهجة حانية “سأراك.. هذا وعد..”

مدت يداً مرتجفة إليه، فصافحها برفق وهو يخشى إيلاهما لو زاد ضغطه على يدها.. ولما سمعا صوت الجنود من حولهما وقد كادت الساحة تخلو من السجناء، سحبت يدها بسرعة واستدارت راكضة نحو الحافلة التي ستقلنا وهو يشيعها ببصره.. ثم تنهد وهو متعجب من أمرها، وإن كانت كلماتها القليلة قد منحته أملاً قد وطّن نفسه على عدم انتظاره.. فاستدار بدوره ليركب حافلته وابتسامة متسعة ترتسم على شفثيه..

وفي حافلتنا، وجدت بسمة تلحقني بعد قليل وابتسمت لي رغم الدموع التي تغرق عينيها ووجهها.. لكن ملامحها لم تحمل أي ذعر وخوف كما توقعت منها، بل بدت كمن تخلص من همّ كبير كان يستعمر صدرها.. جلست قربي بصمت وأنا أنظر من النافذة بحثاً عن لمحة أخيرة أتمنى رؤيتها ممن فارقتهم.. لكن تعذر ذلك والزحام بين السجناء يجعل الأمر عليّ عسيراً.. ثم بدأت حافلتنا تتحرك لنغادر تلك البقعة متجهين للمجهول بخطوات سريعة.. تنهدت وأنا أتأمل من النافذة الشوارع الفسيحة المنظمة والمباني المرتبة النظيفة التي تميّز قبب القمر السكنية.. تأملت الوجوه الباسمة السعيدة، والتي لا تعلم بشيء مما قاسيناه طوال تلك الشهور في الكويكب العاشر.. ورغمما عني حسدتهم على تلك الابتسامة التي لا أجرؤ على رسمها على شفثي..

ليس قبل أن أنجو من هذا المصير..

..

ليس قبل أن أجتمع برفاقي من جديد..

...

ليس قبل أن ألتقي بمن أحبّه قلبي من جديد..

....

وليس قبل أن أنسى الشقاء الذي مضى..

.....

والعذاب الذي أتمنى أن ينتهي..

.....

[النهاية]